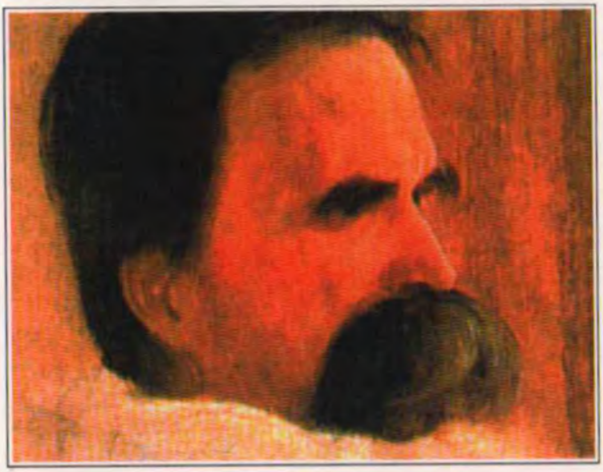
فريدريش نيتشه

إنسانيٌّ مفرط في إنسانيته

كتاب للمفكرين الأحرار

الكتاب الثاني



ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

فريدريش نيتشه

إنسانيٌّ مفرط في إنسانيته

كتاب للمفكرين الأحرار

الكتاب الثاني

ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

ولد **علي مصباح** عام ١٩٥٣ بتونس. روائي ومترجم تونسي يقيم ببرلين. صدر له عن منشورات الجمل: **بيتر سلوتردايك: «الإنجيل» الخامس لنيتشه** (ترجمة) ٢٠٠٣؛ **فريدريش نيتشه: هذا هو الإنسان** (ترجمة) ٢٠٠٣؛ **فريدريش نيتشه: هكذا تكلم زرادشت** (ترجمة) ٢٠٠٧؛ **فريدريش نيتشه: غسق الأوثان** (ترجمة) ٢٠١٠؛ **فريدريش نيتشه: نقيض المسيح** (ترجمة) ٢٠١١؛ **حارة السّفهاء** (رواية) ٢٠١٣.

فريدريش نيتشه: **إنسانيٌّ مفرط في إنسانيته**، الكتاب الثاني، الطبعة الأولى
ترجمة: علي مصباح

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Friedrich Nietzsche: *MENSCHLICHES, ALLZUMENSCHLICHES*
Ein Buch für freie Geister
Zweiter Band, 1878

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الكتاب الثاني

توطئة

1

على المرء أن لا يتكلم إلا حيث لا يحق له أن يسكت؛ وأن لا يتكلم إلا عن الأشياء التي يكون *قد تغلّب عليها*. وكل ما عدا ذلك سيكون ثرثرة، «أدباً»، وقِلّة انضباط. كتاباتي لا تتكلم *إلا* عن انتصاراتي: «أنا» الذي أوجَد داخلها، مع كل ما كان عدواً لي، ego ipsissimus أنا شخصياً، وإذا ما سمحتم لي بهذا التعبير الأكثر مفاخرة، ego ipsissi*mum*. من السهل على المرء أن يخمّن أن هناك أشياء كثيرة غدت -*تقع تحتي*... لكن كان يلزمني الوقت والمعافاة والانفصال والمسافة، كي تستيقظ في داخلي الرغبة في أن أكشف وأطرح للنور و«أعرض» شيئاً قد عشته وتجاوزته، حدثاً ما factum أو fatu قدراً شخصياً، وأن أستغله لخدمة المعرفة. وبهذا المعنى فإن مجمل كتاباتي -عدا استثناءً واحداً، وإن كان استثناء مهمّاً- يمكن أن ***يؤرّخ لها بتاريخ سابق*** على كتابتها- إنما تتكلم كلها عن شيء «أصبح ورائي»- ؛ بل إن بعضها، مثل الفصول الثلاثة الأولى من «المعاينات غير المعاصرة»(١) يعود إلى زمن ما قبل نشأة وصدور كتاب آخر سابق عليها («مولد التراجيديا»، وهو ما لا يمكن، في هذه الحالة بالذات، أن يخفى عن معايِن ومقارِن دقيق الملاحظة). ذلك الانفجار الحانق ضد النزعة

التوتونية(*) والطمأنينة الثقيلة والرثاثة اللغوية لدافيد شتراوس[٢] الموغل في الشيخوخة، وكذلك محتوى تلك الفصول الأولى من المعاينات قد خففت كلها من وطأة الأجواء التي كانت تحبسني فيها الثقافة والفِريزيّة الثقافية[٣] الألمانيتين، عندما كنت طالباً (وإنني أنسب لنفسي عبارة «المثقف الفِرّيزيّ»- ''Bildungsphilister''- التي كثر استعمالها وسوءُ استعمالها في وقتنا الحاضر)؛ وما قلته عن «المرض التاريخي» قلته كشخص كان عليه أن يتعلم البرء منه ببطء وعناء، دون أن تكون له البتّة نيّة في التخلّي مستقبلاً عن «علم التاريخ»، لا لشيء إلا لأنه عانى منه في وقت ما. وعندما عبّرت في «المعاينة الثالثة» عن الاحترام الذي أكنّه لمعلّمي الأول والوحيد، آرثر شوبنهاور العظيم -وهو ما يمكنني أن أعبّر عنه الآن بأكثر قوة وبطابع أكثر شخصيّة- كنت حينها في أوج تفكيري الريبي والتفكيكي للأخلاق، أي ***منشغلاً في الآن نفسه بالنقد وبتعميق كل ما كان لديّ من تشاؤم حتى ذلك الحين***، وقد أصبحت عندها غير مؤمن بـ«أي شيء»، كما تقول العامة، ولا حتى بشوبنهاور: في تلك الفترة بالذات نشأ لديّ مؤلف تركته طيّ الكتمان «عن الحقيقة والكذب خارج المفهوم الأخلاقي». وحتى ذلك النص المدائحي الاحتفالي الذي خصّصته لتكريم ريتشارد فاغنر بمناسبة انتصاره البايرويتي سنة ١٨٧٦-ذلك أن بايرويت تمثل أعظم انتصار مما لم يتحقّق لفنّان من قبل-، وهو عمل يحمل في ظاهره طابع «الحدث الراهن» بصفة واضحة ومؤكدة، كان في حقيقته الخفيّة تكريماً وتعبيراً عن اعتراف بالجميل لحقبة من ماضيَّ الخاص، ولأجمل وأخطر فترة من الهدوء التي عرفتها رحلتي البحرية... وقد كان في الواقع انفصالاً

(*) نسبة إلى التوتونيين أي سكان جرمانيا الشمالية، وتعني هنا النزعة الهوياتية الألمانوية.

ولحظة وداع (ترى هل خفي هذا الأمر عن ريتشارد فاغنر؟ لا أعتقد ذلك. فالمرء طالما يظلّ محبّاً لن يكون بإمكانه بكل تأكيد أن يرسم مثل تلك اللوحة، إذ سيكون بعيداً عن بلوغ طور «المُعاينة»، ولا يتخذ مسافة تفصله عن موضوعه كما ينبغي على المُعاين أن يفعل. «تقتضي المعاينة وجود ضدّية غامضة، ضدّية التراشق بالنظرات»؛ كما جاء في الصفحة ٤٦ من النص المذكور نفسه، في إيماءة فاضحة وحزينة لا تلتقطها سوى قلة قليلة من الآذان). لم يتحقق لي ذلك الهدوء الضروري كي *أستطيع* الكلام عن تلك الوحدة العميقة وذلك الحرمان اللذين عرفتهما خلال كل سنوات الفترة الانتقالية الطويلة إلا مع كتاب «إنسانيّ مُفرط في إنسانيّته» الذي أخصّه بهذه المقدّمة الثانية التقريظية. وككتاب «للمفكرين الأحرار» كان يخيّم عليه شيء من برودة فضول الخبير البسيكولوجي الذي ترك وراءه، وتحته، كمّاً من الأشياء المؤلمة التي يتوقّف عندها الآن بصفة بَعدية ويُحكم *تثبيتها* بحد الدبّوس؛ -أية غرابة إذاً أن يرى الخبير البسيكولوجي بين الحين والآخر، وهو يمارس مثل هذا العمل الدقيق الشائك، قطرات من الدم فوق أصابعه-وأحياناً ليس فوق أصابعه فقط؟

2

نُشرت «الآراء والمقولات الحكمية» المتمازجة، مثلها مثل «الجوّال وظلّه» منفصلة في البداية كتتمّة وملاحق لمؤلّف *إنسانيّ مُفرط في إنسانيّته*- «كتاب للمفكّرين الأحرار» المذكور آنفاً: وفي الوقت نفسه كتتمّة ومُضاعفة لعملية علاج ذهني، أي كمعالجة ذاتية من داء الرومنطيقية، على النحو الذي ابتكرتُه ووصفتُه لي غريزتي التي ظلت معافاة خلال تلك الفترة من إصابتي بأخطر نوع من الرومنطيقية. والآن، وبعد مرور ست سنوات من المُعافاة، سأقدّم هذين النصّين

مجتمعين كمجلّد ثانٍ من كتاب «إنسانيّ مُفرط في إنسانيّته»: ربما سيكون بإمكانهما، منظوراً إليهما في ارتباطهما، أن يقدّما تعاليمهما على نحو أقوى وأوضح؛ تعاليم صحّية يمكن أن يُوصى بها كـ disciplina volontatis(*) -مادّة لتربية الإرادة- للطبائع العقلية من الجيل الجديد الذي بصدد الظهور حالياً.

ذلك الذي يتكلّم من خلالها شخص متشائم كثيراً ما خرج من جلدته، لكنه يعود إليها مجدداً، أي متشائم بنيّة صادقة في (*السعي إلى*) التشاؤم في النهاية، وبالتالي فهو شخص قد كف عن كونه رومنطيقيا على أية حال: ماذا! ألا يحقّ إذاً لعقل متملّك لفطنة الحيّة، التي تجعلها تغيّر جِلدَها باستمرار، أن يعطي درساً لمتشائمي وقتنا الحاضر الذين ما زالوا جميعهم عُرضة لخطر الرومنطيقية؟ وأن يريهم على الأقلّ كيف ينبغي على المرء أن يفعل ذلك؟...

3

كان الوقت قد حان فعلاً *للانفصال* والوداع؛ ولم يطل انتظاري على أية حال حتى جاءني الدليل على ذلك. هاهو ريتشارد فاغنر أكبر المنتصرين في الظاهر، وهو في الحقيقة رومنطيقي يائس في طور الانحلال، يخرّ فجأة عاجزاً ومنهاراً أمام الصليب المسيحي... ألم يكن لأيّ ألماني عندها من عين لرؤية ذلك المشهد الدرامي الشنيع، وأن يحسّ بالشفقة عليه بسبب ذلك؟ أتراني كنت الوحيد الذي تألمّ بسببه؟ وعلى أية حال، فقد ومض لي شخصياً ذلك الحدث غير المنتظر بما يشبه التماعة برقٍ أنارت لي حقيقة المكان الذي كنت قد غادرته،- وذلك الذعر أيضاً، الذي يلمّ بَعدياً بكل من يكون قد مرّ في

(*) عبارة لاتينية تعني: مدرسة الإرادة.

غفلة من وعيه عبر خطر مريع. كنت أرتعد وأنا أمضي في طريقي وحيداً من بعدها؛ ولم يمض وقت طويل، وإذا أنا مريض، بل أكثر من مريض، متعب بسبب الإحباط الساحق وخيبة الأمل في كل شيء مما تبقّى لنا نحن الحديثين من دواعي الحماس، وبسبب كل تلك الطاقة، وكل ذلك العمل والأمل والشباب والمحبة التي يتم تبديدها هدراً في كل مكان؛ متعب من جرّاء القرف من تلك الأنثوية وذلك الاندفاع الحماسي المنفلت للرومنطيقية، ومن كل تلك الأكاذيب المثالية وميوعة الضمير التي أطاحت مرة أخرى هنا بواحد من أعتد الرجال؛ متعب أخيراً بسبب الحزن -وليس ذلك من أدنى الأسباب- لما كان يخالجني من تخوّف فظيع من أن أصبح محكوماً عليّ بعد هذه الخيبة بأن أغدو أكثر ريبة وأكثر احتقاراً، وأعمق وحدة من أي وقت مضى. ومهمّتي؟ أين توارت؟ وكيف؟ ألا يبدو الآن وكأنّ مهمتي قد انسحبت عني، كما لو أنه لم يعد لي الآن من حق في الطمع فيها لمدة ستطول من الزمن؟ مالذي ينبغي عليّ عمله كي أستطيع أن أتحمّل هذا الحرمان الذي لا يعادله حرمان؟

أول ما بدأت به هو أن حرّمت على نفسي على نحو مبدئي وقطعي كل موسيقى رومنطيقية؛ ذلك الفن المبهم، المجعجع، الخانق، الذي يجرّد العقل من كل صرامته ومرحه، وينمّي كلَّ أنواع الأشواق الغامضة والرغبات المشبوهة.

"*Cave musicam*" -احذر الموسيقى-، تلك هي نصيحتي اليوم أيضا لكل مَن هم على قدر كافٍ من الفحولة كي يظلوا متمسكين بالنقاوة في كل ما يتعلق بالمسائل العقلية؛ لأن هذا النوع من الموسيقى يرهق الأعصاب، يليّن، يؤنّث، و«الأنثى الخالدة» فيه تسحبنا -إلى الأسفل!... لقد اتجهت ريبتي وحذري أول ما اتجهت آنذاك إلى الموسيقى الرومنطيقية؛ وإن تبقّى لي من أمل ما في الموسيقى فقد كان

ذلك في أمنيتي أن يظهر في يوم ما موسيقيّ جسور، مرهف، شرير، متوقّد وذو قدر كاف من فائض العافية كي يستطيع أن ينتقم لنا من هذه الموسيقى انتقاماً تاريخياً خالداً.

4

الآن وقد غدوت وحيداً، ومرتاباً أشدّ الرّيبة تجاه نفسي، اتخذت، ليس دون غضب، موقفاً ضدّ نفسي *ولصالح* كل ما كان يؤلمني وله وقع قاسٍ عليّ: هكذا وجدت طريقي مجدّداً إلى ذلك التشاؤم الشجاع، الذي هو نقيض لكل كذب ورياء رومنطيقي، والذي كان، كما يتراءى لي اليوم، الطريق إلى «نفسي» أيضا وإلى مهمتي. ذلك الشيء غير المحدّد الخفيّ والمسيطِر، الذي نظلّ لا نعرف له اسماً حتى يتبيّن لنا في النهاية أنه *مهمّتنا*؛ ذلك الطاغية الذي يسكننا سينتقم لنفسه عن كل محاولة منا للزيغ عنه أو الإفلات منه، عن كل إقرار بالتواضع سابق لأوانه، عن كل مساواة لأنفسنا بأولئك الذين لا يجمعنا بهم شيء، وكذلك عن أي عمل، أياً كانت رفعة منزلته، إن كان سيحيد بنا عن قضيتنا الأساسية، بل وعن كل فضيلة تريد أن تحمينا من قسوة مسؤوليتنا الشخصية. يكون المرض دوماً هو الجواب كلّما راودتنا فيها رغبة الشك في حقنا وفي مسؤوليتنا؛ عندما نشرع في موضع ما في تسهيل الأمر على أنفسنا على هذا النحو أو ذاك. شيء غريب وفظيع في الآن نفسه! إنها تساهلاتنا، تلك هي التي سيكون علينا أن نكفّر عنها بأشدّ ما يكون من القسوة! وإذا ما كنّا نرغب في العودة بعدها إلى حال العافية فلن يكون أمامنا من خيار سوى أن نحمّل أنفسنا بأثقل الأعباء، كما لم نحمّلها من قبل قطّ.

5

عندها فقط تعلّمت ذلك الضرب من كلام النسّاك الذي لا يُتقنه إلا أكثر الناس صمتاً وأشدّهم معاناة: كنت أتكلّم دون شهود، بل بلامبالاة بالشهود، كي لا أتألّم في الصمت، أتكلّم في أشياء كثيرة لم تكن تهمّني، لكن بطريقة (تبدو معها) كما لو أنها كانت تهمّني. تعلّمت آنذاك كيف أُظهر نفسي مرحاً، موضوعياً، مسكوناً بحب الاطلاع، وفي المقام الأول كيف أبدو معافى وشريراً، -وكان ذلك، في ما يبدو لي، هو ما «يستطيبه» «الذوق السليم» لدى شخص مريض! ولن يخفى عن عين ثاقبة وحساسيةٍ مرهفة، وهو ما يضفي سحراً على هذا المؤلَّف، أنّ مريضاً ومحروماً يتكلّم هنا كما لو أنه *لم* يكن مريضاً ومحروماً. كان لابد من الحفاظ على التوازن والهدوء وعلى الاعتراف بالجميل للحياة. هنا تسود إرادة صارمة، أنوفة، دائمة اليقظة، دائمة الإفراط في الحساسية قد وضعت لنفسها مهمة الدفاع عن الحياة ضدّ الألم، واستئصال كل الاستنتاجات التي تنشأ عن الألم والإحباط والقرف والعزلة ومستنقعات أخرى، كما ينبت الفطر السامّ. ولربما يجد متشائمونا في هذا بالذات دليلاً يساعدهم على إجراء اختبارهم الخاص على أنفسهم؟ -ذلك أن الأمر كان على هذا النحو في ما مضى، عندما وضعت لنفسي هذا القانون: «لا حقَّ للمتألّم في التشاؤم!»، وكنت آنذاك أخوض حرباً طويلة صبورة ضد النزوع غير العلمي لكل تشاؤم رومنطيقي إلى تحويل كل تجربة شخصية جزئية إلى حُكم عام، بل وتفخيمها ليستمدّ منها ويؤسّس عليها أحكاماً تدين العالم... وباختصار، حوّلت نظري آنذاك بما *يقلب* رؤية الأشياء كلّياً. التفاؤل من أجل استعادة العافية، ولكي يصبح في وقت ما بعدها للمعافى *الحق* في التشاؤم من جديد -هل تفهمون هذا؟ تماماً كما يفعل الطبيب وهو يضع المريض في محيط غريب عنه كلّياً، كي يفصله عن

كل ما كان يكوّن عالم «قبل الآن» بالنسبة له: مشاغله، أصدقائه، رسائله، واجباته، حماقاته وعذابات ذاكرته، كي يتعلم أن يمد يده ويتّجه بأحاسيسه نحو نوع جديد من الغذاء، نحو شمس جديدة ومستقبل جديد؛ هكذا أكرهت نفسي، كطبيب ومريض في شخص واحد، على *مناخ روحي* مناقض وغير مختبَر من قبل، وبالتحديد على تجوال منفصل في الغربة، في *ما* هو غريب، وعلى الفضول تجاه كل غريب. . . تجوال طويل، وبحث وتغيير تلا ذلك، ونفور من كل استقرار ومن كل إثبات ونفي متهوريْن؛ وفي الآن نفسه حِمية وتربية كان مبتغاها أن تمكن العقل من أقصى ما يمكن من الخفّة كي يستطيع المضيّ بعيداً والطيران عالياً، وأن يظلّ خاصة على استعداد دائم للطيران مجدداً. وفي الواقع، مستوى أدنى من الحياة، وتحرّر من كل الأطماع الرخيصة، واستقلالية داخل كل أنواع المعيقات الخارجية، مع *نخوة القدرة* على العيش في ظل تلك المعيقات؛ ربما شيء من الكلَبيّة، شيء من خصلة «البرميل»(*)، لكن، وبكل تأكيد، الكثير من سعادة الصرّار، والكثير من حيوية الصرار، كثير من السكون، من النور، من الحمق المرهف والحماس الخفيّ -كل ذلك قد أفضى بالنهاية إلى متانة عقلية كبيرة وإلى متعة متزايدة وزخم عافية. إنها الحياة نفسها *تكافئنا* على إرادة الحياة العنيدة التي تحدونا، وعلى تلك الحرب الطويلة، كتلك التي خضتها مع نفسي آنذاك ضد التشاؤم وفتور الرغبة في الحياة؛ إنها تكافئنا حتى على كل نظرة تعطّف اعترافاً منا بالجميل، نظرة لا تهمل أصغر هدية هشة عابرة تمنحنا إياها الحياة. ومكافأةً على كل ذلك نحصل في النهاية على هديتها الكبرى، ربما أكبر ما يمكنها أن تهب: *مهمّتنا* التي تعاد إلينا من جديد.

(*) إشارة إلى برميل ديوجينس، رمز العزلة والتوحّد داخل حدّ أقصى من التبتّل.

6

ترى هل كانت تجربة حياتي- قصة مرض وشفاء من مرض، ذلك أن الأمر يتعلّق بمسألة معافاة بالنهاية- تجربة شخصية فقط؟ وأنها لاتتعدى مسألةَ «إنسانيّ مُفرط في إنسانيّته» خاصة بي أنا وحدي؟ إنني أميل اليوم إلى الاعتقاد بعكس ذلك: هناك قناعة ما انفكّت تعاودني بأنّ مؤلّفات أسفاري لم تُكتب في النهاية لي أنا وحدي كما كان يبدو في بعض الأحيان. فهل سيحقّ لي الآن، وبعد ست سنوات من هذه الثقة المتنامية، أن أدفع بها على طريق المغامرة من أجل محاولة جديدة؟ هل يمكنني أن أنصح بها بإلحاح بصفة خاصة إلى أولئك الذين يحملون وزرَ «ماضٍ» ما، وما يزال لديهم ما يكفي من عقل كي يستطيعوا أن يتعذبوا *بعقل* ماضيهم أيضاً؟ ولكن إليكم أنتم في المقام الأول، أنتم الذين تحملون الوزرَ الأثقل، أنتم قِلّة القلّة، الأكثر عُرضة للخطر، الأكثر عقلاً، والأكثر شجاعة، أنتم مَن عليكم أن تكونوا ضمير الروح الحديثة و تكونوا بموجب ذلك حاملين *لعلمها*، والذين يجتمع فيكم اليوم كل ما يمكن أن يوجد من مرض وسموم ومخاطر؛ -فقدركم هو الذي أراد لكم أن تكونوا أكثر مرضاً من أي فرد، ذلك أنكم لستم «مجرد أفراد». . . ، أنتم الذين يتمثل عزاؤكم في معرفة الطريق إلى عافية *جديدة*، آه! والمضي على تلك الطريق نحو عافية ليوم غد وما بعد غد، أنتم المهيؤون سلفاً، أنتم المظفّرون، المنتصرون على الزمن، أنتم الأقوى، أنتم ***الأوروبيون الجيّدون***!

7

أريد في الختام أن أعبّر في مقولة عن اعتراضي على التشاؤم الرومنطيقي، أي عن تشاؤم المحرومين والفاشلين والمهزومين: هناك إرادة مأساة وتشاؤم تُعتبر علامة صرامة وقوة عقلية في الآن نفسه(قوة

الذوق والإحساس والوعي)؛ من يحمل مثل هذه الإرادة في قلبه لا يخشى كل ما هو فظيع وإشكالي مما ينطوي عليه كل وجود؛ بل هو الذي يمضي إليه طوعاً. خلف مثل هذه الإرادة تكمن الشجاعة والأنفة والرغبة في عدوّ كبير. ذلك كان منظوري التشاؤمي منذ البداية؛ منظور جديد، كما يبدو لي؟ منظور ما يزال جديداً حتى يومنا هذا، وغريباً؟ وما زلت حتى هذه اللحظة متمسّكاً به، وذلك، إذا ما صدّقتموني، لصالحي، كما على حسابي بين الحين والآخر. أوَتريدون برهاناً على ذلك أولاً؟ لكن، على أي شيء كانت هذه المقدمة الطويلة تقيم البرهان إذاً؟

سيلس ماريا- أونغادين العليا

سبتمبر ١٨٨٦

الجزء الأول

آراء ومقولات حِكمية متداخلة

1

إلى الذين خاب ظنّهم في الفلسفة

إن كنتم من الذين آمنوا إلى حدّ الآن بالقيمة العليا للحياة، ثم وجدتم أنفسكم مصابين بخيبة أمل، فهل ينبغي أن يكون ذلك داعياً لأن تتخلّصوا منها الآن بأبخس الأثمان.

2

دلع

يمكن أن يغدو الإنسان مدلّعاً في ما يتعلق بوضوح الأفكار أيضاً؛ ولكم سيغدو مُقرفاً بعدها أن يتعامل مع أناس غامضين، ضبابيين، كلّهم أحلام وتوقّعات! ولكم ستبدو له مضحكة، لكن دون فكاهة مع ذلك، رفرفتهم الدائمة ومحاولات انقضاضهم دون أن يستطيعوا طيراناً ولا القبض على شيء.

3

الراكضون في طلب الحقيقة

من ينتبه أخيراً إلى إنه كان غالباً ولمدة طويلة ضحيةً للمغالطة، سيدفع

به الحنق إلى الارتماء في أحضان أول مسألة واقعية بشعة تعترضه، حتى أننا إذا ما نظرنا إلى مجرى أشياء العالم في كلّيتها، سنجد أن أفضل طالبي ودّ الحقيقة على مدى العصور كلّها هم الذين يقعون دوماً في أحضان تلك الواقعيات البشعة؛ -ذلك أن أفضل الناس هم الذين كانوا أحسن من تتم مغالطتهم دوماً ولأطول مدة من الزمن.

4

تقدّم الفكر الحرّ

ليس هناك من طريقة أفضل لتوضيح الفرق بين ما كان عليه الفكر الحرّ في ما مضى وما أصبح عليه الآن من أن نتذكّر تلك المقولة الشهيرة التي كان لابدّ من كلّ جسارة القرن الماضي كي يتمّ استنباطها والتعبير عنها، والتي ستنحدر إلى مستوى السذاجة غير المقصودة، إن نحن نظرنا إليها اليوم من منظور رؤيتنا الحالية. أعني مقولة فولتير *"Croyez moi, mon ami, l'erreur aussi a son mérite."*(*)

5

الخطيئة الأصلية للفلاسفة

لقد تبنّى الفلاسفة على مرّ العصور مقولات المشتغلين بدراسة وفحص الأحوال البشرية (الأخلاقيون) *وأفسدوها* بأن جعلوا منها مقولات مطلقة، وأرادوا أن يبرهنوا على الطابع الضروري لذلك الذي لم يُرد له أصحابه سوى أن يكون إشارة تقريبية، أو لا شيء غير حقيقة خاصة بمدينة أو بلاد من قرن بعينه؛ بينما كانوا يعتقدون أنهم يرفعون من شأنهم الخاص من خلال ذلك ويضعون أنفسهم فوق منزلة أولئك

(*) «ثق بي يا صديقي، إن للخطأ أيضاً مزيّته.»

الأخلاقيين. وهكذا يتبيّن لنا أن نظرية شوبنهاور الشهيرة حول أسبقية الإرادة على العقل، وحول ثبات الطبع وسلبية اللذة -وهي كلها، على النحو الذي يفهمها به شوبنهاور، أخطاء- تجد أُسساً لها في الحكم الشعبية التي وضعها الأخلاقيون. وعبارة «الإرادة» نفسها، التي حوّلها شوبنهاور إلى تسمية مشتركة لحالات إنسانية عديدة، وجعل منها سدّادة لكل ثغرة لغوية، وذلك لصالحه الخاص بما أنه كان أخلاقياً، - وهكذا غدا بمستطاعه أن يتكلّم عن «الإرادة» كما كان يتكلّم عنها باسكال سابقا[٤]،- عبارة «الإرادة» هذه ستتحوّل بين يدَي صاحبها، وعن طريق حُمّى التعميمات الفلسفية، إلى كارثة على العلم؛ إذ يُجعل من هذه الإرادة استعارة شعرية عندما يتمّ الزعم بأن كل الأشياء تنطوي على إرادة؛ وفي النهاية قد أسيء استعمالها تعسّفاً في عملية تشْييء مزيّف مسخّر لشتّى الحماقات الروحانية، وغدا كل الفلاسفة الموضوييين يرددون، وهم يبدون كما لو كانوا عارفين بذلك تمام المعرفة، أن كل الأشياء تنطوي على إرادة واحدة، وأنها هي نفسها تجسيد لتلك الإرادة الواحدة (بما يعني في النهاية، وفقاً للوصف الذي يُقدّم عن تلك الإرادة الواحدة الكلية، كما لو أننا نريد قطعاً أن نتخذ من *الشيطان الأخرق إلهاً*).

6

ضدّ العقول المجنّحة

ذو العقل المجنّح ينفي الحقيقة في ما بينه وبين نفسه، والكاذب يفعل ذلك أمام الآخرين فقط.

7

معاداة النور

إذا ما أوضحنا لأحد ما أنه، وبالمعنى الصارم الدقيق، لا يمكن البتّة الحديثُ عن حقيقة، بل عن احتمال وعن درجات في ذلك الاحتمال فقط، فسنكتشف عادة في الفرحة البيّنة لدى ذلك المستمع كم أن الناس يحبذون عدم وضوح أفقهم الذهني وكم يكنّون في عمق أعماقهم من *كراهية* للحقيقة بسبب دقّتها. هل يعود ذلك إلى كونهم يخافون سراً أن تسلّط أنوار الحقيقة الساطعة يوماً ما عليهم هم أيضاً؟ أو أنهم يطمعون في أن يكونوا مهمّين، وبالتالي لا ينبغي أن نعرف بالضبط ماذا يكونون؟ أم هو فقط نفور من النور الساطع الذي لم تتعود عليه أرواحهم الخفاشية الغسقية التي يعميها النور بسهولة، لا يسعها إلا أن تكرهه؟

8

ريبيّة مسيحية

غدا بيلاطس وسؤاله «وما هي الحقيقة؟»[٥] يقدَّم الآن كمرافع عن المسيح، وذلك بهدف التشكيك في كل ما اكتُسب من معرفة وما هو قابل للمعرفة على أنها مجرّد ظاهريّات، ومن ثمّة تثبيت الصليب فوق الخلفية الشنيعة لمقولة مُحال المعرفة.

9

«القانون الطبيعي» معتقد خُرافي

عندما تتكلّمون بكلّ حماس عن نظامِ قوانين داخل الطبيعة فإنكم تنطلقون في ذلك حتماً من أحد اعتبارين؛ إمّا أنكم تقبلون افتراضاً بأنّ كل أشياء الطبيعة تتبع قوانينها وفق قبولٍ حرّ وخضوعٍ لطاعة تستمدّها

من إرادتها الخاصة، -وهذه حالة تستمدّون منها إعجابكم بأخلاقية الطبيعة-، أو أنكم تجدون ما يفتنكم في تصوّر صانعٍ ميكانيكي مُبدع قد ابتكر تلك الساعة الدقيقة جداً ووضع داخلها كائنات حيّة كعناصر للزينة. هكذا يصبح مبدأ الضرورة في الطبيعة أكثر إنسانية من خلال عبارة «النظام القانوني» وملجأ أخيراً للتهويم الميثولوجي.

10

تحت طائلة التاريخ

تُلِمُّ بفلاسفة الحُجُب ومُعتّمي العالم، أي كلّ الميتافيزيقيين، الناعم منهم والغليظ، شتّى أوجاع العينين والأذنين والأسنان حالما يخامرهم شك بأنّ مقولة «مُجمل الفلسفة قد غدت منذ الآن تحت طائلة التاريخ» قد تكون منطوية على شيء من الصحة. وبسبب تلك *الأوجاع* يمكننا أن نغفر لهم أنهم ينهالون على كل من يتكلم بهذه المقولة رجماً بالحجارة وشتّى القاذورات؛ إلا أن هذه المقولة قد يلحقها من جرّاء ذلك تلوّث وانتقاص، وتفقد تأثيرها لمدّة من الزمن.

11

متشائم العقل

من كان مفكّرا حرّاً حقيقياً سيفكّر بحرية في شأن العقل أيضاً، ولن يحجب ما يمكن أن يكون فظيعاً مما يتعلّق بالمنبع أو الاتجاه الذي يمضي إليه هذا الأخير. لذلك سيعتبره الآخرون ألدّ أعداء الفكر الحرّ وينعتونه بتلك الشتيمة المهينة والمرهِبة: «متشائم العقل»، أوفياء في ذلك لما تعوّدوه من أنهم لا ينعتون شخصاً بما فيه من قوة هائلة وفضيلة عالية، بل من خلال ما يكون غريباً شديد الغرابة عنهم في شخصه.

12

جراب الميتافيزيقي

لا ينبغي أن نردّ البتّة على أولئك الذين يتكلّمون بنبرة احتفالية عالية عن علميّة ميتافيزيقيتهم؛ يكفي أن نُعمل يدنا في الجراب الذي يخفونه بشيء من الخجل وراء ظهرهم، وإذا ما أفلحنا في فتحه قليلاً ستظهر للعين، بما يجلب لهم الخجل، نتائج ذلك الطابع العلمي: ربّ جليل صغير، خلود لطيف، وربما شيء من روحانيات، وفي كل الأحوال رُكام متمازج من بؤسِ خاطئٍ مسكين وغرورِ فرّيسيٍّ.

13

الأضرار العرضيّة للمعرفة

ما فتئت الفوائد المتأتية من البحث الصارم عن الحقيقة تبرهن على نفسها مئات المرات مجدّداً بما يجعلنا نتلاءم دون تردّد مع ما يحصل من مضار صغيرة ونادرة تحملها بعض الحالات المنفصلة ويكون على الأفراد تحمُّل المعاناة منها. فنحن لا نستطيع أن نمنع أن يحدث للكيميائي أن يتعرّض بين الحين والآخر إلى حروق أو تسمّم خلال تجاربه. وما ينطبق على الكيميائي ينطبق أيضاً على حضارتنا في مجملها، بما يجعلنا، كي نقول هذا على سبيل المثال بصفة عرضيّة، نستنتج إلى أي مدى يحتاج البحث العلمي نفسه إلى مراهم في حالات الاحتراق وإلى ذخيرة من الترياق لحالات التسمّم.

14

حلية الفرّيزي

يعتقد الفرّيزي أن أكثر ما يحتاج إليه هو خِرقة الأرجوان أو عِمامة

الميتافيزيقي، ولا يريد البتّة أن تُخلع عنه، مع أنه كان سيبدو أقلَّ مثاراً للسخرية من دون تلك الحلية.

15

المتحمّسون

في كلّ ما يقوله المتحمّسون عن الإنجيل أو عن سيّدهم لا يفعل هؤلاء في الحقيقة سوى الدفاع عن أنفسهم، بالرغم أنهم يتصرّفون كقضاة (لا كمتّهَمين)، لأن الناس غالباً ما يذكّرونهم لا إرادياً بأنهم استثناءات، وبأن عليهم أن يبرّروا وجودهم كاستثناءات.

16

الجيّد محفّز على الحياة

كلُّ الأشياء الجيّدة تمثّل حوافز قويّة تدفع إلى الحياة، بما في ذلك كلُّ كتابٍ جيّد يُكتب ضدَّ الحياة.

17

سعادة المؤرِّخ

«حين نسمع الميتافيزيقيين الحاذقين ودعاة الماوراء وهم يتكلّمون يحدونا نحن الآخرين حقاً إحساس بأننا نحن «الفقراء بالروح»[٦]، لكنّنا نشعر أيضاً أنّ لنا مملكة السماء التي يتناوب فيها الربيع والخريف والشتاء والصيف، بينما للآخرين الماوراء بضبابه وظلاله القاتمة والباردة الأبدية.» هكذا خاطب أحدهم نفسه وهو يمضي متجوّلاً داخل نور الصباح: واحد يرى في معاشرته للتاريخ، لا عقله فقط يمضي عبر تحوّلات عديدة مستمرة، بل قلبه أيضاً، وهو على عكس

الميتافيزيقيين، سعيد، لا بكونه يمتلك روحاً واحدة خالدة، بل *أرواحاً فانية كثيرة*.

18

ثلاثة أنواع من المفكرين

هناك ينابيع مائية متدفّقة، وأخرى سائلة، وثالثة ينزّ ماؤها **قطرةً قطرة**؛ يقابلها ثلاثة أنواع من المفكّرين أيضاً. غير العارف يقيّم تلك الينابيع حسب كمّية المياه، أمّا العارف فبحسب محتوى الماء، أي بحسب ما ليس ماءً فيها.

19

صورة الحياة

إن مهمّة رسم صورة عن الحياة، وإنْ تمَّ طرحُها وتناولها مراراً من قِبل الشعراء والفلاسفة، تظلّ مع ذلك عبثية: ذلك أن أبرع المفكّرين- الرسّامين لم تتعدّ أعمالهم مجرّد إنجاز صور ورسومات ***مُستمدَّة من*** حياة بعينها، أي من حياتهم الشخصية؛- وكل ما عدا ذلك فهو غير ممكن. إذ داخلَ الصيرورة لا يمكن لصائر أن يعكس نفسه كشيء ثابت ودائم، كصورة لـ«الشيء».

20

الحقيقة لا تقبل بآلهة إلى جانبها

يبدأ الإيمان بالحقيقة مع الشك في كل «الحقائق» المعتقد فيها إلى حد تلك اللحظة.

21

أشياء يطالَب بالسكوت عنها

عندما نتكلّم عن حرّية الفكر كشيء شبيه برحلة عبر الجليد والبحار الجليدية، يشعر أولئك الذين لا يرغبون في السفر على هذه الطريق بالإهانة كما لو أنّنا عيّرناهم بالرُّعونة ووهن الركبتين. فالمهمّات الصعبة التي لا طاقة لنا على مواجهتها لا ينبغي حتى مجرّد ذكرها أمامنا.

22

Historia in nuce(*)

الباروديا الأكثر جدّية من كلّ ما سمعت هي هذه: «في البدء كان العبث، والعبث *كان* من عمل الله! وكان الله (على نحو قُدسي) هو العبث.»

23

مَن لا شفاء له

المثاليُّ شخصٌ متعذرٌ على الإصلاح: إن طُرد من جنّته جعل لنفسه من الجحيم عالماً مثالياً. لنخيّبْ أملَه، ولْنرَ! -سيحتضن الإحباطَ بشبق لا يقلّ حرارة عن ذلك الذي كان يحتضن به أمله قبل قليل. وبما أن ميله هذا ينتمي إلى أكثر أنواع الميول البشرية تعذّراً على العلاج، فإنه يمكن أن يُفضي إلى مصائر مأساوية ويغدو بعدها موضوع أعمال تراجيدية؛

(*) عبارة لاتينية تعني حرفياً «التاريخ داخل قشرة الجوز»، ومعناها التاريخ مروياً في صياغة شديدة الاختزال. تحيل العبارة على رواية لشيشرون الروماني عن مخطوطة لهوميروس عُثر عليها داخل قشرة حبة جوز (أنظر Naturalis historia التي وضعها Plinius Secondus Major).

إنه ينتمي من هذه الناحية إلى ما لا علاج له، ولا مردّ له ولا مفرّ منه في مصير الإنسان وطبعه.

24

التعبير عن الإعجاب كتتمّة للعرض

عيونٌ مشعّة وابتسامة ودودة هي طريقة الإعجاب الذي نكافئ به مجمل مسرحية الكون والوجود؛ لكنّها في الآن نفسه مسرحية داخل المسرحية الغاية منها استدراج بقية المشاهدين إلى تلك الـ *''plaudite amici''*- صفّقوا أيها الأصدقاء[٧].

25

شجاعة على إثارة الضجر

من لا يملك الشجاعة على أن يجعل من نفسه ومن عمله شيئاً مضجراً لا يُعتبر بالتأكيد عقلاً من الطراز الأعلى، سواء في مجال الفن أو في مجال العلوم. سيحقّ لشخص ساخر، يكون بصفة استثنائية عقلاً مفكّراً أيضاً، أن يقول وهو ينظر في مُجمل العالم والتاريخ: «لم يكن لله مثل هذه الشجاعة؛ فقد أراد أن يجعل الأشياء في مُجملها مُفرطة في الأهمّية، وذلك ما فعله أيضاً.»

26

من صُلب التجربة العميقة للمفكّر

ليس هناك أصعب على الإنسان من أن يتناول شيئاً دون شخصنته؛ أعني أن يرى فيه بالضبط مجرّد شيء ولا *يرى فيه شخصاً*. بل إنه بوسعنا أن نتساءل أيضاً إن كان من الممكن له أصلاً أن يوقف ولو للحظة واحدة تلك الآليّة التي لا تتوقف عن تصوّر وابتداع الشخوص؛ ألا يتعامل في

علاقته مع الأفكار، بما في ذلك الأكثر تجريداً من بينها، كما لو أنه يتعامل مع شخوص عليه أن يتصارع معهم وأن يرتبط بهم، وأن يحميهم ويرعاهم ويغذّيهم؟ لنراقب ونتلصّص على أنفسنا في تلك اللحظات التي نسمع فيها أو نعثر فيها على مقولة جديدة لم نسمعها من قبل. ربّما تنفّرنا تلك المقولة لأنها تتراءى على غاية من الاستفزاز والاعتداد بنفسها؛ لا شعورياً تجدنا نتساءل إن ليس بإمكاننا أن نُلصق بها مقولة مضادّة كعدوّ إلى جانبها، أو نلحق بها شيئاً من «ربّما»، أو «أحيانا»؛ بل إن عبارة «من المحتمل» اللطيفة يمكنها أن تمنحنا هي أيضاً إحساساً بالرضى، لأنها تكسر الطغيان الشخصاني الذي يمارسه علينا طابعها المطلق. وبالمقابل، عندما تتراءى لنا تلك المقولة الجديدة متقدمة باحتشام في صيغة ليّنة، متسامحة، متواضعة، كما لو أنها على شفا الوقوع في شراك التناقض، ترانا عندها أمام محاولة مغايرة لممارسة قدرتنا الواثقة: كيف يمكننا أن لا نتقدم لمساعدة هذا الكائن الضعيف، أن نداعبه ونغذّيه ونمنحه طاقة وامتلاء، بل وحقيقية، وحتى طابع الحقيقة المطلقة؟ أيعقل أن نفعل عكس هذا ونحن نتصرّف بأبوّة، أو بفروسية، أو بشفقة؟ -وعندها سنجدنا نرى حكماً هنا وحكما هناك منفصليْن بعيديْن أحدهما عن الآخر، لا يريان بعضهما ولا يتقدّم أحدهما باتجاه الآخر: ههنا تدغدغنا فكرة أن ننظر إن ليست هناك إمكانية لعقد قران ولاستنتاجٍ يمكن استخلاصه، مع تخمينٍ بأن عملية الاستنتاج هذه أثمرت في صورة ما، فإنه لن تكون هناك فائدة يجنيها الطرفان المتعاقدان برابطة الزوجية وحدهما، بل إن عاقد الزيجة سيكون له نصيبه من الشرف منها هو أيضاً. أما إذا لم يكن بالإمكان السيطرة على تلك المقولة، لا من جهة المشاحنة وإرادة الإساءة، ولا من جهة المودّة والعطف (أي عندما تتراءى لنا صحيحة)، عندها نستسلم لها ونؤدي لها آيات الإكبار مثلما نفعل إزاء قائد أو دوق،

ونمنحها كرسيَّ شرف، ولن نتكلّم عنها دون أُبّهة وافتخار: إذ من خلال *بريقها* يكون لنا أيضاً نصيبنا من البريق؛ والويل إذاً لمن يريد أن يعتّمه، عدا أن تغدو تلك المقولة يوماً ما محلَّ ريبة وشُبهات، بما في ذلك في أعيننا نحن أيضاً، -عندها نغْمد، نحن، «صانعو الملوك» (*kingsmakers*) الذين لا نَكِلّ عن صنع الملوك عبر تاريخ الفكر، إلى الإطاحة بها، وننصّب بسرعة نقيضاً لها على العرش الذي كانت تتربّع عليه. لنقلّب هذه المسألة ونتقدم خطوة إلى الأمام في تفكيرنا: من الأكيد أنه لم يعد هناك من أحد سيتكلّم عن «غريزة معرفة لذاتها وفي ذاتها»! -لِمَ يبجّل الإنسان إذاً ما هو حقيقة على ما هو خاطئ في هذا الصراع *السرّي* مع الفكرة-الشخص، وفي هذا العمل الدؤوب وطيّ الكتمان غالباً، على عقد الزيجات الفكرية وتأسيس الدول الفكرية، والعناية بالمعوز والمريض من الكيانات الفكرية؟ إنه يفعل ذلك من منطلق السبب نفسه الذي يمارس فيه *العدالة* بين الأشخاص الحقيقيين: *الآن* عن تعوّد وإرث وتربية، *وفي البدء* لأن ماهو حقيقة -مثل ما هو منصف وعادل- *أكثر نفعاً* و أكثر *مجلبة للشرف* من الخطأ. ذلك أنه سيكون من الصعب تبرير السلطة والسمعة في مجال الفكر، إذا ما تم بناؤهما على أساس من الخطأ أو الكذب: إن الإحساس بأن ذلك البناء قد يتداعى وينهار ذات يوم مُهين لوعي المهندس المعماري وثقته بنفسه: إنه يخجل من هشاشة مادّته، ولأنه يعتبر نفسه *أهمَّ* من بقية العالم، فهو لا يريد أن ينجز ما لا يستطيع أن يكون *أكثر ديمومة* من بقية العالم. في التعلق بالحقيقة يعانق الإنسان الاعتقاد في خلوده الشخصي، يعني: أكثر الأفكار غروراً وتحدّياً متآخية كما هي في الواقع مع الفكرة الخلفية الخفية *pereat mundus,dem ego salvus sim*(*) .

(*) «ليضمحل العالم بأسره، على أن أنجو أنا!»

عمله قد أصبح هو أناه (ego)، وبه يبدع نفسه كشيء غير قابل للفناء متحدّياً مجمل الكون. كبرياؤه اللامحدودة لا تريد أن تستعمل سوى أفضل وأصلب الحجارة لبنيانه: أي حقائق أو ما يبدو له كحقائق. لقد كان الناس مُحقّين إذاً عندما ظلّوا على مرّ العصور يطلقون على الغرور لقب «رذيلة العلماء»، غير أنه لولا هذه الرذيلة الدافعة والمحرّكة لما كان للحقيقة وهيبتها غير مكانة بائسة فوق الأرض. ومن حيث إننا نخشى أفكارنا ومفاهيمنا وكلماتنا، وإننا *نجلّ* أنفسنا أيضاً من خلالها ونُضفي عليها تلك القوة التي تجعلها تستطيع أن تكافئنا وتحتقرنا وتمتدحنا وتعاتبنا، وأننا نتعامل معها بالنهاية ندّاً لندّ مثل أشخاص ذوي عقول حرّة، وقوى مستقلة؛ هناك يكمن جذر تلك الظاهرة التي أطلقتُ عليها اسم «الضمير العقلي». -هكذا نكون هنا إزاء شيء أخلاقي من النوع الأرقى قد نبت عن جذر دبح تافه(*).

27

الظلاميون

إن الأمر الأساسي في السحر الأسود للظلاميّة لا يتمثل في أنه يريد تعتيم الأدمغة، بل في كونه يريد أن يقدّم صورة سوداء عن العالم، وأن *يعتّم تصورنا للوجود*. ولبلوغ هذا المأرب غالباً ما يستخدم وسيلة مقاومة ومنع تنوير العقول؛ إلا أنه يلجأ أحياناً إلى الوسيلة المضادّة أيضاً، ويسعى من خلال ترهيف أقصى للعقل إلى خلق حالة من التخمة *والقرف* من ثماره. ويمثل الميتافيزيقيون الحاذِقون الذين يهيّئون الشكوكية، ويثيرون من خلال فطنتهم القصوى التوجسَ من

(*) Scwarzwurzel أو حرفياً: الجذر الأسود (نوع من الخضروات مثل اللفت والجزر) أو ما يعرف في علم النباتات باللاتينية بـ scorzonera

الفطنة، أدوات جيّدة لظلامية أكثر دقة وفاعلية. أليس من الممكن إذاً أن يكون كنط نفسه مؤهلا للتوظيف لهذا الغرض؟ بل لعلّه قد أراد هو نفسه من خلال بيانه سيّئ الذكر أن يصل إلى شيء من هذا القبيل، مؤقتاً على الأقل: أن يفتح طريقاً إلى *الإيمان* من خلال ما فعله بوضع حدود *للعلم*؟ -وهو على أية حال أمر لم يتيسّر له، ولا لأولئك الذين تقفّوا أثره عبر المسالك الدقيقة المواربة لهذه الظلامية شديدة الرهافة والخطر، بل الأكثر خطرا على الإطلاق؛ ذلك أن السحر القاتم يظهر هنا داخل هالة من النور(٨).

28

عن طريق أي نوع من الفلسفة يطرأ الفساد على الفن؟

عندما ينجح الضباب الذي تُسدله فلسفة روحانية-ميتافيزيقية في تعتيم كل الظواهر الجمالية (الاستيطيقية) ينجرّ عن ذلك أن هذه الأخيرة ستجد نفسها *غير متعذرة على التقييم* مقارنة ببعضها البعض، لأن كل واحدة منها قد غدت غير قابلة للتفسير. وإذا ما غدا من غير الممكن إقامة مقارنة بينها بهدف التقييم فإن ذلك يُفضي بالنهاية إلى *انعدام كلّي للنقد* وتساهل أعمى؛ ينتج عن ذلك بالمقابل تناقص مطّرد في *المتعة* التي يمنحها الفن (متعة يكون للذوق المرهف والقدرة الفائقة على التمييز وحدهما أن يجعلاها تتميّز عن مجرّد إشباعٍ فجٍّ للحاجة). غير أنه كلما تقلّصت المتعة مضت الرغبة في الفن باتجاه التحول والتقهقر إلى جوع مبتذل، وأصبح الفنان يسعى إلى إشباعه عن طريق غذاء أكثر فأكثر رداءة.

29

في جسثيماني[٩]

القولة الأكثر إيلاماً مما يمكن أن يقوله مفكر لفنان هي: *«أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة!»*[١٠]

30

امام المِنسج

في مقابل القلّة التي تجد متعة في فك عُقدة الأشياء ونقض نسيجها يعمل عدد كبير (كل الفنانين والنساء مثلاً) على إعادة نسجه وإحكام تداخل خيوطه، بما يجعل ما كان مفهوماً يتحوّل إلى شيء غير مفهوم، وغير قابل للفهم، إن أمكن. وأياً كان المحصّل بالنهاية فإن ذلك الذي تم عقده ونسجه سيبدو حتماً شيئاً غير نقيّ، لأن أيادي كثيرة كانت تشتغل عليه وتسحب خيوطه.

31

في صحراء العلم

تظهر للعالِم في رحلاته المتواضعة والمرهقة التي كثيراً ما تكون أسفاراً في الصحراء تلك الرؤى السرابية الملتمعة التي تسمّى «أنظمة فلسفية»: تعرض هذه السرابات على المسافر، بكل ما للخدعة من طاقة سحرية، صورةً لحلّ كلّ الألغاز، والشرابَ المنعش لماء حياة حقيقية غير بعيد منه: يهتزّ القلب فرحاً، والمسافر المتعَب تكاد تلامس شفتاه الغايةَ المنشودة من وراء مجمل المثابرة على الجهد العلمي وأتعابه، مما يجعله يتقدم لا إرادياً ماضياً دوماً إلى الأمام. هناك طبائع أخرى ستتسمّر في مكانها شبه مخدّرة ببهاء الخدعة، فتبتلعها الصحراء، وتغدو في عِداد الأموات بالنسبة للعلم. لكنّ فئة أخرى من الطبائع، من تلك التي

اختبرت مراراً مثل هذه المسلّيات الذاتية، سيتعكّر مزاجها لهذه الرؤى وتلعن طعمَ الملح الذي يظلّ عالقاً منها بشفتيها ويسبب لها عطشاً حارقاً -دون أن يكون المرء قد تقدّم بواسطتها خطوة واحدة تقرّبه من نبع ماء.

32

«الحقيقة الحقّ» المزعومة

يتصرّف الشاعر وهو يصوّر مختلف المهن، مثل مهنة القائد الحربي وحائك الحرير والبحار، كما لو أنه يعرف هذه الأشياء معرفة كاملة ودقيقة وأنه محيط *بها علما*. بل إنه يتصرّف، وهو يفسّر المصائر والأفعال البشرية، كما لو أنه كان حاضراً عند إنجاز مُجمل النسيج الكوني: وبهذا المعنى فهو دجّال. وبما أنه يمارس دجله أمام جمهور من الجاهلين فإنه ينجح في ذلك: يقابله هؤلاء بالإطراء على علمه الأصيل والعميق ويقودونه بالنهاية إلى التوهّم بأنه حقاً عارف بالأشياء على نحو جيّد على غرار العارف والصانع وحده، بل على غرار العنكبوت الأكبر صانع النسيج الكوني برمّته. وفي النهاية يغدو الدجّال نفسه صادقاً ويعتقد في صدقيّته. بل إنّ الحسّاسين من الناس يصرّحون له جهراً بأنه يمتلك الحقيقة العليا والصدْقية السامية؛ ذلك أن هؤلاء في الحقيقة قد أصابهم الملل مؤقتاً من الواقع، وهم يتلقون الحلم الشعري كلحظة استرخاء مروِّح واستراحة ليلية للعقل والقلب. وما يظهره لهم ذلك الحلم يبدو لهم الآن أكثر قيمة، لأنهم، كما قلنا، يجدونه أكثر ترويحاً عن أنفسهم؛ وعلى الدوام كان الناس يعتقدون أن ما يبدو أعلى قيمة في ظاهره هو الأكثر حقيقية، والأكثر واقعية. والشعراء *واعون* بهذه القوة، وينطلقون منها إرادياً لثلب كل ما يُعتبر واقعاً عادة وتحويله إلى شيء غير موثوق به، وغير حقيقي، وحامل للخطيئة والألم والوهم؛ يستخدمون كلَّ شك حول حدود المعرفة

وكلَّ أنواع الشطط الريبي ليبسطوا حجابَ اللايقين فوق الأشياء كلّها: بذلك يكونون قد هيّأوا بعد هذا التعتيم لأن يتمّ القبول دون تحفّظ أو شك بسحرهم وتلاعبهم بالأرواح على أنه طريق إلى «الحقيقة الحق» وإلى «الواقع الواقعي»[١١].

33

أن تكون قاضياً، أو تكون عادلاً.

شوبنهاور ذو الخبرة العالية في مجال ماهو إنسانيّ ومُفرط في إنسانيّته، وذلك الحسّ التلقائي بالوقائع، وهما خصلتان أصبحتا مُعاقتيْن بجلد الفهد الميتافيزيقي الذي يرتديه (وعلينا أن نخلعه عنه أولاً كي نكتشف أيَّ عبقريّ حقيقيّ في مجال الأخلاقيات يختبئ تحته)، -شوبنهاور يضع إذاً هذه التفرقة الصائبة التي تجعله محقاً أكثر مما يمكنه أن يقرّ به هو نفسه: «إنّ معرفة طابع الضرورة الصارمة لأفعال الإنسان هي خط التباين الذي يفصل بين ***العقول الفلسفية وبقية العقول***»[١٢]. ينقض شوبنهاور نفسُه هذه الرؤية الصارمة التي ظلّ مقتنعاً بها لمدة من الزمن عن طريق هذه الفكرة المسبقة المتداولة التي شاطر فيها المتخلّقين (وليس الأخلاقيين)، والتي يعبّر عنها على هذا النحو الإيماني الساذج: «إنّ التفسير النهائي والحقيقي للكنه العميق لكلّية الأشياء في مُجملها ينبغي أن يتمّ ضرورةً في ارتباط وثيق مع التفسير المتعلق بالمدلول الأخلاقي (الإيطيقي) للأفعال الإنسانية»[١٣]، -بالذات ما هو غير ضروري بالمرة، بل أكثر من ذلك، إن هذا المدلول الإيطيقي بالذات هو ما يجد نفسه مرفوضاً في مقولة مبدأ الضرورة الصارمة في الأفعال البشرية، أي عدم حرية الإرادة وانعدام المسؤولية الضروريّتين. ستجد العقول الفلسفية نفسها تبعاً لذلك مفصولة عن بقية العقول بفاصل عدم الإيمان بالمدلول الميتافيزيقي للأخلاق: سيكون لهذا

الأمر أن يُحدث هوّة سحيقة بينهما، هوّة أكثر تعذّراً على التجاوز وأعمق بكثير من تلك التي تفصل بين «العارفين» و«غير العارفين»، والتي مازلنا نستمع اليوم إلى عبارات التذمّر منها. وفي الحقيقة علينا أن نعترف بأن بعض الأبواب الخلفية التي تعمّدت «العقول الفلسفية»، ومن بينها شوبنهاور نفسه، أن تتركها مفتوحة، ستكون غير ذات جدوى في النهاية: ***ما من واحد*** منها يُفضي إلى الهواء الطلق، إلى فضاء الإرادة الحرة؛ وتلك التي تمّ التسلل منها إلى حدّ الآن لم تكن تفضي إلا إلى الجدار الفولاذي للقدر: نحن في سجن وبإمكاننا فقط أن *نحلم* بأنفسنا أحراراً، أمّا أن ***نُحرّر*** أنفسنا فلا. لن يكون من الممكن التصدّي طويلاً لهذا التفسير بعد الآن ، وذلك ما يتراءى جلياً من خلال الهيئات الغريبة والكزازات التي تشوّه ملامح أولئك الذين مازالوا في تلاحم معه محاولين مواصلة الصراع ضده. وهذا ما يجري في أذهانهم تقريباً: «ما من إنسان مسؤول إذاً؟ وفي كل مكان هناك الخطيئة والإحساس بالذنب؟ لكن، لابد أن يكون أحد ما خاطئاً في كل هذا: وبما أنه لم يعد ممكناً وغير مسموح لنا اتهام ومحاكمة الأفراد، هذه الموجة الصغيرة التافهة داخل تدفّق بحر الصيرورة الضروري، -إذاً، ليكن هذا البحر المتدفق نفسه، وهذه الصيرورة هي المذنبة: هناك توجد حرية إرادة، وهناك يمكن أن تكون مقاضاة، وأن تكون محاكمة، ومجازاة وتكفير: بالتالي ينبغي أن يكون ***الله هو الخاطئ*** والإنسان ***مُخلّصه***: وليكن تاريخ العالم إذاً في الآن نفسه خطيئة وحكماً على الذات وانتحاراً؛ وهكذا يصبح الجاني قاضي نفسه، والقاضي جلّاد نفسه». هذه ***المسيحية المقلوبة*** -وأيّ شيء آخر هو هذا إذاً؟- هي ***آخر*** هجوم للمحارب في صراع مذهب الأخلاقية المطلقة ضد مذهب التقييد المطلق. -كان يمكن أن يكون مشهداً مريعاً لو أنها كانت شيئاً آخر غير ***تكشيرة منطقية***، غير حركة

بشعة لفكرة مهزومة، شيء شبيه بتشنّج الموت لدى القلب اليائس المتعطش للخلاص الذي يهمس في أذنه الحمق: «أنظر، إنك الحمَل الذي يرفع خطيئة الربّ»[١٤]. -إن الخطأ لا يكمن فقط في هذا الإحساس: «أنا مسؤول»، بل في نقيضه: «لست مسؤولاً، لكن لا بد أن يكون هناك أحد هو المسؤول». وهذا ما هو خاطئ: فعلى الفيلسوف إذاً أن يقول مثل المسيح «لا تحكم!»[١٥]، وسيكون الفرق الأخير بين العقول الفلسفية وبقية العقول إذاً أن الأوّلين يريدون أن ***يكونوا عادلين***، والآخرين يريدون أن ***يكونوا قضاة***.

34

تضحية

تقولون إن التضحية هي علامة الفعل الأخلاقي؟ لتفكروا قليلاً إن لم يكن *كل* فعل متأتّ عن تفكير ورويّة ينطوي على تضحية؛ في أسوأ الأفعال كما في أفضلها على حدّ سواء.

35

ضدّ المحقّقين في مدى أخلاقية هذا أو ذاك

على المرء أن يكون عارفاً بأفضل وبأسوأ ما يمكن أن يكون شخص ما قادراً عليه في تصوّر كما في إنجاز الأفعال، كي يتسنّى له أن يحكم على مدى ما كان عليه طبعه الأخلاقي من متانة وما أصبح عليه. غير أن هذه المعرفة المذكورة أمر مستحيل.

36

عن الشراسة

لا نستطيع أن نعرف إن كنّا على درجة من شراسة الحيّة أم لا، ما لم

يدس علينا أحد بقدمه، -أو كما يمكن لأم أن تقول: حتى يدوس أحد بقدمه على فلِذة كبدي. إن طبعنا يتحدّد بما ينقصنا من تجارب بعينها أكثر مما يتحدد بما عشناه.

37

الخداع في الحب

ننسى عدداً من الأشياء من ماضينا ونُقصيها من ذهننا عمداً: يعني أننا نريد من صورتنا التي تشعّ علينا من الماضي أن تكذب علينا وأن تداعب أوهامنا،- ونعمل بصفة مستمرة على تغذية هذا الخداع للنفس. والآن تعتقدون، أنتم الذين تتكلمون كثيراً عن «نكران الذات في الحب» وعن «فناء المحبّ في شخص المحبوب» وتمتدحون هذا الأمر، أن هذا يختلف في جوهره عن خداع النفس؟ إننا نهشّم المرآة ونبتكر لنفسنا صورة أخرى جديرة بالإعجاب ونجد متعة في الصورة الجديدة لذاتنا وقد غدَونا نسمّيها باسم شخص ثان،- ومع ذلك، لا تكون، أو لا ينبغي أن تكون كل هذه العملية خداعاً للنفس، ولا ينبغي أن تكون افتتاناً بالذات، أيها الناس العجيبون؟

أعتقد أن أولئك الذين يُخفون شيئاً واحداً فقط من أنفسهم عن أنفسهم، وأولئك الذين يخفون كلّية أنفسهم عن أنفسهم، يستوون بالنهاية في كونهم يقترفون **سرقة** من كنز المعرفة: من هنا يتضح لنا من أي خطر تنبّهنا المقولة الشهيرة «إعرف نفسك بنفسك».

38

لمن ينكر غروره

مَن ينكر وجود الغرور في نفسه يكون عادة حائزاً على أفظع شكل منه، مما يجعله يغضّ نظره عنه غزيزياً، كي لا يكون عليه أن يحتقر نفسه.

39

لماذا يصبح الأغبياء غالباً خبيثين

أمام اعتراضات خصمنا التي يشعر عقلنا بنفسه ضعيفاً كي يردّ على البعض منها، يجيب قلبنا بواسطة التشكيك في دوافع تلك الاعتراضات.

40

فنّ حالات الاستثناء في الأخلاق

لا ينبغي أن نمنح أذننا إلا نادراً إلى فنّ يُظهر ويمجّد حالات الاستثناء في الأخلاق؛ أن نفعل ذلك كما نفعل عندما نقتني بين الحين والآخر شيئاً من الغجريّين، مع التوجّس بأنهم يسرقون منا أكثر بكثير مما يدرّ عليهم المبيع.

41

تناول أو عدم تناول السمّ

إن الحجّة الحاسمة التي ظلّت تجعل الناس على مرّ العصور يُحجمون عن تناول السمّ لا تتمثل في كونه يقتل، بل في أنه سيّئ المذاق.

42

العالم من دون إحساس بالذنب

لو أننا لا نفعل سوى تلك الأفعال التي لا ينتج عنها إحساس بالذنب لَظلَّ العالم الإنساني دوماً على ما هو عليه من سوء ودناءة؛ لكن ليس على هذه الدرجة من المرض والبؤس التي هو عليها الآن. لقد كان هناك ما يكفي من الأشرار بدون ضمير في كل الأزمنة، والكثير من

الصالحين والمستقيمين الذين كانوا يفتقرون إلى المتعة التي تتأتّى من ضمير هنيء.

43

ذوو الضمائر الحيّة

أيسر على المرء أن يتبع ضميره من أن يتبع عقله: ذلك أن الأول يمنح صاحبه عُذراً وسُلواناً عند كل إخفاق، لذلك نجد دوماً عدداً كبيراً من ذوي الضمائر الحيّة مقابل قِلّة من ذوي الفهم.

44

وسائل متناقضة لتفادي المرارة

هناك نوع من الطباع يكون مفيداً لها أن تتمكّن من التعبير عن انزعاجها بالكلام: عن طريق الكلام تلين حِدّة المرارة لديها. بينما طبع آخر لا يبلغ طفح مرارته إلا عندما يتكلّم عن انزعاجه؛ وهذا النوع أفضل له أن يكتم ويبتلع غصّته: وما يفرضه هؤلاء على أنفسهم من تمالك للنفس أمام أعدائهم ورؤساء عملهم يساعد على تليين طبعهم ويحميهم من الانزلاق في الشطط في الشدة والمرارة.

45

لا داعي إلى الإفراط في الانزعاج

لا شكّ في أنه من المزعج أن يرى المرء نفسه مسمّراً على السرير، غير أن هذا ليس بالحُجّة ضدّ صلوحية العلاج الذي فرض ملازمة الفراش. والناس الذين عاشوا طويلاً خارج أنفسهم ثم انتهى بهم المطاف إلى اختيار نمط الحياة الباطنية والانطواء الفلسفي يعرفون أيضاً أن هناك حياة ملازمة فراش بالنسبة للعقل والروح. إنّ هذا إذاً ليس

بحجّة ضدّ مُجمل نمط الحياة الذي اختاره المرء لنفسه، لكنه يجعل مع ذلك بعض الاستثناءات والانتكاسات الظاهرية أمراً ضرورياً.

46

«الشيء في ذاته» الإنساني

إنّ الشيء الأكثر هشاشة والأكثر استعصاء على القهر مع ذلك هو الغرور الإنساني: بل إن قوّته تتضاعف وتنمو من خلال الجراح، ويستطيع أن يبلغ حجماً هائلاً في النهاية.

47

مهزلة الكثير من المجتهدين

ينتزعون لأنفسهم حيّزاً مهماً من أوقات الفراغ عن طريق إجهاد مُفرط للنفس، ثم يجدون أنفسهم بعدها لا يدرون ما الذي يفعلونه بذلك الوقت سوى أن يظلّوا يعُدّون مرور الساعات حتى ينقضي.

48

حياة ملؤها السرور

من يكون كثير السرور لا بد أن يكون إنساناً صالحاً؛ لكنه ربما لا يكون الأكثر ذكاء، مع أنه قد توصّل إلى ما يطمح إلى بلوغه الذكيُّ بكلّ ما أوتي من ذكاء.

49

في مرآة الطبيعة

ألا نكون أمام وصف دقيق لطبيعة شخصٍ عندما نسمعه يقول إنه يحبّذ المشي وسط حقول السنابل الصفراء العالية، وأنه يفضل الألوان الباهتة

والمصفرة التي تتشح بها الأزهار والغابات في فصل الخريف على كل ما عداها من الألوان، لأنها تشير إلى جمال مما لا تستطيع الطبيعة أن تبدع له من مثيل، وأنه يشعر بنفسه بين أشجار الجوز بأوراقها الثخينة كما لو كان بين أهله وذويه؛ وأنه يجد في الجبال متعته الكبرى، هناك حيث يجد تلك البحيرات الصغيرة النائية، وحيث تتراءى له الوحدة نفسها وهي ترمقه بعيونها من داخلها، وأنه يعشق ذلك الهدوء الرمادي للضباب الغسقي الذي يتسلل متمسّحاً بالنوافذ في مساءات الخريف وبدايات الشتاء ويلفّ بما يشبه لحافاً من المخمل كلَّ الأصوات التي لا تنبض بروح، وأنه يحسّ في الصخور التي لم تمسسها يد ببقايا من لغة شهودٍ من ماض واقع في ما قبل التاريخ متعطشين للبوح بحكاياتهم: لغة كان يكنّ لها إجلالاً وتقديراً منذ طفولته، وأن البحر بجلدة الثعبان المتحركة على صفحته وبجمال الكواسر الذي يجلّله كان دوماً ومايزال غريباً عنه؟

أجل، هناك شيء من ذلك الإنسان يتم وصفه هنا، لكنّ مرآة الطبيعة لا تنبئ بشيء عن كون هذا الإنسان مع كل حساسيته الشاعرية (وليس بالرغم عنها) يمكن أن يكون شخصاً عديم الإحساس، جشعاً ودعيّاً. ولقد سبق لهوراس الذي له معرفة جيدة بمثل هذه الأمور أن وضع على لسان ومهجة مُرابٍ روماني هذا الإحساس الرقيق في مقولته الشهيرة *“beatus ille qui procul negotiis”*(*).

50

قوّة دون انتصارات

إنّ أقوى مقولة معرفية (تلك التي تتعلّق بالانتفاء الكلّي لحرية الإرادة

(*) «سعيدٌ من نأى بنفسه عن التجارة».

لدى الإنسان) هي مع ذلك الأكثر افتقاراً للنجاح؛ ذلك أنّ عليها دوماً أن تواجه أكبر خصم، وهو الغرور الإنساني.

51

المتعة والخطا

واحد يحسن لأصدقائه لا إرادياً، من خلال شخصه، وآخر يفعل الشيء نفسه إرادياً، من خلال بعض من أفعاله. ومع أن الأول يُعتبر هو الأرقى نوعاً، فإن الثاني وحده هو الذي يحضر في الأذهان في ارتباط براحة الضمير وبالمتعة، أي في ارتباط بمتعة فضيلة الفعل الحسن التي يقوم مفهومها على قاعدة الإيمان بإراديّة أفعالنا، الحسنة منها والسيئة، يعني على قاعدة من الخطأ.

52

حمق أن نرتكب مظلمة

إن مظلمة يرتبكها المرء ضدّ شخص آخر أكثر قسوة على النفس من مظلمة يرتكبها غيرُه ضدَّه (ولا يتعلّق الأمر هنا بأسباب أخلاقية، كما ينبغي أن نوضح)؛ فالجاني يكون في الحقيقة هو الذي يتألّم، إذا ما كانت له قابلية لتأنيب الضمير طبعاً، أو للتفكير بأنه قد ألّب على نفسه بقية المجتمع من خلال فعلته، وأنه وضع نفسه في موضع العزلة بموجب ذلك. لذلك ينبغي على المرء، من منطلق حماية سعادته الداخلية، أي من أجل طمأنينته الخاصة، وبقطع النظر عمّا تُمليه الاعتبارات الدينية والأخلاقية، أن يحترس من ارتكاب المظالم أكثر من احتراسه من التعرّض للمظالم؛ ذلك أنه في هذه الحالة الأخيرة يبقى له سُلوانُ راحةِ الضمير والأملِ في الثأر لنفسه وتعاطف ومساندة الناس العادلين من حوله، بل مساندة المجتمع كلّه الذي يخاف من

الجُناة. -هناك عدد غير قليل من الناس لا تنقصهم القدرة على خداع أنفسهم بأن يحوّلوا كلَّ عمل ظالم يرتكبونه إلى مظلمة ارتكبها الآخرون ضدّهم، ويمنحون أنفسهم الحقَّ الاستثنائي في الدفاع عن النفس كتبرير لفعلتهم؛ ويكونون بذلك قد خففوا العبء على أنفسهم.

53

الحسد مُعلَناً أو صامتاً

الحسد العادي يعبّر عن نفسه قوقأةً حالَما تضع الدجاجة المحسودة بيضتها؛ وبذلك يكون قد نفّس عن نفسه وغدا أقلّ حِدّة. لكنّ هناك نوعاً أكثر باطنية من الحسد؛ ذلك النوع يغدو في مثل هذه الحالة صامتاً صمتاً مواتاً، متمنياً لو تُلجَم كلُّ الأفواه، ويتآكله الغيظ أكثر فأكثر لكون هذا الأمر لا يحصل. إن الحسد الصامت ينمو في الصمت.

54

الحنق كجاسوس

الحنق يستنفد كل ما تحويه النفس ويطرح على السطح حتى ما ترسّب في قاعها. لذلك ينبغي علينا، عندما يستعصي علينا استدرار الوضوح أن نعرف كيف نثير الحنق في محيطنا وأتباعنا وخصومنا كي نعرف ما الذي يدور في الأعماق ضدّنا من أعمال وأفكار.

55

الدفاع أصعب معنوياً من الهجوم

إن البراعة والبطولة الحقيقيتين للإنسان المستقيم لا تتمثلان في أنه يهاجم القضية ويظلّ على حبّه لشخص صاحبها، بل في ما هو أصعب

بكثير، وهو أن *يدافع* عن قضيته *الخاصة* دون أن يسبّب، أو يريد أن يسبّب، ألماً عميقاً للشخص الذي يهاجمها. إن سيف الهجوم صريح وعريض، بينما سيف الدفاع دقيق ينساب عادة على حدّ الإبرة.

56

صِدق مُنافٍ للصدق

من يكون صادقاً مع نفسه أمام الناس سينتهي إلى نوع من الزهو بسبب ذلك الصدق، إذ هو يعلم جيّداً لِمَ هو صادق مع نفسه؛ أي من نفس المنطلق الذي يجعل شخصاً آخر يبجّل المظهر الكاذب والخدّاع.

57

جمر على رأس العدوّ[١٦]

عادة ما نتأوّل تأوّلاً خاطئاً ومضلّلاً مسألة جمع الجمر على رأس الغير، ذلك أن ذلك الآخر يعلم هو أيضاً بما له من حق، ويكون قد فكّر هو أيضاً في جمع جمر.

58

كتب خطيرة

يقول أحدهم: «هذا الكتاب خطير، كما لاحظت ذلك على نفسي». لكن، لينتظر قليلاً وربما يأتي يوم يعترف فيه بأن ذلك الكتاب نفسه قد أسدى له خدمة جليلة، وذلك بأن كشف له عن مرض قلبه الدفين وطرحَه للنور. إن المواقف المتغيّرة لا تغيّر طبع الإنسان (أو تغيّره بصفة ضئيلة فقط)؛ غير أنها تضيء جوانب من شخصيته ظلّت حتى ذلك الحين، وضمن دائرة أخرى من الآراء، معتّمة ومتعذرة على الإدراك.

59

شفقة مفتعلة

يتظاهر المرء بالشفقة عندما يريد أن يبدو مترفّعاً على أحاسيس العداوة: غير أن ذلك لا نفع من ورائه. إذ لا يلاحظ الناس ذلك دون أن ينجم عنه ارتفاع شديد في ذلك الإحساس العدائي.

60

المناقضة الواضحة كوسيلة للتراضي

في اللحظة التي يعبّر فيها شخص بصفة علنية عن رأيه المذهبي المغاير لموقف زعيم سياسي أو معلّم شهير، يذهب بالجميع الاعتقاد بأن له غيظاً على ذلك الشخص. لكن يحدث أيضا أن يزول في تلك اللحظة بالضبط ما يكنه من غيظ على ذلك الشخص؛ لقد تجرّأ على أن يضع نفسه في نفس المرتبة معه، وبذلك يكون قد تخلّص على نحو مذهل من غيرته.

61

أن ترى نورك يضيء(١٧)

داخل أحوال يعتّمها الأسى والمرض والإحساس بالذنب يعجبنا أن نرى نفسنا نضيء الآخرين ونرى هؤلاء يجدون فينا صفحة القمر المضيء. عبر هذه الطريق الملتوية ندرك القدرة التي فينا على الإضاءة.

62

الفرح المشترك

الثعبان الذي يلدغنا ينوي إيذاءنا ويبتهج لألمنا: أدنى فصيلة من

الحيوانات بإمكانها أن تتصوّر *ألم* الآخرين. بينما تصوّرُ فرح الغير والابتهاج لذلك الفرح يعدّ من ميزات النوع الأرقى من الحيوان، ومن بين هذا النوع نفسه لا يكون متيسّرا إلا لعناصر نخبة منتقاة، بما يعني فصيلة (*humanum*) بشرية نادرة ، الأمر الذي جعل عدداً من الفلاسفة ينفون وجود شيء اسمه الفرح المشترك.

63

حبَل لاحق على الولادة

أولئك الذين توفّقوا إلى منجزاتهم وأعمالهم دون أن يعرفوا كيف، تراهم من بعدها يتصرّفون عادة كما لو أنهم غدوا حُبالى بها الآن، وذلك لكي يثبتوا أن تلك المولودات من صُلبهم وليست من بنات الصدفة.

64

قاسٍ عن غرور

وكما أن العدل غالباً ما يُستعمل غطاء على الضعف، كذلك يعمد عادة رجال مفكرون -لكنهم من نوع الكائنات الضعيفة- إلى اللجوء بدافع الغرور أحياناً إلى التمويه، ويتظاهرون بالظلم والقسوة كي يعطوا انطباعاً بأنهم أقوياء.

65

إهانة

إذا ما وجد أحد ما داخل كيس من المنافع قد أهدي له حبّةً واحدة من الإهانة، فإنه سينقبض وتشمئزّ نفسه من مُجمل الهدية.

66

إيروسطراطيون متطرّفون(١٨)

قد يوجد إيروسطراطيون بإمكانهم أن يُضرموا النيران في الهيكل الذي تُعبد فيه صورهم.

67

عالم التصغيرات

إن كونَ كل ضعيف وبائس يجد طريقه مباشرة إلى القلب قد أنشأ لدينا عادةَ أن نلجأ، عند التعبير عن كل ما يخاطب قلوبنا، إلى استعمال عبارات التصغير وكلمات تنبئ عن ضعف ذلك الشيء؛ أي أن نجعل منه لإحساسنا شيئاً ضعيفاً وحقيقاً بالإحسان.

68

صفة الرذالة في الشفقة

للشفقة وقاحتها الخاصة الملازمة لها: ذلك أنها وهي تصرّ على تقديم العون بأية طريقة، لا تجد حرجاً في استعمال أية وسيلة للعلاج، ولا تزعج نفسها بما يتعلق بنوعية وأصل الداء، وتمضي بوثوق في ممارسة دجل المتطبّب على حساب صحّة وسُمعة المريض.

69

تطفّل

هناك أيضاً تطفّل على الأعمال: وإنها لعلامة على قِلّة الحياء أن يتجرّأ شخص وهو مايزال فتى غراً على التعامل تعامل الندّ للندّ مع أعظم وأشهر الأعمال على الإطلاق وهو يحاول تقليدها. بينما يكون آخرون متطفّلين عن جهل لا غير -كذلك هو شأن عدد غير قليل من

الفيلولوجيين الشبّان والشيوخ تجاه أعمال اليونانيين القدامى.

70

الإرادة تخجل من العقل

ببرودة كلّية نرسم مشاريع رصينة عكس أهوائنا، غير أننا نرتكب بعدها أسوأ الأخطاء ضدّها، لأننا غالباً، وفي اللحظة التي يكون علينا أن نبدأ في تنفيذها، نشعر بالخجل من جرّاء تلك البرودة والرصانة اللتين صمّمناها بهما. وهكذا يقوم المرء بما ينافي العقل من منطلق ذلك النوع من الطيبة العنيدة المرافقة لكل الأهواء.

71

ما الذي يجعل الأخلاق تنفر من الريبيين

كل من يقيم اعتباراً عالياً لأخلاقيته ويأخذها مأخذ جِدّ كبير ينقم على من يكون ريبياً في مجال الأخلاق، ذلك أنه حيث يسخّر هو كل قواه، ينبغي علينا أن نتعجب، لا أن نختبر ونشك. وهناك أيضاً طبائع يكون *آخر ما تبقّى* لديها من الأخلاقية هو الإيمان بالأخلاق؛ تلك الطبائع تتعامل بنفس الطريقة مع الريبي، إن لم يكن بأكثر حدّة وحماس.

72

خجل الأخلاقيين

كل الأخلاقيين خجولون، لأنهم يعرفون أنه سيُنظر إليهم كجواسيس وخونة حالما يتمّ التفطّن إلى ميلهم العميق. وهم علاوة على ذلك يدركون ضعفهم في الممارسة، لأن دوافعهم الخفية عادة ما تصرفهم عن التركيز على نشاطهم وهم في خضمّ العمل.

73

خطر على الأخلاق العامة

أولئك الذين يجمعون بين النبل والنزاهة يتمكنون من تأليه كل عمل شيطاني تتفتّق عنه نزاهتهم، ومن تجميد حركة ميزان الحكم الأخلاقي لمدة من الزمن.

74

الوهم الأشد مرارة

يشعر المرء بإهانة تستعصي على المصالحة عندما يكتشف، حيث ظل يعتقد طوال الوقت أنه محبوب، أنه لم يكن يُنظر إليه في الحقيقة سوى كجهاز منزلي وزينة بيت لا غاية من ورائها سوى إرضاء غرور صاحب البيت.

75

الحب والاختلاف

ماذا يمكن أن يعني الحب سوى أن نتفهّم ونبتهج لرؤية شخص آخر يحيا ويتصرّف ويحسّ بطريقة مغايرة لطريقتنا؟ ولكي يستطيع الحب أن يتجاوز من خلال البهجة كل التناقضات، فإنه لا ينبغي عليه إلغاء ونفي هذه الأخيرة. -بل إن حب الذات نفسه يقتضي، شرطاً أساسياً له، وجود الثنائية (أو التعددية) في الفرد الواحد.

76

استنتاج من خلال الحلم

عندما لا نستطيع في اليقظة أن نعرف أو نحسّ بدقّة إن كان لدينا

إحساس بالرضا أو بالذنب تجاه شخص ما، فإن الحلم يخبرنا عن ذلك الأمر بكل وضوح.

77

عن الشطط

غياب الفرح، وليس الفرح، هو ما يولّد الشطط.

78

العقاب والمكافاة

لا أحد يتهِم دون أن يكون للعقاب والانتقام حضور خفيّ في ذهنه، حتى عندما يتهم المرء قدَره، بل نفسَه ذاتَها. -كل شكوى اتهامٌ، وكل ابتهاجٍ إطراءٌ: وسواء كنا نفعل هذا أو ذاك من كلا الأمرين، فإننا نلقي دوماً بالمسؤولية على شخص ما.

79

ظلم مزدوج

نتوسّل الحقيقة أحياناً عن طريق مظلمة مزدوجة، إذ عندما نتناول مسألة باستعراض وجهيها والنظر إليهما الواحد تلو الآخر، لأننا لا نستطيع أن ننظر إليهما معا، نجد أنفسنا في كل مرة نتجاهل الوجه الآخر أو ننفيه متوهّمين أن ما نراه هو الحقيقة في كلّيتها وكمالها.

80

الارتياب

إن الارتياب في ذاته لا يمضي دوماً متردداً وخجولاً، بل أحياناً بما يشبه الغيظ المستعر: لقد جعل نفسه يسكر كي لا يرتعد.

81

فلسفة الوصولي

من يريد أن يكون شخصاً مهماً عليه أن يمجّد ظلَّه أيضاً.

82

في فنّ التطهّر

على المرء أن يتعلّم كيف يخرج أكثر نقاوة من أوضاع قذرة، وأن يكون قادراً عند اقتضاء الحاجة على أن يغتسل بماء وسخ أيضاً.

83

انسياق

كلما ضاعف المرء من إطلاق العِنان لنفسه دون ضوابط اشتدت قبضة الآخرين على عِنانه.

84

النذل البريء

هناك طريق بطيئة ومتدرّجة إلى كل أنواع الرذيلة والنذالة. وعند نهاية تلك الطريق يجد الشخص الذي سلكها نفسه وقد ابتعد نهائياً عن مناطق غيوم الإحساس بالذنب، ويغدو ماضياً بكل براءة في نذالته.

85

تخطيط المشاريع

وضع المخططات واتخاذ القرارات يجلبان الكثير من الإحساسات المريحة، ومن لديه الطاقة على قضاء حياته كلّها كمصمّم للمشاريع فقط، سيكون دون شك إنساناً مغموراً بالسعادة؛ غير أنه سيكون عليه

أن يمنح نفسه بين الحين والآخر استراحة من هذا النشاط بأن يُنجز واحداً من تلك المخططات،-وعندها تأتي المتاعب والإحباط.

86

باي عين ننظر إلى المثال الأعلى

كل ذي كفاءة وتفان يغدو سجيناً لتفانيه ولا يستطيع أن ينظر بحرية خارج حدوده. وإذا لم يكن له قسطه من النقص في موقع ما فإنه لن يتيسّر له بسبب فضيلته تلك أن يجد طريقاً إلى الحرية العقلية والأخلاقية. ما ينقصنا هي العين التي ننظر بها إلى المثال الأعلى.

87

المديح الكاذب

إن المديح الكاذب يخلّف ندماً أشد مما يخلّفه العتاب غير النزيه، ربما لأننا من خلال المديح الكاذب نعرّض ملكة الحكم لدينا للهزء أكثر مما نفعل من خلال عتاب شديد أو غير عادل.

88

ليس مهمّاً كيف نموت

إن الطريقة التي يفكر بها الإنسان في الموت خلال حياته كلها وهو يتمتع بحيوية قواه هي التي تمثل حقّا معبّراً وشهادة على ما نسمّيه طبيعة ذلك الشخص؛ أما ساعة الموت نفسها وسلوكه وهو على فراش الموت فليس لها من أهمية في ذلك. إن الإنهاك الذي يطرأ على الحياة خلال تداعيها، خاصة عند موت أشخاص مسنّين، وعدم انتظام أو نقص غذاء الدماغ خلال تلك الفترة الأخيرة، وما يعانيه أحياناً من شدة الأوجاع، وتلك الحالة غير المألوفة في ذلك الوضع الجديد، مع

انهيال مطّرد للمخاوف وعودة الأحاسيس الخرافية، كما لو أن الموت شيء ذو أهمية كبيرة وأنه سيكون على المرء أن يعبر جسوراً من النوع الأكثر فظاعة؛-كل هذه الأشياء هي ما **لا يسمح** لنا بأن نعتمد لحظة الموت شهادة على حياة الإنسان. ثم إنه ليس صحيحاً أن المحتضر يكون عامة ***أكثر صدقاً*** من الحيّ؛ بل إن كل شخص تقريباً يجد نفسه مستدرجاً، من خلال الأجواء الطقوسية من حوله وسيول الدموع والأحاسيس المكبوتة منها والمعلنة، إلى عرض مسرحي للغرور واعٍ حيناً وغير واعٍ حيناً آخر. فتلك الجدّية التي يعامَل بها المحتضر عادةً تمثل بكل تأكيد لبعض البائسين الذين لم يكن لهم غير نصيب الإهمال خلال حياتهم المتعةَ الأرقى لحياتهم كلها وضرباً من التعويض ومنحة مكافأة على كل أنواع الحرمان التي عرفوها.

89

العادات وضحاياها

تجد التقاليد أصلاً لها في فكرتين: «المجموعة أكثر قيمة من الفرد» و«أولوية المصلحة الدائمة على المصلحة العابرة». على قاعدة هاتين الفكرتين يتم الاستنتاج بأن مصلحة المجموعة لابد أن توضع فوق مصلحة الفرد، يعني سعادته الحاضرة، بل وأكثر من ذلك مصلحته الدائمة أيضاً وحتى مسألة حفظ بقائه. وسواء تألم الفرد من مؤسسة تعود بالفائدة على المجموعة، أو أنه ينهار بسببها، أو حتى أن يلقى حتفه من أجلها، فالعادات لابد أن تُحفظ، والتضحية تكون ضرورية. غير أن هذا الرأي لا ينشأ طبعاً إلا عن أولئك الذين ليسوا من صف الضحايا؛ ذلك أن هذه الأخيرة (الضحية) تطرح من منطلق حالتها الشخصية أن الفرد يمكن أن يكون أكثر أهمية من الجماعة، كما أن المتعة الحاضرة، اللحظة الآنيّة في الجنة، ربما بإمكانها أن توضع في

منزلة أرقى من الاستمرارية الباهتة لأحوال خالية من الألم ومن الرفاه أيضاً. لكن فلسفة الضحية عادة ما لا تعبّر عن نفسها إلا بعد فوات الأوان؛ وهكذا يستمر الحال على التقليد والقيم الأخلاقية التي ليست في الحقيقة سوى الإحساس الذي يتكوّن لدينا عن ذلك المجمل من التقاليد التي نعيش تحت لوائها ونتربّى وفقاً لها؛ تربية نتلقاها لا بوصفنا أفراداً، بل كأعضاء من كيان كلّي، كرقم من أغلبية.-وهكذا يظل يحدث باستمرار أن الفرد **يرفع** من قيمته من خلال أخلاقيته.

90

الخير وراحة الضمير

أتعتقدون أن كل الأشياء الصالحة كانت تتمتع في كل العصور براحة الضمير؟ فالعِلم، وهو بكل تأكيد شيء صالح جداً، ظل يسلك طريقه إلى العالم من دون هذا الضمير الهنيء ودون نبرة حماسية، بل عبر طرق ملتوية بوجه محجّب أو مقنّع، تماماً مثل مجرم، وعلى الدوام بذلك الإحساس الذي تكون عليه بائعة مهرّبة. إن الضمير القلق هو المرحلة السابقة المهيئة للضمير الهنيء، وليس نقيضه؛ فكل صالح يكون في البدء أمراً جديداً، وبالتالي غير معتاد، مناف للتقاليد ولا أخلاقي، ويقضم قلب المبتكر السعيد مثل الأرضة.

91

النجاح يبرّر النوايا

لا ينبغي أن نخشى سلوك فضيلة حتى وإن بدا لنا واضحاً أن الدوافع التي تحضّ على ذلك ليست شيئاً آخر غير أنانية؛ أي منفعة، رفاه شخصي، خوف، اعتبار يتعلق بمنفعة صحية أو بالسُّمعة والشهرة . ننعت تلك الدوافع بالوضيعة والمنفعيّة: حسناً، لكنها إذا ما كانت

تحرّضنا على فضيلة، كالتجرّد مثلا، والالتزام بالواجب، والنظام، والتقشف، والاتزان والتوسط، فإنه يكون علينا أن نصغي إليها ونطيعها أياً كانت الصفة التي تنعت بها! وإذا ما بلغنا تلك الغاية الذي تدعونا إليها فإن الفضيلة التي تم التوصل إليها، وبفضل الهواء النقي الذي تسمح بتنفسه والراحة النفسية التي تشيعها، ستصبغ تلك الدوافعَ البعيدة لعملنا بطابع النبالة، ومن بعدها سنواصل القيام بتلك الأعمال نفسها، لكن من دون تلك الدوافع البدائية التي كانت تحضّنا عليها من قبل. لهذا السبب ينبغي على التعليم أن يعمل قدر الإمكان على فرض تثبيت الفضائل، وذلك حسب طبع كل تلميذ؛ ثم سيكون على الفضيلة نفسها أن تفعل فعلها الخاص كهواء صيفي منعش للروح، وأن تهِب حياة الناس نضجاً وحلاوة.

92

مسيحيّانيون، لا مسيحيّين

هذه هي مسيحيّتكم إذاً! -تسبّحون «لله وقدّيسيه» كي *تزعجوا* الناس، وعندما تؤيدون الثناء على الإنسان تبالغون في ذلك على نحو يستدعي غضب الربّ وقدّيسيه. كم كان بودي لو أنكم تتعلمون آداب السلوك المسيحية على الأقل، طالما أنكم تفتقرون إلى آداب القلب المسيحي.

93

انطباعات طبيعية إزاء التقيّ وغير التقيّ

لا بد أن يكون الإنسان صادقُ التقوى محلً احترامنا، وكذلك الكافر النزيه المتشبع بكفره. وإذا ما كنا إزاء إنسان من النوع الأخير كما لو أننا بالقرب من قمة جبل حيث يكون منبع السيول العاتية، فإننا نكون

إزاء التقيّ كما لو أننا نجد أنفسنا تحت أشجار يانعة، وارفة الظلال وهادئة جداً.

94

جرائم قتل شرعية

جريمتا القتل الشرعيتان الكبريان عبر كامل التاريخ الكوني هما، كي نتكلم دون لفّ ودوران، الانتحار المقنّع والانتحار شديد التقنّع. في الحالتين يريد المرء أن يموت؛ وفي كلتا الحالتين يكون الظلم الإنساني هو الذي يغرس خنجره في قلب الضحيّة.

95

«الحب»

الحيلة الأكثر براعة التي مكّنت المسيحية من عنصر امتياز على بقية الديانات تتمثل في كلمة واحدة: إنها تتكلم عن *الحبّ*[١٩]. وهكذا أصبحت هي الديانة الشعرية (بينما منحت الساميّةُ العالمَ بإبداعيْها الآخريْن ديانتيْ ملحمة بطولية). هناك في كلمة حب شيء غامض ومثير يخاطب الذاكرة والأمل ويجعل حتى أدنى العقول ذكاء وأكثر القلوب برودة تحس بشيء من إشعاع تلك العبارة. لدى سماع تلك الكلمة تفكر المرأة الأكثر ذكاء والرجل الأكثر ابتذالاً في تلك اللحظة التي يمكن أن تكون أقل لحظات حياتهما انتفاعية، حتى وإن لم يكن لإيروس أن يحلّق بهما عالياً؛ وكل أولئك الذين لا يُحصى لهم عدد من المحرومين من الحب، سواء من جهة الآباء أو الأبناء أو المحبين، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين يعيشون حياتهم الجنسية مصعَّدة؛ كل هؤلاء قد وجدوا ضالّتهم في المسيحية.

96

المسيحية مكتملةً

يوجد داخل المسيحية أيضاً موقف أبيقوري ينطلق من فكرة أن الله لا يطلب من الإنسان، خليقته وشبيه صورته، إلا ما كان *قادراً* على إنجازه، بما يعني أن الفضيلة المسيحية والكمال أمر يمكن بلوغه، وغالباً ما تم بلوغه. إن *الإيمان* بأن الإنسان يحب عدوَّه -وإن ظل مجرّد اعتقاد، وتوهّم وليس بحقيقة بسيكولوجية على الإطلاق (أي ليس بحب)- يجعل المرء بالضرورة سعيداً، ما دام ذلك الاعتقاد قائماً (لماذا؟ حول هذه المسألة يختلف تفكير عالم النفس عن المسيحي). وهكذا يكون على هذه *الحياة الدنيا* أن تحقق عن طريق الإيمان، أعني عن طريق التوهّم، لا مطلب محبة العدوّ فقط، بل كل المتطلبات المسيحية الأخرى، وتكون قد تبنّت واستبطنت الكمالَ الإلهي بحسب ما تدعو إليه مقولة «كونوا كاملين كما هو أبوكم الذي في السماوات كامل»[٢٠]، وتتحوّل بموجب ذلك إلى *حياة غِبطة*. وهكذا يكون بإمكان الخطأ إذاً أن يحوّل *وعد* المسيح إلى حقيقة.

97

عن مستقبل المسيحية

يمكننا أن نسمح لنفسنا بتوقعات فيما يتعلق باضمحلال المسيحية وعن المناطق التي سيكون تراجعها فيها بطيئاً، إن نحن فحصنا بدقة لأية أسباب وفي أية مناطق استطاع المذهب البروتستانتي أن يبسط نفوذه على نحو جارف. نعرف أن هذا المذهب قد وعد بأن يؤدي كل ما كانت الكنيسة القديمة تؤديه بأقل ثمن، أي من دون قُدّاسات مكلّفة، دون طقوس حج، ودون بهرج وبذخ كهنوتي؛ وقد انتشر بصفة خاصة لدى شعوب المناطق الشمالية التي لم تتشبع بالرمزية والولع بالشكلانية

اللذين يميّزان الكنيسة القديمة، على غرار شعوب المناطق الجنوبية؛ فلدى هذه الأخيرة ظلت المعتقدات الوثنية المتينة تواصل حياتها داخل المسيحية، بينما مثلت المسيحية في الشمال نقيضاً وقطيعة مع التقاليد العتيقة المحلية، وذلك ما جعلها تكون منذ البداية ذات طابع ذهني أكثر منه حسّي، ولذلك أيضاً أكثر تعصّباً وصلابة في أوقات المخاطر. وإذا ما تمّ اجتثاث المسيحية *من الأذهان* فإنه يبدو واضحاً أين ستشرع في الاضمحلال: أي هناك بالذات حيث ستقاوم بأكثر قوة وإصرار. أما في غير ذلك المكان فإنها ستنحني ولا تنكسر، تفقد أوراقها لكنها تستعيدها مجدداً،-لأن *الحواس*، لا الأفكار، هي التي انخرطت فيها في تلك المنطقة. والحواس هذه هي التي تغذّي الفكرة القائلة بأن الكلفة، بالرغم من كل النفقات الباهظة التي تتطلبها الكنيسة، تظل دائماً أقل من تلك التي تتطلبها العلاقات الصارمة للعمل والأجرة: إذ كم تكون عالية قيمة العطالة (أو شبه الكسل) عندما يكون المرء قد تعوّد عليها! تعترض الحواس على عالم مجرّد من المسيحية يكون على الإنسان أن يعمل فيه كثيراً، ويكون نصيب العطالة فيه ضئيلاً؛ تنحاز الحواس إذاً إلى السحر، أي أنها تفضّل أن تدع الرب يعمل عوضا عنها- *oremus nos,deus laboret!* .(٢١)

98

كوميديا وصدق غير المؤمنين

ليس هناك من كتاب استطاع أن يعبّر بقدر عال من الوفرة، وببراءة ساذجة عن ذلك الأمر الذي يمكن أن يكون فيه خير ونعيم كل فرد (السعادة الداخلية الحماسية والمستعدة للتضحية، التي يمنحها الإيمان وتأمّل «الحقيقة» التي ينطوي عليها كمنتهى ومطلق الحقيقة) مثلما يفعل ذلك الكتاب الذي يتحدث عن المسيح: من خلاله يمكن لكل إنسان

فطِن أن يتعلم الوسيلة المثلى التي تمكّن من جعل كتاب ما كتاباً كونياً ومُستساغاً من طرف الجميع، أي تلك الوسيلة البارعة التي تتمثل في تقديم كل الأشياء على أنها كانت هناك وتمّ العثور عليها، ولا شيء منها يطرح نفسه على أنه قادم أو غير يقيني. كل الكتب ذات التأثير الواسع تحاول أن تثير انتباهاً مشابهاً في الناس كما لو أن أوسع أفق عقلي وروحي يجد نفسه معروضا داخلها، وأن كل الكواكب من الحاضر والمستقبل لا يسعها إلا أن تدور حول تلك الشمس الساطعة. ألا يكون لهذه الأسباب نفسها التي تجعل هذه الكتب ذات تأثير كبير أن تجعل كل كتاب **علمي محض** ضعيف التأثير إذاً؟ وأن يكون بموجب ذلك محكوماً عليه بأن يظل يحتل مرتبة الأدنى وأن يظل يمضي حياته بين الأدنياء، كي ينتهي به المطاف إلى أن يُصلب وأن لا يُبعَث من جديد أبداً. أوَلاَ يبدو كل شرفاء المعرفة العلمية، مقارنة بما يعلنه رجال الدين عن «علمهم» و «روحهم القدُس»، «فقراء بالروح» إذاً؟ هل تستطيع أية ديانة أن تتطلب تجرّداً ونكراناً للذات، وأن تُقصي عنها بكل صرامة وشدة كل الأنانيين أكثر مما يفعل العلم؟ -هكذا وعلى نحو مماثل لهذا، وبشيء من التمثيل في كل الأحوال، يمكننا أن نتحدث عندما يكون علينا أن ندافع عن أنفسنا أمام المؤمنين؛ ذلك أنه من غير الممكن تقريباً أن تتم عملية دفاع من دون شيء من التمثيل. أما في ما بيننا فيجب أن يكون الكلام أكثر صدقاً: إننا نتوخّى هنا حرية لا يستطيع أولئك، حتى من منطلق مصلحتهم، أن يفهموها. ليذهب طربوش التبتّل إلى الجحيم إذاً! وسحنة النفس المتواضعة! بل أكثر من ذلك وأفضل، هكذا تصدح حقيقتنا: إن لم يكن العلم مرتبطاً بمتعة العارف وبنفعية المعلوم، فأي شأن سيكون لنا إذاً في العلم؟ وإن لم يكن هناك شيء من الإيمان ومن الحب والأمل يدفع بروحنا إلى المعرفة، فأي شيء سيجذبنا إذاً إلى العلم؟ ولئن كانت الأنا في

الحقيقة غير ذات أهمية داخل العلم، فإن الأنا المبتكِرة السعيدة، بل وكل أنا نزيهة ومجتهدة، تعني الكثير داخل جمهورية العلماء. احترام أولئك الذين يهِبون الاحترام، وفرحة أولئك الذين نريد لهم الخير، أو الذين نُكبرهم، وفي بعض الحالات نصيب المجد أو الخلود المتواضع: تلك هي المكافأة التي يمكن أن نحصل عليها مقابل ذلك النكران للذات، كي لا نذكر بعض آفاق ومكافآت أقل درجة، وإن كانت الأغلبية قد أقسمت، وما زالت تقسم من أجلها هي بالذات يمين الوفاء لهذه الجمهورية وللعلم على وجه العموم. ولو أننا لم نظل إلى حد ما أناساً *غير علميين*، فأي غرض سيكون لنا في العلم؟ وفي المجمل، وكي أتكلم بكل وضوح، بطريقة مباشرة ودون لف: ***بالنسبة للعارف المحض ستكون المعرفة أمراً غير مهم على الإطلاق***. ما يميّزنا عن المتدينين والمؤمنين ليست النوعية، بل الكمّية في الإيمان وفي التديّن: فنحن نرضى بالقليل. غير أن هؤلاء سيقولون لنا: كونوا راضين إذاً! وأعلنوا أنكم راضون! وسيكون جوابنا على هذا بكل بساطة: «فعلاً، لسنا من أقل الناس رضى! أما أنتم، إن كان إيمانكم يجعلكم أكثر الناس سعادة، فلتعربوا إذاً عن سعادتكم! فصفحات وجودكم كانت على الدوام تخذل إيمانكم أكثر مما تفعل حججنا! ولو أن رسالة البشرى لإنجيلكم كانت مرسومة على جباهكم لكنتم في غنى عن الإصرار بكل عناد على ضرورة التمسك بسلطة كتابكم: كان بإمكان كلامكم وسلوككم أن يجعلا من الإنجيل شيئاً فائضاً عن اللزوم، وكان لإنجيل جديد أن يظل ينشأ بصفة مستمرة من خلالكم! وهكذا فإن كل تسبيحكم المتواصل للمسيحية ليس سوى نبتٍ من أصل لامسيحيتكم؛ وبمرافعاتكم إنما تكتبون صك اتهامكم. أما إذا ما كنتم مع ذلك ترغبون في الخروج من حالة عدم الرضا التي تعيشونها في مسيحيتكم فإن تجربة ألفي سنة ستفضي بكم إلى هذه المراجعة

التي ستعبّر عن نفسها، إذا ما صغناها في الهيأة المتواضعة لتساؤل، كالآتي: «إن كان المسيح حقاً ينوي تخليص العالم، أفلا يكون إذاً قد فشل في مهمته؟»

99

الشاعر كمرشد إلى المستقبل

طالما يظلّ لدى الناس في وقتنا الحاضر فائض طاقات شعرية لا تُستعمل في صياغة الحياة، فإنه سيكون حريّاً بها أن تتجه بكلّيتها ودون نقصان نحو هدف واحد لا يتمثل في وصف الحاضر أو إحياء الماضي وتكوين صورة مكثفة مختصرة عنه، بل في استشراف أفق المستقبل؛ وذلك ليس وفق مفهوم يجعل الشاعر شبيهاً بعالم اقتصاد سياسي ذي خيال مبدع تتمثل مهمته في رسم صورة مستقبلية لأفضل الأوضاع المعيشية لشعب أو أمة. بل، وكما كان الفنانون القدامى يعملون على ابتداع وصياغة صور الآلهة، سيكون عليه أن يعمل على *الاستمرار في صياغة* الصورة الجميلة للإنسان، وأن يستشفّ من داخل عالمنا وواقعنا الحديث أين تستطيع تلك الروح النبيلة الجميلة أن تظل ممكنة دون انطواء مفتعل أو انسحاب من ذلك الواقع، هناك حيث ما يزال بإمكانها أن تتجسّد اليوم أيضاً في حالة من التناغم والانسجام من خلال حضورها البادي للعيان واستمراريتها ونموذجيتها كمثال وقدوة، وأن تساعد بالتالي عن طريق شحذ الغيرة والرغبة في المحاكاة على بناء المستقبل. وستتميّز أعمال هؤلاء الشعراء بخاصّية كونها قد حصّنت نفسها وأوصدت أبوابها في وجه رياح ولهب *الانفعالات*: كل ما يتعلق بالخطأ الفادح وتمزيق أوتار الروح الإنسانية، والضحكة الهازئة وصرير الأسنان وكل ما هو تراجيدي وهزلي بالمفهوم المعتاد القديم، ستتراءى كلها مقارنة بهذا الفن الجديد أشكالاً عتيقة مزعجة

من التشويه، وإسباغاً للفظاظة على صورة الإنسان. وستكون الطاقة، والطيبة، واللين، والنقاوة، وذلك التوازن التلقائي والغريزي لدى الأفراد وأفعالهم، أرضاً سويّة تمنح القدم راحة ومتعة: سماء مشعة تنعكس على الوجوه والوقائع: العلم والفن متمازجيْن داخل وحدة جديدة؛ العقل وأخته الروح يتعايشان الآن دون غرور وحسد تحت سقف واحد، يستمدّان من التناقض رونق الجدية، لا روح توتّر التناحر والشّقاق. - كل هذا سيكون الخلفية الذهبية الحاضنة والعمومية التي سترتسم فوقها بدءاً من الآن فقط *الاختلافات* الناعمة والتلوينات الدقيقة داخل المَثل الأعلى المجسَّد في هذه *اللوحة* الأصيلة؛ صورة السموّ الإنساني المتنامي باستمرار.

هناك أكثر من طريق تقود انطلاقاً من غوته إلى هذا الشعر المستقبلي؛ غير أن هذا يتطلب وجود دليل طريق جيّد، وبصفة أخص قوة أكبر مما يمتلك شعراء اليوم، أي هؤلاء الذين يرسمون عن غير وعي صورة الإنسان شبه الحيواني، والذين تشابهت عليهم القوة والطبيعة بالشطط وعدم النضج.

100

ربّة الشعر وبنتيزيليا(٢٢)

«الموت أفضل من أن أكون امرأة غير قادرة على *الإغراء*». عندما تبدأ ربّة الإلهام في التفكير على هذا النحو فإن نهاية فنها تكون غير بعيدة. لكن يمكن أن تكون تلك خاتمة لتراجيديا، أو لمسرحية هزلية أيضاً.

101

الطريق الملتوية نحو الجميل

إذا ما كان الجميل هو ما يمنح البهجة -كما كانت تغنّي بذلك ربّات

الشعر قديماً-، فإن النافع غالباً ما يكون انعطافة ضرورية في طريق الجميل، وبإمكانه إذاً أن يردّ عن حق اللومَ غير المتبصّر لأنصار اللحظة الحاضرة، الذين لا يريدون الانتظار ويعتقدون أن بوسعهم أن يبلغوا كل شيء دون لف أو انعطافات.

102

عُذر لأكثر من ذنب

إن الرغبة الدائمة في الإنتاج والتطلع إلى الخارج لدى الفنان تغدو عائقاً أمام إمكانية أن يغدو أفضل وأكثر جمالاً كشخص، أي أن يبدع نفسه؛ -عدا أن يكون طموحه على درجة من العلوّ كي يفرض عليه أن يظهر بين الناس في حياته أيضاً في مستوى الجمال والأهمية المتطوّرين لعمله. وفي كل الحالات فهو لا يملك سوى كمّ محدود من الطاقة، وأياً كان القسط الذي سينفقه منه على نفسه، فكيف سيكون عليه أن يفي من هذا الكمّ المحدود بحاجيات عمله أيضاً؟- والعكس بالعكس.

103

إرضاء النخبة

إذا ما استطاع المرء «أن يُرضي النخبة من بني عصره»[٢٣] بفنه، فإن ذلك سيكون علامة على أنه *لن يُرضي* أفضل الناس من العصور القادمة: مع أن المرء يكون «قد عاش كفايته لكل العصور»، -إن إعجاب النخبة يضمن المجد.

104

من معدن واحد

عندما نكون من معدن واحد نحن وما ننتجه، كتاباً كان أم أثراً فنياً،

فإننا نعتقد في قرارة أنفسنا بأن ذلك العمل لا بد أن يكون غاية في الجودة والكمال، ونشعر بالإهانة عندما يجده آخرون قبيحاً، شديد المغالاة، ودعياً.

105

اللغة والإحساس

كونُ أننا لم نُمنح اللغة من أجل التعبير عن مشاعرنا ذلك هو ما يدلّ عليه أنّ الناس البسطاء العاديين يخجلون من البحث عن كلمات للتعبير عن إحساساتهم العميقة، ويتمّ التعبير عنها من خلال أفعال بعينها، وحتى في هذه الحالة يكون هناك شعور بالخجل عندما يبدو أن الآخرين قد استشفّوا دوافعَ تلك الأفعال. أما لدى الشعراء الذين هم عادة من الناس الذين لم تجد عليهم الآلهة بهذا الحياء، فإن أنبلهم يغدون غير بيّنين في التعبير عن الأحاسيس وتبدو على لغتهم آثار واضحة للإكراه؛ بينما غالباً ما يكون شعراء الأحاسيس الحقيقيون عديمي الحياء في الحياة العملية.

106

خطأ بشان الحرمان

من لم يتخلّ عن فنه تماماً ولمدة طويلة، بل يظلّ قاطناً داخله بصفة دائمة، لن يكون بوسعه أن يدرك كم سيكون حرمانه ضئيلاً عندما يحيا من دون فن.

107

ثلاثة أرباع الطاقة

إن عملاً يطمع في إثارة انطباع بالعافية لا ينبغي أن يستعمل أكثر من

ثلاثة أرباع من مجمل طاقة مبدعه على أقصى تقدير. أما إذا ما مضى المبدع فيه إلى أبعد حدود طاقته فإنه سيزعج المتفرج ويدخل عليه إحساساً بالخوف من خلال توتّره. كل الأشياء الجيدة تحمل شيئاً من الارتخاء وتستلقي هناك مثل أبقار في المرج.

108

عدم استضافة الجائع

ولأن الجائع لن يتقبّل أطيب المآكل بأفضل مما يفعل مع أكثرها رداءة، فإن الفنان ذا التطلب الرفيع لن يفكر في دعوة الجوعان إلى مائدته.

109

الحياة دون فن ونبيذ

يصحّ على الفن ما يصحّ على النبيذ: من الأفضل أن يحيا الإنسان من دونهما، وأن يكتفي بالماء، ويدع الماء يظل يتحوّل من لدُن نفسه باستمرار من خلال ناره الداخلية وحلاوة روحه الباطنية إلى خمرة.

110

عبقرية القرصنة

تنشأ عبقرية القرصنة في مجال الفن، والتي تستطيع أن تغالط حتى أرقى العقول، عندما يكون شخص ما منذ نعومة أظافره ميّالاً بصفة تلقائية إلى اعتبار كل الأشياء التي لا يحرسها قانون بصفتها ملكاً خاصاً لشخص بعينه غنائم مشاعة له. والآن نرى كل ممتلكات العصور الماضية وكبار فنانينها ملقاة في الفضاء العمومي محاطة ومحروسة برهبة الإجلال لدى أقلية من الناس الذين يعرفون قيمتها. غير أن تلك العبقرية القرصانية وبواسطة انعدام الحياء لديها تتحدى حراسة هذه

الأقلية وتراكم لنفسها ثروة تجلب لها بدورها احتراماً ومهابة.

111

إلى شعراء المدن الكبرى

من خلال النظر في حدائق الشعر الحالي نلاحظ أن مجاري المدن الكبرى قريبة جداً منها؛ داخل روائح الزهور هناك شيء ممازج لها يُفشي قرفاً وعفونة. وبكل ألم كنت أسأل: هل أنتم في حاجة أيها الشعراء أن تتخذوا من البلادة والقذارة عرّاباً كلما كان عليكم أن تعمّدوا إحساساً جميلاً وبريئاً؟ هل ينبغي عليكم بالضرورة أن تضعوا على رأس إلهتكم النبيلة قلنسوة مهرّج وقناع شيطان؟ ما هو مصدر هذه الحاجة، وهذه الضرورة؟ - إنها، ما من شك في ذلك، حياتكم بالقرب من المجاري.

112

عن مِلح الكلام

لا أحد فسّر لنا لماذا كان اليونانيون شديدي الاقتصاد في استعمال وسائل التعبير التي كانت بحوزتهم وعلى مستوى هائل من الثراء والقوة، حتى أن كل كتاب مما جاء في العصور اللاحقة يبدو صارخ النبرة، كثير الألوان وشديد الحماس. نسمع كثيراً أن شعوب المناطق الجليدية بالقرب من القطب الشمالي، مثلها مثل شعوب المناطق المدارية الساخنة، شديدة الاقتصاد في استعمال المِلح، بينما تسرف في استعماله شعوب المنبسطات وسواحل المناطق معتدلة المناخ. هل يكون ما يتميّز به عقلهم من برودة وصفاء، وما يقابل ذلك من حرارة مداريّة في طبيعتهم الأساسية، هي السبب المزدوج الذي جعلهم في غير حاجة لكمّيات من الملح والبهارات كما هو الحال بالنسبة لنا نحن؟

الكاتب الحرّ بامتياز

كيف لا نذكر لورنس ستيرن[٢٤] في كتاب مخصص للمفكرين الأحرار، هو الذي كان غوته يجلّه كأكبر مفكر حرّ للقرن الذي عاش خلاله! ليكن له هنا إذاً شرف أن نسمّيه أكبر الكتّاب الأحرار على الإطلاق، ذلك الذي يبدو كل الكتاب الآخرين إلى جانبه متصلبين، عديمي الرهافة، قليلي السماحة وغلاظاً بدائيين. ليست النغمة المكتملة والواضحة هي ما ينبغي أن يشاد به لديه، بل «النغمة اللانهائية»، إذا ما أردنا أن نطلق بهذه العبارة اسماً على أسلوب فني يظل يمارس باستمرار على شكل محدد ذي انقطاعات وتراجعات ويدفع به إلى مجال اللامعلوم، بما يجعله يعني الشيءَ وغيرَه في الآن نفسه. ستيرن هو سيد *الالتباس* بامتياز، إذا ما أخذنا العبارة بطبيعة الحال في معنى أوسع من ذلك الذي يُعطى لها عندما نفكر في العلاقات بين الجنسين. سيجد القارئ نفسه تائهاً محتاراً وهو يحاول باستمرار أن يعرف ماذا يفكر ستيرن في الحقيقة حول مسألة ما، وإن كان يمنحها هيأة صارمة أم بشوشة، ذلك أنه يستطيع أن يثير كلا الانطباعين من خلال نفس القَسَمة التي ترتسم على وجهه؛ إنه يجيد، بل ويريد ذلك، أن يكون على حق وعلى غير حق في الآن نفسه، وأن يمزج على نحو مضلل بين الفكر العميق والتهريج. التداعيات لديه هي في الآن نفسه استطرادات في الحكي وتطور مستمر لقصته؛ وحِكَمُه تنطوي في نفس الوقت على سخرية من مقولة حكمية. أما نفوره من الجدّية فيرتبط لديه بميل إلى عدم تناول أي شيء بصفة سطحية ومن جهة ظاهره. وهكذا يُدخل على القارئ شعوراً بعدم اليقين داخل حالة لا يدري المرء فيها إن هو واقف، متمشٍّ أم مستلقٍ: إحساس أقرب إلى حالة تحليق. وكأكثر الكتاب مرونة، فإنه يُشرك قارئه أيضاً في

شيء من تلك المرونة. بل إنّ ستيرن يذهب إلى حد أنه يخلط لا إرادياً بين الأدوار حتى يغدو بسرعة قارئاً بنفس القدر الذي يكون به كاتباً؛ ويغدو كتابه أشبه بمسرحية داخل المسرحية، وجمهور مسرح أمام جمهور مسرح آخر. علينا أن نسلم أنفسنا دون قيد ولا شرط إلى التقلبات المزاجية لستيرن، ويمكننا على أية حال أن نتوقع منها أن تكون رحيمة، رحيمة دوماً.

إنه لمن الغريب والمفيد أن نرى كيف كان موقف كاتب عظيم مثل ديدرو من هذا الالتباس العام لدى ستيرن: كان موقفاً لا يقلّ عنه التباساً؛ وكان ذلك بالذات موقفاً موغلاً في السخرية، أكثر ستيرنيّة من ستيرن نفسه. فهل كان كتابه «جاك القدري» محاكاة لستيرن، إعجاباً به، سخرية منه، أم محاكاة على سبيل الباروديا؟ إنه يصعب علينا أن نحدد ذلك بدقة؛ ولعل ذلك هو ما كان مبتغى الكاتب بالذات. وقد كان هذا الشك بالذات هو ما جعل الفرنسيين يقفون موقفاً *غير عادل* تجاه عمل معلّمهم الأول (ذلك الذي لم يكن له من داع يمكن أن يجعله يتصاغر أمام أي من المعلّمين الكبار، قدمائهم ومعاصريهم على حد سواء). فالفرنسيون أكثر جدّية من أن يستطيبوا مثل هذه السخرية، وبالتحديد ذلك الموقف الساخر من السخرية نفسها. هل سيكون عليّ أن أضيف أن ستيرن يعدّ أسوأ نموذج من بين كبار الكتّاب، وفي الحقيقة إنه الكاتب الذي لا يمكن أن يكون مثالاً يحتذى به، وكان على ديدرو نفسه أن يدفع ثمن تجرّؤه على اتخاذه نموذجاً. فما كان يريده الفرنسيون الجيّدون وكانوا قادرين عليه، مثل بعض اليونانيين من قبلهم، هو عكس ما يريده ستيرن ويستطيعه: إنه يضع نفسه كاستثناء في المقدرة والبراعة فوق كل ما كان الكتّاب الفنانون يلزمون به أنفسهم: الانضباط، الوثوق، متانة الطبع، الثبات على النوايا، الوضوح، البساطة، الاستقامة في المنهج والأسلوب.

يبدو للأسف أن ستيرن الشخص وستيرن الكاتب كانا متقاربين ومتشابهين للغاية: كانت روحه السنجابية تقفز باضطراب غير مقيّد من غصن إلى آخر؛ وكل ما يقع بين السامي والمنحط كان معروفاً لديه؛ لقد وقف على كل غصن وفي كل موقع، متجوّلاً على الدوام بعينيه الوقحتين والنديّتين، وبهيأة الحساسية المفتعلة. ولولا نفور اللغة من مثل هذا التركيب لقلت إنه كان ذا طيبة قلب قاسية، وله في متعة الخيال الباروكي، بل المشوّش بالفساد، ما يشبه بلادة سحر البراءة. مثل هذا الالتباس المخالط للحم والروح، ومثل هذه الحرية العقلية المندسّة في كل ليفة وعضلة من الجسم، خصلتان قلّما كُتب لأحد غيره أن يحوزهما على هذا النحو.

114

واقع منتقى

وكما يفعل الناثر في استعماله لعبارات تنتمي إلى اللغة العامية، لكنه لا يستعمل كل كلماتها، التي ينشأ من خلالها الأسلوب الأدبي المنتقى، فإن الشاعر سيعمل في المستقبل هو أيضاً على أن لا يصوّر إلا ما هو *واقعي*، وسيهمل كل ما هو خيالي وخرافي، وغامض ومعتم من تلك الأشياء التي كان الشعراء القدامى يظهرون فيها قوّتهم. لا شيء غير الواقع، لكن ليس كل واقعي بطبيعة الحال!-بل واقع منتقى!

115

أنواع مسيخة في الفن

إلى جانب الأنواع الحقيقية للفن، فن الهدوء الأكبر وفن الحركة الكبرى، توجد أصناف مسيخة، فن مهوّس بالسكون وعديم الإحساس، وفن مضطرب: كلاهما يحلمان بأن يأخذ الناس ضعفهما

على أنه عنوان قوّتهما وأن يخلطوا بينهما وبين النوعين الأولين.

116

اللون هو ما ينقص البطل

يحبذ الفنانون المعاصرون الحقيقيون أن يرسموا لوحاتهم على خلفية ترتعش بألوان حمراء، وخضراء، رمادية وذهبية، على خلفية ***الحسية المتوتّرة***: وهذا أمر يتقنه أبناء هذا القرن. لكن لهذا سلبية عندما ينظر المرء إلى هذه اللوحة بعين غير عين هذا القرن، وهي أن تلك الأشكال الكبيرة التي يرسمونها فوقها ستبدو منطوية على شيء خافق. مرتعش، ذابل، يلف مثل عجاجة، مما يجعلنا لا نستطيع أن نرى فيها صفة الأعمال البطولية، بل في أقصى الأحوال مجرّد شناعات متطاوِسة تطمح إلى تقمص هيأة البطولة.

117

أسلوب الاكتظاظ

يأتي أسلوب الاكتظاظ في الفن نتيجة لضعف في الطاقة التنظيمية ضمن تبذير مُشطّ في الوسائل والغايات. في طور بداياته يمنحنا الفن في أحيان كثيرة ما هو نقيض لهذا الأمر.

118

Pulchrum est paucorum hominium(*)

ينبئنا التاريخ والتجارب بأن الفظاعة الهائلة التي تثير الخيال على نحو

(*) عبارة لاتينية للمؤرخ الروماني تيتوس ليفوس وتعني: «*الجميل ميزة لقلة من الناس فقط*.»

سرّي وتدفع به إلى ما وراء الواقعي واليومي أقدم وأسرع نموّاً وتكاثراً من عنصر الجمال في الفن وما يلاقيه من تقدير وإجلال، وأن عنصر الفظاعة هذا سرعان ما يعود إلى التكاثر بصفة مكثفة بمجرّد أن يتعتّم الحس الجمالي. ويبدو أنه يمثل بالنسبة للأغلبية الكبيرة من البشر حاجة أكبر من الحاجة إلى الجميل: ربما لأن الفج الغليظ يحتوي على مادّة مخدّرة.

119

أصول تذوّق الأعمال الفنية

إذا ما فكّرنا في البذرات البدائية للحس الجمالي عند البشر وتساءلنا عن مختلف أنواع الغبطة التي كانت تحصل لدى الشعوب المتوحشة على سبيل المثال، فإننا سنجد أولاً متعة *فهم* ما *يريد أن يقوله* شخص آخر؛ ويمثل الفن هنا نوعاً من الأحاجي التي تمنح من يفكّ ألغازها متعة يستمدّها من سرعة وتوقّد نباهته. ثم سنجد بعدها في الأعمال الفنية البدائية ما يذكّرنا بتلك الأشياء السارّة في تجارب الإنسان والتي كانت تُدخل عليه الغبطة، مثلاً عندما يصوّر لنا الفنان مشاهد من الصيد ومن الانتصارات وحفلات الأعراس. -كما يمكننا من ناحية أخرى أن نجد أنفسنا مستثارين، متأثرين ومتأججين أمام مشاهد تمجد الانتقام والمخاطر مثلاً. هنا تكمن المتعة في عامل الإثارة نفسها، أي في الانتصار على الضجر. حتى التذكير بأشياء كريهة، عندما يكون قد تم التغلب عليها، أو عندما تُظهرنا نحن أنفسنا، بوصفنا موضوعاً للفن، مهمّين لدى المستمع (مثلما يحدث عندما يصف المغني الحوادث الخطيرة التي تعرّض لها بحّار مجازف)، هي أيضاً تستطيع أن تُدخل علينا بهجة كبيرة، وهو ما سنسجّله عندها لحساب الفن.

لكنّ هناك نوعاً آخر من الابتهاج الأكثر رهافة وتهذيباً هو ذلك

الذي ينشأ لدينا عند مشاهدة كلّ منتظِم ومتناظر في الخطوط والنقاط والإيقاعات؛ إذ هي، وبموجب علاقة تشابه، ستوقظ فينا الحِسّ بكل ماهو نظام وانتظام في الحياة مما ندين له بمجمل رفاهية حياتنا: ففي عبادة المتناظر لا يفعل الإنسان سوى التعبير لاإرادياً عن إجلاله للنظام والانسجام كمصدر لما ظل يعرفه من سعادة حتى هذه اللحظة؛ هذا الابتهاج هو ضرب من صلاة الشكر. بعدها، ومع حدوث ما يشبه حداً بعينه من التخمة من هذه البهجة المذكورة آخراً، ينشأ إحساس أكثر رهافة يمكنه أن يتأتى عن متعة نجدها في ما يطرأ من كسر للتناظر والنظام؛ عندما يحفزنا ذلك مثلاً على البحث عما هو معقول في ما يبدو غير معقول، فيبدو من خلال ذلك نوعاً من فكِّ طلاسم فنيٍّ كشكل أرقى مما ذكرناه في البداية عن المتعة التي يجدها الإنسان في الفن. - من سيظل مستمراً على متابعة هذه المعاينة سيدرك عن *أي نوع من الفرضيات* في تفسير الظاهرات الفنية سيكون عليه أن يتخلّى.

120

شيء من التباعد

ليس مفيداً بالنسبة للأفكار الجيّدة أن تتالى بسرعة فائقة؛ لأنها تحجب الرؤية عن بعضها البعض. لذلك نرى كبار الفنانين والكتاب ينتجون كمّاً غير قليل من الأعمال الرديئة.

121

الغِلظة والضعف

لقد اكتشف الفنانون من كل الأزمنة أن *الغِلظة* تنطوي على قدر من الطاقة، وأنه ليس في متناول أيّ كان أن يكون غليظاً لمجرّد أن يريد

ذلك؛ مثلما تستطيع بعض أنواع الضعف أن تمارس تأثيراً قوياً على الأحاسيس. من هنا تم استنباط وسائل فنية معوّضة غدا الاستغناء عنها أمراً صعباً حتى على كبار الفنانين وأكثرهم تفانياً في الإتقان.

122

الذاكرة الجيّدة

مِن الناس مَن لا يستطيع أن يصبح مفكراً، لا لشيء إلا لأنه يملك ذاكرة جيّدة أكثر مما ينبغي.

123

تجويع عوضا عن الإشباع

يتوهّم فنانون كبار بأنهم استطاعو من خلال فنهم أن يتملّكوا روحهم تملّكاً تاماً وأن يُشبعوها. لكن الحقيقة هي أن تلك الروح قد غدت، من خلال فنّهم، ولخيبة أملهم، أقلّ قابلية للإحاطة وللامتلاء، بما يجعل عشرة فنانين أكبر حجماً منهم يستطيعون الغرق في عمقها السحيق دون أن يُشبعوها.

124

خوف الفنانين

الخوف من احتمال أن لا يجد الناس في صورهم ما يدلّ على أنها حيّة بإمكانه أن يدفع بفنانين من ذوي الذوق المتداعي إلى رسمها على نحو يجعلها تُبدي ملامح شبيهة باستعار الجنون؛ تماماً كما كان الفنانون اليونانيون الأوائل من جهتهم، ومن منطلق الخوف نفسه، يرسمون على وجوه حتى المحتضرين والمصابين بجراح قاتلة تلك الابتسامة التي يعرفون أنها العلامة الأكثر حيويّة على الحياة، غير مبالين في ذلك

بما تُضفيه الطبيعة في مثل هذه الحالات على أولئك الذين هم بين الحياة والموت من قسمات مُحدَّدة.

125

لا بدّ للدائرة أن تنغلق

من مضى في فلسفة أو في أي نوع من الفنون حتى نهاية مطافه ولفّ حول نقطة النهاية سيدرك عن تجربة داخلية لماذا كان كبارٌ من الأعلام والمعلمين يغادرون ذلك المطاف باشمئزاز ليتجهوا نحو مطاف جديد يواصلون فوقه مسارهم. على الدائرة أن تنغلق طبعاً،- غير أن الفرد، بمن في ذلك أعظم العظماء، يفضّل الجلوس بثبات في نقطة معيّنة من محيط الدائرة بهيأة توحي بالإصرار العنيد، كما لو أنه لا ينبغي على الدائرة أن تنغلق أبداً.

126

الفن القديم وروح الحاضر

وبما أن كل فن يغدو أكثر فأكثر قدرة على التعبير عن الحالات النفسية، الأكثر اضطراباً منها والأكثر ليناً، والأكثر عنفاً، والأكثر انفعالاً، فإن كبار الفنانين من المتأخرين الذين يجدون أنفسهم في سِعة من أمرهم من خلال هذه الوسائل التعبيرية، يشعرون بعدم الارتياح إزاء الأعمال الفنية للعصور القديمة، كما لو أنه لم يكن ينقص أولئك القدامى غير الوسائل التي تجعلهم يمكّنون روحهم من التعبير عن نفسها بوضوح، أو ربما كانت تعوزهم بعض الشروط التقنية؛ ويعتقدون بالتالي أنّ عليهم أن يهبّوا لمساعدتهم، ذلك أنهم يؤمنون بتشابه، بل بوحدة كل الأرواح. بينما روح ذلك المعلّم الكبير لم تكن هي نفسها من قبل، ربما كانت أعظم، لكنها أكثر برودة، وتنفر من كل حيويّ مثير: عناصر

التوازن والتناظر واحتقار كل لطيف ومحبّب، ونوع من القسوة اللاإرادية، وبرودة صباحية، والهروب من حالات الانفعال كما لو أن الفن سيلقى حتفه من خلالها، ذلك هو ما كان يكوّن ذهنيّة كل كبار الفنانين القدامى ومنظومتهم الأخلاقية، أولئك الذين لم يكونوا يتناولون وسائلهم التعبيرية كما اتفق، بل كانوا ينتقونها وفقاً لضرورة ما تقتضيه أخلاقيتهم تلك ويمنحونها روحاً من خلالها. -لكن، هل يعني أننا تبعاً لهذه المعاينة المعرفية سننكر على اللاحقين من الفنانين الحق في أن يُحيوا بروحهم الخاصة تلك الأعمال القديمة؟ كلا، إذ بمنحها روحنا فقط نستطيع أن نجعلها تواصل الحياة: إن *دمنا* وحده هو الذي يجعلها تتحدث *إلينا*. إن عزفاً «تاريخياً» محضاً سيكون مخاطبة شبحية تتجه إلى أشباح[٢٥]. ونحن لا نجلّ كبار فناني الماضي عن طريق الرهبة العقيمة التي تحرص كل الحرص على إبقاء كل نوتة وكل كلمة في موقعها وعلى الشكل الذي تمت به صياغتها، بقدر ما نفعل ذلك ونحن نحاول فعلياً أن نظل نساعدها ونجدد مساعدتنا لها على النهوض إلى الحياة من جديد. لنتصوّر فقط بيتهوفن وهو يعود فجأة ويستمع إلى عزف إحدى أعماله وفقاً للأحوال النفسية ورهافة الأعصاب المميّزة للعصر الحديث التي تُكوّن أُسس شهرة قادة الأوركسترا الجدد؛ من المحتمل أنه سيظل لمدة من الزمن صامتاً، محتاراً إن سيكون عليه أن يرفع يده لاعناً أم مبارِكاً، لكنه سيتكلم بالنهاية قائلاً: هكذا! هكذا! إن هذا الذي أسمعه لا هو أنا ولا هو ليس-أنا، بل واحد ثالث؛ إنه يبدو لي أيضاً شيئاً محقاً، وإن هو ليس *الحق*. لكن لتنظروا بأنفسكم كيف ستتصرّفون في الأمر[٢٦]، إذ في كل الأحوال أنتم من سيكون عليكم أن تستمعوا، -والحيّ على حق، كما يقول صديقنا شيلر[٢٧]. كونوا إذاً على حق ودعوني أعود إلى قبري.»

127

ضد منتقدي الاقتضاب

ما يقال باقتضاب يمكن أن يكون ثمرة وحصاد شيء خضع طويلاً لكثير من التفكير: غير أن القارئ حديث العهد بهذا المجال، والذي لم يتسنّ له بعد أن يفكر في هذا الأمر، يرى في كل ما يقال باختصار شيئاً جنينياً، ليس دون تلميح معاتب للكاتب لأنه وضع له على المائدة طعاماً من شيء لم يكتمل نموّه ولم ينضج بعد.

128

ضد قصيري النظر

أتعتقدون أن هذا عمل ملفّق من قطع وكِسَر، لأنه يقدَّم (وينبغي أن يقدَّم) إليكم في شكل شذرات؟

129

قراء المقولات الحِكمية

إن أسوأ قرّاء المقولات الحِكمية هم أصدقاء الكاتب عندما يسارعون إلى الانطلاق من العام لاستقصاء الخاص الذي نشأت عنه تلك المقولات: ذلك أنهم يبددون كل جهود الكاتب من خلال هذا التلصّص على الطناجر، مما يجعلهم لا يظفرون من ذلك في أفضل الأحوال أو في أسوئها إلا بإرضاء فضول رديء، وهو منتهى استحقاقهم، عوضاً عن تحصيل انطباع أو درس فلسفي.

130

عادات سيئة للقارئ

تتمثل العادة السيّئة المزدوجة للقارئ تجاه الكاتب في أن يمتدح كتابه

الثاني على حساب الأول (أو انعكس)، وينتظر من وراء ذلك أن يبدي له الكاتب اعترافاً بالجميل.

131

المثير في تاريخ الفن

إذا ما تابعنا تاريخ فن من الفنون، كفن الخطابة لدى اليونانيين على سبيل المثال، فإننا، ونحن نمرّ من معلّم كبير إلى آخر ونشاهد تلك الصرامة المتزايدة في الخضوع لمجمل تلك القوانين والإكراهات، القديمة منها والأخرى التي انضافت إليها لاحقاً، سنبلغ في النهاية حالة من التوتّر المقلق: سنفهم عندها أن القوس سينكسر حتماً، وأن ما يسمّى بالتركيبة اللاعضوية المحلاّة والمقنّعة بأبدع الوسائل التعبيرية - أو في هذه الحالة الأسلوب الآسيوي الباروكي- كان في وقت ما ضرورة، بل ونعمة تقريباً.[٢٨]

132

إلى عظماء الفنانين

الحماس الذي تشيعه في العالم لقضية ما، أيها الرجل العظيم، يُحدث *إعاقة* على عقول الكثيرين. إن معرفة هذا الأمر شيء مهين بالتأكيد. لكن المنبهر يظل يحمل حدبته بافتخار ومتعة؛ وبهذا المعنى يظل لديك عزاء في أن السعادة قد *تضاعفت* في العالم بفضلك.

133

عديمي الضمير الجمالي

المتعصّبون الحقيقيون لاتجاه فني بعينه هم أصحاب الطبائع غير الفنية الذين لا دراية لهم بعالم النظرية الفنية ولا بالممارسة الفنية، لكنهم

مأخوذون بكل ضروب التأثيرات *الابتدائية* لفن ما. لا مكان لشيء من ضمير استيطيقي لدى هؤلاء،-ومن ثمة لا شيء مما يمكن أن يردعهم عن التعصب.

134

كيف ستكون حركات الروح وفقاً للموسيقى الجديدة

يمكننا أن نكوّن لأنفسنا فكرة واضحة عن الغاية التي تلاحقها الموسيقى الجديدة التي يطلق عليها اليوم، وبعبارة قوية لكنها غير واضحة مع ذلك، إسم «النغمة اللامتناهية»، بأن نتصوّر أننا نمشي داخل البحر، وأننا نظل نفقد باستمرار وثوق خطواتنا فوق القاع الذي نضع أقدامنا على سطحه، وننتهي بأن نسلم أنفسنا كلّياً إلى التيار المضطرب: يغدو علينا إذاً أن نشرع في *السباحة*. مع الموسيقى القديمة المعتادة حتى الآن كان على المرء أن *يرقص* بحسب إيقاع سريع مرّة وبطيء مرّة، وفقاً لحركة النغمات الرقيقة أو الاحتفالية أو الحماسية المندفعة؛ بينما كانت مسايرة الدرجات الموزونة للوحدات الزمنية وللقوة تفرض على روح المستمع انضباطاً مستمراً؛ على قاعدة ذلك التقابل بين التيار الهوائي البارد المتأتي من الوضوح، والأنفاس الحارة للحماس الموسيقي، كان يتأسس سحر تلك الموسيقى.

أما ريشارد فاغنر فكان يريد نوعاً آخر من *حركة الروح*، حركة شبيهة بالسباحة والتحليق كما سبق أن ذكرنا. ربما كان ذلك العنصر الجوهري في كل تجديده. كانت أداته الموسيقية الشهيرة النابعة من تلك الإرادة والمتلائمة معها -«النغمة اللامتناهية»- تعمل على كسر كل تناسق رياضيّ للزمن والقوة، بل والازدراء به أحياناً، وتجربته ثرية بالابتكارات في مجال هذه التأثيرات التي يكون لها في أذن المستمع القديم وقع المفارقات والتجديفات الإيقاعية. وفاغنر يخشى التكلّس

والتحجّر وتحوّلَ الموسيقى إلى نمط معماري، فيعمد إلى وضع إيقاع ثلاثي مقابل الإيقاع الثنائي، وليس نادراً أن نراه يُقحم إيقاعاً خُماسياً وسُباعياً، ويعيد مباشرة نفس الجملة الموسيقية، لكن مع تمديد يجعل مدّتها الزمنية تتضاعف ضعفين وثلاثة أضعاف. إن محاكاة لمثل هذا الفن يمكن أن يترتب عليها خطر كبير على الموسيقى، إذ بمحاذاة النضج المشطّ للإحساس الإيقاعي كان يربض مستتراً متصيّداً على الدوام خطرُ التوحش، وانهيار الإيقاع. ويصبح ذلك الخطر أكبر عندما تتكئ مثل هذه الموسيقى أكثر فأكثر على فن درامي ولغة تعبيرات إيمائية طبيعانية غير متولدة من مستوى راق من البلاستيكية، فن لا ينطوي على أي مقياس للتوازن وليس بإمكانه أن يمنح مقياس توازن للعنصر الذي يلتصق به، أي لذلك الكيان الموسيقى ***المفرط في الأنوثة***.

135

الشاعر والواقع

ربّة الإلهام الشعري التي لا يبدو أنها من عشيقات الواقع لن تكون هي الواقع بطبيعة الحال، وستلد لصاحبها بالتالي أطفالاً بأعين غائرة وعظام هشة.

136

الوسيلة والغاية

في الفن لا تبرّر الغايةُ الوسيلةَ؛ لكنّ وسائل نبيلة يمكنها أن تجعل الغايات نبيلة بدورها.

137

أسوأ القرّاء

أسوأ القرّاء هم أولئك الذين يتصرّفون على غِرار الجنود النهّابين: ينتقون لأنفسهم الأشياء التي يمكن أن يحتاجوا إليها، ويلوّثون ويبعثرون بقية الأشياء، ويغمرون المجمل بأقذع الشتائم.

138

علامات الكاتب الجيّد

للكتّاب الجيّدين ميزتان يشتركون فيهما جميعاً: يفضّلون أن يكونوا مفهومين على أن يكونوا مُدهِشين؛ ولا يكتبون للامعين وثاقبي الذهن من القرّاء.

139

تمازُج الأجناس

تمازُج الأجناس في الفنون يمثل شهادة على عدم ثقة يكنّها مبدعوها لطاقاتها الخاصة؛ لقد كانوا يبحثون عن قوى مساعدة، وعن مُرافعين ومخابئ،-كذلك يكون الشاعر الذي يستنجد بالفلسفة، والموسيقار الذي يستدعي الدراما، والمفكر الذي يستعين بالبلاغة.

140

أن يصمت الكاتب

على الكاتب أن يمسك لسانه عندما يشرع أثره في الكلام.

141

علامة المرتبة

كل الشعراء والكتّاب المولعين بصيغ التفضيل يريدون أكثر مما يستطيعون.

142

كُتب باردة

يعوّل المفكّر الجيّد على قرّاء يستطيعون أن يشعروا بعده بالسعادة نفسها التي يجدها في التفكير الجيّد، مما يجعل كتاباً يبدو بارداً ومتقشفاً يتراءى متوهجاً بأشعة شمس العقل البهيج وسُلواناً حقيقياً للروح، إذا ما وقعت عليه العين المناسبة.

143

حيلة العقل الثقيل

المفكر الثقيل عادة ما يختار له الثرثرة أو الأبّهة كحليفين؛ عن طريق الأولى يعتقد أنه سيكتسب خفة وسلاسة، وعن طريق الثانية يسعى إلى الإيهام بأن خصلته متأتية عن إرادة حرّة وعن نيّة فنية غايتها المهابة التي تستوجب بطءاً في الحركة.

144

عن أسلوب الباروك

من كان كاتباً أو مفكراً ولم يكن مولوداً للديالكتيك وتواتر الأفكار، أو تربّى على ذلك، سيلجأ لا إرادياً إلى البلاغة أو إلى الدراما، إذ مبتغاه في النهاية هو أن يجعل نفسه مفهوماً وأن يكسب من خلال ذلك قوة، بقطع النظر عما إذا كان سيتوصل إلى ذلك عبر الطرق المعبّدة، أم

على سبيل المباغتة والمصادفة؛ كراعٍ، أم كلصّ. وهذا الأمر نفسه ينطبق على مجالات الفنون البلاستيكية والموسيقية حيث يكون الإحساس بالمطبّ الديالكتيكي، أو بضعف في الأداء التعبيري والسردي، متعاضداً مع ميل عميق وملحّ للاحتفاء بالشكل، دافعاً إلى ظهور ذلك الأسلوب الذي يسمّى *أسلوب الباروك*. ووحدهم سيّئو التكوين والمغرورون هم الذين سيثير فيهم سماع هذه العبارة إحساساً بالازدراء. كلما شرع فن عظيم في الذبول، وعندما تكون متطلبات فن التعبير الكلاسيكي قد بلغت حداً أقصى من الصرامة، ينشأ أسلوب الباروك كظاهرة طبيعية سيُنظر إليها ربما بشيء من الكآبة- كشيء يستبق حلول الظلام-، ولكن بإعجاب في الآن نفسه، وذلك بسبب المعوّضات الفنية التي يمنحها في مجالَي التعبير والسرد. يدخل في هذا المضمار عامل اختيار مواد ومواضيع ذات توتّر درامي أقصى بإمكانها، وحتى من دون طابع فنّي، أن تجعل القلوب تهتز، لأن الجنة والجحيم يصبحان عن طريقها قريبيْن جداً من الإحساس؛ تأتي بعدها البلاغة التي ترشح بها الانفعالات والحركات القوية والسموّ القميء والكتل الضخمة، وبصفة عامة حضور الكمّ في ذاته، -كما يفصح ذلك عن نفسه لدى ميكيل أنجلو أب أو جدّ فناني الباروك الإيطاليين-؛ الأضواء الغسقية، والأخرى البهيجة والملتهبة فوق الأشكال المفخمة، إضافة إلى جرأة متزايدة في الوسائل والأغراض تبدو على قدر من المبالغة المتكلّفة لعين الفنان، بينما سيتوهم غير العارف حتماً أنه أمام فيض لاإرادي لزخم ثراء فني طبيعي أصيل. كل هذه الخصوصيات التي يستمد منها هذا الأسلوب عظمته لم تكن ممكنة أو مسموحاً بها في ما سبق من أنواع الفن في العصر الكلاسيكي والعصور القديمة: لقد ظلت تلك اللذائذ لزمن طويل ثماراً محرّمة معلّقة فوق أغصانها. -والآن بالذات، والموسيقى تمضي نحو التفكك

خلال هذه الفترة الأخيرة، يمكننا أن نلتقي بهذه الظاهرة لأسلوب الباروك على هيأة من البهرج الخاص، وأن نتعلم من خلال المقارنة الكثير عن العصور القديمة: ذلك أنه، ومنذ العصر اليوناني، ظل هناك أسلوب باروك غالباً ما يظهر للوجود، في الشعر والخطابة وفي الأساليب النثرية المتنوّعة، وفي النحت كما في المعمار كما هو معروف، وبالرغم من افتقاره إلى مستوى راق من النبالة وإلى كمال لا إرادي بريء ومظفّر، فإنه ظل في كل مرّة يهبّ لنجدة عدد من فناني العصر الذي يبرز فيه، بمن في ذلك عدد من أفضلهم وأكثرهم جدّية. لذلك سيكون من الغرور، كما قلنا آنفاً، أن نريد بكل بساطة أن نطلق عليه حكم استنقاص، وإن كان على كل منا أن يمتنّ لكون إحساسه لم يتأثر به إلى درجة أنه يغدو غير قابل للانفتاح على الآثار الفنية الأكثر نقاء وأرقى أسلوباً.

145

قيمة الكتب الصادقة

الكتب الصادقة تجعل القارئ صادقاً، على الأقل بأن تدفع بكراهيته ونفوره إلى الظهور إلى النور، وهما اللذان يفلح الذكاء الماكر عادة في إخفائهما ببراعة. فأمام كتاب ندع أنفسنا ننساق بسهولة، بينما ترانا نتمالك أنفسنا كثيراً أمام الأشخاص.

146

الأشياء التي تمكّن الفن من كسب أنصار

بعض مواقع جميلة، تطوّر مثير في مجمله، وأجواء اختتامية مثيرة ومؤثرة؛ ذلك هو ما يكفي لكي يجعل أثراً فنياً في متناول أغلبية غير العارفين: وفي مرحلة من تاريخ الفن يريد المرء فيها أن يكسب

الجمهور الواسع لعموم الناس إلى جانب الفنان، أي كأن يريد تأسيس حزب، ربما من أجل الحفاظ على الفن، سيكون من مصلحة الفنان أن لا يفعل ولا يقدّم *أكثر* من تلك الأشياء التي ترضي الجمهور، كي لا يتحوّل إلى مبذّر لطاقاته في مجال لن يجد فيه من سيشكره عليه. أما أن يمضي الفنان إلى *أبعد من ذلك* -أي محاكاة الطبيعة في وظائفها العضوية وتطورها- فسيكون ذلك، في هذه الحالة بالذات، كمن يلقي بذاراً في الماء.

147

أن يكسب المرء عظَمة على حساب التاريخ

كل فنان كبير من المتأخرين يستقطب ذوق المولعين بالفن يُحدث لا إرادياً انتقاء وإعادة تقييم لكبار الفنانين القدامى وأعمالهم: وكل ما هو موافق له وذو قرابة به لديهم، وكل ما يمنح نكهة أولية تمثل عتبة لتذوّقه ويعلن عن قدومه سيُعتبر منذ تلك الحظة فصاعداً الشيءَ المهمّ الحقيقي فيهم وفي أعمالهم؛ -إنها ثمرة تخبّئ في داخلها عادة دودة خطأ فادح.

148

كيف يتمّ استدراج عصر ما إلى الفن

لنعلّم الناسَ من خلال الوسائل السحرية للمفكرين والفنانين كيف يستمدّون من أنفسهم مشاعر الاحترام تجاه كل نواقصهم وجدب عقولهم وعماهم وانفعالاتهم التي لا يقبلها العقل -وهذا أمر ممكن: أن لا يبدي المرء من الأعمال الإجرامية والجنونية غير جانب سام فيها، ومن الضعف وانعدام الإرادة والاستسلام الأعمى غير ما هو مؤثر وما يخاطب المشاعر من مثل تلك الحالات -وهذا أيضاً رأيناه

يحصل غالباً- . هكذا نكون قد استعملنا الوسيلة التي تُلهم حتى عصراً غير فني وغير فلسفي محبةً متحمسة للفلسفة والفن (وبالتحديد للفلاسفة والفنانين كأشخاص)، وربما تكون في ظل ظروف عسيرة الوسيلة الوحيدة للمحافظة على كيانات في غاية اللين والهشاشة.

149

الفن والفرح

إن النقد، الأحادي الجانب والظالم منه، كما الرصين، يمنح من يمارسه قدراً كبيراً من المتعة، بما يجعل العالم مدين بالشكر لكل أثر وكل فعل يثير كثيراً من النقد ويحرّك كثيراً من النقّاد؛ ذلك أن النقد يجرّ خلفه مَسحَب ضوء من الفرح وخفة الروح، ومن الإعجاب بالذات والفخر، ومن الدروس والعزم على مزيد الإتقان. لقد خلق ربُّ الفرحة السيّئ والرديء لنفس الغاية التي خلق من أجلها الحسن والجيّد.

150

عندما يقفز الفنان على منزلته

عندما يبتغي فنان أن يكون شيئاً أكثر من فنان، كأن يكون مرشداً أخلاقيا لشعبه، فسينتهي به الأمر إلى أن يقع في غرام خِلقة فظيعة من مادة أخلاقية،- وإذا ربّة الإلهام تضحك ساخرة: ذلك أن تلك الربّة الطيّبة يمكنها أن تصبح شريرة أيضاً بدافع الغيرة. لنتذكر فقط ميلتون(٢٩) و كلوبستوك(٣٠).

151

عين الزجاج

إن توجيه الموهبة نحو مواد وشخصيات ومواضيع أخلاقية، نحو الروح

الجميلة للعمل الفني، لا يمثل أحياناً سوى عين الزجاج التي يضعها الفنان الذي *تعوزه* الروح الجميلة، مع نجاح -نادر في الحقيقة- في أن تغدو تلك العين في نهاية المطاف عنصراً طبيعياً حياً، وإن كانت في الحقيقة طبيعة مصابة بعاهة، -لكن مع نوع آخر معتاد من النجاح يتمثل في أن العالم بكلّيته يعتقد أنه يرى طبيعة حيث لا شيء هناك غير زجاج بارد.

152

الكتابة وإرادة الانتصار

يُنتظر من الكتابة أن تكون دوماً إعلاناً عن انتصار، وبتعبير أوضح، ***انتصاراً يحققه المرء على نفسه*** ويطرحه على الآخرين بغية إفادتهم منه؛ غير أن هناك كتّاباً مصابين بعُسر الهضم من أولئك الذين لا يكتبون إلا عندما يتعذر عليهم هضم شيء ما، بل عندما يبقى ذلك الطعام عالقاً بحلقهم: يحاول هؤلاء أن يجعلوا من كدَرهم وسيلة لتكدير مزاج الآخرين، وبالتالي لممارسة سلطة عليهم، بما يعني: إنهم هم أيضاً يريدون تحقيق انتصار، لكن على الآخرين.

153

الكتاب الجيّد يتطلّب مُتّسعاً من الوقت

كل كتاب جديد يكون له مذاق حامض عند صدوره: إنه يحمل عيب الشيء الجديد. وعلاوة على ذلك يسيء إليه كاتبه الذي يكون على قيد الحياة، في صورة إذا ما كان معروفاً وحوله يدور شيء من الحديث؛ ذلك أن جميع الناس عادة ما ينزعون إلى الخلط بين الكاتب وعمله. وسيكون على ما يحمله ذلك الكتاب من عمق فكري وحلاوة وبريق أن تنتظر كي ترى نفسها تتطور مع مرّ السنين بفضل إعجاب

يزداد نموّاً حتى يتحول إلى شيء معهود وبالنهاية إلى تقليد متوارث. ساعات كثيرة لابد أن تكون قد مرّت عليه، وعناكب قد نسجت بيوتها فوقه. ومع مرور الزمن فإن قرّاء جيّدين يجعلون كل كتاب أفضل فأفضل، وخصوماً جيّدين يجعلونه أكثر وضوحاً.

154

الشطط كوسيلة فنية

الفنانون يدركون جيّداً ماذا يعني أن تستعمل الشطط كوسيلة لإثارة الانطباع بالثراء. إنه واحد من الحِيَل الأكثر براءة التي يجب على الفنان أن يتقنها كوسيلة لاستدراج النفوس؛ ذلك أنه في عالمهم الذي يتجه الاهتمام فيه كلّياً إلى المظهر لا تحتاج وسائل استدعاء المظهر إلى أن تكون أصيلة بالضرورة.

155

الأُرغُن اليدوي المخفي

يعرف العباقرة أكثر من ذوي الموهبة كيف يخبّئون أُرغُنَهم، وذلك بفضل عباءتهم الفضفاضة؛ لكنهم في الحقيقة لا يستطيعون سوى أن يظلوا يعيدون على الدوام عزف مقطوعاتهم السبع.

156

الاسم على الغلاف

اسم الكاتب على غلاف الكتاب، ولئن غدا الآن تقليداً، بل وواجباً تقريباً، فهو مع ذلك سبب في أن غدت الكتب دون تأثير يذكر. فإذا كانت الكتب جيّدة فإنها تكون بالتالي أكثر أهمية من الأشخاص، بما هي خُلاصتهم؛ لكن لمجرّد أن يظهر اسم الكاتب على الغلاف فإن

الخلاصة تجد نفسها وقد تمّت إذابتها من طرف القارئ في ما هو شخصي، بل وحميمي، ويكون غرض الكتاب قد أُحبط. إنّ من صفات الطموح الحق للذكاء أن يكفّ عن الظهور بشكل فردي.

157

أعنف نقد

نكون قد وجهنا أعنف نقد لشخص أو لكتاب عندما نعلن تبنّينا لمثله الأعلى.

158

قليلاً ودون حُبّ

كل كتاب جيّد يتجه إلى نوع بعينه من القرّاء ويُكتب وفقاً لذلك النوع، لذلك يكون لبقية القراء، أي الأغلبية، رأي سلبي فيه؛ وذلك هو ما يجعل سُمعته قائمة على قاعدة منحسرة ولا تتأسس إلا ببطء. بينما الكتاب ذو المستوى المتواضع والرديء يكون على ذلك المستوى بسبب أنه يحاول أن يعجب الكثيرين، ويحصل بالفعل على ذلك الإعجاب.

159

الموسيقى والمرض

يتمثل خطر الموسيقى الجديدة في أنها تناولنا كأس الغبطة والروعة بطريقة كلها إغراء، وبهيأة وجْد أخلاقي تجعل حتى ذا الطبع المعتدل والنبيل يتناول منها بعض جرعات أكثر مما ينبغي. إلا أن هذا الإسراف الأدنى بإمكانه مع التكرار المستمر أن يؤدي بالنهاية إلى خلخلة وتدمير الصحة العقلية بالقدر الذي يفعله شطط فج شديد؛ وعندها لن يظل

بوسع ذلك المدمن إلا أن يغادر في يوم ما مغارة الحوريات[٣١] وأن يقذف بنفسه عبر الأمواج العاتية والمخاطر ليسلك طريقه نحو دخان إيتاكا وأحضان زوجة أكثر تواضعاً وأكثر إنسانية[٣٢].

160

فائدة للخصم أيضاً

إن كتاباً دسم المحتوى العقلي لا يسعه إلا أن يمنح شيئاً من ذلك لخصومه أيضاً.

161

الشباب والنقد

نقد كتاب يعني بالنسبة للشباب أن لا تدع شيئاً من أفكار مفيدة منه يمر إليك، وأن تدافع عن نفسك منه بيديك وقدميك. الشاب يعيش في حالة دفاعية ضد كل جديد لا يستطيع أن يحبه جملة وتفصيلاً، ويقترف في خِضمّ تلك الحالة الدفاعية كلما سنحت له الفرصة جريمة لا موجب لها.

162

مفعول الكمّ

تتمثل المفارقة الكبرى في تاريخ الشعر في أن شخصاً يمكنه أن يكون همجياً في كل الأشياء التي كانت من مقوّمات عظمة الشعراء القدامى، أي يكون مليئاً نواقص ومشوّهاً من رأسه حتى أخمص القدمين، ويظل مع ذلك شاعراً كبيراً. وكانت تلك حالة شكسبير، الذي، مقارنة بسوفوكلس، يشبه منجماً مليئاً ذهباً ورصاصاً وحصى، بينما الثاني ليس ذهباً فحسب، بل ذهباً خالصاً من أنبل نوع، مما يجعل المرء

ينسى قيمته كمعدن. غير أن الكمّ في تراكمه الكبير يصبح له مفعول *النوعية*؛- وذلك في صالح شكسبير طبعاً.

163

لكل بداية خطرها

أمام الشاعر خيار بين أمرين: إمّا أن يمضي تدرّجاً بالإحساس من مرتبة إلى مرتبة أعلى بقليل حتى ينتهي إلى بلوغ درجة عليا، أو أن يجرّب طريقة الهجوم المباغت وأن يعمد إلى الضربة القوية التي يضع فيها كل طاقاته منذ البداية. غير أن لكل من الطريقتين مخاطرها: في الحالة الأولى قد يرتدّ عنه مستمعه بسبب الملل، وفي الثانية بسبب الذعر.

164

كلمة لصالح الناقد

الحشرات لا تقرص بدافع من الخبث، بل لأنها تريد أن تعيش هي أيضاً؛ كذلك هم نقّادنا: إنهم يريدون دمنا وليس ألمنا.

165

نجاح وعدم نجاح المقولات الحكمية

يعتقد عديمو التجربة دوماً عندما تنير عقولهم مقولة ما من خلال بساطة الحقيقة التي تنطوي عليها بأنها شيء قديم ومعروف، وينظرون شزراً إلى المؤلف كما لو أنه يريد أن يسرق ما هو ملك للعموم؛ بينما يجدون متعة في أنصاف الحقائق المبهّرة جيّداً ويعبّرون للمؤلف عن فرحتهم بها. وسيعرف هذا الأخير كيف يقدّر مثل هذه الإشارة، وسيخمّن من خلالها في أي موضع قد أصاب وفي أي موضع آخر قد فشل.

166

إرادة الانتصار

إن فناناً يمضي في كل ما يقوم به إلى ما يتجاوز طاقته سينتهي إلى كسب تعاطف الجمهور من خلال المشهد الذي يمنحه في الصراع المرير الذي يخوضه؛ فالنجاح لا يأتي دوماً من خلال الانتصارات، بل أحياناً من خلال إرادة الانتصار أيضاً.

167

Sibi scribere[٣٣]

المؤلِّف العاقل لا يكتب لخلف آخر غير الخلف الذي له في نفسه؛ أي لسنوات شيخوخته، كي يستطيع عندها أيضاً أن يظل يجد متعة في نفسه.

168

مديح المقولة الحكمية

إن مقولة حِكمية جيّدة تكون قاسية على أسنان عصرها وتعجز آلاف السنين عن استنفادها، مع أنها تظل غذاء لكل عصر وزمان؛ من هنا يكون لها طابع المفارقة الكبرى من بين كل الأجناس الأدبية: الديمومة وسط المتغيّر، والغذاء الذي يظل دوماً مستساغاً كالملح، ومثله، لن يبهت لها مذاق أبداً.

169

الحاجة إلى فن من الدرجة الثانية

للشعب فعلاً شيء مما يمكن أن نسمّيه حاجة إلى الفن، غير أنها حاجة محدودة ويمكن إرضاؤها بأبخس الأثمان. وفي الواقع ستكون

فضلات الفن كافية لذلك بالنسبة له؛ علينا أن نعترف بهذا الأمر بكل صدق. لننظر فقط في أي نوع من الأنغام والموسيقى تجد فئات شعبنا الأكثر صلابة وقوة، والأقل فساداً في الطبع، والأكثر سذاجة، مُتعتَها؛ لنقترب من الرعاة ومربّي الأبقار في أعالي الجبال والفلاحين والصيادين والعساكر والبحارة ونستمدّ من هناك الجواب. أوَلاً، ألا نجد في المدن الصغيرة، وبالذات في البيوت التي هي موطن الفضائل العتيقة المتوارثة، أن أردأ أنواع الموسيقى مما ينتج عصرنا الحالي هي المحبوبة، والمبجّلة، بل والمتغنّى بها هناك؟ من يتكلم عن حاجة عميقة إلى الموسيقى وعن رغبة لا ترتوي إلى الفن لدى الشعب، الشعب *كما* هو، فهو إما ثرثار أو غشاش. كونوا صادقين! -لدى ***أناس استثنائيين*** **فقط توجد حاجة إلى الفن من** ***المستوى الراقي***؛ ذلك أن الفن عامة في حالة تراجع، والطاقات والآمال البشرية قد حوّلت اهتمامها باتجاه أشياء أخرى لمدة من الزمن. إلى جانب هذا، هناك فعلاً، وبمنأى عن الشعب، حاجة واسعة وكبيرة إلى الفن، لكنها حاجة من مستوى الدرجة الثانية، -لدى الفئات العليا من المجتمع، هناك حيث يكون شيءٌ شبيه بطائفة فنيّة صادقة في نواياها أمراً ممكناً. لكن لننظر عن قرب في عناصر هذه الطائفة! إنهم بصفة عامة أولئك الناس الراقون غير الراضين (عن أي شيء)، الذين لا يجدون شيئاً من الغبطة في أنفسهم: المثقف الذي لم يتحرر بما فيه الكفاية كي يستطيع التخلّي عن وسائل المواساة والعزاء الدينية، ويجد عطورها ودهونها مع ذلك قليلة الطيب؛ شبه النبيل الذي هو على حال من الضعف كيما يستطيع أن يقطع مع خطأ أساسي في حياته أو مع ميل مضرّ في طبعه، إمّا بتخلٍّ عن ذلك أو بتغيير جريء وبطولي لحياته؛ الرجل الحائز على موهبة كبيرة ويرى في نفسه إنساناً على مستوى عالٍ من النبالة كي ينزل بنفسه إلى المساهمة المفيدة من خلال

إنجاز مهمات صغيرة، وعلى درجة من الخمول كيما ينخرط في مهمة كبرى أو عمل يتطلب تضحية؛ الفتاة التي لا تعرف كيف تبتكر لنفسها مجالاً كافياً من الواجبات؛ المرأة التي وجدت نفسها مرتبطة في زيجة غير جدّية أو إجرامية، والتي تشعر بنفسها موثوقة لكنها غير مرتبطة بما فيه الكفاية؛ العالم، الطبيب، التاجر، الموظف، من النوع الذي ارتبط مبكراً بشيء محدد وجزئي ولم يطلق العنان لطبيعته في مجمل كيانها، والذي يواصل القيام بعمله بجدية مع ذلك وبإحساس بالمرارة يقضم روحه على الدوام؛ وأخيراً كل الفنانين الحقيقيين. -هؤلاء هم الآن أولئك الذين لديهم حاجة حقيقية إلى الفن! وما الذي يطمعون فيه في الحقيقة من خلال الفن؟ إنهم ينتظرون منه أن يبعد عنهم لساعات، للحظات، إحساس القلق والملل وما يشبه تأنيب الضمير، وأن يتأوّل لهم خطأ حياتهم ونقائص طبعهم تأوّلاً ينزلها منزلة أعظم إذا أمكن، ويجعل منها خطأ مرتبطاً بقدَر العالم؛ شيء مختلف عما كان لدى اليونانيين الذين يجدون في فنهم تدفّق سعادتهم وعافيتهم الخاصة، وكانوا يحبون رؤية كمالهم وهو يظهر مرّة أخرى خارجاً عنهم؛- لدى أولئك اليونانيين كان الاحتفاء بالذات هو الذي يقودهم إلى الفن، ولدى هؤلاء من بني عصرنا، إنما القرف من الذات هو الذي يفعل ذلك.

170

الألمان في المسرح

كوتسيبويه[٣٤] هو الموهبة المسرحية الحقيقية للألمان؛ لقد كان هو وألمان زمنه، من الطبقات العليا كما الطبقات الوسطى، في حالة من الانسجام الكلّي، بحيث كان من الممكن لمعاصريه أن يقولوا غير مخطئين: *«فيه نحيا ونعمل ونكون نحن»*. لا أثر فيه لما هو مكره،

مصطنع، ذو متعة مفتعلة ومرغَمة: ما كان يريده ويقدر عليه كان مفهوماً؛ وإلى يومنا هذا ما يزال النجاح ***الصريح*** للمسرح على الخشبات الألمانية من نصيب ورثة أسلوب كوتسيبويه ومؤثراته المسرحية، الخجولين منهم أو الوقحين، بالأخص هناك حيث ماتزال الكوميديا على شيء من الازدهار، مما نتج عنه أن الكثير من مكوّنات الهويّة الألمانية لذلك العصر ما تزال تواصل الحياة، خارج دائرة المدن الكبرى خاصة. ذوو سماحة في الطبع، غير متقشفين فيما يتعلق بالمتع الصغيرة، يسيرو الدموع، تحدوهم الرغبة في التخلص، في المسرح على الأقل، من تلك الصرامة الوراثية تجاه الواجب، وأن يمارسوا هنا ضرباً من التسامح البشوش، بل تسامحاً ضاحكاً، ميالون إلى الخلط بين الخير والعطف مازجين بينهما حد التماهي- كما هي العاطفية الألمانية في جوهرها؛ مفعمون سعادة أمام كل حركة سخاء، وفيما عدا ذلك خاضعون لكل ما يأتي من فوق؛ حسودون تجاه بعضهم البعض، ومع ذلك مفعمون في أعماقهم بإحساس الرضى عن النفس؛ -هكذا كان الألمان، وهكذا كان هو.

الموهبة الثانية في المسرح الألماني هو شيلر: لقد اكتشف فئة من الجمهور لم تكن تدخل في الحسبان سابقاً؛ وجد ذلك الجمهور في فئة المراهقين، في الفتى والفتاة الألمانيين. جاءت أشعاره لتستجيب لاندفاع انفعالاتهم السامية النبيلة العاتية على ما يعتريها من غموض، وللمتعة التي كانوا يجدونها في رنين العبارات الأخلاقية (تلك التي تختفي عادة عند بلوغ سنّ الثلاثين). واستطاع من خلال هذا، ونتيجة لما يعتمل في أنفس تلك الفئة من حماس انفعالي ومن نزوع إلى التحيّز والتحزب، أن يحقق نجاحاً قد امتد تدريجياً ليشمل بتأثيره الإيجابي فئات عمرية للأجيال الأكثر بلوغاً ونضجاً: لقد نجح شيلر في تشبيب الألمان عامة.

أما غوته فقد كان يقف فوق الألمان بكل الاعتبارات، وما يزال كذلك إلى اليوم؛ ولن يكون واحداً منهم في يوم من الأيام. إذ كيف لشعب أن يكون في مستوى ***العقل الغوتوي بما يحمله من رفاه وجودي وإرادة إحسان***! وكما كان بيتهوفن يؤلف موسيقاه فوق مستوى الألمان، وكما كان شوبنهاور يمارس الفلسفة على مسافة أعلى من مستواهم، كذلك كان غوته يؤلّف أعمال طاسو وإيفيجينيا محلّقاً على مسافة بعيدة فوق مستوى الألمان. لم يتبعه غير نفر قليل من ذوي الثقافة الراقية من أولئك الذين تربوا وتعلموا من خلال التراث العتيق ومن الحياة والأسفار في ما وراء الكيان الألماني ومن موقع أرقى من منزلته، -ولم يكن (هو نفسه) ليريد غير هذا على أية حال. وعندما عمد الرومنطيقيون فيما بعد، وعن قصد غرضي، إلى تأسيس صنم إجلالهم لغوته، وعندما انتقلت براعتهم في الشم والتذوق فيما بعد إلى تلامذة هيغل (الشباب الهيغلي) وهم المربون الفعليون لألمان هذا القرن، وعندما اتخذ الشعراء الألمان من روح الطموح الوطني الناشئ مطيّة لخدمة شهرتهم، وأصبح المعيار الحقيقي للشعب فيما يتعلق بمعرفة إذا ما كان يمكنه أن يجد متعة صريحة في شيء ما مرتبط بحكم أفراد بعينهم وذلك الطموح الوطني -يعني عندما أصبحت المتعة ***فرضاً واجباً*** على الشعب، -عندها نشأت تلك الأكذوبة والنمط المزوّر للثقافة الألمانية، ثقافة غدت تخجل من كوتسيبويه، وتستدعي إلى خشبة المسرح سوفوكلس وكالدرون وحتى الجزء الثاني المتمم لفاوست غوته، ثقافة قد غدت بسبب لسانها المتبلّد ومعدتها المحشوّة حدّ التخمة، غير قادرة بالنهاية على معرفة أي شيء تستطيب، وأي شيء غير ذي طعم بالنسبة لها. طوبى للسعداء الذين لهم ذوق، حتى وإن كان ذوقاً رديئاً! - لا سعيداً فقط يغدو المرء بفضل هذه الملكة الحسيّة، بل حكيماً أيضاً: لذلك كان اليونانيون الذين بلغوا من الرهافة

الغايةَ في ما يتعلق بمثل هذه الأشياء يطلقون على الحكيم إسم *رجل الذوق*، وكانوا يسمون الحكمة، الفنية منها والعارفة على حد سواء «ذوقاً» (صوفيا).[٣٥]

171

الموسيقى كقادم متاخر في كل حضارة

من بين كل الفنون التي تنمو فوق تُربة حضارية بعينها ضمن شروط اجتاعية وسياسية محددة تكون الموسيقى هي آخر نبْت يظهر للوجود في الخريف ومع ذبول الحضارة التي تنتمي إليها، في حين تكون بشائر وعلامات الربيع المقبل قد شرعت في الإعلان عن قدومها. بل إن الموسيقى تكون أحياناً الناطقة بلغة عصر مندثر داخل عالم مندهش وجديد، وتأتي متأخرة عادة. فقد كان على مسيحية العصر الوسيط أن تنتظر ظهور الموسيقى الهولندية كي تجد روحُها النغمةَ النهائية المعبّرة عنها: فن معمارها الصوتي إذاً هو مولودتها المتأخرة والأخت الشرعية للنمط الغوطي، وشبيهتُه في كل شيء. وكان على المذهب اللوثري أن ينتظر ظهور موسيقى هاندل[٣٦] كي يجد أفضل ما في روحه وروح المذاهب المماثلة من ذلك التيار اليهودي الهلفيتي[٣٧] البطولي الذي صنع مجمل حركة الإصلاح، صداه الصوتي وصيغة تعبيره الفني. كما كان على عصر لويس الرابع عشر وفن راسين وكلود لوران أن ينتظر موزارت كي يمنحه النغمة الذهبية المعبّرة عنه. ولم يتسنّ للقرن الثامن عشر، قرن الحماسة المتوهجة والمثل المحبَطة والسعادة العابرة، أن يعزف نغمته الختامية إلا مع موسيقى بيتهوفن وروسيني. هكذا سيكون بوسع مولع بالاستعارات الرهيفة أن يقول إن كل موسيقى عظيمة حقاً هي تغريدة البجع التي تستبق حلول الخريف.

ليست الموسيقى، بكل تأكيد، لغة كونية واقعة فوق الزمن كما

يقال عنها غالباً تكريماً لها، بل هي التعبير الدقيق الموافق لمقياس إحساسٍ وحيويةٍ وزمنٍ بعينها، مقياس يحمل في داخله كقانون داخلي ثقافة خاصة مرتبطة بزمن ومكان محددين: من هذا المنظور، لكم ستبدو موسيقى باليسترينا شيئاً متعذراً على أذن وفهم إنسان يوناني من العصر العتيق، وبالمقابل، ماذا سيمكن لأذن باليسترينا أن تتقبل من موسيقى روسيني؟ ولعل موسيقانا الألمانية الجديدة أيضاً، على ما تتمتع به من سيطرة ومن رغبة في السيطرة، ستجد نفسها متعذرة على الفهم، وذلك في ظرف وجيز من الزمن؛ ذلك أنها نابعة من ثقافة في حالة من الانحدار السريع، وترتكز على أرضية مرحلة للنكوص وإعادة تنصيب القديم، مرحلة قد انتعش داخلها نوع من *كاثوليكية الإحساس* ونزوع إلى كل ما هو *قومي محلّي وأصولي*، وراح يسكب عطراً مختلطاً غامضا فَوق كامل أوروبا: هذان الاتجاهان اللذان يتجاذبان الإحساس، مأخوذيْن في أعلى درجات قوتهما، ومدفوعيْن حتى نهايتهما القصوى، سيجدان تعبيرهما الصوتي في موسيقى فاغنر في آخر المطاف. إن استحواذ فاغنر على حكايات الملاحم الشعبية المحلية واستخدامه بحسب هواه (ونزواته) لآلهتها وأبطالها الغريبين- وهم في الحقيقة كواسر ذات سطوة وسلطان، متقلبة الأمزجة ما بين العمق والسخاء والقرف من الحياة-، وإعادة إحياء تلك الشخوص التي أضفى عليها ذلك التعطش القروسطي للحسّية والنزوع إلى التجرّد الحسّي في الآن ذاته، كل ذلك الأسلوب الفاغنري من أخْذ وإضافة في ما يتعلق بالمواضيع والأنفس والشخوص والعبارات هو ما يعبّر بوضوح عن *روح الموسيقى لديه*، عندما لا تعبّر هذه الأخيرة، مثلها مثل الموسيقى عامة، عن نفسها دون التباس أو غموض: هذه الروح ستخوض *آخر* حرب وردّة فعل مضادة لروح الأنوار التي تهبّ ريحها من القرن الماضي على هذا العصر، وكذلك ضد الأفكار الكونية

الفرنسية ذات الحماسة الثورية، وضد التقشّف البراغماتي الإنكليزي الأميركي في مجال إعادة تشكيل الدولة والمجتمع.

لكن ألا يتراءى واضحاً أن هذه الدائرة من الأفكار والإحساسات التي تبدو الآن مدحوضة ومقموعة -من طرف فاغنر وأتباعه- قد استعادت سلطتها مجدداً، وأن هذا الاعتراض الموسيقي المتأخر الذي يقاومها غالباً ما يقع في آذان تفضّل سماع نغمات أخرى مناقضة لها؟ الأمر الذي بإمكانه أن يجعل هذا الفن الراقي الرائع يغدو في يوم ما غير مفهوم فجأة، ثم ينسج العنكبوت خيوطه فوقه ويطويه النسيان. - لكن على المرء أن لا ينساق إلى المغالطة من طرف هذه التقلبات الظرفية التي تبدو بمثابة ردة فعل داخل ردة الفعل، وهبوطاً مؤقتاً للموجة داخل الحركة العامة؛ وهكذا يمكن لهذه العشرية من الحروب القومية،(٣٨) ومن الحركة الاستشهادية لما وراء الآلب(٣٩) والمخاوف التي تثيرها الاشتراكية، بفضل مفاعيلها الدقيقة الخفية، أن تساعد أيضاً على أن يستعيد هذا الفن مجده فجأة، دون أن تقدّم له ضماناً بأن «يكون له مستقبل»، أو أن *المستقبل* سيكون له. - إنه لمن طبيعة الموسيقى ذاتها أن تكون ثمارها معرّضة لفقدان مذاقها وللتعفن بأكثر سرعة مما يطرأ على ثمار الفنون التشكيلية أو حتى تلك التي تنمو فوق شجرة المعرفة: من بين كل ما ينتج عن الحس الفني للإنسان تظل الأفكار هي الأكثر ديمومة والأحسن حفظاً.

172

الشعراء وقد كفّوا عن كونهم مربّين

مهما يمكن لهذا الأمر أن يبدو غريباً بالنسبة لعصرنا الحاضر، فقد كان هناك شعراء وفنانون بروح مترفعة عن الأهواء وتشنّجاتها ونشواتها المعربدة، وكانت لهم بسبب ذلك متعة في المواد الأكثر نقاوة وفي

الأشخاص الأكثر وقاراً، وفي بناء الإشكالات والحلول على نحو لطيف. وإذا ما كان كبار فناني الحاضر فكاكي قيود الإرادة في أغلب الأحيان، وبالتالي محررين للحياة في بعض الأحيان، فقد كان الأولون بالمقابل مقيِّدين للإرادة، مروّضي وحوش ومبدعي بشر: كائنات إنسانية، وبصفة عامة نحّاتين يشكّلون ويصقلون ويواصلون تشكيل الحياة؛ بينما ربما يتمثل مجد المعاصرين في إطلاق الأعنّة وفك القيود والتحطيم.

كان اليونانيون القدامى يطلبون من الشاعر أن يكون مربّياً للبالغين؛ لكن، لَكم سيكون على شاعر في وقتنا الحاضر أن يشعر بالخجل لو طُلب منه ذلك، هو الذي لم يكن معلّما جيداً، ولم يستطع تبعاً لذلك أن يكون قصيدة شعرية جيدة ولا صورة جيدة، بل في أفضل الأحوال الركامَ الخجول والجذاب لمعبد ما، لكن في الآن نفسه أيضاً كهفاً للجشع تنمو فوقه على غرار كل الخرابات زهور وأشواك ونباتات سامّة وتكوّن مسكناً ومزاراً للثعابين والهوامّ والعناكب والطيور؛ -موضوع يدعو إلى التفكير بحزن والتساؤل عن السبب الذي جعل أنبل الأشياء وألذّها اليوم تكون في الوقت نفسه أشياء تنمو في هيأة خرابات دون أن تكون قد عرفت ماضياً ولا هي ستعرف مستقبلاً من الكمال.

173

نظرة إلى الأمام، نظرة إلى الخلف

إن فناً كذلك الذي يتدفق من هوميروس وسوفوكلس وتيوقريطس وكالدرون وراسين وغوته فائضَ ثراء من مسار حياة سِمتها الحكمة والانسجام، ذلك هو ما يلزمنا وما سنسعى إليه بالنهاية عندما نكون قد بلغنا حالة الحكمة والانسجام، وليست تلك الأشياء البدائية الهمجية،

أياً كان سحرها، المتدفقة في حالة من الاضطرام وبألوان عديدة من روح تسودها الفوضى وعدم الانضباط، تلك الأشياء التي كنا في ما مضى، ونحن شباب أغرار، نعتقد أنها هي الفن. غير أنه من الطبيعي أيضاً أن فترات بعينها من حياتنا تتطلب وتستدعي فناً شديد التوتّر، فناً للإثارة، للتنطّع على كل ما هو منظّم، رتيب، بسيط، ومنطقي؛ حاجة سيكون **لا بد** لها من فنانين يستجيبون لها، حتى لا تضطر النفس في تلك المرحلة من العمر إلى تفريغ شحناتها عبر قنوات أخرى ومن خلال شتى أنواع الحماقات والانحرافات. ذلك ما يحتاج إليه الشباب، بما هم عليه عادة من احتقان وغليان ولاشيء يعذّبهم مثل الضجر؛ وذلك ما تحتاج إليه أيضاً النساء اللاتي يفتقرن إلى عمل جيد يملأ فراغ أرواحهن: ذلك النوع من فن الفوضى الخلاّبة؛ وبأكثر حدّة سيتّقد فيهم فيما بعد الشوق إلى رضى دون تبدّلات، وسعادة دون مخدّرات ومُسْكرات.

174

ضد فن الأعمال الفنية

يتمثل مبتغى الفن أولاً وقبل كل شيء في أن ***يجعل*** الحياة ***جميلة***، أي أن يجعل منا نحن أنفسنا محتمَلين بالنسبة للآخرين ولطيفين إن أمكن: وإذا ما جعل نُصب عينيه هذه المهمة فإنه يهذّبنا ويجعل لنا ضوابط، ويخلق أشكالاً للتعامل، ويقيّد غير المهذّبين بقوانين الاستقامة والنقاء والأدب، والكلام والصمت في الوقت المناسب. وإضافة إلى هذا يكون على الفن أن ***يحجب*** القبيح أو ***يتأوّله*** على نحو ***يحوّله***: كل مزعج، شنيع، مُقرف يظل بالرغم من كل الجهود والمحاولات يعود دوماً إلى الظهور وفقاً لأصل الطبيعة الإنسانية: وسيكون عليه أن يقوم بالعمل نفسه بصفة أخص تجاه كل ما يتعلق بالأهواء والآلام النفسية

والمخاوف وأن يُظهر للنور ما هو *ذا أهمية* في كل قبيح لا يمكن تجنّبه أو التغلب عليه. إلى جانب هذه المهمة الكبرى، بل الهائلة، للفن سيكون ما يُدعى عادة بالفن الحقيقي، أي *فن الأعمال الفنية* شيئاً من قبيل *الملاحق* لا غير: إن إنساناً يحمل في داخله فائضاً من مثل تلك الطاقات المجمّلة المحجّبة والمحوِّلة سيسعى بالأخير إلى تفريغ شحنات ذلك الفائض في أعمال فنية؛ والأمر نفسه يحدث أيضاً في حالات وظروف بعينها لدى شعب بكامله. غير أننا أصبحنا اليوم عادة ما نبدأ في تعاطي الفن من طرفه الأخير؛ نتعلق بذيله ونعتقد أن فن الأثر هو الفن الحقيقي ومن خلاله سنصلح الحياة ونغيّرها؛-يا لحمقنا! فإن نحن بدأنا تناول وجبة من أطباق التحلية الختامية ورحنا نتذوّق الحلوى تلو الحلوى، فأي عجب إذاً أن نكون قد أفسدنا على معدتنا وعلى أنفسنا إمكانية التمتع ببقية الأطباق الأكثر دسامة وأكثر قيمة غذائية من تلك التي يعرضها علينا الفن!

175

عن بقاء الفن

ما الذي يجعل في الحقيقة فن عمل فني يواصل البقاء؟ لأن أغلبية الناس لهم أوقات فراغ كثيرة -ولهم وحدهم يوجد هذا النوع من الفن-؛ هؤلاء لا يعتقدون أنّ بإمكانهم أن يجدوا حلاً للتعامل مع أوقات فراغهم من دون موسيقى ومسرح وارتياد معارض الرسم، ومن دون قراءة روايات وأشعار. ولو افترضنا أنه سيمكن في يوم ما صدّهم عن تلبية هذه الحاجة، فإنهم إمّا أن يقلعوا عن الرغبة في أوقات فراغ، وتنقص لديهم نظرات الحسد التي يرمقون بها الأغنياء-وسيكون ذلك كسباً كبيراً للحفاظ على توازن المجتمع-، أو أنه ستكون لهم أوقات فراغ، لكنهم سيتعلمون *التفكير* -أمر يمكن للمرء أن يتعلمه وينساه

أيضاً-، التفكير في عملهم مثلاً، وفي علاقاتهم وفي ما يمكن أن يقدّموه لغيرهم من أشياء مفرحة وممتعة؛ وفي كلتا الحالتين ستكون هناك منفعة للجميع عدا الفنانين بطبيعة الحال.

هناك بالتأكيد بعض قراء من ذوي المتانة الذهنية ورجاحة العقل سيعبّرون عن اعتراضٍ مشروعٍ على هذا الأمر. لكنني أُصرّ على أن أقول هنا لكل الآخرين من الأجلاف وأصحاب النوايا السيئة إن الكاتب هنا، كما في مجمل هذا الكتاب، يولي أهمية كبرى للاعتراض، وأنه يمكن قراءة أشياء كثيرة في هذا الكتاب دون أن تكون مكتوبة فيه.

176

لسان حال الآلهة

يعبّر الشاعر عن الآراء السامية العامة التي تدور في ذهن شعب ما؛ إنه لسان حالها وربابتها، -إلا أنه ينطق بها بواسطة الأوزان وكل الوسائل الفنية، مما يجعل الشعب يتقبلها كشيء جديد كلّياً وبديع، ويغدو معتقداً بكل جدية بأن الشاعر لسان الآلهة. إضافة إلى ذلك فإن الشاعر نفسه ينسى داخل ما يشبه الغيبوبة داخل عمله الإبداعي من أين تأتيه كل تلك الحكمة: من أمه وأبيه، ومن المدرسين والكتب من كل نوع، من الشارع، وخاصة من القساوسة؛ يغالطه فنه إذاً، ويعتقد حقاً، في عصور ساذجة، أن ***إلهاً*** هو الذي يتكلم على لسانه، وأنه يبدع في حال من الإشراق الديني؛ بينما هو لا يقول سوى ما تعلّمه من حِكم شعبية وترّهات شعبية على حد سواء. وبالتالي: بما أن الشاعر *vox pouli*- صوت الشعب، فإنه يظل يُعتبر *vox dei* صوت الآلهة.

177

ما يريده كل فن ولا يستطيعه

إن أصعب وأرقى مهمة للفنان هي تصوير ما لا يتغيّر ولا يتحوّل، الساكن الكائن في ذاته، السامي، البسيط، المولّي عن كل سحر جزئي؛ لذلك تظل التشكيلات الأسمى للكمال الأخلاقي مرفوضة من طرف ضعاف الفنانين الذين يعتبرونها أغراضاً غير فنية ويشوّهون سمعتها، لأن مجرد ظهورها أمامهم يجرح كبرياءهم: إنها تبرق باتجاههم من قمم أغصان الفن، في حين هم يفتقرون إلى السلّم والشجاعة وبراعة اليد كي يجازفوا بالصعود إليها. إن تصوّر ظهور فيديا كشاعر في عصرنا الحاضر أمر ممكن في حد ذاته، لكن، وبالنظر إلى وضع الطاقات الحديثة، فقط من باب التسليم بمقولة «ما من مُحال عند الله». بل إن مجرد الأمل في ظهور شاعر من طراز كلود لوران يُعتبر محض غرور في وقتنا الحاضر، مهما كانت الرغبة في ذلك قوية. لقد ظل إنجاز صورة عن الإنسان ***الأخير*****، يعني** ***ذلك الأكثر بساطة والأكثر امتلاء في الآن نفسه***، أمراً لم يرتق إلى مستواه أي فنان إلى حد الآن؛ لكن ربما كان اليونانيون مع مثال بالأّص أثينا هم الذين مضت أنظارهم باتجاه تلك الغاية أبعد من سواهم من البشر حتى الآن.

178

الفن و حِقب النكوص والارتداد

حركات النكوص في التاريخ، أو تلك المسمّاة بفترات الارتداد، التي تحاول إعادة الحياة إلى وضع اجتماعي وذهني كان قائماً حتى وقت قريب ويبدو انبعاثه من الموت ولو لمدة قصيرة أمراً بصدد التحقق فعلاً؛ لهذه الحركات سحر الذكريات المترعة بالعواطف ورغبات حنين

إلى ما غدا شبه ضائع، وتوق إلى احتضان سريع للحظات من السعادة العابرة .

من خلال هذه الحركية التي تعمّق حساسيّة الحالة المعنويّة المحيطة يجد الفن والشعر في مثل هذه الأوقات العابرة البديعة تقريباً تربة طبيعية صالحة للانتعاش، تماماً كما تنمو على المنحدرات الحادة النباتات النادرة والأكثر رهافة. وهكذا يرى فنان جيّد نفسه مندفعاً في غفلة منه إلى نمط تفكير نكوصيّ ارتداديّ في المجالين السياسي والاجتماعي، يهيّئ لنفسه داخله ركناً هادئاً وحديقة صغيرة يجمع فيها حوله بقايا وكِسَر بشرية أليفة من تلك الفترة الماضية من التاريخ، ويشرع في مداعبة أوتار آلته أمام جمع من الأموات وشبه الأموات والمنهَكين، وقد يتحقق له نجاحٌ من نوع ذلك الانبعاث المؤقت للموتى الذي ذكرناه آنفاً.

179

سعادة عصرنا هذا

يمكننا أن نعتبر عصرنا هذا عصراً سعيداً من منظورين على الأقل. فنحن، مقارنة *بالماضي*، ننعم اليوم بكل الحضارات ومنتجاتها، ويغذّينا أنبل ما عرفت كل العصور من دم، كما أن وجودنا في زمن قريب من سحر تلك القوى التي نشأت عنها هذه الحضارات يجعلنا نستطيع الانسياق إليها مؤقتاً بمزيج من مشاعر اللذة والرهبة؛ في حين لم يكن بإمكان الحضارات القديمة أن تتمتع إلا بنفسها فقط دون أن تكون لها نظرة على ما يوجد خارجها، كما لو كانت حبيسة قبة من الزجاج، ضيقة أو واسعة، يستطيع النور أن يعبر من خلالها لكن البصر لا يخترقها لينفذ إلى ما وراءها. أما من وجهة نظر *المستقبل*، فلأول مرة في التاريخ ينفتح أمام أعيننا المشهد الرحب لمجمل الأهداف

البشرية في هيأتها المشتركة التي تحتضن كامل المعمورة. وفي الوقت نفسه قد أصبحنا على وعي بما في أنفسنا من طاقات تجعلنا نأخذ على عاتقنا تنفيذ المهمة الجديدة بأنفسنا دون ادّعاء، ودون أن نكون بحاجة إلى مساعدة أي نوع من القوى الخارقة؛ وأياً كانت النتيجة التي سيؤول إليها عملنا، وحتى إذا ما كنا قد بالغنا في تقدير طاقاتنا، فإننا على أية حال لن نكون مسؤولين في ذلك أمام أحد غير أنفسنا: لقد غدا بإمكان الإنسانية بدءاً من الآن أن تتصرّف في شؤونها كليّاً على النحو الذي ترتضيه. لا ريب أن هناك نوعاً من النحل الإنساني الغريب الذي يحلو له دوماً أن لا يرتشف من كأس الأشياء كلها سوى ما هو مرّ ومزعج؛ وعلى أية حال، تظل كل الأشياء تحتوي على شيء غير عسلي في داخلها. فليفكر هؤلاء في سعادة عصرنا على النحو الذي يلائمهم، وليواصلوا بناء خفير مزاجهم العكِر إذاً.

180

رؤية

ساعاتٌ من التعليم والتأمل للكهول والناضجين والأكثر نضجاً تكون حصصاً مفتوحة يومياً للجميع دون إكراه، بل وفقاً لما تمليه التقاليد؛ الكنائس كأفضل الأماكن الجديرة بأثرى الذكريات وكمسرح يدور داخله علاوة على ذلك الاحتفال اليومي بما بلغه وما يمكن أن يبلغه الإنسان من كرامة عقلية؛ ازدهار جديد وأكثر اكتمالا لمثال المعلّم النموذجي الذي يكون القس والفنان والطبيب والعالم والحكيم مندمجين داخله في شخص واحد، تماماً كما تكون الفضائل الفردية لكل شخص مجتمعة كلها داخل فضيلة جماعية واحدة في ذلك التعليم وطرق تقديمه ومناهجه: هذه هي رؤيتي التي تعاودني باستمرار، والتي أعتقد جازماً أنها أزاحت عن نظري جزءاً من الحجاب الذي يختفي وراءه المستقبل.

181

تعليم اعوجاج

إن الارتباك الذي يتميز به كل تعليم عمومي، والذي يجعل كل كهل يتصوّر أن الصدفة هي التي كانت معلّمه الوحيد، وذلك التقلّب المطّرد في مناهج وغايات التعليم تجد كلها تفسيراً لها في أن القوى التثقيفية، *القديمة* منها *والجديدة* تحاول، كما يحدث في اجتماع عمومي صاخب، أن تكون مسموعة أكثر مما تكون مفهومة، وتريد أن تثبت بأي ثمن من خلال أصواتها الصاخبة أنها ما *تزال* موجودة، أو أنها *موجودة أصلاً*. داخل هذا الصخب الجنوني يجد المعلمون المساكين أنفسهم وقد أضحوا مخدّرين في البداية، ثم صامتين، وبالنهاية متبلّدين، ويستسلمون بخنوع للقبول بترك الأمور تجري فوق رؤوسهم، مثلما سيجعلونها فيما بعد تجري فوق رؤوس تلامذتهم أيضاً. وبما أنهم هم أنفسهم غير متعلمين على أسس متينة، فكيف لهم أن يكونوا معلمين؟ هم أنفسهم ليسوا بالجذوع التي نمت مستقيمة متينة ثريّة النسغ، وكل من يريد أن يستند إليها سيكون عليه أن ينحني ويتقوّس كي ينتهي به المطاف إلى أن يبدو بدوره معوجّاً ومشوّهاً.

182

فلاسفة وفنانو هذا العصر

فظاظة وبرودة، اشتعال الشهوات وانعدام الإحساس؛ هذا التجاور المقرف هو ما يميّز طبع الطبقة الراقية للمجتمع الأوروبي الحالي. وهكذا يعتقد الفنان أنه سينجز شيئاً مهماً للغاية إذا توصّل من خلال فنه إلى جعل القلوب تتوقّد هي أيضاً إلى جانب التهاب الشهوات؛ وكذلك يفعل الفيلسوف عندما يضيف إلى برودة الأحاسيس التي يشترك فيها مع

عصره تبريد حرارة الشهوات في نفسه وفي المجتمع من خلال حُكمه النافي للعالم.

183

ليس دون خطر يكون المرء مقاتلا من أجل الثقافة

أخيراً! ها إننا نتعلم ما كان جهلنا به يسبّب لنا متاعب شتى في سني شبابنا: أنّ علينا أولاً أن ننجز عملاً مكتملاً، ثم نبحث (من بعدها) عما هو كامل، أيا كان الموضع الذي يوجد فيه والاسم الذي يسمّى به، وأن يكون علينا بالمقابل أن نتجنب كل سيّئ ورديء **دون محاربته**، وأن يغدو مجرد الشك في جودة شيء ما-كما يحدث بسرعة لدى كل ذائقة متطورة في التجربة- حجة لنا ضده وداعياً لتجنبه كلّياً، وإن اقتضى الأمر أن نجازف بالتعرّض في بعض الأحيان لخطر أن نقع في الخطأ وأن يحصل لدينا خلط الجيد الذي لا يدرك بسهولة بما هو سيّئ وناقص. وحده ذلك الذي ليس لديه من شيء أفضل يستطيع القيام به هو من يزجّ بنفسه في معركة ضد مساوئ العالم في هيأة الجندي المقاتل من أجل الثقافة. غير أن رصيد القوة والمعرفة التي بحوزة ذلك المقاتل سيجد نفسه مهدداً بالاضمحلال إذا ما أراد أن يظل حاملاً سلاحه، وسيبدّل سلامَ مهنته وبيته قلَقاً حربياً لفرط ما سيكون عليه من حذر دائم وسهر ليال وأحلام مزعجة.

184

كيف ينبغي أن نروي التاريخ الطبيعي

ينبغي علينا أن نروي التاريخ الطبيعي، بما هو تاريخ حرب وانتصارات القوة الذهنية والمعنوية ضد الخوف والوهم والخمول والحُمق، بطريقة تجعل كل من يستمع إليه يغدو مدفوعاً بقوة وبصفة مستمرة نحو

الطموح إلى بلوغ عافية وتفتّق ذهني وجسدي، وإلى إحساس بالغبطة لكونه الوريث والمواصل لبقاء النوع الإنساني، وإلى امتلاك روح مبادرة واندفاع إلى العمل أكثر فأكثر نبالة. غير أن هذا التاريخ مازال يبحث عن اللغة المناسبة التي عليه أن يتكلمها، لأن الفنانين البليغين والمبتكرين في مجال اللغة -إذ لا بد منهم لهذا الغرض- لم يتخلصوا بعد من الريبة العنيدة التي يبدونها تجاهه، وفي المقام الأول لا يريدون أن يتعلموا منه على أسس متينة. مع أنه سيكون علينا أن نعترف للإنكليز بما قاموا به من خطوات جديرة بالإعجاب في هذا الاتجاه بما وضعوه من كتب لتدريس العلوم الطبيعة موجهة للطبقات الدنيا من المجتمع، وهي كتب يتم تصنيفها من قِبل أجود من لديهم من علماء- طبائع من النوع المكتمل وغزير الثراء-، لا من طرف باحثين من الصنف الرديء، كما يحدث عندنا.

185

عبقرية النوع الإنساني

إذا ما كانت العبقرية تتمثل حسب معاينة شوبنهاور في التذكر الحيّ والمتّسق للمعاش الشخصي، فإن النزوع إلى معرفة نتائج التطور التاريخي في مجملها -نزوع يقابِل بأكثر حدّة بين العصر الحاضر وكل العصور الماضية، وقد توصّلنا لأول مرّة إلى تحطيم الحواجز القديمة بين الطبيعة والعقل، وبين الإنسان والحيوان، والفيزيائي والمعنوي- سيكون إذاً نزوعاً عاماً إلى العبقرية يشمل الإنسانية بكلّيتها. وسيكون التذكر الكامل للتاريخ وعياً كونياً بالذات.

عبادة الثقافة

لدى كبار العقول تنضاف دوماً صفات إنسانية (مفرطة في إنسانيتها) كريهة ومنفّرة: عماء بصيرة، خطأ في التقدير، شطط ومغالاة، حتى يصبح بالإمكان من خلال ما تثيره هذه الصفات من حذر وتوجّس، وضْع حدود للتأثير الهائل الذي يمارسونه بسهولة من حولهم. ذلك أن نظام الأشياء التي تحتاج إليها الطبيعة من أجل استمرارها واسع جداً ويتطلب تضافر قوى عديدة ومتنوعة، مما يجعل كل امتياز يُمنح بصفة *أُحادية* سواء للعلم، أو للدولة، أو للفن، أو للتجارة بحسب ميل كل فرد، يكلّف الإنسانية بكلّيتها ثمناً باهظاً. لقد كانت عبادة إنسان ما على الدوام أكبر كارثة على الحضارة، ومن هذا المنطلق لا يسعنا إلا أن نؤيد ذلك القانون من التشريع الموسوي الذي يمنع اتخاذ آلهة أخرى إلى جانب الله(٤٠). علينا إذاً أن نضع دوماً إلى جانب عبادة العبقرية والقوة عبادةَ الحضارة كمكمّل وعلاج؛ تلك التي تستطيع أن تمنح اعتباراً لائقاً حتى لما هو مادي ورديء، ووضيع، ومنبوذ، وضعيف، وناقص، ومعاق وخاطئ، وكاذب، بل وشرّير وفظيع أيضاً، وتعرف كيف تقرّ *بأنها كلّها ضرورية*؛ ذلك أن هذا الكل الإنساني المتطور والمنسجم، الذي تمّ تحقيقه من خلال أعمال مذهلة ومصادفات سعيدة، هو حصيلة نتاج عمل الجبابرة والنمل والعباقرة على حد سواء؛ هذا النتاج الهائل لا ينبغي أن يُتلَف: كيف سيحق لنا إذاً أن نستغني عن هذا الأساس القاعدي الهائل والعميق والمشترك للأصوات الخفيضة، التي لا يكون اللحن لحناً من دونها؟

187

العالم القديم والفرح

كان القدامى أكثر قدرة على *الفرح*؛ بينما نحن اليوم أكثر دراية بجعل الحياة *أقلّ كدَراً*؛ كان أولئك لا يكفّون عن إيجاد الفرص لكي يبتهجوا ويقيموا الحفلات مسخّرين لذلك الغرض كل ما كان لديهم من ثراء ذهني ومقدرة على التفكير؛ بينما نحن نسخّر كل عقلنا لحل المسائل المتعلقة بتقليص الألم وتحييد كل أسباب الاشمئزاز. في مواجهة المعاناة كان القدامى يوجّهون جهدهم نحو النسيان، أو يُحوّلون وجهة الأحاسيس بطريقة ما نحو ما هو ممتع، وهكذا كانوا يلجؤون إلى طريقة العلاج *بـالمسكّنات*، بينما نوجّه نحن جهودنا مباشرة إلى أسباب الألم، ونفضّل إجمالاً اتخاذ التدابير الوقائية . وربما لا يتجاوز عملنا اليوم مجرد وضع الأسس التي سيشيد عليها الإنسان من بعد معبد الفرح.

188

ربّات الإلهام الكذّابات

«إننا نجيد رواية الكثير من الأكاذيب»[٤١]- هكذا غنّت ربّات الإلهام مرة عندما ظهرن لهزيود. سنجد أنفسنا بكل تأكيد أمام اكتشافات جوهرية إذا ما توصّلنا إلى تمثّل الفنان ككذّاب.

189

إلى أيّ مدى يستطيع هوميروس أن يكون مفارقاً

هل هناك من شيء أكثر جرأة وأكثر شناعة وغرابة، شيء شبيه بشمس شتائية تسلّط على قدر الإنسان، مثل هذه الخاطرة التي نجدها عند هوميروس:

هكذا تمّ حُكم الآلهة وقضت بهلاك الإنسان
كي يصبح نشيداً من بعد للأجيال اللاحقة.

هكذا إذاً: نعاني ونمضي إلى الهلاك، كي لا تعوز الشعراء *المواضيع*-وهذا هو ما حكمت به آلهة هوميروس، التي يبدو أنها تعلّق أهمية كبرى على سعادة الأجيال اللاحقة، بينما لا تخصّنا نحن أحياء الحاضر إلا بالنزر القليل من ذلك! -إنه لأمر عجيب أن تخطر مثل هذه الأفكار على عقل إغريقي!

190

تبرير بَعدي للوجود

بعض الأفكار أتت إلى العالم كأخطاء وتخيّلات، لكنها تحوّلت إلى حقائق، لأن الإنسان أضفى عليها محتوى واقعياً في ما بعد.[٤٢]

191

المع والضدّ كامرين ضروريين

من لم يفهم بعد أن كل رجل عظيم لا يجب أن يلقى دعماً فحسب، بل أن *يحارَب* أيضاً من أجل المنفعة العامة، هو بكل تأكيد طفل كبير، أو أنه هو نفسه رجل عظيم.

192

ظلم العبقري

العبقري أكبر ظالم تجاه العباقرة، إن كانوا معاصرين له؛ في البداية يعتقد أنه ليس في حاجة إليهم، ويعتبرهم بالتالي زائدين عن اللزوم، ذلك أنه استطاع أن يكون ما هو من دونهم؛ ثم يتعارض تأثيرهم مع

مفاعيل تياره الكهربائي الخاص، لذلك سيمضي حدَّ القول بأنهم مضرّين.

193

أسوأ مصير لنبيّ

لعشرين سنة وهو يعمل على جعل معاصريه يؤمنون به؛ وقد نجح في ذلك بالنهاية، لكن أعداءه نجحوا هم أيضاً في الأثناء: هاهو كفّ عن الإيمان بنفسه الآن.(٤٣)

194

ثلاثة مفكّرين محلّ عنكبوت واحد

في كل طائفة فلسفية هناك سلسلة من ثلاثة مفكرين يتلو الواحد منهم الآخر: الأول يُنتج من جسمه اللُّعابَ والبذرة، والثاني يصنع من ذلك خيوطاً وينسج عشاً اصطناعياً، والثالث يقبع داخله متصيّداً الضحايا الذين سيقعون في ذلك النسيج–ويسعى إلى التمعّش من الفلسفة.

195

من صُلب العلاقة مع الكتاب

التعامل مع كاتب بجرّةٍ من أنفه سلوك لا يقلّ سوءاً عن الإمساك به من قرنه، –والحال أن لكل كاتب قرنه.

196

عربة بحصانين

يقترن غموضُ الفكرة وجيَشانُ الأحاسيس غالباً بالإرادة الجامحة في فرض النفس بكل الطرق والوسائل وانتزاع الاعتراف للنفس دون أحد

غيرها، اقترانَ المودّة العطوفة وإرادة الإحسان والمساعدة بالنزوع إلى الوضوح في التفكير ونقاء الفكرة وإلى الاتزان وتحفّظ الأحاسيس.

197

الذي يصل والذي يفرّق

أليس الدماغ مستقَرّ كل ما يجمع الناس ويوحّدهم، بل وإدراك المنفعة العامة والمضرّة؛ بينما القلب مسكن ما يفرّق: تلمّس أعمى في الحب والكراهية، وتعلّق بشخص واحد على حساب الآخرين جميعاً، مع ما ينجرّ عن ذلك من ازدراء بالمنفعة العامة؟

198

رُماة ومفكرون

هناك صنف غريب من الرماة، أولئك الذين يخطئون الهدف، لكنهم ينسحبون بإحساس خفيّ بالفخر، لأن رصاصتهم قد مضت بعيداً على أية حال (إلى ما وراء الهدف والحق يقال)، أو لأنهم، وإن لم يصيبوا المرمى، فقد أصابوا هدفاً آخر. من هذا الطراز يوجد أيضاً نوع من المفكرين.

199

معاداة من جهتين

نعادي تياراً أو اتجاهاً فكرياً عندما نكون أرقى مستوى منه ولا يمكننا سوى أن ننكر مراميه، أوعندما تكون غايته بعيدة جداً لا تدركها أعيننا، أي عندما يكون أرقى منا. وهكذا يمكن لنفس التيار أن يكون معرّضاً للهجوم من جهتين في الآن نفسه؛ من فوق ومن تحت. وليس نادراً أن يعقد الطرفان المهاجمان من منطلق الحقد تحالفاً ضد نفس

العدوّ، وهو أمر أكثر حقارة من كل ذلك الذي يبغضانه.

200

أصالة

إن ما يميّز عقلاً أصيلاً حقاً ليس كونه يكتشف شيئاً جديداً، بل كونه يرى بعين جديدة ذلك القديم المعروف منذ زمن طويل لدى الجميع، والذي يراه الناس ولا ينتبهون إليه. فالمكتشف الأول عادة ما يكون ذلك الشيء الحالم الاعتيادي المجرد من كل عقل: الصدفة.

201

خطأ الفلاسفة

يعتقد الفيلسوف أن قيمة فلسفته تكمن في المجمل، في عمارتها؛ لكن الأجيال اللاحقة تجد ذلك في الحجارة التي استعملها في البناء، ومن هناك تستطيع أن تعيد البناء مرّات عديدة وتحسّنه: أي أن الأهمية تكمن في أن ذلك البناء يمكن هدمه ***ويظل*** مع ذلك محتفظاً بقيمته كمادّة للبناء.

202

النُكتة

النُكتة هي المهجيّة التي تُلحَق بموت إحساس ما.

203

لحظة ما قبل الحلّ

يحدث في مجال العلوم في كل يوم وساعة أن يجد عالم نفسه يقف عاجزاً مباشرة قبل بلوغ الحلّ، وقد غدا مقتنعاً أن جهوده حتى تلك

اللحظة لم تكن سوى عبث لا طائل من ورائه، تماماً مثل واحد يحاول حل عُقدة ما وفي اللحظة التي تكون قد غدت موشكة على الحل يصيبه التردد: إذ عندها بالذات تبدو أشبه بالعقدة من أي وقت مضى.

204

معاشرة الحالمين

يمكن للإنسان العاقل والواثق من عقله أن يقضي عشر سنوات في معاشرة الحالمين وأن يدع نفسه يستسلم لشيء من الجنون الخفيف داخل تلك المنطقة الساخنة. وبذلك يكون قد قطع مسافة جيدة كي يجد نفسه في النهاية وقد بلغ تلك الحالة الكوسموبوليتية للعقل الذي سيكون بوسعه عندها أن يقول دون غرور: «ما من شيء عقليّ ظلّ غريباً عني الآن».

205

الهواء الحادّ

ما هو أفضل وأكثر صحّية في العلوم كما فوق الجبال هو الهواء الحادّ الذي يهبّ عليها. كل ذوي العقول الليّنة (مثل الفنانين) يخشون ويذمّون العلم بسبب ذلك الهواء.

206

ما الذي يجعل العلماء أنبل من الفنانين

يتطلب العلم طبائع *أكثر نبالة* مما يتطلب الشعر: ينبغي على العلماء أن يكونوا أكثر بساطة، أقلّ طموحاً، أكثر تبتّلاً، أكثر سكوناً، أقلّ ولعاً بالمجد، وبإمكانهم أن ينسوا أنفسهم كلياً في الاهتمام بمسائل قلّما تبدو للآخرين جديرة بتلك التضحية بالنفس. إضافة إلى كل هذا هناك

تضحية أخرى لا يجهلها هؤلاء: نوعية عملهم وما يتطلبه من التزام مستمر بأقصى ما يمكن من التقشف تُضعف إرادتهم، ذلك أن نارهم لا تُشحذ جذوتها بصفة دائمة كما يحدث فوق الموقد الملتهب للطبائع الشعرية؛ ولذلك يفقدون طاقتهم الكبرى وتفتّقهم في سنّ مبكرة، على خلاف الشعراء، -وهم عارفون بهذا الخطر كما ذكرنا آنفاً. وفي كل الأحوال يبدون أقل موهبة، لأنهم أقلّ بريقاً، وبالتالي سيقيَّمون بأقلّ من قيمتهم الحقيقية.

207

كيف تتحوّل العبادة إلى تعتيم

تُضفَى على الرجل العظيم خلال القرون اللاحقة كل خِصال وفضائل القرن الذي عاش فيه، هكذا تتعتّم أفضل الأشياء تدريجياً من خلال العبادة التي لا ترى فيها غير صور قدّاسات توضع أمامها وتعلّق فوقها كل أنواع النذر والتقدمات، إلى أن تغمرها تلك النذر وتغطيها وتصبح من بعدها موضوع إيمان أكثر منها موضوع نظر وتأمل.

208

انتصاب على الرأس

عندما نقلب الحقيقة ونجعلها منتصبة على رأسها، ننسى عادة أن نلاحظ أن رأسنا بدوره ليس في الموضع الذي ينبغي عليه أن يكون فيه.

209

أصل الموضة وفائدتها

إن الإحساس الجليّ بالرضا عن النفس لدى الفرد فيما يتعلق بهيأته يثير

رغبة المحاكاة لدى الآخرين ويخلق تدريجياً شكل مجموعة *الكُثر*، أي الموضة؛ هؤلاء الكُثر يريدون هم أيضاً أن يبلغوا عن طريق الموضة تلك الحالة المريحة من الرضا التي تنجم عن الهيأة، ويبلغونها أيضاً. وإذا ما اعتبرنا عدد الأسباب التي لدى كل شخص لكي يكون خائفاً وميالاً إلى الاختفاء خجلاً، وأن ثلاثة أرباع طاقاته وإرادته يمكنها أن تصاب بالإعاقة والعقم من خلال تلك الأسباب، فإنه سيكون علينا أن نعترف بالفضل الكبير للموضة لأنها تحرر ذلك القسط الكبير من الطاقات وتمنح ثقة في النفس وعلاقات لطيفة متبادلة بين أولئك الذين يجدون أنفسهم مرتبطين فيما بينهم برباط قانونها. القوانين الحمقاء يمكنها أيضاً أن تمنح حرية وهدوءاً نفسياً، ما دامت هناك أكثرية خاضعة لها.

210

ما يطلق الألسنة

تكمن قيمة بعض الناس والكتب في خَصلتها الوحيدة التي تدفع بكل شخص إلى التعبير عمّا هو خفيّ ومستتر في أعماقه: إنهم محرّرو ألسنة وفكّاكو أقفال مُحكمة على الأفواه. بعض الأحداث والأعمال الكريهة التي تبدو لا غاية لها سوى إلحاق الأذى بالإنسانية، لها هي أيضاً مثل هذه القيمة وهذه الفائدة.

211

عقول جريئة

من ذا الذي سيحقّ له من بيننا أن يطلق على نفسه لقب المفكر الحرّ إن لم يعبّر بطريقته عن تقدير وتكريم ذلك الذي غدا اسمه مُضغة في الأفواه وعنوان شتيمة، بأن يأخذ عنه شيئاً من حمل الكراهية العمومية

وسِبابها ويضعه على عاتقه. لكن سيكون من حقنا أيضاً أن نطلق على أنفسنا بكل جدّية (ومن دون ذلك التحدي المتكبر والمفاخر) لقب «العقول الجريئة» لأننا نشعر بالتيار الجارف نحو الحرية كأقوى نزوع لعقولنا، وأننا، خلافاً للعقول المقيدة والثابتة في مواقعها، نرى مثالنا الأعلى في الترحال الذهني، -كي نستعمل عبارة متواضعة ومحقّرة تقريباً.

212

يا لفضل ربّات الإلهام!

إن ما يقوله هوميروس في هذا الشأن ينفذ إلى القلب لفرط ما هو حقيقي، لفرط ما هو مرعب: *«من كل قلبها كانت ربّة الإلهام تحبّه، ومنحته خيراً وشراً؛ إذ سلبته عينيه ووهبته أغاني عذبة.»*(٤٤) نحن هنا أمام نصّ لا ينضب له معين بالنسبة للمفكر: خيراً وشراً منحته، إنها ***طريقتها*** في الحب الصادق! وسيكون لكلٍّ أن يتأوّل تأوّله الخاص ما الذي يقضي بأن ***يكون علينا***، نحن المفكرين والشعراء، أن نضحّي من أجل ذلك *بـأعيننا*.

213

ضد التربية الموسيقية

التربية الفنية للعَين منذ الطفولة من خلال الرسم والتصوير، وإنجاز رسومات للطبيعة والأشخاص وشتى الأحداث، تجلب للشخص فائدة لا تقدّر بثمن يظل يتمتع بها كامل حياته إذ تجعل عينه ***دقيقة هادئة ومثابرة*** في معاينة الأشخاص والحالات. مثل هذه الفائدة الجانبية لا تحصل للمرء من خلال التربية الفنية للأذن: لذلك سيكون من الأفضل لو أن المدارس العمومية عامة تفضّل فن النظر على فن السمع.

214

مكتشفو التفاهات

العقول الثاقبة التي لا شيء أبعد عنها مثل التفاهات تكتشف غالباً، وبعد المضي على شتى الطرقات المتعرّجة والدروب الجبلية، واحدة من التفاهات وتحصل لها مُتعة كبيرة في ذلك الاكتشاف مما يثير دهشة ذوي العقول السطحية.

215

أخلاق العلماء

لا يكون التقدم المتصل والسريع في العلوم ممكناً إلا عندما لا يكون الأشخاص ***مفرطي الارتياب*** بما يجعلهم يراجعون بدقة كل حساب وفرضيّة من حسابات وفرضيّات الآخرين في مجال بعيد عن اختصاصهم؛ لكن بشرط أن يكون لكل عالم في مجال اختصاصه مزاحمون ***شديدو الحيطة والشك*** يراقبون كل حركة من حركاته بدقة. من هذا الجوار بين «عدم الإفراط في الارتياب» و «الريبة القصوى» تنشأ العدالة داخل جمهورية العلماء.

216

سبب العقم

هناك عقول على مستوى راق من الموهبة تظل عديمة الإنتاج لا لشيء إلا لضعف في الطبع يجعلها لا تستطيع الصبر حتى تكتمل مدة حبَلها.

217

عالم الدموع المقلوب

إن القلق المتنوّع الذي تحدثه متطلبات الحضارة الراقية في الإنسان

ينتهي إلى قلب النظام الطبيعي للأشياء لديه، حيث يغدو متصلّباً وصبوراً على العناء عادة ولن يظل لديه من مجال لذرف الدموع إلا في حالات السعادة النادرة، بل حتى أن البعض يرى سيلَ دموعه ينهمر في لحظات المتعة التي يمنحه إياها غياب الألم: -إن قلوبهم لا تتحرك إلا في السعادة.

218

الإغريق كمترجمين

عندما نتكلم عن اليونانيين نتكلم لا إرادياً عن الماضي والحاضر: إن تاريخهم المعروف كونياً مرآة صافية تعكس دوماً شيئاً مما لا يوجد في المرآة نفسها. ونحن نستعمل حرية الكلام عنهم كي يمكننا أن نصمت عن الآخرين؛ وبذلك يكون على هؤلاء أن يهمسوا بأنفسهم في أذن القارئ النبيه. هكذا يسهّل اليونانيون على الإنسان الحديث إيصال أشياء كثيرة مقلقة يصعب إيصالها بطريقة مباشرة.

219

عن الطبع المكتسب لدى الإغريق

أمام الوضوح اليوناني الشهير وتلك الشفافية والبساطة والنظام، وأمام الطبيعية الصافية والفنية الكريستالية للأعمال اليونانية، تجدنا ننقاد بسهولة إلى الاعتقاد بأنها كلها مواهب فطرية في اليونانيين: أي أنهم على سبيل المثال لم يكونوا يستطيعون غير الكتابة بطريقة جيدة، كما عبّر عن ذلك ليشتبارغ ذات مرة. غير أنه لا شيء أكثر تسرّعاً وأقلّ متانة من هذا الحكم. إن تاريخ الكتابة النثرية من غورجيا حتى ديموستينوس تكشف لنا عن عمل وصراع مُضنٍ من أجل الخروج من الظلام والثقل وانعدام الذوق نحو النور، مما يذكّرنا بأولئك الأبطال

الذين كان عليهم أن يشقوا دروباً أولى عبر الغابات والمستنقعات. لقد كان الحوار داخل التراجيديا *المأثرة* الحقيقية للكتاب الدراميين بما يتميز به من صفاء ودقة غير اعتياديّن في محيط ذهني لشعب كان أميل إلى التلذذ والانتشاء بالرمزية والإيحاء اللذين كان يغذيهما ويشيعهما الشعر الغنائي الشهير؛ كما تمثّلت مأثرة هوميروس في تخليص اليونانيين من البهرج والطبع الثقيل للأسلوب الآسيوي وفي توصّله إلى ذلك الوضوح المعماري جملة وتفصيلاً. ولم يكن من السهل على الإطلاق أن ينجح الشاعر في قول شيء بذلك النقاء والإشعاع، وإلا من أين أتى ذلك الإعجاب الكبير الذي كانوا يبدونه لمأثورات سيمونيد (epigrammes)[٤٥] على ما كانت عليه من بساطة، دون أطراف مذهّبة، دون زُخرف التقعّر الذهني، لكنها تقول ما تريد أن تقوله، بوضوح ودقة وبهدوء الشمس لا بمؤثرات التماعات البرق الساطعة. إن التوق إلى الضوء شيء من طبع اليونانيين قادم على ما يبدو من أجواء غسقية فطرية لديهم، لذلك يهتز الشعب وينتشي عند استماعه إلى مقولة حكمية غامضة، أو إلى لغة المراثي وأمثال الحكماء السبعة. ولذلك كانت القوانين تُحرَّر في شكل منظوم، وهو ما يصدمنا اليوم، لكنه كان محبّباً لديهم، كمهمة أبولونية خالصة تطرح على العقل الإغريقي بهدف التغلب على مخاطر الوزن وعلى الغموض الذي هو من خصائص الشعر. لم تكن البساطة والمرونة والتقشف أشياء فطرية ثابتة في طبع اليونانيين، بل خصائص تم اكتسابها بالجهد الشاق- وقد ظل خطر الوقوع مجدداً في الأسلوب الآسيوي حائماً على الدوام فوق اليونانيين، وكان بين الحين والآخر يهبط عليهم فعلاً مثل تيّار جارف من الانفعالات الروحانية وتوحّش وظلمات بدائية. ونراهم يغوصون عندها، ونرى أوروبا وقد كاد يغمرها الطمي ويمحوها من الوجود - ذلك أن أوروبا كانت صغيرة جداً آنذاك-، لكنهم يعودون دوماً إلى

السطح وإلى النور، هم السباحون والغواصون الماهرون، شعب يوليسوس.

220

ما هو وثني حقاً

ربما ليس هناك من شيء سيبدو أكثر غرابة بالنسبة لمن ينظر في عالم الإغريق من كونهم يعمدون بين الحين والآخر إلى إحياء نوع من الحفلات لكل أهوائهم وميولهم السيئة، بل إنهم وضعوا عن طريق مؤسسة الدولة ضرباً من القانون المنظّم للاحتفال بما هو إنساني-مفرط في الإنسانية لديهم: ذلك هو ما كان عين الوثنية في عالمهم، وهو ما لم تستطع أن تفهمه ولن تفهمه المسيحية التي ظلت تحقّره وتقاومه باستمرار، وبكل ما أوتيت من قوة. كان الإغريق يعتبرون ذلك المفرط في الإنسانية شيئاً لا مفرّ منه، وفضّلوا أن يمنحوه حقاً من درجة ثانية من خلال تأطيره داخل عادات المجتمع وطقوس عباداته، عوضاً عن ذمّه ونبذه: بل إنهم كانوا ينعتون كل ما يملك قوة لدى الإنسان بالألوهي ويسجّلون اسمه على حيطان جنّتهم. كانوا لا يرفضون الغريزة الطبيعية التي تعبّر عن نفسها في خِصال سيئة ومُشينة، بل يؤطّرونها ويمنحونها مجالاً محدوداً داخل طقوس بعينها وفي أيام محدّدة بعد أن يكونوا قد ابتكروا عدداً من التدابير الاحتياطية كي يتمكنوا من تهيئة مجرى أقلّ ضرراً قدر الإمكان لتلك السيول المتوحشة. ذلك هو أصل كل الليبرالية الأخلاقية للعصر العتيق. كانوا يمنحون ماهو شرير ومشبوه، وما هو متخلف حيواني، وكذلك ما هو همجي آسيوي ماقبل إغريقي مما ظل يواصل الحياة بصفة أساسية داخل الكيان الإغريقي، إمكانيةً للتنفيس المعتدل، ولا يرمون إلى إبادته كلّياً. وكان مجمل ذلك النظام الترتيبي خاضعاً لمؤسسة الدولة

التي لم يكن بناؤها قائماً على أساس من اعتبارات خاصة بفرد أو طبقة بعينها، بل على أسس من معتاد الخصال الإنسانية العامة. وقد أعرب اليونانيون في بناء هذه المؤسسة عن ذلك الحس الرائع بواقعيةٍ نموذجيةٍ، الذي أهّلهم فيما بعد لكي يصبحوا علماء طبيعيّاتٍ ومؤرخين وجغرافيين وفلاسفة. ولم يكن العنصر القساوسي والطبقي للقوانين العُرفية هو صاحب الكلمة الفصل في تصميم وتأسيس كيان الدولة وطقوس العبادات الرسمية، بل الإحالةُ بشكل واسع على *واقعِ كل ما هو إنساني*.

من أين اكتسب اليونانيون هذه الحرية وهذا الحس الواقعي؟ ربما من هوميروس ومن الشعراء السابقين؛ ذلك أن الشعراء بالذات، الذين لا نستطيع أن نقول عنهم إنهم من طبيعة هي الأكثر عدالة والأكثر حكمة، يجدون مقابل ذلك مُتعة في ما هو واقعي وفي كل مؤثِّر *من أي نوعٍ*، ولا يريدون نفي حتى ما هو شرٌّ نفياً تاماً: يكفيهم أن يصبح معتدلاً وأن لا يكون مهلكاً قاتلاً لكل شيء ومسمّماً للروح؛-يعني أن تفكيرهم كان شبيهاً بتفكير مؤسسي الدولة، بل كان هؤلاء مثالَهم النموذجي والطلائع الذين مهّدوا لهم الطريق.

221

عقول استثنائية من بين اليونانيين

كانت العقول المتينة والجدّية والعميقة هي الاستثناء في اليونان، بينما كانت غريزة الشعب أميل إلى اعتبار كل ما هو جدّي وعميق كنوع من التعسّف المشوّه. استعارة الأشكال من الخارج وليس إبداعها، ثم إجراء تحويرات عليها بهدف الحصول على مظهر أجمل، ذاك هو الطبع اليوناني: المحاكاة، لا من أجل الاستعمال، بل لغرض الإيهام الفني؛ محاولة السيطرة دوماً وبصفة متكررة على الإكراه الجدّي، إعادة

الترتيب، والتجميل وإضفاء مزيد من السطحية؛ هكذا ظلت تجري الأمور منذ هوميروس حتى سفسطائيي القرنين الثالث والرابع بالتأريخ الميلادي، الذين كانوا في كلّيتهم مظهراً خارجياً، وعبارة رنّانة، وحركات حماسية متجهة كلها لمخاطبة أرواح خاوية متعطشة إلى كل ما هو بهرجُ مظهرٍ وصوتٍ ومؤثرات. -والآن لنمنح عظمة تلك الاستثناءات اليونانية ما تستحق من تقدير، أولئك الذين ابتكروا العلم! إن من يروي عنهم إنما يروي تاريخ الملحمة البطوليّة للعقل الإنساني.

222

البسيط لا هو أول ولا آخر الأشياء ميقاتياً

هناك العديد من الأفكار الواهمة عن تطورات متخيَّلة وتقدّمٍ مزعوم تُقحم عادة في تاريخ التصوّرات الدينية حول أشياء لم يأت نموّها في الحقيقة بحسب تلاحق وتوالد للواحدة من الأخرى، بل نشأت متزامنةً متوازيةً ومنفصلةً؛ وقد ظلت البساطة بصفة خاصة تصنَّف بموجب هذا التوهّم ضمن ما هو أقدم وما ينتمي إلى طور البدايات. فالكثير من الأشياء الإنسانية تنشأ عن عمليات طرح وقسمة، لا عن مضاعفة وإضافة وتركيب بأي حال من الأحوال. وما يزال الاعتقاد قائماً على سبيل المثال في تطور تدريجي ***لتمثيل الآلهة*** من قطع الخشب والأحجار المشكّلة على نحو بدائي ارتقاءً حتى التجسيد المؤنْسِن الأكثر اكتمالاً: بينما حقيقة الأمر هي أن تلك الآلهة طالما ظل تمثّلها والإحساس بها لا يتم إلا من خلال تشكلات أجساد من الأشجار وقطع خشبية وحجارة وحيوانات، فإن الناس ظلوا ينفرون من تصوّر شكل إنساني لها ويخافون من ذلك خوفهم من الكفر. وكان لا بد أن يكون الشعراء هم أول من سيعملون، بمعزل عن العبادات وعن سلطة تأثير ***الحياء*** الديني، على تعويد الخيال الباطني للناس على ذلك الأمر ويروّضون

نفورهم منه؛ لكن حالما تعود حالات التقوى إلى السيطرة ينسحب ذلك التأثير التحرري الذي يمارسه الشعراء مجدداً وتظل القداسة، كما أن شيئاً لم يحدث، مرتبطة بالمرعب والمخيف، وما هو لا إنساني كلياً. وتظل هناك أشياء كثيرة يتجرأ الخيال الباطني للإنسان على تصوّرها، لكنها حالما تتجسد أمام عينيه في أشكال جسمانية تصبح مثيرة للقلق: فالعين الباطنية أكثر جرأة في كل الأحوال وأقلّ حياء من العين الخارجية (من هنا تأتي تلك الصعوبة المعروفة، وفي بعض الأحيان استحالة تحويل مواضيع شعرية إلى مادة مسرحية). إن الخيال الديني ظلّ، لزمن طويل، لا يقبل البتّة بفكرة تطابق الهوية الإلهية مع صورة: فمهمة الصورة هي أن تُوحي بحضور الكائن في ذاته (Numen)[٤٦] على نحو غامض وغير قابل للتصوّر بصفة كاملة، أن تجعله يحضر كقوة فاعلة، وكمقيم في المكان. وكان على أقدم صورة إلهية أن تكون حاملاً *يحضن الإله ويخفيه في الآن نفسه*؛ أن تشير إلى وجوده لكن دون أن تعرّضه للنظر. وما من إغريقي *رأى بعينه الباطنية* أبولو في شكل عمود خشبي، أو إيروس في هيأة كتلة حجرية؛ كانت تلك الآلهة رموزاً مهمتها بالذات هي أن تبعث الخوف إزاء كل تجسيد. وكذلك كان شأن تلك المنحوتات البدائية الخشنة التي كان يضاف إليها بطريقة بائسة بعض الأعضاء ومن حين لآخر عدداً مبالغاً فيه منها؛ مثل منحوتة لاكونيا المجسّدة لأبولو بأربع أيد وأربع آذان. في ما هو غير كامل وإيحائي، أو ما هو مُجاوز للكمال هناك قداسة مثيرة للذعر *تصدّ* عن التفكير في ما هو إنساني أو ذي طابع إنساني. -لم تكن تلك المرحلة التي تم فيها إنجاز مثل هذه الأعمال مرحلة جنينية من تاريخ الفن، كما لو أن الفنانين في تلك الفترة التي كانت تبجّل فيها هذه المنحوتات لم يكن *باستطاعتهم* أن يعبّروا ويجسّدوا (ما يريدون تجسيده) بأكثر وضوح. بل أكثر من ذلك، فإنه إذا ما كان لهؤلاء شيء ينفرون منه إنما هو: التعبير المباشر. وكما

أن الحرم cella يأوي قداسة القداسات، أي الكائن الإلهي في ذاته Numen ويحجبه داخل ظلاله الغسقية الغامضة، *لكن ليس تماماً*؛ وكما أن المعبد «البيريبتيري» يحجب بدوره الحرم cella بما يشبه ستارة وحجاباً عن أعين الفضوليين، لكن ليس تماماً؛ فكذلك تكون الصورة هي الإله وفي الآن نفسه مخبأ للإله. -بدءاً من ذلك الوقت الذي غدا الناس فيه، خارجاً عن مجال الديني والمقدس، بل في العالم الدنيوي، يجدون متعة في الاحتفاء بالبطل المنتصِر في المباريات والمبارزات، وبلغ ولعهم ذلك ذروته، فاض ذلك التيار عن مجال الدنيوي إلى مجال الأحاسيس الدينية، وبدءاً من تلك اللحظة التي أصبحت فيها صور المنتصرين تُعرض في أروقة المعبد، وكان على عين الزائر التقيّ وروحِه أيضاً أن تتعوّد طوعاً أو لا إرادياً على رؤية ذلك المشهد الذي يفرض نفسه؛ مشهد الجمال الإنساني وفيض قوّته، مما جعل إجلال القدسيّ وإكبار الإنساني يتعاضدان ويندمجان معاً داخل ذلك الجوار المكاني والروحي الذي غدا يجمع بينهما؛ بداية من تلك اللحظة تراجع ذلك النفور من أنْسنة الصورة الإلهية، وانفتح المجال الهائل أمام الفن التشكيلي الكبير؛ ومع ذلك ما يزال التحفّظ قائماً إلى الآن، إذ حيثما تكون هناك *عبادة*، في أي مكان، مازال يتم الاحتفاظ بالأشكال القديمة وصور القبح العتيقة ومحاكاتها بإتقان. لكن الهلّيني الذي يهب ويكرّس قد غدا بإمكانه أن ينعم الآن ما طاب له بممارسة رغبته في جعل الإله يصير إنساناً.

223

إلى أين ينبغي أن نسافر

إن تأمل الذات غير كافٍ وحده لكي نعرف أنفسنا: نحتاج إلى التاريخ، ذلك أن الماضي يواصل تدفّقه آلافاً من الأمواج في داخلنا؛ ولسنا،

نحن أنفسنا، شيئاً آخر غير ما نحسّ به في كل لحظة من ذلك الاستمرار المتدفق. هنا أيضا، ونحن نغوص في نهرٍ يبدو أنه كياننا الأكثر شخصية وحميمية، تصحّ مقولة هيراقليطس: إننا لا نسبح مرتين في النهر نفسه. -هذه حقيقة، وإن بدت عتيقة باهتة بحكم الزمن، لكنها تظل مع ذلك متينة ومغذية بنفس القدر الذي كانت عليه في ما مضى، مثلها مثل تلك الأخرى القائلة بأن من يريد أن يفهم التاريخ سيكون عليه أن يبحث عن البقايا التي مازالت حيّة من العصور التاريخية القديمة، -أن يكون على المرء أن يسافر كما كان الجدّ هيروردت يسافر إلى الشعوب الأجنبية- إذ هذه الأخيرة ليست سوى ***أطوار حضارية*** قديمة متحجرة يمكننا أن ***نضع أقدامنا على أرضها***-، أن نزور ما يسمّى بالشعوب المتوحشة وشبه المتوحشة، أي هناك حيث خلع الإنسان عنه الثوب الأوروبي، أو لم يرتدِه بعد. لكنّ هناك نوعاً آخر من فنون السفر الأكثر رهافة، سفر لا يتطلب تنقلاً من مكان إلى مكان وقطع آلاف الأميال مشياً على الأقدام؛ فمن المحتمل جداً أن القرون الثلاثة الأخيرة بكل أوجهها وتلويناتها المتنوعة ماتزال تواصل الحياة ***بالقرب منا***، ولا ترغب سوى في أن يتم ***اكتشافها***. فداخل بعض العائلات، بل وفي بعض الأفراد أيضاً، تتواجد الطبقات الأركيولوجية في شكل جميل وهيأة واضحة جلية للنظر؛ وفي غير هذا الموضع توجد تصدّعات وشقوق في الصخر تستعصي على الفهم. ومن المؤكد أنّ في المواقع النائية، في أودية نادراً ما تطؤها الأقدام في المناطق الجبلية، لدى مجموعات بشرية منسحبة على نفسها، نموذجاً محترماً من أحاسيس قديمة جداً ظلت قادرة على الحفاظ على نفسها، ويمكن تحسّس آثارها بسهولة؛ بينما سيكون القيام بمثل هذه الاكتشافات أمراً مستبعداً في مدينة برلين مثلاً، حيث الإنسان يأتي إلى العالم مستهلَكاً ومستنفَداً مسبقاً. وإن من تحوّل، بعد تجربة طويلة في

الأسفار، إلى أرغوس ذي المئة عين، ذاك سيكون برفقة إيو[٤٧]-أعني أناه- في كل مكان، وأينما حل، في مصر واليونان وبيزنطة وروما وفرنسا وألمانيا، في أزمنة ترحال أو استقرار الشعوب، في عصر الأنوار أو الإصلاح، في موطنه أو في البلاد الغريبة، بل وفي البحر والغابة والنباتات والجبال، يظل يكتشف مجدداً أطوار تلك الرحلة المغامرة لـ أناه في صيرورتها وتحوّلها الدائم[٤٨]. هكذا تغدو معرفة الذات معرفة كونية من منظور الماضي بكلّيته؛ وعلى هذا النحو، وفي سياق آخر لسلسلة المُعاينات، سياق ألمّح إليه هنا مجرّد تلميح، يمكن لتحديد المصير الذاتي وللتربية الذاتية التي تمارسها أكثر العقول تحرراً وبُعدَ نظرٍ أن تغدو في يوم من الأيام تحديدَ مصيرٍ كوني من منظور الإنسانية المستقبلية في مُجملها.

224

بَلْسَم وسمّ

هذه مسألة لن نستوفي التفكير فيها أبداً: المسيحية ديانة للحضارات العتيقة المصابة بالشيخوخة، وشرط وجودها هي شعوب الحضارات القديمة الآيلة إلى الانحطاط؛ وقد كانت، واستطاعت أن تكون، بمثابة البلسم بالنسبة لتلك الشعوب. في عصور تكون على الأعين فيها غشاوة وفي الآذان «*وحل*» تجعلها غير قادرة على سماع صوت العقل والفلسفة، وعلى رؤية تلك الحكمة المجسّدة كائنات حيّة أمامها، سواء حملت إسم إيبيكتيت أو أبيقور؛ يمكن أن تكون صلبان الشهداء المنصوبة و«أبواق القيامة»[٤٩] هي القادرة على جعل الناس يختارون نهاية **لائقة** لحياتهم. لنتذكر روما جوفينال[٥٠]، والعلجوم السامّ ذا عيني فينوس، وسندرك عندها ماذا يعني أن يُنصب صليب أمام «العالم»، وسنُكبر الطائفة المسيحية الهادئة ونعترف لها بالجميل

لغزوها تراب الإمبراطورية الرومانية الإغريقية. وبما أن أغلب الناس كانوا يولدون آنذاك بروح مستعبدة وبحسيّةٍ مترهلة، فأي سعادة كانت لهم إذاً في الالتقاء بأولئك الأشخاص الذين كانوا روحاً بلا جسد تقريباً ويبدون كما لو أنهم يجسّدون التصور الإغريقي لأطياف العالم السفلي (هادس): هيآت وجِلة، متسللة، مترنّمة، محسنة، ممتلئة أملاً في «الحياة الأخرى الأفضل»، ذلك الأمل الذي يسكنها ويجعلها تتجرد من كل طموح لتغدو على غاية من الاحتقار الصامت والصبر المكابر! تلك المسيحية التي كانت عبارة عن رنين ساعة غروب العصور العتيقة *الطيبة* بناقوسها المثلوم المتعب وذي النغمة العذبة مع ذلك، ما تزال حتى يومنا هذا بلسماً لأذن كل من يكتفي بالقيام بجولة عبر تاريخ تلك القرون؛ فما بالك بالوقع الذي كان لها على آذان الناس في ذلك الزمن إذاً!

وبالمقابل، فإن المسيحية تكون سمّاً بالنسبة للشعوب الهمجية الفتية؛ إن غرس فكرة الخطيئة وعذاب الجحيم الأبدي في الروح البطولية الطفولية والحيوانية للألماني القديم مثلاً لا يمكن أن يكون سوى عملية تسميم؛ لا بد أنها كانت عملية تعفّن وانحلال رهيبة، واضطراب في الأحاسيس وملكة الحكم، مع نمو وتطور طفيلي لكمّ هائل من الخيالات الغريبة سينتج عنها مع مرور الزمن إضعاف جذري لتلك الشعوب المتوحشة. - ومع ذلك، ما الذي كان بإمكانه أن يتبقى لنا من الحضارة الإغريقية، بل ومن مجمل ماضي الحضارات القديمة كلها، لولا ذلك الإضعاف الذي تعرضت له الشعوب المتوحشة؟ فالبرابرة الذين ظلوا **محصّنين** ضد المسيحية قد أفلحوا في تدمير الحضارات العتيقة والقضاء عليها كلياً؛ ولنا مثال في زحف الشعوب الوثنية على بريطانيا الرومانية الذي أثبت لنا هذا الأمر على نحو قاس وفظيع الوضوح. لقد ساعدت المسيحية رغماً عنها على الحفاظ على

«العالم» القديم وجعله يحظى بالخلود. -لكن يظل هناك مع ذلك سؤال معاكس يطرح نفسه، وإمكانية لموازنة معاكسة للمسألة: ألا يمكن أن نتصور أنه ربما كان من الممكن، ومن دون هذا الإضعاف عن طريق ذلك التسميم المذكور، أن يتّفق لواحد من تلك الشعوب الفتية، الألمان مثلاً، أن يجد لنفسه تدريجياً طريقاً نحو حضارة راقية، حضارة جديدة خاصة به؟ -حضارة ربما تكون الإنسانية قد حُرمت من أبسط فكرة عنها؟ -هكذا هو الأمر هنا، كما في كل موضع آخر: إننا لا ندري في النهاية، ولكي نتكلم لغة مسيحية، إن كان الله هو من يدين بالشكر للشيطان، أم الشيطان لله لكون الأمور قد سارت على النحو الذي سارت عليه.

225

الإيمان يولّد السعادة والشقاء

إن مسيحياً يدخل في ضروب من التفكير الممنوع قد يجد نفسه ذات يوم يتساءل: هل من *الضروري* حقاً أن يكون هناك إله إلى جانب ممثل عن الخرفان المذنبة، عندما يكون مجرد الإيمان بوجود ذلك *الكائن* كافياً لكي يُحدث نفس التأثيرات؟ ألا تكون إذاً كائنات *زائدة عن اللزوم* في صورة ما إذا وُجدت؟ ذلك أن كل ما تمنحه المسيحية للنفس البشرية من إحسان وعزاء وأخلاق، مثله مثل كل ما يعتّمها ويسحقها، إنما مأتاها هو الإيمان نفسه وليس موضوع ذلك الإيمان. ولا يختلف الأمر عما هو عليه في الحالة الشهيرة للاعتقاد في وجود الساحرات: فمع أنه لم تكن هناك من ساحرات حقاً، إلا أن التأثيرات الشنيعة للإيمان بالسحر كانت هي نفسها، كما لو كانت هناك ساحرات حقاً. وفي كل تلك الحالات التي ينتظر المسيحي فيها تدخلاً من الله، لكن دون جدوى-ذلك أنه ما من إله هناك- تكون ديانة ما على قدر من

الابتكار في ما يتعلق بالمراوغة وإيجاد الحجج المهدئة: وهي في هذا المضمار ديانة ذات خيال مبدع بكل تأكيد. - ولئن لم يفلح الإيمان حتى الآن في زحزحة أي جبل حقيقي، مع أن أحداً ما، لم أعد أدري من هو، قد ادّعى ذلك، لكنه يفلح في أن يضع للناس جبالاً حيث لا تكون هناك جبال.

226

تراجيكوميديا ريغنسبورغ

هنا وهناك يمكننا أن نشاهد بوضوح مُفجع المسرحية الهزلية للقدر، وكيف تعقد رباط حبل القرون اللاحقة على أيام معدودة ومكان واحد ووفقاً لحالات وأمزجة عقل واحد، ثم تريد أن تجعل تلك القرون القادمة ترقص على طرفه. وعلى هذا النحو ارتبط المصير المشؤوم لتاريخ ألمانيا الجديدة بتلك الأيام التي جرت فيها مناظرة ريغنسبورغ: كان الحل السلمي للمسائل الكنسية والأخلاقية دون حروب دينية وإصلاح مضاد يبدو موشكاً على التحقق، وكذلك الوحدة الألمانية؛ وقد حلّقت الروح المعتدلة والعميقة لكونتاريني(٥١) كممثل عن التقوى الإيطالية الناضجة لبرهة من الزمن ظافرةً فوق الخصومة اللاهوتية، وكانت إشعاعات فجر حرية العقل تنعكس على جناحيها. لكنّ العقل المتحجر للوثر المشحون شكوكاً ومخاوف شنيعة تصدّى لذلك: ولأن مفهوم التبرئة من خلال الرحمة كان يبدو له ابتكاره ***الخاص*** وشعار إيمانه فإنه لم يكن ليصدّق تلك المقولة على لسان الإيطاليين، بينما كانوا، كما هو معروف، هم الذين ابتكروه منذ زمن طويل قبله ونشروه بكل هدوء عبر كامل إيطاليا. كان لوثر يرى في ذلك التوافق الظاهر حيلة من حيل الشيطان، وتصدّى بكل ما يملك من قوة للمسار السلمي؛ وبذلك ساعد النوايا العدوانية على الإمبراطورية على التقدم

خطوات هائلة إلى الأمام. -والآن، لكي يتدعم الانطباع أكثر عن تلك المهزلة الفظيعة، لنضف إلى ذلك أن ليس هناك مسألة واحدة من تلك التي كان يدور حولها النزاع في مناظرات ريغنسبورغ، لا مسألة الخطيئة الأصلية ولا الخلاص بالنيابة عن طريق الصليب، ولا تلك المتعلقة بالتبرئة من خلال المغفرة، ما من واحدة منها كانت على شيء من الصحة، أو تمتّ بأية صلة إلى الحقيقة، كي يتم الاعتراف بها الآن كمسائل لا جدال فيها؛ - ومع ذلك فقد أضرمت في العالم نيران حرب من أجل آراء لا علاقة لها بشيء من الأشياء ولا بأي واقع؛ بينما لو تعلق الأمر بمسائل فيلولوجية بحتة، مثل تفسير وصايا العشاء السري، لكان الجدال على الأقل أمراً مسموحاً به، ذلك أنها مسائل يمكن أن تقال فيها الحقيقة. لكن حيث لا يوجد شيء لن يعود هناك من حق للحقيقة. -وبالختام لا يسعنا سوى أن نقول إن ينابيع طاقة قد تفجرت مع ذلك حينها، وكانت على قدر من القوة العاتية من دونها لما أمكن لكل دواليب العالم الحديث أن تدار بنفس القدر من القوة التي عرفتها. إذ القوة هي التي تكون المحدِّد أولاً، ومن بعدها تكون الحقيقة، بل، وحتى من بعدها، ربما لا يكون هذا أمراً مؤكداً أيضاً؛ -أليس كذلك يا أعزائي المواكبين للعصر ؟

227

أخطاء غوته

إن ما يجعل من غوته الاستثناء الأكبر بين الفنانين الكبار هو أنه لم يدع نفسه ينحبس داخل ***المجال المحدود لمواهبه الحقيقية*** كما لو كانت هي الشيء الجوهري بالنسبة له وللعالم عامة، والأمرَ الأكثر تميّزاً، ومطلقَ الأشياء وغايتها الأخيرة. لمرتين اعتقد أنه يمتلك شيئاً أرقى مما كان يملك في الحقيقة؛- وقد أخطأ في ذلك. أخطأ في ***النصف***

الثاني من حياته عندما بدا مسكوناً كلياً بقناعة أنه واحد من كبار عقول الاكتشاف والتنوير *العلميين*. كما كان قد أخطأ في النصف *الأول* من حياته عندما *أراد* من نفسه شيئاً أرقى مما كان يبدو له في الفن الشعري؛ وقد أخطأ في ذلك طبعاً. لقد اعتقد بأن الطبيعة كانت تريد أن تجعل منه فناناً *تشكيلياً*؛ وكان ذلك هو السرّ المتقد الذي كان يلهب أعماقه الخفية، والذي دفع به في النهاية إلى السفر إلى إيطاليا كي يمنح نفسه فرصة لإشباع رغبته في ممارسة ذلك الوهم والمضيّ فيه حتى الحدود القصوى، وأن يبذل في سبيله كل أنواع التضحيات. ثم هاهو يكتشف أخيراً بعقله الراجح، هو المعادي الصريح لكل الأوهام والضلالات، أن جنّيّ الرغبات الماكر هو الذي دفع به إلى الاعتقاد بمثل هذه الموهبة، وأن عليه أن يتخلص من هذا الهوى الأكبر لإرادته، وأن ينفصل عنه نهائياً. وقد وجد هذا الاقتناعُ المؤلم بضرورة الانفصال الصيغةَ المكتملة والنهائية للتعبير عن نفسه في الحالة النفسية لطاسو[٥٢]: كان يجثم عليه، على «فيرثر ذي الطاقة الهائلة» ذلك الإحساس المسبق بشيء أشد من الموت، كما لو أن أحداً ما يقول لنفسه: «والآن قد انتهى كل شيء؛ بعد هذا الانفصال، كيف سيكون على المرء أن يواصل الحياة، دون أن يصاب بالجنون!»

هذان الخطآن الأساسيّان في حياة غوته قد منحاه في ما يتعلق بالرؤية الأدبية المحض للشعر، من ذلك النوع الوحيد الذي كان يعرفه العالم آنذاك، موقفاً يبدو على غاية من التحرر والإرادة الواعية تقريباً. وإذا ما استثنينا تلك الفترة التي كان على شيلر -شيلر المسكين الذي لم يكن له وقت ولم يكن يدع وقتاً- أن يخرجه من وجله المتحفظ تجاه الشعر ومن الخوف من كل أدب ومن كل عمل أدبي، -يبدو غوته مثل إغريقي يزور عشيقة هنا أو هناك، ولديه دوماً شك بأنها ربما تكون ربة لا يستطيع أن يمنحها اسماً يليق بها. في كل أشعاره نحسّ

بأنفاس الطبيعة والفن البلاستيكي القريبين: ملامح تلك الأخيلة التي تراوده -ولعله ظل يعتقد دوماً أنه لا يفعل سوى المضي على خطى ربّة بعينها في تنقلاتها المتواصلة- قد أصبحت دون إرادة منه ولا علم تشكل ملامح كل مولوداته الفنية. من دون تلك ***المنعرجات عبر الأخطاء***، ما كان لغوته أن يصبح غوته: يعني فنان الكتابة الألماني الوحيد الذي ما زال يحتفظ بحيويته ولم ينل منه الهرم؛ لأنه بكل بساطة لم يكن يريد أن يكون محترفاً لا للشعر، ولا للهويّة الألمانية.

228

المسافرون درجات

علينا أن نميّز خمس درجات للمسافرين: أصحاب الدرجة الأولى، أو الأدنى، هم أولئك الذين يسافرون ***ويراهم الناس***؛ وهم في الحقيقة أناس يُقادون إلى السفر وهم أشبه بالعميان؛ أصحاب الدرجة الثانية الذين يرون العالم بأنفسهم حقاً؛ ومسافرو الدرجة الثالثة الذين يعيشون شيئاً ما نتيجة لنظرهم؛ أما أهل الدرجة الرابعة فيستبطنون ما عاشوه ويظلوا يحملونه معهم؛ وأخيراً هناك بعض من الناس الذين يمتازون بطاقة ذهنية عالية، هؤلاء، بعد أن يكونوا قد رأوا وعاشوا الأشياء واستبطنوها سيغدو عليهم بالضرورة أن يعيشوها ثانية وهم يطرحونها خارج أنفسهم في أعمال وإنجازات مباشرة بعد عودتهم إلى بلادهم.
-وفقاً لهذه الأصناف الخمسة من المسافرين يكون سلوك الناس عامة وهم يجتازون رحلة الحياة: صنف المستوى الأدنى هم الذين يعيشونها من موقع المتقبل بخمول تام، أما صنف الراقين فيعيشونها كفاعلين يعيشون حياتهم بكليتها دون أن يتركوا جزءاً ضئيلاً مما بحوزتهم من طاقة داخلية دون أن يستعملوه.

229

الارتقاء إلى مستوى أعلى

حالما يرتقي أحدنا إلى درجة أعلى من تلك التي يقف عليها أولئك الذين ظلوا إلى حد الآن معجبين بنا، سيبدو لهؤلاء أنه تدنّى ووقع إلى الحضيض؛ ذلك أنهم، في كل الأحوال، كانوا يعتقدون حتى تلك اللحظة (حتى وإن كان ذلك بفضلنا نحن) أنهم يقفون معنا في أعلى الأعالي.

230

الاتزان والاعتدال

أمران راقيان لا يفضّل الناس الكلام عنهما، هما الاتزان والاعتدال، ولا يوجد سوى عدد قليل ممن يعرفون قوّتهما وعلاماتهما من خلال الدروب السرية لتجاربهم وتحوّلاتهم الباطنية: هؤلاء القلة يُجلّون فيهما شيئاً ذا طابع ألوهي ويخشون العبارة المدوّية. أما مَن تبقّى من الناس فلا يكادون يمنحون أذناً عندما يأتي ذكر هذين الأمرين، ويعتقدون أن الأمر يتعلق بمجرد ضجر ورداءة؛ ولعلّنا نستثني هنا أولئك الذين ربما تناهى إلى مسامعهم في يوم ما رنين محذّر قادم من تلك المملكة، لكنهم سدّوا آذانهم عنه؛ وتذكيرهم بذلك يغضبهم ويثير حفيظتهم.

231

إنسانية في علاقات الصداقة والعلاقة بالمعلّم

«إن أنت اتجهت شرقاً، فسأتجه غرباً»[٥٣]؛ مثل هذا الإحساس علامة نبيلة عن الإنسانية في العلاقات الوطيدة؛ وفي غياب مثل هذا الإحساس سيؤول الأمر بكل علاقة صداقة أو علاقة بين معلّم وتلميذ يوماً ما إلى النفاق.

232

العميقون

يتراءى المفكرون العميقون لأنفسهم في تعاملهم مع الآخرين كما لو أنهم ممثلون، ذلك أنهم لكي يغدوا مفهومين، لا بد أن يتظاهروا دوماً بشيء من السطحية في البداية.

233

إلى محتقري «إنسانية القطيع»

من ينظر إلى الناس كقطيع ويفرّ من أمامهم بأقصى ما يستطيع من السرعة، سيلحقون به بكل تأكيد ويُعملون فيه قرونهم.

234

الجناية الكبرى في حق المغرورين

من يمنح شخصاً فرصة كي يستعرض أمام الناس علمه وحساسيته وتجربته يكون قد ارتقى بنفسه فوق منزلة ذلك الشخص، وإذا لم يعترف هذا الأخير دون تحفّظ بتفوّقه عليه، سيكون قد ارتكب جناية في حق غروره الخاص، - فيما هو يعتقد أنه يرضيه.

235

خيبة أمل

عندما تُستعرَض المسيرة الطويلة لحياة شخص وأعماله بما فيها خطبه وكتاباته قصد تقديم شهادة عنه للعموم، فإن ذلك غالباً ما يُفضي إلى خيبة أمل، وذلك لسببين: أولهما أننا ننتظر الكثير من خلال فاصل زمني قصير جداً؛ - أي كل تلك الأشياء التي لا يمكن أن تظهرها سوى آلاف الفرص التي تمنحها الحياة خلال مسيرتها الطويلة-؛

وثانيهما أن كل شخص معترف به لن يكلّف نفسه عناء السعي إلى كسب مزيد من الاعتراف عبر تفاصيل وجزئيات عديدة. إنه يغدو لا مبالياً، -ونغدو من جهتنا شديدي القلق.

236

أصلان متناقضان للطيبة

معاملة الجميع بنفس المودة وإبداء طيبة تجاه الجميع دون تمييز يمكن أن يكون نابعاً عن احتقار عميق، مثلما يمكن أن يكون عن محبة متينة للإنسانية.

237

الجوّال فوق الجبال في حديث مع نفسه

هناك علامات ثابتة على أنك قد تقدمت وبلغت مستوى مرتفعاً: لقد غدا المشهد أوسع من حولك وأكثر تنوعاً مما كان عليه من قبل، والهواء الآن أكثر برودة، لكنه ألذّ أيضاً، (ها أنك قد تخلصت من حماقة الخلط بين اللذيذ والدافئ)، خطوتك غدت الآن أكثر حيوية وثباتاً، وفي داخلك تنامت الشجاعة وحصافة العقل يداً بيد: ولهذه الأسباب كلها ستغدو طريقك الآن أكثر وحدة، وعلى أية حال أكثر خطراً من طريقك القديمة، وإن ليس بالدرجة التي يعتقدها أولئك الذين ينظرون من عمق الوادي المغمور بالضباب إلى الجوّال المتنقل فوق الجبال.

238

ما عدا القريب

يبدو أن رأسي ليس ثابتاً كما ينبغي فوق كتفيّ؛ ذلك أن كل شخص

غيري يعرف أفضل مني، كما هو معلوم، ماالذي ينبغي عليّ أن أفعل وأن لا أفعل: أنا الأحمق البائس وحدي الذي لا أدري كيف أتدبّر أمري. ألسنا كلنا أشبه بتماثيل قد وضع فوقها الرأس غير المناسب؟ - أليس كذلك يا جاري العزيز؟ -كلا، إنما أنت، أنت بالذات هو الاستثناء.

239

إجراء احتياطي

علينا أن نتجنب معاشرة الناس الذين لا احترام لديهم لما هو شخصيّ، أو أن يكون علينا قبلها أن لا نتردد في تكبيلهم بقيود اللياقة.

240

إرادة الظهور بمظهر الغرور

أن يحرص المرء في محادثة مع غرباء أو شبه غرباء على أن لا يعبّر إلا عن أفكار منتقاة، وأن يتحدث عن معارفه من الشهيرين وتجاربه المهمة وأسفاره، فتلك علامة على أنه ليس متكبراً، أو أنه على الأقل لا يريد أن يبدو كذلك. إن الغرور هو قناع المجاملة الذي يضعه ذو الكبرياء.

241

الصداقة الجيدة

تنشأ الصداقة الجيدة عندما يكنّ المرء للآخر احتراماً يفوق احترامه لنفسه، ويحبه، لكن أقلّ من محبته لنفسه، ثم يضيف، لجعل المعاملة أكثر سيولة، لمسة رقيقة وناعمة من الحميمية، مع الحرص بحكمة على تفادي الحميمية الحقيقية الكاملة والخلط بين الـ أنا و الـ أنت.

242

الأصدقاء كأشباح

عندما نشهد تحوّلاً كبيراً يتحوّل أصداقاؤنا الذين لم يتغيّروا إلى أشباح من ماضينا الخاص: تغدو لصوتهم في أسماعنا نبرة شبحية، كما لو أننا نستمع إلى أنفسنا، لكن ونحن أصغر سنّاً، أكثر حِدّة، وأقلّ نضجاً.

243

عين ونظرتان

أولئك الذين يستخدمون نظراتهم في لعبة استجداء المودة والعطف، تكون لهم، بحكم تراكم أحاسيس المذلة والرغبة في الانتقام، النظرة الأكثر وقاحة أيضاً.

244

البعيد المشعّ

طفولة مدى الحياة: عبارة ذات وقع رقيق مؤثر، لكن كحُكم عن بُعد؛ أن ترى ذلك وتعيشه عن قرب فسيكون معناه دوماً: صبيانية مدى الحياة.

245

الإيجابي والسلبي في سوء تفاهم واحد

إن الحرج الأبكم الذي ينتاب ذا عقل مرهف غالباً ما يُتأوّل من طرف العقول البليدة على أنه تفوّق صامت، وتكون لهم خشية شديدة منه؛ بينما إدراك الحرج يولّد المودّة.

246

الحكيم مفتعلاً دور الأحمق

إن حِلم الحكيم يدفع به أحياناً إلى *التظاهر* بالتهيّج والغضب والابتهاج، كي يتفادى الإساءة إلى محيطه من خلال برودة ورصانة طبعه *الحقيقي*.

247

إرغام النفس على الاهتمام

لمجرد أن نلاحظ أن شخصاً يرغم نفسه أثناء معاملة أو حديث على إبداء الاهتمام بنا، يغدو لدينا دليل قاطع على أنه لا يحبنا، أو أنه لم يعد يحبنا.

248

السبيل إلى فضيلة مسيحية

أن نتعلم من أعدائنا هو أفضل سبيل إلى محبتهم؛ إذ ذلك يجعلنا نعترف لهم بالجميل.

249

الحيلة الحربية للمتطفل

يبادلنا المتطفل عُملتَنا العادية بعملة من ذهب، ويريد من وراء ذلك أن يدفع بنا بعدها إلى اعتبار عاديّتنا خطأ، ومعاملته هو استثناء.

250

سبب النفور

نبدي كراهية لهذا أو ذاك من الكتاب أو الفنانين، لا لأننا نلاحظ أنه قد غالطنا، بل لأنه لم يهتد إلى وسيلة ألطف للأخذ بألبابنا.

251

عند الانفصال

ليس في الطريقة التي تقترب فيها روح من روح أخرى، بل في طريقة ابتعادها عنها، أُدرك نوعية القرابة والانسجام مع تلك الروح.

252

صمت

لا ينبغي أن نتحدث عن أصدقائنا، لئلا نستنفد في الكلام مشاعر الصداقة.

253

قلة أدب

غالباً ما تكون قِلّة الأدب علامةَ تواضُع أرعن يصاب بالارتباك لدى كل مفاجأة ويسعى إلى إخفاء ذلك عن طريق الفجاجة.

254

خطأ في حسابات الصراحة

أحياناً يكون آخر معارفنا هم الذين نبوح لهم بما كنا نحتفظ به طوال الوقت طيّ الكتمان؛ ونعتقد عن غباء أن هذا التعبير عن ثقتنا فيهم يمكن أن يكون خير وثاق لتوطيد ارتباطهم بنا. غير أن هؤلاء لا يعرفون عنا بما فيه الكفاية كي يستطيعوا تقدير التضحية التي في ثقتنا هذه حق قدرها، ويُفشون سرّنا للآخرين دون أن تكون لديهم نية في الخيانة؛ الأمر الذي يمكن أن ينتج عنه خُسران بعض من علاقاتنا القديمة.

255

في قاعة انتظار الحُظوة

كل الذين نتركهم لمدة طويلة داخل قاعة انتظار حُظوتنا، ينتهي بهم المطاف إلى الغليان استياء أو إلى حموضة الغضب.

256

تحذير للمحتقَرين

عندما تنهار سُمعة أحد ما لدى الآخرين على نحو جليّ عليه أن يتمسّك بالحياء بكل قوة في علاقاته، وإلا فإنه سيفشي للآخرين أن احترامه لنفسه قد انهار هو أيضاً. فالشراسة الكلبية في التعامل مع الآخرين علامة على أن المرء في وحدته بنفسه يعامل نفسه ككلب.

257

بعض الجهل مشرّف لصاحبه

سيكون من المفيد أن **لا نفهم** بعض الأمور فيما يتعلق باحترام مانحي الاحترام. فالجهل أيضاً يمنح امتيازات.

258

معادي الرشاقة

المتزمّت المغرور لا يحب الرشاقة ويشعر بها مثل مأخذ عليه في هيأةٍ مجسّدةٍ وواضحة؛ إذ هي تسامح القلب مجسّداً في الهيأة والحركات.

259

عند الالتقاء من جديد

عندما يلتقي أصدقاء قُدامى بعد فراق طويل يحدث غالباً أن يُبدوا

اهتماماً كبيراً بأشياء يتذكرونها وقد غدت في الحقيقة لا تعني لهم شيئاً؛ وأحياناً يلاحظ الطرفان ذلك، لكن لا أحد منهما يتجرأ على إماطة اللثام عنه -بسبب من شك محزن. وهكذا تنشأ محادثات شبيهة بمسامرات الأموات.

260

لا تتخذ صديقاً من غير العاملين

العاطل شخص خطير على أصدقائه؛ إذ لأنه ليس لديه ما يكفي من النشاط يغدو كثير الكلام عما يفعل الأصدقاء وما لايفعلون، وينتهي به المطاف إلى التدخل في أعمالهم، ويغدو بذلك غير مطاق: لذلك من الحكمة أن لا يتخذ المرء له أصدقاء إلا من بين العاملين.

261

سلاح واحد يعادل ضعف سلاحين

سيكون صراعاً غير متوازن عندما يدافع طرف بعقله وقلبه عن قضيته والطرف الثاني بعقله فقط: فالأول سيكون كما لو أنه يواجه الشمس والريح معاً في صراعه وسيدخل سلاحاه الضيمَ أحدهما على الآخر، وهكذا يخسر المعركة-في نظر الحقيقة. وبالمقابل، لن يكون انتصار صاحب السلاح الواحد انتصاراً يروق لبقية المتفرجين، وسيجعله بالتالي غير محبوب لديهم.

262

العمق والعكَر

يخلط الجمهور بسهولة بين من يصطاد في الماء العكر ومن يغترف من الأعماق.

263

استعراض الغرور في وجه الصديق والخصم

هناك من يعامل حتى أصدقاءه معاملة سيئة بدافع من الغرور، عندما يكون ذلك بحضور شهود يريد أن يُظهر أمامهم مدى تفوّقه؛ وهناك أولئك الذين يفخّمون خِصال وقيمة أعدائهم كي يوحوا بافتخار بأنهم جديرون بمثل أولئك الأعداء.

264

تبريد

عادة ما يكون تهيّج القلب مرتبطاً بمرض في العقل وفي ملكة الحكم. ومن كان بحاجة إلى حفظ صحة هذا الأخير لوقت من الزمن عليه أن يعرف ماذا يجب عليه أن يبرّد، دون خوف على مستقبل قلبه! إذ، إن كان المرء عموماً قابلاً للتدفئة فإنه سيظل بإمكانه أن يستعيد دفأه وأن يكون له بكل تأكيد صيف من جديد.

265

مشاعر متمازجة

تحمل النساء والفنانون الأنانيون نوعاً من الإحساس هو مزيج من الحسد والعاطفية.

266

متى يكون الخطر على أشده

نادراً ما تنكسر للمرء ساق ما دام يتسلّق المرتفعات بجهد جهيد، بل يحدث له ذلك عندما يشرع في البحث عن الرفاه ويختار أسهل السُّبل.

267

ليس قبل الأوان

على المرء أن يكون حذراً من أن يشحذ حدّته في وقت مبكر جداً، لأنه، مبكّراً سيغدو هزيلاً.

268

متعة نجدها في المنتطّعين

يعرف المربّي الجيّد حالات يشعر فيها بالفخر لأن تلميذه ظل وفياً لنفسه رغماً عنه؛ إنها تلك الحالات التي لا ينبغي للتلميذ فيها أن يفهم معلّمه، أو أنه سيهلك إذا ما فهمه.

269

محاولة في الصراحة

يبحث الفتيان الذين يريدون أن يصبحوا أكثر صراحة مما كانوا عليه من قبل عن ضحية لهم في شخص معروف بصدقه يكون أول من ينهالون عليه محاولين أن يرتقوا إلى مستواه عن طريق شتائمهم، تحركهم في ذلك خلفية أن هذه المحاولة الأولى ستكون على أية حال دون مخاطر، لأن ذلك الشخص بالذات لن يسمح لنفسه بقمع وقاحة صراحتهم.

270

الطفل الأبدي

نعتقد غالباً أن الخُرافة واللعب شيء مرتبط بالطفولة؛ يا لعماء بصيرتنا! كما لو أننا نريد في أية مرحلة من العمر أن نعيش دون لعب وخُرافات! صحيح أننا نسمّي ذلك باسم مختلف ونحسّ به على نحو مغاير، لكنّ

هذا بالذات هو ما يدلّ على أنه الشيء نفسه، ذلك أن الطفل أيضا يدرك اللعب كعمل، والخرافة كحقيقته الخاصة. ينبغي أن يكون قِصر العمر حافزاً لنا على تفادي التجزئة المتحذلقة لمراحل العمر، كما لو أن كل مرحلة ستأتي بشيء جديد، وأن شاعراً سيعرض علينا في يوم ما صورة إنسان في سن المئتين يحيا فعلاً دون لعب وخرافات.

271

كل فلسفة هي فلسفة مرحلة محددة من العمر

إن السنّ المحدّدة التي عثر فيها فيلسوف على مذهبه ستعبّر عن نفسها من خلال ذلك المذهب، وهو أمر لا يستطيع الفيلسوف له رداً مهما كان إحساسه بأنه فوق الزمن واللحظة. هكذا تظل فلسفة شوبنهاور المرآة التي تنعكس فوقها مرحلة *الشباب* بتوقّدها وكآبتها: إنها شيء آخر غير نمط تفكير للكهول؛ وعلى هذا النحو أيضاً تذكرنا فلسفة أفلاطون بأواسط الثلاثينيات من العمر، حيث يلتقي عادة تيار بارد بتيار ساخن في صخب هادر، فيثيران غباراً وغيوماً رقيقة، وفي أفضل الأحوال، عندما تكون هناك أشعة شمس ينشأ من خلال ذلك قوس قُزح خلّاب.

272

عن عقل المرأة

تتجلّى الطاقة العقلية للمرأة على أفضل وجه عندما تضحّي بعقلها الخاص من أجل رجل وعقله، وفي ذلك المجال الجديد الغريب عن طبيعتها في الأصل، والذي ينمو فيه عقل زوجها، سينشأ لها *مباشرة عقل ثان*.

273

الارتقاء والتدنّي في العلاقة الجنسية

ترفع عاصفة الرغبة الرجل عادة إلى أعمال تصمت فيها كل الرغبات؛ هناك حيث يحب حقاً ويحيا في أفضل وجود أكثر مما يعيش بأفضل إرادة. وبالمقابل تنحدر المرأة الجيّدة عادة بدافع من حب حقيقي إلى مستوى الرغبة، وتحط من شأنها في نظر نفسها من خلال ذلك. هذه الحالة الأخيرة تمثل أكبر الأمور المؤثرة من بين تلك التي يمكن أن ينطوي عليها تصوّر زيجة سعيدة.

274

المرأة تحقق والرجل يعِد

من خلال المرأة تُبدي لنا الطبيعةُ أيَّ شيء قد أتمّت إنجازه، ومن خلال الرجل أي شيء مازال ينبغي عليها أن تتغلب عليه، لكن أيضاً ما الذي *ما زالت تنوي* القيام به. إن المرأة الكاملة هي في كل الأزمنة عطالة المبدع في ذلك اليوم السابع للحضارة، استراحة الفنان أثناء عمله.

275

نقل للشطط من موقع إلى موقع

عندما ينفق امرؤ طاقات عقله في التحكم في انفلات الانفعلات، يمكن أن يحدث من خلال ذلك النجاح غير السعيد أن يكون قد نقل الشطط إلى مجال العقل ويدع نفسه منذئذ ينغمس في التفكير وإرادة المعرفة.

276

الضحك فضّاح الخفايا

متى تضحك امرأة وفي أي موقع، يمكن أن يكون علامة دالّة على

مستوى ثقافتها؛ لكن من خلال رنين ضحكتها تنكشف طبيعتها، ولدى النساء من ذات الثقافة العالية يمكن أن يكون ذلك آخر البقايا المستعصية على الذوبان من طبيعتها. - لذلك سيكون على متقصّي الطباع الإنسانية أن يقول على غرار هوراس، لكن من منطلق مغاير: *ridete puellae* - اضحكي أيها الفتاة!

277

من نفسية الشباب

يظل الفتيان يراوحون في علاقتهم بنفس الشخص بين الإخلاص والوقاحة، لأنهم لا يحترمون ولا يحتقرون في الحقيقة غير أنفسهم من خلال الآخر، ويظل عليهم أن يعيشوا في التارجح بين ذينك الإحساسين تجاه أنفسهم، طالما لم يتوفقوا من خلال التجربة لبلوغ التوازن في إرادتهم ومقدرتهم.

278

من اجل إصلاح العالم

لو أننا نمنع السوداويين والممرورين والمتذمّرين الأبديين من الإنجاب لاستطعنا أن نُحوّل الأرض بما يشبه عصا سحرية إلى جنان سعادة. - هذا القانون مستقى من فلسفة عملية موجهة إلى الجنس الأنثوي.

279

ثق دوماً في احاسيسك

هذه النصيحة الأنثوية القائلة بأنه على المرء أن يثق في أحاسيسه تعني في الحقيقة: علينا أن نأكل ما يطيب لنا مذاقه. ويمكن أن تكون هذه الوصيّة قاعدة حياة يومية جيدة لكل ذي طبع متّزن أيضاً. أما غير

هؤلاء فعليهم أن يحيوا وفقاً لقانون آخر: «لا ينبغي عليك أن تأكل بفمك فقط، بل بعقلك أيضاً، كي لا يؤدي بك شره الفم إلى الهلاك.»

280

من بِدع الحب الشنيعة

كل حب كبير ترافقه فكرة شنيعة مفادها أنه ينبغي قتل المحبوب لجعله يتفادى مرة وإلى الأبد نزوات التغيير الفاجرة؛ ذلك أن الحب يخشى التغيير أكثر من الإبادة.

281

أبواب

يرى الطفل، مثله مثل الكهل، في كل ما يعيشه وما يتعلمه أبواباً: غير أن هذه في نظر الكهل *مداخل*، بينما تكون في نظر الطفل *معابر*.

282

نساء شفوقات

شفقة المرأة، تلك الشفقة الثرثارة دوماً، تحمل سرير المريض إلى الساحة العمومية.

283

مائرة مبكرة

من تتحقق له مأثرة ما في سن مبكرة عادة ما يفقد من خلال ذلك الوجلَ تجاه العمر ومن هم أكبر سناً، ويعزل نفسه، لسوء حظه، عن مجتمع الناضجين ومانحي النضج، الأمر الذي يجعله، بالرغم من نجاحه المبكر، يظل أكثر من غيرهِ ولزمن أطول غرّاً، مزعجاً وصبيانياً.

284

أرواح من كتلة واحدة لا تتجزأ

يعتقد الفنانون والنساء أن عدم معارضتهم في أمر محدد يعني أنه لا يمكن معارضتهم على وجه الإطلاق؛ فإبداء الإعجاب في عشر نقاط والتحفظ في عشر نقاط أخرى يبدو لهم مستحيل الوجود جنباً إلى جنب، لأنهم ذوو أرواح قُدَّت كتلةً صماء وكلاً دون أجزاء.

285

المواهب الناشئة

في ما يتعلق بالمواهب الناشئة ينبغي علينا التمسك بصرامة بحكمة غوته القائلة بأن الخطأ لن يكون مضراً في أغلب الأحيان، وذلك لكي لا يَلحق الضررُ بالحقيقة. فحالتهم شبيهة بالأمراض التي ترافق الحبَل وما تحمله معها من رغبات غريبة على المرء أن يحاول مراعاتها وتلبيتها قدر المستطاع من أجل الثمرة التي ينتظرها منها. وعلى أية حال سيكون علينا كقائمين على رعاية هؤلاء المرضى العجيبين أن نُتقن الفنَّ العسير المتمثل في الإذلال الطوعي للنفس.

286

اشمئزاز من الحقيقة

من طبع النساء أنّ كل حقيقة -مما يتعلق بالرجل والحب والأطفال والمجتمع والعمر- تثير فيهن الاشمئزاز وتجعلهن يسعين إلى الانتقام من كل من تحدّثه نفسه بفتح أعينهنّ عليها.

287

منشأ الحب الكبير

من أين تنشأ تلك الانفعالات العاطفية العميقة والحميمية التي يحس بها

رجل تجاه امرأة؟ فالرغبة الحسّية هي أقلّ ما يلعب دوراً في ذلك؛ لكن عندما يجد الرجل أمامه ضعفاً وحاجة إلى المساعدة، وحيوية مفرطة ونزقاً مجتمعةً كلها في كائن واحد، يتحرك في داخله شيء، كما لو أن روحه تريد أن تطفح: ينتابه إحساس بالتأثر وبالإهانة في الآن نفسه. من هذه الحالة الشعورية ينبع الحب الكبير.

288

النظافة

ينبغي أن يُشحذ حِسُّ النظافة لدى الطفل حدَّ الولع؛ وسيتطوّر ذلك الحس فيما بعد عبر تحولات مستمرة ليرتقي إلى مستوى كل الفضائل تقريباً كي يتراءى بالنهاية في هيأة تعويض عن كل نوع من الموهبة، مثل فيض مشعّ من النقاوة والاعتدال واللِّين ومتانة الطبع؛ -ممتلئاً غبطة، ناشراً للغبطة من حوله.

289

غرور المسنِّين

العمقُ من شِيَم الشباب والوضوحُ خصلةُ المسنّين؛ وعندما يعمد المسنّون رغم ذلك إلى الكلام والكتابة على النحو الذي يعتمده العميقون فإنهم يفعلون ذلك بدافع الغرور، معتقدين أن ذلك يكسبهم سحر الشباب والحماس وما هو قيد الصيرورة والتطور والمفعم معرفة وأملاً.

290

استعمال الجديد

يستعمل الرجال كل جديد مما يتعلمون أو يعيشون كمحراث، وربما كسلاح أيضاً، بينما تعدّ المرأة منه زينة لنفسها.

291

الحق لدى كل من الجنسيْن

عندما يُقرّ رجل لامراة بأنها على حق فإن أول ما تفعله هو أن لا تفوّت تلك الفرصة كي تدوس ظافرة بقدمها على عُنقه -إذ لا بد لها أن تتمتع بانتصارها؛ بينما يخجل الرجل أمام رجل ثان من كونه على حق. ذلك أن الانتصار أمر معتاد لدى الرجل، بينما المرأة تعيشه كاستثناء.

292

التخلّي عن إرادة الجمال

لكي تصبح المرأة جميلة عليها أن لا تريد أن تُعتبر حسناء؛ أي عليها في تسع وتسعين حالة ترى فيها أنها ستكون محلّ إعجاب أن تزدري بذلك وتحول دون حصوله، كي تجني بالنهاية دفعة واحدة انبهار الرجل الذي تتسع روحه لتقبّل ما هو أكبر وأرفع.

293

شيء لا يُفهم، شيء لا يُحتمل

لا يستطيع الشاب أن يفهم أن من هو أكبر سناً قد عاش هو أيضاً لحظات انتشائه وإحساساته الصباحية الفتية و انعراجات تفكيره واندفاعاته؛ إنه يحس بالإهانة أن يكون الأمر نفسه قد حصل أكثر من مرة، أما ما يجعله عدوانياً تمام العدوانية فهو أن يقال له إنه لكي يصبح مثمراً، عليه أن يفقد أزهاره ويتنازل عن عطرها.

294

انحياز إلى هياة الضحية

كل طرف في صراع يستطيع أن يُظهر نفسه في هيأة الضحية يجذب إليه

تعاطف القلوب الطيّبة ويكتسب من خلال ذلك هيأة الطيبة، ويكون قد نجح في خدمة قضيته.

295

الإثبات أضمن قبولاً من الحجّة

الإثبات أكثر قدرة على التأثير من الحُجّة، لدى أغلبية الناس على الأقل، ذلك أن الحجة تثير الشكوك. لذلك يسعى الخطباء الجماهيريون إلى دعم حجج حزبهم بتصريحات إثباتية.

296

أكبر المموّهين

كل الذين يكون النجاح حليفهم عادة يمتلكون مكراً عميقاً يجعلهم يستطيعون إبراز نواقصهم وأخطائهم دائماً بمظهر عوامل قوة؛ لذلك ينبغي عليهم أن يكونوا على معرفة جيدة واضحة غير معهودة بتلك النواقص والأخطاء.

297

من حين لآخر

جلس إلى باب المدينة وقال لأحد كان يعبره إن ذلك هو باب المدينة. فأجابه ذلك الرجل بأن هذه بالفعل حقيقة، لكن لا ينبغي على المرء أن يكون على حق أكثر مما ينبغي إذا ما أراد أن ينال من وراء ذلك شكراً. أوه، أجابه عندها، إنني لا أبحث عن شكر، لكنه من العذب أيضاً بين الحين والآخر أن لا يكون المرء على حق فحسب، بل أن يؤكد أيضاً ذلك الحق.

298

الفضيلة ليست ابتكاراً ألمانيا

نُبل الطبع والترفّع عن الحسد لدى غوته، الاستسلام الزهدي النبيل لدى بيتهوفن، الرشاقة وسخاء القلب لدى موتزارت، فحولة هاندل التي لا تنثني وحريته في ظل إكراهات القانون، الحياة الباطنية الواثقة والمشعّة لدى باخ الذي لم يكن بحاجة حتى إلى التخلّي عن الشهرة والنجاح؛-هل هذه إذاً خِصال ألمانية؟ -أما إن لم تكن كذلك، فإنها تشير على الأقل إلى ما ينبغي على الألمان أن يهفوا إليه وما يستطيعون بلوغه أيضاً.

299

خداعٌ ورِعٌ أم شيء آخر

قد أكون مخطئاً، لكنه يبدو لي أن نفاقاً مزدوجاً قد أضحى نوعاً من واجب اللحظة لدى كل فرد في ألمانيا الحالية: هناك دعوة إلى القومية الألمانية من منطلق مشاغل سياسية إمبراطورية، وإلى المسيحية من منطلق المخاوف الاجتماعية، لكن، في كلتا الحالتين لا يتجاوز الأمر مجرد الكلام والحركات وبصفة أخص عدم القدرة على توخّي السكوت. إنها *الحِلية* المكلّفة، الحِلْية التي يُدفع ثمنها غالياً: إذ من أجل **جمهور *المتفرجين*** تزوّق الأمّة وجهها بتلك الغضون التوتونية والمسيحانية.(*)

300

إلى أي مدى يكون النصف في الأشياء الجيدة أفضل من كمالها

في كل الأشياء التي تكون منذورة للدوام وتتطلب جهود عدد من

(*) أنظر الهامش أسفل الصفحة الثانية من التوطئة.

الناس، يفضّل في أحيان كثيرة أن يكون ***الأقل جودة هو القاعدة***، مع أن المنجِز يجيد ما هو أفضل (وما هو أصعب)؛ لكنه يقرأ حساباً لأن يكون هناك دوماً عدد كاف من الناس الذين **يستطيعون** الاستجابة لمتطلبات القاعدة،-وهو يدرك جيداً أن مستوى المتوسط في الطاقات هو ما يمثل القاعدة. هذا هو ما لا يدركه شاب إلا نادراً، وكطامح للتجديد سيظل يعتقد بكثير من الدهشة كم هو على حق، وكم هو غريب عماء الآخرين.

301

المتحزّب

يكفّ المتحزّب الحقيقي عن التعلم، بل يظل يعايش الأشياء ويطلق أحكاماً؛ بينما سولون(٥٤) الذي لم يكن متحزّباً أبداً، بل كان يتابع أهدافه بمحاذاة الأحزاب وفوقها أو ضدها، هو-وهذا أمر له دلالته-أب تلك المقولة البسيطة التي تحمل في داخلها مجمل عافية وثراء أثينا الذي لا ينضب: «عجوزاً صرت وما زلت أتعلم.»

302

ما هو ألماني حسب غوته

إنهم أولئك الذين لا يطاقون حقاً، الذين لا يرغب المرء في أن يتناول منهم حتى الجيد من الأشياء، أولئك الذين يمتلكون ***حرية الموقف*** لكنهم لا يلاحظون أنهم يفتقرون إلى ***حرية الذوق والعقل***(٥٥). ذلك بالضبط ما هو ***ألماني*** حسب الحكم الموزون بدقة لغوته. -إن صوته ونموذجه يشيران إلى أنه على الألماني أن يكون شيئاً أكثر من ألماني إذا ما كان يريد أن يغدو نافعاً لبقية الأمم، بل إن كان يرغب في أن يكون مطاقاً،- وفي أي اتجاه ينبغي على طموحه أن يمضي كي يتجاوز نفسه ويخرج عن حدود نفسه.

303

متى ينبغي على المرء أن يظل ملازماً لمكانه

عندما تشرع الجماهير في الهيجان وتغشى العتمةُ العقلَ، يحسُن بالمرء، إذا ما كان غير واثق كل الوثوق من متانة الحالة الصحية لروحه، أن يحتمي برِواق ويظل يراقب حالة الطقس.

304

ثوريون ومُلاّك

إن الطريقة الوحيدة التي ما تزال متاحة لكم للتصدي للاشتراكية هي أن لا تستفزوها، أي أن تتوخّوا طريقة عيش معتدلة ومتقشفة، وأن تمتنعوا قدر الإمكان عن كل استعراض للثراء وأن تساعدوا الدولة عندما تفرض ضرائب عالية على كل ما هو ترف وكل ما له صلة بالبذخ. أما إذا ما كنتم لا ترغبون في القبول بهذه الطريقة؟ إذاً، عليكم أيها الأثرياء البرجوازيون، يا من تسمّون أنفسكم «ليبراليين»، أن تعترفوا أمام أنفسكم بأن ما تحملونه في قلوبكم إنما هو بالضبط ذلك الذي ترونه أمراً فظيعاً وخطيراً لدى الاشتراكيين، لكنكم تضعونه في قلوبكم موضع الأمر الضروري الذي لا محيد عنه، كما لو أن الأمر يختلف لدى أولئك الآخرين. ولو لم تكن لكم، بما أنتم عليه من هذه العقلية، ثروة وهاجس الحفاظ عليها، فإن عقليتكم هذه ستجعل منكم اشتراكيين: إن الملكية وحدها هي ما يميّزكم عنهم. عليكم أن تتغلبوا على أنفسكم أولاً، إذا ما كنتم تريدون التغلب على المناهض لرخائكم. -لو أن هذا الرخاء كان حياة رفاه حقيقي على الأقل! لو كان كذلك لما كان على هذه الدرجة من الاستعراض ومن إثارة الحسد، ولكان أكثر نزوعاً للاقتسام ولحب الخير، أكثر عدالة وأكثر استعداداً للمساعدة. لكنّ متعكم الحياتية الكاذبة والاستعراضية، التي

تتحقق في إحساس التناقض (بما لا يمتلكه الآخرون ويحسدونكم عليه) أكثر مما في الإحساس بطاقة الامتلاء وطاقة الارتقاء: بيوتكم، وملابسكم وعرباتكم ومحلات استعراض ثرائكم، ومتطلبات بطونكم وموائدكم وولعكم الصاخب بالأوبرا والموسيقى، وأخيرا زوجاتكم المتعلمات والمشكّلات من معدن غير نبيل، مذهَّب، لكن دون رنين الذهب، تختارونهن عناصر متممة للمشهد الاستعراضي؛ عناصرَ استعراضية يعشن أنفسهن أيضاً، ولا شيء غير عناصر استعراضية: تلك هي البذرات السامّة التي تحمل وتنشر ذلك المرض الاجتماعي، جرَب قلوبٍ اشتراكياً ما فتئ يزداد انتشاراً وبأكثر سرعة بين جماهير الشعب، غير أن موطنه الأصلي ومحضنته هي قلوبكم أنتم. -ومن تُراه سيوقف الآن هذا الطاعون؟

305

خطة الأحزاب

عندما يلاحظ حزب سياسي أن عضواً بدأ يتحوّل من عنصر ذي انتماء وولاء لا مشروطين إلى عنصر مشروط الولاء، لا يستطيع تحمّل هذا الأمر مما يجعله يمارس على ذلك العنصر شتى أنواع الاستفزازات والإهانات بنيّة تحطيمه وتحويله إلى نفاية ومن ثم إلى عدوّ؛ ففي كل نية تتجه إلى اعتبار عقيدته ذات قيمة نسبية، نسبية تسمح بالمع والضد وبالاختبار والرفض، يتوجس الحزب خطراً أكبر مما يمكن أن تنطوي عليه معاداة كلّية وواضحة.

306

لتدعيم قوة الأحزاب

من يريد تدعيم المتانة الداخلية لحزب ما عليه أن يمنحه فرصة لكي

يصبح ضحية ممارسات *ظالمة* ضده، من خلالها سيراكم ذلك الحزب رصيداً من راحة الضمير، ربما كان يفتقر إليه حتى تلك اللحظة.

307

الحرص على تكوين ماضٍ

ولأن الناس لا يثمّنون في الحقيقة إلا ما كان ذا قدم راسخة في الماضي وما تم تكوينه على مدى زمني طويل، فإن من يبتغي لنفسه حياة تظل متواصلة بعد موته أن يحرص، لا على ضمان نسل له فقط، بل على تكوين *ماض* لنفسه أيضاً؛ لذلك يعمد كل أنواع الطغاة (بمن في ذلك الفنانون والسياسيون ذوو الطباع الطغيانية) إلى التعسّف على التاريخ كي يظهر كما لو أنه كان تهيئة وتمهيداً لظهورهم.

308

الكاتب المتحزب

قرعُ الطبول الذي يطرب له كاتب شاب منخرط في خدمة حزب سياسي يكون له في أُذن غير المتحزّب وقعُ صلصلة القيود ويثير فيه الشفقة على ذلك الكاتب أكثر من الإعجاب.

309

عندما نتخذ موقفا ضد نفسنا

لن يغفر لنا مناصرونا أبداً أن نأخذ موقفاً ضد نفسنا؛ إذ ذلك يعني في نظرهم أننا لا نردّ محبتهم فحسب، بل نضع ذكاءهم في موقف حرج أيضاً.

310

خطر الثراء

من كان ذا عقل هو الذي يحق له فقط أن يكون صاحب ثروة؛ وإلا فإن الثروة تكون ***خطراً عمومياً***. فصاحب الثروة الذي لا يعرف ما الذي يفعله بأوقات الفراغ التي يمكن أن يمنحه إياها الثراء **سيستمر** في التطلع دوماً إلى مزيد من الثروة: سيصبح هذا السعي تسلية لديه وحيلته الحربية ضد الضجر. وهكذا ينشأ عن الرفاه المادي المعتدل، ذلك الذي يمكن أن يكون كافياً بالنسبة لذي العقل الثري، ينشأ الثراءُ الكبير في النهاية كنتيجة خادعة للتبعية والفقر الذهنيّين. غير أن ذلك الثراء سيظهر بمظهر مغاير لما يمكن أن ننتظره من أصله البائس، لأنه يستطيع أن يتقنّع بأقنعة الثقافة والفن: إذ بمستطاعه أن **يشتري** أقنعة. ومن خلال ذلك يغدو مثيراً للحسد في أنفس المُعدَمين وغير المثقفين -أولئك الذين يحسدونه في الحقيقة على الثقافة ولا يرون في القناع قناعاً-، ويهيّئ تدريجياً لحصول انقلاب اجتماعي؛ ذلك أن الفجاجة المطليّة بالذهب والتباهي المسرحي من خلال «الاستهلاك الثقافي» المزعوم تبث في أولئك المحرومين فكرة أن «المسألة مسألة مال لا غير»، -بينما شيء قليل من ذلك مرتبط حقاً بالمال، أما الأهم ***فالعقل أكثر من كل شيء***.

311

المتعة في الأمر والطاعة

في إعطاء الأوامر نفس المقدار من المتعة مما في الطاعة؛ في الحالة الأولى عندما تكون شيئاً لم يزل غير معتاد، وفي الثانية عندما تكون قد أصبحت أمراً معتاداً. وقدماء الخدم عندما يجدون أنفسهم تحت قيادة جديدة يتبادلون مع آمرهم نفس المتعة.

312

الطموح في فقدان الوظيفة

في فقدان الوظيفة طموح يدفع بطرف ما إلى مخاطرة من أشد أنواع المخاطرات.

313

في الحاجة إلى الجحش

لن يتمكن امرؤ من جعل الجمهور يصيح أُوصَنّا[٥٦] حتى يدخل المدينة على جحش.

314

من تقاليد الأحزاب

كل حزب يسعى إلى تتفيه كل ما ينشأ ويتطور خارجاً عنه؛ وإذا لم ينجح في ذلك يهاجمه بكل ما يستطيع من شراسة بقدر ما يغدو ذلك الأمر أكثر جودة.

315

تفقير الذات

من يهب نفسه للأحداث لن يتبقى منه في الأخير غير الشيء القليل. لذلك يمكن لكبار رجال السياسة أن يصبحوا فارغين تماماً مع أنهم كانوا في يوم ما ممتلئين وثريّين.

316

أعداء مرغوبون

التيارات الاشتراكية مريحة حالياً أكثر مما هي مثيرة للذعر بالنسبة

لحكومات الاستبداد السلالية، ذلك أنها تجد فيها تعِلّة لاتخاذ الإجراءات الاستثنائية التي تستطيع استعمالها ضد التيارات التي تخيفها حقاً من الديمقراطيين والمعادين للحكم الملكي. -كل ما تمقته هذه الحكومات علناً تغذي اليوم ميلاً وتعاطفاً سريَيْن تجاهه: إنهم مجبرون على ستر خفايا أنفسهم.

317

ما تملكه يمتلكك

لا تجعل الملكيةُ صاحبَها أكثر استقلالاً وأكثر حرية ولا ترتقي به إلا في حدود مستوى محدّد، ثم يصبح الممتلَك سيداً والمالك عبداً؛ ينبغي عليه أن يضحّي من أجله بوقته وبتفكيره، ويغدو منذئذ مرتبطاً بموجب ذلك بعلاقات بعينها، متسمّراً في مكان محدد، مندمجاً في دولة؛ وكل ذلك ربما ضد حاجاته الأكثر حميمية وجوهرية.

318

عن سلطة العارفين

من السهل، بل من السهولة التي يمكن أن تبعث على الضحك، أن نقترح نموذجاً لانتخاب هيئة تشريعية. -أولاً، لابد أن تنفصل مجموعة من الشرفاء والجديرين بالثقة، الذين هم في الآن نفسه من ذوي الكفاءة والاختصاص؛ مجموعةً يفرزها الاختبار والاعتراف المتبادليْن بين عناصر هذه الفئة؛ بعدها يُجري هؤلاء بدورهم انتقاء جديداً أضيق يفرز نخبة تتكوّن من علماء مختصين من الدرجة الأولى في كل المجالات العلمية يتم اختيارها هنا أيضاً.من خلال الاعتراف المتبادل والضمانات التي يمنحها عناصرها لبعضهم البعض. وعندما يكون هذا الانتخاب قد أفضى إلى تركيز هيأة تشريعية عندها تصبح

أصوات وقرارات ذوي الكفاءات الأكثر تخصّصاً وحدها هي التي تبتّ في كل حالة بصفة منفصلة، وتكون نزاهة *كل* الأعضاء الآخرين على قدر من السموّ، وقد غدوا من الاستقامة بمكان، كي يتنازلوا لهؤلاء ويفوّضوا إليهم وحدهم حق التصويت في تلك المسائل الخصوصية، مما يجعل القانون ينبع عن فهمِ من هم أكثر فهماً، بالمعنى الدقيق والصارم للكلمة.

- أما الآن، فإن الأحزاب هي التي تَنتخِب، ومع كل تصويت تكون هناك مئات من الضمائر الخجلى: ضمائرُ قليلي الدراية، والذين تعوزهم ملكة الحكم، والببغاوات التي تردد أقوال وآراء الآخرين، والتابعين، والمجرورين، والمدفوعين دفعاً.

لا شيء يمكن أن يكون مهينا لكل قانون جديد مثل لطخة الخجل هذه الملتصقة به جرّاء عدم النزاهة التي يرغِم عليها كل تصويت بالولاء الحزبي. لكن، وكما قلنا، من السهل، من السهل على نحو يبعث على الضحك، اقتراح شيء من قبيل ما ذكرنا أعلاه؛ لكن ما من سلطة هناك اليوم على قدر كاف من القوة كي تستطيع تحقيق الأفضل، عدا أن يفلح الإيمان ***بالنفع الأعظم للعلم والعلماء*** في اختراق ضمائر حتى أشد الناس سوء نيّة، ويغدو مبجّلاً متقدّماً على الإيمان السائد اليوم بأولوية الكثرة.

- من منطلق الإيمان بهذا المستقبل، ليكن قولنا إذاً: «مزيداً من الاحترام للعارفين! ولتسقط كل الأحزاب!»

319

عن «شعب المفكرين» (أو شعب التفكير الرديء)

الضبابي، والمتردد، والإحساس الغامض، والبدائي والحدسيّ -كي نستعمل عبارات غير واضحة لتسمية أشياء غير واضحة- هذه الصفات

التي تُنسب للكيان الألماني، يمكنها أن تكون، في صورة ما إذا ثبت وجودها، علامات عن حضارة ظلت متخلفة خطوات عديدة إلى الوراء وما تزال حبيسة أجواء العصر الوسيط والتنفس من هوائه. -هناك بالتأكيد أيضاً بعض فوائد في هذا الوضع المتخلف: كان من الممكن للألمان مع هذه الصفات،-في صورة ما إذا ظلوا محتفظين بها، كما أسلفنا- أن يكونوا قادرين على بعض الأشياء، وبالتحديد على فهم بعض الأشياء، من تلك التي فقدت أمم أخرى كل طاقة عليها. وهناك بكل تأكيد أشياء ستُفتقد عندما يضمحلّ ***ضِعف الإدراك العقلي***-أي ذلك القاسم المشترك بين هذه الصفات المذكورة أعلاه- ؛ لكن هنا أيضاً لا توجد خسارات دون أن يقابلها ربح كبير، بما يجعل كل سبب للتذمر غير وارد، بشرط أن لا يرغب المرء على غرار الأطفال والشرهين في تذوّق ثمار الفصول المختلفة كلها في نفس الوقت.

320

أن تحمل بوماً إلى أثينا(٥٧)

لحكومات الدول الكبرى وسيلتان لإبقاء الشعب مقيّداً في التبعية لها في حال من الخوف والطاعة: وسيلة بدائية هي الجيش، وأخرى أكثر رهافة هي المدرسة. بواسطة الأولى، تكسب الحكومات انحياز *طموحات* الطبقات العليا *وقوة* الفئات الدنيا، طالما تظل هاتان الطبقتان تضمّان رجالاً نشطين ومتيني البنية من ذوي المواهب المتوسطة ودون المتوسطة. وبواسطة الوسيلة الثانية تكسب لنفسها الفقر الموهوب، أو بصفة أدق شبه الفقر ذا الطموحات الذهنية من داخل الفئات الوسطى. وتجعل بصفة أخص من كل المدرّسين من مختلف المستويات والدرجات بلاطاً من العقول المتطلعة لا إرادياً إلى «ما فوق»؛ وبتعمّدها وضع العراقيل فوق العراقيل أمام التعليم الخاص

وبوجه أخص أمام دروس التعليم الفردي الذي لا تنظر إليه بعين الرضا، تكون قد ضمنت إيجاد عدد مهم من وظائف التدريس يتطلع نحوها خمسة أضعاف ذلك العدد من الأعين النهمة والمتوسلة، التي لا يمكن إرضاء رغباتها كلها بطبيعة الحال. وهذه الوظائف نفسها لا ينبغي لها أن تضمن لمن يحظى بالحصول عليها أكثر مما يلزمه من غذاء شحيح؛ وهكذا تربّي في داخله حمّى التلهف على الارتقاء وتوثق أكثر ارتباطَه بالحكومة وبغاياتها. ذلك أن الحفاظ على مستوى محسوب من عدم الرضا يظل دوماً أكثر فائدة بالنسبة لها من الرضا الكامل: أب الجرأة وجدّ الاستقلال العقلي والغرور. من خلال هذا التحكم الصارم في الكيان التدريسي مادياً وذهنياً، يتم الارتقاء قدر الإمكان بمستوى تعليم مجمل الناشئة إلى مستوى محدد حسب ما تمليه مصلحة الدولة، ووفقاً للدرجات التي تتطلبها الحاجة؛ لكن، في المقام الأول يُمارَس على العقول الطموحة وغير الناضجة من كل المستويات تأهيل خفي لتبني الذهنيّة التي ترى أن نمط العيش المعترف به والمصمَّم من طرف الدولة هو النمط الوحيد الذي يقود مباشرة إلى الامتياز *الاجتماعي*. ويمضي الإيمان بالمناظرات والألقاب الرسمية إلى حد يجعل حتى رجالاً من أصحاب المهن الحرة كالتجار والحرفيين الذين حققوا ارتقاءهم بصفة مستقلة يظلون هم أيضاً يحسون بشيء من المرارة التي تنغّص قلوبهم ما لم تحظ مكانتهم بلفتة كريمة من الفوق من خلال منحهم مرتبة أو وساماً تشريفياً عنوانَ اعتراف وتقدير؛ - أي إلى أن يتوصل الواحد منهم بالنهاية إلى أن «يجعل نفسه مرئيا». وأخيراً تجعل الدولة آلاف وآلاف المراكز المرتبطة بوظيفتها العمومية وعملية الانخراط فيها مرتبطة بالالتزام بضرورة التعلم في المدارس العمومية وتحصيل الكفاءات عن طريقها إذا ما أراد المرء أن يجتاز عتبتها: شرف اجتماعي، تأمين الخبز، إمكانية تكوين أسرة،

حماية من الفوق، إحساس بالانتماء إلى مجموعة المتعلمين سويّة؛ كل هذا ينسج شبكة من الآمال تتلقف كل شاب: -من أين للشك أو الاحتياط أن يراوده إذاً!

وإذا ما أصبح واجب قضاء بضع سنوات في أداء الخدمة العسكرية بعد عدد من الأجيال أمراً اعتيادياً بالنهاية، وشرطاً ضرورياً لا يراود أحداً شكٌّ فيه، وأمراً يستعد له كل فرد مبكراً ويخطط لحياته وفقاً له، فسيكون بوسع الدولة عندها أن تغامر بضربة معلّم بأن تربط بين المدرسة والثكنة، والموهبة والطموح مع القوة، وأن تُمازج وتُداخِل بينها داخل نسيج واحد من خلال المنافع والامتيازات، أي أن تستدرج إلى الجيش كل ذي موهبة *وثقافة* عليا وتلقّنه روح الانضباط العسكري؛ بما يجعله ربما يقسم يمين الوفاء لخدمة العلم لمدى الحياة، وأن يسهم بموهبته في تجديد بريق وإشعاع المؤسسة العسكرية بصفة مستمرة. -عندها لن يظل ينقص ذلك غير فرصة لخوض حرب كبرى؛ وسينهض عندها أعوان السلك الدبلوماسي بموجب وظيفتهم *وبكل براءة* لمهمة تحقيق هذه الغاية، ترافقهم في ذلك الصحافة والبورصة؛ ذلك أن «الشعب»، بما هو شعبُ جنودٍ يكون دوما على حال من راحة الضمير وهو يخوض حرباً، وما من حاجة إلى أن تتم تهيئة ضميره لذلك قبلها.

321

الصحافة

إذا ما اعتبرنا الكيفية التي مازالت الوقائع السياسية الكبرى تتسلل بها حتى الآن إلى مسرح الأحداث بطريقة مواربة ومحجّبة، وكيف تغطّي عليها الأحداث التافهة فتتراءى صغيرة إلى جوارها، وكيف أنها لا تُظهر مفاعيلها العميقة ولا تجعل الأرض ترتجّ من جرّائها إلا بعد

حدوثها؛ -فأي أهمية يمكننا أن نمنح الصحافة في ما هي عليه الآن من الجهد اليومي المتجدد الذي تبذله في الصراخ والإذهال والإثارة وبث الفزع؟ أتكون شيئاً آخر غير ***صفارات الإنذار الكاذبة المستمرة*** التي تحوّل انتباه الآذان والحواس وتوجهها إلى الوجهة الخاطئة؟

322

بعد حدث كبير

كل شعب أو كل شخص يرى روحه تطرح خفاياها للنور في غمار حدث كبير سيشعر بعدها مباشرة بحاجة إلى ***عمل صبياني*** أو ***فجاجة*** ما، عن خجل وطلباً للاستراحة في الآن نفسه وبنفس المقدار.

323

أن تكون ألمانياً جيداً يعني أن تتجرّد من ألمانيّتك

إن الفوارق القومية لا تكمن في ما ظل يُعتقد دوماً أنه أساسها، بل في فوارق بين ***درجات متفاوتة من الحضارة***، وهذه الأخيرة ليست قارة بدورها إلا في ما قلّ وندر منها (وليس بالمعنى الدقيق للكلمة أيضاً). لذلك سيكون الاحتجاج من منطلق الطبع القومي أمراً غير مطلوب تقريباً من كل من يريد أن يعمل على **تغيير** القناعات، أي على بناء الثقافة. وإذا ما تناولنا بالنظر مثلاً مسألة كل ما ***كان دوماً*** ألمانيّاً، فسيكون علينا أن نعدّل في الحين السؤال النظري: ما هو ألماني؟ بالسؤال المعاكس: «أي شيء هو *الآن* ألماني؟» -وكل ألماني جيّد سيجيب على ذلك في الممارسة من خلال تجاوز صفاته الألمانية. إذ عندما يكون شعب ما في طور التقدم والتطور المستمر، فإنه يكسر في كل مرة ذلك الطوق الضيّق الذي ظل يفرضه عليه الاعتبار ***القومي*** حتى تلك اللحظة: أما إذا ما ظل ذلك متوقفاً عن التقدم، وتعطّل نموّه

وأصابه التقلّص، فإن حزاماً جديداً سيضرب طوقه على روحه، مما يجعل تراكب الأطواق يكوّن لحاء يزداد صلابة بصفة مستمرة بما يشبه سجناً تظل أسواره تزداد علواً مع الزمن. وبالتالي يمكننا أن نقول إذاً بأن شعباً يحتفظ بالكثير مما هو ثابت يعطينا دليلاً على أنه ينحو إلى التحجر، ويريد أن يتحوّل بكليته إلى *معلّم اركيولوجي*: كما حدث في لحظة محددة من التاريخ مع الحضارة المصرية العتيقة. وبالتالي فإن كل من يريد الخير للألمان سيكون عليه أن يبحث مع نفسه على حِدة كيف يمكنه أن يجعل نفسه يتطور من خلال الخروج بصفة مستمرة عمّا هو ألماني. لذلك كان *التوجه* نحو ما ليس ألمانياً الخصلة المميزة دوماً لأفضل الرجال من شعبنا.

324

الألماني في عين أجنبي

أحد الأجانب الذي قام برحلة في ألمانيا أعجَب ولم يعجِب من خلال بعض أحكامه بحسب المنطقة التي كان يتواجد فيها في كل مرة. -كل الصوابييّن(٥٨) من ذوي العقل هم ذوو طبع لعوب، كان يحب أن يقول. بينما بقية الصُوابيّين مازالو يعتبرون أن أوهلاند كان شاعرا وغوتة لا أخلاقيا. -أفضل ما في الروايات الألمانية التي غدت مشهورة هو أننا لسنا بحاجة إلى قراءتها؛ فنحن نعرفها. -يبدو البرليني أكثر لطافة من الألماني الجنوبي، إذ هو في رأيه ميّال للسخرية، ولذلك يتقبل السخرية أيضاً؛ وهو ما لا يمتاز به الجنوبي. - عقل الألمان يظل حسب قوله معاقاً بسبب بيرتهم وصحفهم؛ وهو ينصحهم بالتالي بالشاي والمقالة كوسائل للعلاج بطبيعة الحال. لننظر مثلاً إلى مختلف شعوب أوروبا العجوز، هكذا يوصي ذلك الأجنبي، وكيف يمثل كل منها خاصّية بعينها من خاصّيات الشيخوخة ويقدّمها على

أحسن وجه لمتعة يجدها أولئك الجالسون أمام مصطبة ذلك المسرح الكبير: حكمة الشيخوخة وملاحتها لدى الفرنسي، تجربتها وتحفظها لدى الإنكليزي، براءتها وتلقائيتها لدى الإيطالي. لكن أين هي بقية الأقنعة التي تلبسها الشيخوخة؟ أين هو الشيخ المتكبر؟ والشيخ الطاغية؟ والشيخ الجشع؟ -أخطر المناطق الألمانية في نظره هي الساكس وتورينغن: فليس ثمة مكان يوجد فيه ما يوجد هناك من حركية عقلية ومعرفة بأحوال الإنسان إلى جانب حرية العقل، وكل ذلك يظل مطموساً من خلال اللغة القبيحة والتفاني المفرط في الخدومية الذي يميز سكان تلك المقاطعتين، مما يجعل المرء لا يكاد يلاحظ أنه هنا أمام رقباء المعرفة الألمانية بخيرها وشرها، ومعلميها البارعين. -غرور ألمان الشمال يكبح جماحَه ميلُهم إلى الطاعة، وغرور الجنوبيين يكبحه ميلُهم إلى الرفاه والراحة. -يبدو لذلك الأجنبي أن للألمان زوجات قليلات البراعة كربّات بيوت لكنهن معتدات بأنفسهن؛ يتكلمن عن أنفسهن بإعجاب وبإلحاح عنيد حتى كدن يقنعن العالم بأسره، وقد أقنعن أزواجهن على أية حال، بالفضائل المميّزة لربات البيوت الألمانيات. -وعندما يتحول الحديث باتجاه السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا فهو عادة ما يقول، أو يفشي-كما يقول هو- بأن كبير الدولة في ألمانيا لا يؤمن بوجود رجال دولة عظماء. ويرى ذلك الزائر أن مستقبل الألمان مهدَّد وخطير، إذ هم قد فقدوا القدرة على ***البهجة*** (الأمر الذي يجيده الإيطاليون، حسب رأيه)، إلا أنهم، ومن خلال المخاطرات الكبرى للحروب وثورات السلالات الحاكمة، قد غدوا ***متعودين على الانفعال***، وبالتالي سيكون لهم أن يعيشوا الانتفاضة ذات يوم؛ إذ هي الانفعال الأقوى الذي يمكن أن يصدر عن شعب. -ولهذا السبب فإن الاشتراكي الألماني في نظره هو أخطر المخاطر، لأنه لا يتحرك بدافع من ضرورة محددة؛ داؤه

الأساسي هو أنه لا يدري ماذا يريد، وبالتالي فإنه، وأياً كان الحد الذي يمكنه أن يبلغه من مراميه، سيظل يضطرم بنار الرغبة حتى في لحظات المتعة، تماماً مثل فاوست، لكنّ أغلب الظن أنه سيكون فاوست من نوع رعاعي. «فشيطان فاوست»، يقول ذلك الزائر الأجنبي صائحاً بالنهاية، «ذلك الذي ظلّ يعذّب روح المثقفين الألمان قد طرده بيسمارك عن أرواحهم؛ إلا أن الشيطان قد دخل الآن إلى أرواح الخنازير وغدا أسوأ مما كان عليه من قبل.»[٥٩]

325

آراء

أغلب الناس لا يساوون شيئاً ولا يمثلون شيئاً ما لم يرتدوا معطف القناعات العمومية والآراء العامة وفقاً لفلسفة الخيّاط القائلة: اللباس يصنع الناس. غير أن ذلك سيسمّى لدى الاستثنائيين من الناس: *الذي يرتدي هو الذي يصنع الرداء*؛ ههنا تكفّ الآراء عن كونها عمومية وتغدو شيئاً آخر غير أقنعة وحلية وزي تنكّر.

326

نوعان من التقشف

علينا أن نحطاط من الخلط بين التقشف المتأتي عن العياء والتقشف عن اعتدال، ذلك أن الأول معكّر المزاج، بينما الثاني ذو مزاج مرح.

327

فرحة مزوّرة

علينا أن لا نواصل تثمين شيء يوماً واحداً أكثر مما ينبغي، وخاصة أن لانفعل ذلك *يوماً قبل الأوان أيضاً*، إنها الطريقة الوحيدة لجعل الفرحة

تحافظ على طابعها الحقيقي؛ وإلا فإنها تغدو بسرعة فائقة باهتة وذات مذاق عطِن، ومن ثمة تصبح بالنسبة لفئات بأكملها من الشعب من تلك المواد الغذائية المزوّرة.

328

كبش الفضيلة

عندما ينجز أحد ما عملاً على أفضل وجه يسرع الذين يريدون به خيراً، لكنهم دون مستوى عمله، إلى التضحية بكبش لأجله وهم يعتقدون أنه كبش الفداء(*)، بينما هو في الحقيقة كبش الفضيلة.

329

السيادة

أن نُكبر شيئاً رديئاً أيضاً ونعلن اعترافنا به إن هو *أعجبنا*، وأن لا نعرف الخجل مما يعجبنا أبداً، فتلك علامة السيادة، في كبريات المسائل كما في صغارها.

330

صاحب التاثير شبح وليس بحقيقة

يتعلم الرجل المهم شيئاً فشيئاً أنه *ما دام له تأثير* على الآخرين فإنه يكون **شبحاً** في أذهانهم، وربما يجد نفسه نهباً لعذاب الحيرة وهو يتساءل إن ليس من واجبه بالأحرى أن يظل محافظاً على ذلك الشبح مراعاة *لمصلحة* بني جنسه.

(*) كبش الفداء يسمّى حرفياً بـ«**كبش الخطيئة**» Sündenbock في اللغة الألمانية، لذلك لا تفلح الترجمة غير الحرفية في تأدية التلاعب اللفظي الذي يريده نيتشه هنا في تلك المقابلة بين عبارتي «خطيئة» و «فضيلة».

331

الأخذ والعطاء

عندما يكون أحد ما قد أخذ شيئاً من شخص (أو استبقه إليه)، فإنه يغدو على قدر من العماء بسبب ذلك، ولا يرى أنه منحه شيئاً أكبر، بل أكبر شيء.

332

الأرض الخصبة

رفض كل شيء ونفي كل شيء يفشي فقراً في التربة: وفي الحقيقة لو كنا أرضاً خصبة لانبغى علينا أن لا ندع شيئاً يتلف دون أن نستعمله، وسيكون علينا أن نرى في كل شيء، و كل حدث وكل شخص، سماداً أو مطراً أو شمساً مرغوبة كلها.

333

العلاقات كمتعة

عندما يختار أحد عن قصد أن يعيش في عزلة بدافع من التبتّل، سيكون بوسعه من خلال ذلك أن يجعل من العلاقات النادرة التي يعيشها مع الآخرين متعةً بشيء طيّب المذاق.

334

أن نعرف كيف نتالم علناً

ينبغي علينا أن نظهر آلامنا، أن تندى عنا بين الحين والآخر زفرة مسموعة، وأن نغتاظ بصفة بادية للعيان؛ ذلك أننا إذا ما جعلنا الآخرين يلاحظون كم نحن واثقون وسعيدون في قرارة أنفسنا بالرغم من الألم والحرمان، فلكَم سنجعلهم يغدون عندها حسودين وخبيثين

تجاهنا! غير أن واجبنا يحتّم علينا أن نحرص على أن لا نجعل بني جنسنا يغدون أكثر سوءاً؛ ثم إنهم علاوة على ذلك سيكلفوننا إذا ما تصرفنا على هذا النحو المكابر ثمن تصرفنا غالياً، وبالنهاية فإن *المنا العلني* يظل في كل الأحوال امتياز *حياتنا الخاصة*.

335

دفء في الأعالي

في الأعالي يكون الطقس أدفأ مما يعتقد المرء وهو في الوادي، خاصة في الشتاء. إن المفكر يعرف جيداً ما الذي يعنيه هذا المثل.

336

أن نريد الخير ونقدر على الجميل

لا يكفي أن يمارس المرء أفعال الخير، عليه أن يكون قد أراده، وبحسب عبارة الشاعر، أن يحتضن الربّ داخل إرادته.(٦٠). أما *الجميل* فلا ينبغي على المرء أن يريده، عليه أن **يستطيعه**، ببراءة وعماء، ودون فضول النفس. ذلك الذي يشعل فانوسه بحثاً عن الرجال الكاملين عليه أن ينتبه إلى هذه العلامة: إنهم أولئك الذين يعملون من أجل الخير ويبلغون الجميلَ في عملهم دوماً، دون أن يفكروا في ذلك. وكم هناك من الجيدين والراقين الذين، بسبب من انعدام جمال الروح، وبالرغم من كل نواياهم الحسنة وأعمالهم الجيدة، يظلون غير مستساغين وقبيحين في عين الناظر إليهم؛ ينفّرون ويُضرّون حتى بالفضيلة من خلال تلك العباءة الكريهة التي يُلبسهم إياها ذوقهم السيّئ.

337

الخطر الذي يتهدد المتخلّي

علينا أن نحترز من بناء حياتنا على قاعدة محدودة جداً من الرغبات؛ إذ عندما يتخلّى المرء عن المسرّات التي تمنحها إياه المكانة والتشريفات والعلاقات والشهوات ووسائل الرفاه والفنون، قد يأتي يوم يلاحظ فيه أنه عوضاً عن *الحكمة* قد اتخذ له من *القرف من الحياة* جاراً له.

338

رأي نهائي في الآراء

إما أن يخفي المرء آراءه، أو أن يختفي وراء آرائه. ومن يفعل غير ذلك فهو إما غير عارف بالنهج الذي عليه مسار الحياة، أو أنه من المنتمين إلى طائفة الجسارة المقدسة.

339

"Gaudeamus igitur"(٦١)

لا بد أن الفرح ينطوي على طاقات منعشة وصحية بالنسبة للطبيعة الأخلاقية للإنسان أيضاً؛ وإلا ما الذي يجعل روحنا بمجرد أن تستلقي تحت أشعة شمس الفرح تشرع لا إرادياً في القسم لنفسها بأن «تكون خيّرة» وأن «تصير كاملة»، ويتملّكها خلال ذلك إحساس مبهم بالكمال شبيه بقشعريرة السعادة؟

340

إلى من يحظى بالمديح

ما دمت تحظى بالمديح يمكنك أن تكون واثقاً من أنك لا تسير على طريقك الخاص، بل على طريق غيرك.

341

حبّ المعلّم

محبّة المتعلّم نوع، ومحبّة المعلّم للمعلّم نوع.

342

أشياء مفرطة الجمال وإنسانية

«الطبيعة شيء مفرط الجمال بالنسبة لك أيها الفاني البائس!» ؛ إنه إحساس غالباً ما يخامرنا؛ لكن هناك بعض لحظات، وخلال تأمل حميمي لكل ما هو إنساني، لثرائه وقوته ورقته وتركيبته المعقدة، ينتابني فيها إحساس كما لو أنه لا يسعني إلا أن أقول بكل تواضع: «الإنسان أيضاً مفرط الجمال بالنسبة لإنسان يتأمله!»، -وليس المعنيّ هنا الإنسان الأخلاقي فقط، بل كل إنسان.

343

أملاك منقولة وعقار ثابت

عندما يحدث لامرئ مرة أن تسطو عليه الحياة سطو اللصوص وتسلبه كل ما يمكنها أن تأخذه منه من أمجاد ومسرّات وأتباع وصحة وكل أنواع الممتلكات، ربما يكتشف عندها وبعد مرور لحظات الذعر الأولى أنه أصبح *أغنى* مما كان عليه قبلها. إذ الآن فقط قد غدا يعرف أي شيء هو ملكه الحقيقي الذي لا يستطيع أي لص أن يقترب منه؛ وهكذا قد يخرج المرء من كل ذلك النهب والهلع بإحساس نبالة مالك عقاري كبير.

344

أنماط مثالية دون إرادة منها

أكثر الأحاسيس حرجاً من بين كل ما يمكن أن يشعر به إنسان هو أن

تكتشف أن للناس صورة عنك أرقى مما أنت عليه في الحقيقة. عندها سيكون عليك أن تعترف لنفسك: هناك شيء ما فيك كاذب ومخادع: كلمتك، طريقة تعبيرك، حركاتك، عيناك، أفعالك؛ وهذا الشيء المخادع ضروري بالنسبة لك بنفس القدر من ضرورة صدقك الذي يقابله، لكنه يظل يلغي على الدوام تأثير ذلك الصدق وقيمته.

345

مثالي وكذّاب

لا ينبغي أن ندع أنفسنا نخضع لسطوة المتعة الجميلة التي نجدها في الرفع من الأشياء إلى مستوى المثال؛ وإلا فإن الحقيقة ستنفصل عنا ذات يوم بهذه العبارات القاسية «مالي ومالك أيها الكذّاب حتى النخاع!»

346

سوء فهم كلّي

عندما يساء فهمنا في المُجمل، يغدو من المستحيل إزالة سوء فهم في أمر جزئي إزالة تامة. لابد أن ندرك هذا الأمر كي لا نهدر طاقاتنا في محاولات الدفاع عن نفسنا.

347

شارب الماء يتكلم

واصل فقط شرب خمرتك التي ظلت تمتعك بمذاقها طوال حياتك، - وما الذي يعنيك أن يكون عليّ أن أكون شارب ماء؟ أليست الخمرة والماء عنصرين أخويّين وديّين يعيشان الواحد جنب الآخر دون لوم أو عتاب؟

348

من بلاد أكلة لحوم البشر

في الوحدة يفترس المنعزل نفسه، ووسط الجموع يفترسه الجمع. فاخترْ الآن إذاً!

349

درجة تجمُّد الإرادة

«وأخيرا تحلّ في يوم ما تلك الساعة التي ستلفّك بلحاف الغيمة الذهبية لانعدام الإحساس بالألم؛ حيث الروح تغدو ملتذة بتعبها. سعيدةً داخل لعبة صبرها على الصبر تغدو مثل موجات بحيرة في يوم صيفي هادئ، تداعب بألسنتها الملتمعة تحت أشعة شمس الغروب ضفافَها، تلعقها وتلعقها، ثم تخلد حركتها من جديد إلى السكون، - دون نهاية، دون غاية، دون شبع ولا حاجة-، كلها هدوء يجد متعة في ذلك التغيّر، مندمجة بكلّيتها داخل ذلك الجزر وذلك المد الذي ضمّه وامتصّه نبض الطبيعة.» ذلك هو إحساس كل مريض وتلك هي كلماته: وما أن يكون قد بلغ تلك الساعات حتى يحل بعدها بقليل إحساس الضجر. إلا أنه سيكون الريح الدافئة التي ستذيب جليد الإرادة المتجمدة: تستيقظ، تتحرك وتشرع مجدداً في توليد الرغبات الواحدة تلو الأخرى. -عودة الرغبة هي علامة الشفاء أو بداية التعافي.

350

التنكر للمثل الأعلى

يحدث في حالات استثنائية أن شخصاً لا يبلغ ذروة إنجازه إلا عندما يتنكر لمثله الأعلى؛ ذلك أن المثل الأعلى ظل حتى تلك اللحظة

يدفعه دفعاً عاتياً، فيستنفد مجمل قواه في كل مرة وهو في منتصف طريقه، ويكون عليه أن يتوقف عند ذلك الحد.

351

ميل فاضح

يحق لنا عندما نرى شخصاً مأخوذاً بفكرةٍ أنه ما من منقذ هناك أمام الإنسان المتميّز غير الحب،[٦٢] أن نرى في ذلك علامة على أنه رجل حسود، لكنه ذو طموحات عالية.

352

سعادة السلّم

وكما أن عقل بعض الناس لا يستطيع أن يواكب خطى الفرصة، حتى أن الفرصة تكون قد تجاوزت عتبة البيت إلى الداخل بينما يظل هو فوق سلّم البناية، يوجد كذلك لدى آخرين شيء يمكن أن نسمّيه نوعاً من سعادة السلّم، تكون خطواتهم على غاية من البطء كيما تستطيع المشي بمحاذاة الزمن السريع: وأفضل ما يمكن أن يعيشوه من تجربة ما، ومن مسيرة حياة بكاملها لا ينتبهون إليه إلا بعد مروره بوقت طويل، وغالباً بما لا يتجاوز شيئاً شبيهاً برائحة باهتة لعطر قديم يوقظ فيهم مشاعر الحنين والحزن؛- كما لو أنه كان من الممكن لهم في لحظة ما أن يرووا ظمأهم من ذلك العنصر؛ لكن قد فات الأوان الآن.

353

ديدان

ليست حجةً ضد نضج عقل ما أن تكون فيه بعض ديدان.

354

هياة المنتصر

إن هيأة مهيبة على ظهر الجواد تسلب الخصم شجاعته والمتفرج عقله؛- فأي غرض سيكون لك إذاً في الهجوم؟ لتركبْ فقط بهيأة المنتصر!

355

خطر الإعجاب

يمكن لإعجاب شديد بفضائل الغير أن يجعل المرء يفقد الإحساس بفضائله الخاصة، لينتهي بسبب نقص في الدُّربة إلى فقدان تلك الفضائل، دون أن يكون له من معوّض في فضائل غيره.

356

من فوائد الصحّة المعكّرة

من كان كثير المرض لا تكون له فقط متعة أكثر في العافية بسبب المرات الكثيرة التي يعرف فيها الشفاء، بل يكون له أيضاً حس مرهف جداً بكل ما هو سليم أو مرضي في الآثار والأعمال، تلك التي يقوم بها هو أو غيره. لذلك نلمس مثلاً لدى الكتّاب الذين يعانون من المرض -ومن بينهم نجد للأسف كل الكبار تقريباً- نبرة صحية أكثر وثوقاً وانتظاماً داخل أعمالهم، لأن لهم دراية أكبر مما لدى غيرهم من ذوي البنية المتينة بفلسفة العافية والشفاء الأخلاقييْن وكذلك بمعلّميها: الصباح، والشمس والغابة، والينابيع المائية.

357

الخيانة شرط البراعة

لا مفرّ: لكل معلّم تلميذ واحد فقط، وذلك التلميذ الوحيد سيخونه في النهاية، لأنه مجبول لأن يصبح معلّماً.

358

لا شيء دون جدوى

لن يكون تسلّقك لجبل الحقيقة دون جدوى أبداً؛ فإما أنك ستجد نفسك قد مضيت اليوم بعيداً باتجاه القمة، أو أنك تكون قد درّبت قواك كي تستطيع الصعود غداً إلى مستوى أعلى.

359

أمام زجاج نافذة معتّم

أيكون هذا الذي ترونه من العالم من خلال هذه النافذة على قدر فائق من الجمال حتى أنكم أصبحتم لا تريدون البتة النظر من خلال أية نافذة أخرى؛ -بل وتحاولون أن تمنعوا الآخرين من ذلك أيضاً؟

360

علامة تحوّلات كبرى

عندما نحلم بأشخاص قد نسيناهم أو ممن ماتوا منذ مدة طويلة، فإن ذلك علامة على أننا عشنا تحوّلاً كبيراً في داخلنا، وأن الأرض التي نقف عليها قد تصدّعت كلّياً: عندها ينهض الموتى ويغدو قديمنا الماضي حاضراً جديداً.

361

دواء الروح

الاستلقاء في هدوء، وأقل ما يمكن من التفكير، ذلك هو أنفع دواء لكل أمراض الروح، ومع النية الصادقة يغدو تناوله مستساغاً ساعة بعد ساعة.

362

عن تراتب العقول

ستضع نفسك دون مستوى الآخر عندما تسعى لتثبيت الاستثناء، بينما يسعى هو لتثبيت القاعدة.

363

القدريّ

ينبغي أن تؤمن بالقدر، -ويمكن للعلم أن يرغمك على ذلك. أما ماذا سينمو لديك عن ذلك الإيمان-جبن، استسلام، أم عظمة وجرأة- فهو ما سيدلّ على نوعية الأرض التي ألقيت فيها تلك البذرة، وليس عن البذرة نفسها، فمن تلك البذرة يمكن أن ينبت أي شيء، ومن هذا وذاك.

364

سبب الكثير من الكدر

من يفضّل الجميل على النافع في حياته سيصيبه في نهاية المطاف حتماً ما يصيب الطفل الذي يحبّذ الحلوى على الخبز فتتلف بسبب ذلك معدته ويغدو مزاجه معكراً تجاه كل شيء في العالم.

365

الشطط وسيلةً للعلاج

يمكن لامرئ أن يستعيد المذاق الحلو لموهبته الخاصة بالولع لوقت طويل بمواهب مناقضة لها والتمتع بها بإفراط. إن استعمال الشطط كوسيلة للعلاج واحد من أكثر الخطط براعة في فن العيش.

366

«لتُرِدْ أن تكون انت»

الأشخاص الفاعلون والمكلّلون بالنجاح لا يعملون وفقاً لمقولة «إعرف نفسك بنفسك»، بل، وكما لو أن هذا النداء الآمر يحوم فوق رؤوسهم: لتُردْ أن تكون أنت، وستكون أنت أنت. -يبدو كما لو أن القدر يظل دوماً يترك لهؤلاء فرصة جديدة للاختيار، بينما يظل الخاملون والحالمون يحاولون أن يفهموا ذلك الاختيار الذي قاموا به مرة واحدة وهم يلجون عتبة الحياة.

367

العيش ما أمكن دون أتباع

لا يدرك المرء قِلّة أهمية الأتباع إلا عندما يكفّ عن كونه تابعاً لأتباعه.

368

تعتيم النفس

على المرء أن يلقي على نفسه شيئاً من العتمة كي يبعد عنه كوكبات المعجبين المزعجة.

369

ضجر

هناك ضجر خاص بالعقول المرهفة والعالمة، تلك التي غدا أفضل ما تمنحه الأرض باهت المذاق لديها؛ وبسبب تعوّدها على تذوّق المنتقى من الأطعمة والأكثر انتقاء دوماً واشمئزازها من كل خشن، فهي معرّضة لخطر الموت جوعاً؛-ذلك أن الأجود نادر، وممتنع أحياناً، أو أنه أصبح يابساً بصلابة الحجر، حتى أن أمتن الأسنان تغدو غير قادرة على قضمه.

370

خطر الإعجاب

يمكن للإعجاب بخصلة أو بفن ما أن يكون على قدر من القوة، فيصدّنا عن الطموح إلى بلوغ مثل تلك الأشياء.

371

ماذا نريد من الفن

هناك من يريد أن يجد متعة في نفسه من خلال الفن، وهناك من يسعى بواسطته إلى الارتقاء مؤقتاً فوق نفسه، والهروب منها: وفقاً لكل من هاتين الحاجتين يوجد نوعان من الفن ومن الفنانين.

372

انشقاق

من ينشقّ عنا قد لا يهيننا نحن، لكنه يهين أتباعنا بكل تأكيد.

373

بعد الموت

عادة ما لا نشعر إلا بعد مرور مدة طويلة من الزمن على موت شخص بأن فقدانه أمر غير معقول، وأننا نشعر بفقده؛ وبالنسبة لعظماء الرجال لا يكون ذلك إلا بعد عشرات السنين. ومن كان صادقاً سيفكر عادة عند وفاة شخص بأن ذلك ليس بالخسارة الكبيرة في الحقيقة، وأن المؤبّن منافق. إن الحاجة وحدها هي التي تبدي لنا كم كان ضرورياً وجود ذلك الشخص، وتكون شاهدة قبره الحقيقية زفرة الحسرة التي تأتي بعد مدة من الزمن.

374

أشياء منذورة للعالم السفلي

هناك أشياء كثيرة ينبغي أن ندعها في العالم السفلي للأحاسيس شبه الغافية دون أن نرغب في تخليصها من وجودها الشبحي، لئلا تصبح بعد تحوّلها إلى فكرة وكلمة سيّدة شيطانية علينا مسكونة بعطش فظيع لدمائنا.

375

حالة قريبة من التسوّل

يحدث للعقل الأكثر ثراء أيضاً أن يكون بين الحين والآخر قد أضاع مفتاح الغرفة التي أودعها كنوزه، وإذا هو أشبه بأشد الناس فقراً، ذاك الذي يضطر إلى التسول فقط من أجل أن يظل على قيد الحياة.

376

مفكر التسلسل

من يكون قد شغل نفسه كثيراً بالتفكير، ستتراءى له كل فكرة جديدة يسمعها أو يقرأها مباشرة على هيأة سلسلة.

377

شفقة

داخل الغِمد الذهبي للشفقة يختفي أحياناً خِنجر الحسد.

378

ما هي العبقرية؟

إرادة هدف سام، والوسائل الضرورية لبلوغه *أيضاً*.

379

غرور المصارع

من لا أمل له في الانتصار في مبارزة ما، أو هو دون خصمه بصفة واضحة، ستكون رغبته أكبر في أن تكون طريقة صراعه محل إعجاب المتفرجين.

380

تأوّل خاطئ للحياة الفلسفية

في اللحظة التي يشرع فيها أحد ما في التعامل بجدية مع الفلسفة يعتقد الجميع عكس ذلك تماماً.

381

في المحاكاة

يكتسب الرديء سُمعة جيدة من خلال المحاكاة، أما الجيّد فيخسر من خلال ذلك، -في مجال الفن على وجه الخصوص.

382

درس التاريخ الحاسم

«آه لو أنني عشت في ذلك الزمن!» هكذا يتكلم ذوو العقول السخيفة والمهرّجون. بل إن الإنسان، ومع كل جزء من التاريخ قد تأمل فيه بجدّية، سيصرخ في النهاية: «كل شيء إلا العودة إلى ذلك الزمن! فروح ذلك العصر سيسحقك بعبء مئات الحالات والأجواء؛ فلا أنت تستطيع أن تتمتع بما يحمله من أشياء جيدة وجميلة، ولا أن تهضم ما فيه من شنائع.» ومن المؤكد أن الأجيال القادمة ستحكم بدورها على عصرنا هكذا: إنه عصر لا يمكن تحمّله، والحياة فيه كانت لا تطاق. -ومع ذلك، هل يتلاءم كل جيل مع عصره؟ نعم، وذلك لأن روح عصره لا تربض فوقه فحسب، بل هو يقطن فيها أيضاً. إن روح العصر تقاوم نفسها، وتحمل نفسها بنفسها.

383

النبل قناعاً

من خلال نبل السلوك يستثير المرء أعداءه، أما من خلال الحسد فهو يصالحهم تقريباً؛ ذلك أن الحسد يضع مقارنة، ويساوي، وهو نوع لاإرادي ومتذمر من التواضع. لكن ألا يكون الحسد، هنا وهناك، وبسبب تلك الفائدة التي ذكرناها قناعاً يتخذه أولئك الذين لم يكونوا حسودين؟ ربما؛ إلا أن الثابت هو أن نبل السلوك غالباً ما يُستعمَل

قناعاً للحسد من طرف الطموحين الذين يفضّلون تحمّل مضارّه ويريدون بالتالي استثارة أعدائهم على أن يُظهروا أنهم في قرارة أنفسهم يضعون أنفسهم في مرتبتهم.

384

ما لا يغتفر

لقد منحتَه فرصة كي يبدي نبل طبعٍ ولم يستغلها. ذلك ما لن يغفره لك أبداً.

385

طرحان متقابلان

إن الفكرة الأكثر خرَفاً مما قيل في الإنسان هي تلك التي تطرحها مقولة «الأنا شيء بغيض دوماً»؛ أما أكثرها صبيانية فهي تلك المقولة الأكثر شهرة «أَحبّ أخاك كما تحبّ نفسك». -في الأولى توقفت المعرفة بأحوال الإنسان، وفي الثانية لم تبدأ بعد.

386

ما ينقص هي الأذن

«يكون المرء من صنف الرعاع طالما ظل يلقي بالذنب دوماً على غيره؛ ويكون على طريق الحكمة عندما يجعل من نفسه دوماً هو المسؤول. غير أن الحكيم لا يرى أحداً مذنباً، لا نفسَه ولا غيره.» -من قال هذا؟ -إنه إبيكتيت قبل ألف وثمانمئة سنة. وقد سمع الناس ذلك غير أنهم نسوه. -كلا، لم يسمع الناس ذلك ولم ينسوه؛ إذ ليس كل شيء بإمكانه أن ينسى، غير أنه لم تكن للناس الأذن المناسبة لذلك، أذن إبيكتيت. - فهل يكون إذاً قد همس بذلك لنفسه؟ -نعم، ذلك هو ما

حصل، فالحكمة هي غمغمة المتوحد في الساحة العمومية الضاجة بالناس.

387

خطا في التموقع وليس في العين

ينظر الإنسان إلى نفسه من موقع بعض خطوات أقرب مما ينبغي، ويرى جارَه دوماً من موقع بضع خطوات أبعد مما ينبغي. من هنا يتأتى أنه يحكم عليه بصفة عامة وجمليّة، بينما يحكم على نفسه غالباً من خلال ملامح جزئية وتفاصيل ووقائع عابرة وغير ذات أهمية.

388

الجهل مقاتلاً

كم نحن مستخفّون بمسألة ما إذا كان غيرنا عارفاً بأمر أم جاهلاً به، بينما سيدخل ذلك الشخص في حالة من الهلع لمجرّد أن يتصوّر أننا نعتبره جاهلاً. بل هناك أيضاً بعض من نخبة الحمقى الذين يتجوّلون بجُعبة مليئة لعنات وأحكاماً قطعيّة وهم على استعداد لتسديد سهامهم القاتلة لكل من يعبّر لهم بأن هناك مسائل ليست من مشمولات أحكامهم.

389

على مائدة شراب التجربة

أولئك الذين، وبموجب اعتدال فطري فيهم، يتركون كأسهم نصف ممتلئة دائماً، لا يريدون الاعتراف بأن لكل شيء في هذا العالم قاعاً وثُمالة.

390

طيور مغرّدة

عادة ما يعمد أتباع رجل عظيم إلى إعماء أنفسهم كي يستطيعوا أن ينشدوا مدائحهم له على نحو أفضل.

391

دون المستوى

الجيّد لا يكون مُستساغاً لدينا عندما لا نكون في مستواه.

392

القاعدة أُمّاً او القاعدة بنتاً

حيث تكون القاعدة هي الأمّ شيء، وشيء آخر حيث تكون هي المولود.

393

كوميديا

نجني أحياناً محبة وتشريفات عن أفعال أو أعمال قديمة قد تخلّينا عنها منذ مدة من الزمن مثل جلدة انسلخنا عنها؛ وعندها سنجد نفسنا منساقين إلى تقمّص دور الممثل في مسرحية ماضينا الخاص، ونضع مرة أخرى ذلك الجلد القديم على كتفينا؛ وذلك ليس بدافع من الغرور فحسب، بل إحساناً للمعجبين بنا أيضاً.

394

خطا كتّاب السيرة

لا ينبغي أن نخلط بين القليل من القوة التي نحتاج إليها لكي ندفع

بزورق في السيل وقوة ذلك التيار الذي سيدفعه: غير أن ذلك هو ما يحدث في كل مؤلفات السيرة تقريباً.

395

لا تشتر بثمن باهض

ما نشتريه بثمن باهض عادة ما نسيء استعماله، لأننا نفعل ذلك دون حبّ وبذكرى مزعجة؛ وهكذا تكون لنا منه سلبيّتان في آن واحد.

396

الفلسفة الضرورية دوماً بالنسبة للمجتمع

يرتكز هيكل النظام الاجتماعي على أساسٍ يتكوّن من أن كل فرد يرى بعين الرضا والقبول المرح إلى كيانه وما يفعله وما يرمي إليه، إلى عافيته أو مرضه، إلى فقره أو رفاهه، وأن يكون إحساسه كالآتي: «*كلا، لن أبادل حالي مع أحد*». من يريد أن يساهم في بناء النظام الاجتماعي عليه أن يغرس في قلبه فلسفة الرفض البهيج لتبادل المواقع والتجرد من الحسد.

397

علامة الروح السامية

الروح السامية ليست تلك التي لها قدرة على أعلى القفزات، بل تلك التي لا ترتفع إلا بمقدار ولا تقع إلا نادراً، لكنها تظل تقيم ***دوماً*** على ارتفاع يكون فضاؤه حراً ومضيئاً.

398

العظيم ومتأمله

أفضل تأثير للعظمة أنها تمنح متأمِّلها عيناً تجعل كل شيء أرقى وأكثر انسجاماً.

399

القناعة

يعبّر بلوغ النضج عن نفسه في أن يكفّ المرء عن الذهاب إلى حيث تنبت الزهور النادرة بين أدغال أشواك المعرفة، وأن يكتفي بارتياد الحدائق والغابات والمروج معتبراً أن الحياة أقصر من أن تتسع للبحث عن النادر والخارق للعادة.

400

فائدة الحرمان

من اعتاد العيش في الدفء وغبطة القلب وفي ما يشبه مناخاً صيفياً للروح لن يستطيع أن يتصور قشعريرة النشوة التي تتخلل الطبائع الشتائية عندما تلامسها في لحظة استثنائية أشعة شمس الحب وتداعبها النسائم الدافئة ليوم مشمس من أيام شباط/ فبراير.

401

وصفة للمثقل بالعذابات

هل تشعر أن عبء الحياة يثقل كاهلك؟ عليك إذاً أن تضاعف من عبء حياتك؟ إذ عندما يغدو المعذّب بالنهاية مشتاقاً إلى نهر ليثي[٦٣] ويشرع في البحث عنه، سيكون عليه عندها أن يتحوّل إلى *بطل* كي يتأكد من أنه سيعثر عليه.

402

القاضي

من اطّلع على المثال الأعلى لشخص ما يكون قاضياً قاسياً عليه، وبمعنى ما ضميره المؤنِّب.

403

فائدة التخلي الأعظم

تتمثل فائدة التخلّي الأعظم في أنه يمنحنا كبرياء الفضيلة التي ستجعلنا منذ تلك اللحظة قادرين على الإقبال بسهولة على العديد من التخلّيات الصغيرة.

404

كيف يكتسب الواجب بريقاً

إن الوسيلة التي تمكنك من أن تحوّل واجبك البرونزي إلى ذهب في أعين الجميع هي: أنجز دائماً أكثر بقليل مما تعد به.

405

صلاة للإنسان

«أغفرْ لنا فضائلنا»- هكذا ينبغي أن نصلّي للإنسان.

406

المبدعون والمستهلكون

كل مستهلك يعتقد أن المهمّ في الشجرة هو الثمرة؛ بينما المهم في الحقيقة هو البذرة. -ههنا يكمن الفرق بين كل المبدعين وكل المستهلكين.

407

مجد كل العظماء

أي أهمية للعبقري إن لم يمنح من يتأمله ويُكبره حرية وسمواً في الإحساس تجعلانه ينسى الحاجة إلى العبقرية؟ ***أن تجعل من نفسك شيئاً زائداً عن اللزوم***؛ ذلك هو مجد كل العظماء.

408

الهبوط إلى العالم السفلي

أنا أيضاً نزلت إلى العالم السفلي، وليس يوليسوس وحده، -وسأعود إلى هناك مراراً؛ ولم أقدّم كبشا فقط أضحيةً كي أتمكن من الحديث مع بعض الأموات، بل لم أبخل بدمي أيضاً. أربعة أزواج لم يرفضوا أضحيتي: أبيقور ومونتانيي، غوته وسبينوزا، أفلاطون وروسو، باسكال وشوبنهاور. مع هؤلاء كان عليّ أن أتجادل عندما كنت أمضي طويلاً متنقلاً في وحدتي، ومن هؤلاء أريد أن أسمع حُكماً على صوابي وعلى خطئي. وفي كل ما أقوله وأقرره، وكل ما أتصوّره لنفسي وللآخرين، يكون هؤلاء الثمانية نُصب عيني دوماً، وأرى أعينهم ترشقني بنظراتها. ليغفر لي الأحياء إذا ما رأوني أمضي أحياناً مثل واحد من الأشباح، شاحباً ومعكّر المزاج، قلقاً، و... آه! مضطرماً شهوة للحياة؛ بينما أولئك الثمانية يبدون لي على قدر من الحياة، كما لو أنه لم يعد من الممكن الآن، بعد الموت، أن يصيبهم كلل من الحياة. إنما المهم في النهاية هو هذه الحيوية الأبدية: ما أهمية «الحياة الأبدية» إذاً، بل والحياة عموماً!

الجزء الثاني

الجوّال وظِلّه

الظلّ: بما أنني لم أسمعك تتكلّم منذ زمن طويل، فإني أريد أن أمنحك الآن فرصة لذلك.

الجوّال: أحد ما يتكلم. . . أين؟ يخيّل إليّ كما لو أنني أنا الذي أكلّم نفسي، لكن بصوت أكثر ضعفاً من صوتي الخافت.

الظل: (بعد برهة) ألا يسرّك أن ترى نفسك تُمنح فرصة للكلام؟

الجوّال: والربَّ، وكلَّ مالا أؤمن به، إن ظِلّي يتكلم! أسمعه، لكنني لا أصدق ذلك.

الظل: لنقبل بذلك ونكفّ عن مزيد التفكير في الأمر، فبعد ساعة سيكون كل شيء قد انتهى.

الجوّال: هكذا قلت لنفسي أيضاً عندما رأيت ذات مرّة في غابة بالقرب من بيزا جمليْن ثم خمسة جمال.

الظل: إنه لأمر حسن أن نكون كلانا متسامحيْن مع بعضنا إذا ما حصل أن تعطّل الفهم لدينا، وهكذا لن نغضب من بعضنا خلال المحادثة ولن يسارع أحدنا بالتعسّف على الآخر إذا ما بدت له كلماته غير مفهومة. وإذا لم نستطع الجواب مباشرة، سيكفينا أن نقول شيئاً ما: إنه الشرط النزيه الذي أضعه للحديث مع أي شخص. ففي محادثة

طويلة يحصل لأكثر الناس حكمة أن يكون مرة أحمق وثلاث مرات رقيعاً.

الجوّال: إن تواضعك أبعد عن المجاملة إزاء من تبوح له بذلك.

الظل: أينبغي علي إذاً أن أكون مجاملاً؟

الجوّال: كنت أظن أن ظل الإنسان هو غروره؛ غير أن هذا الأخير لن يسأل: «أينبغي عليّ إذاً أن أجامل؟»

الظل: الغرور الإنساني، حسب معرفتي به لا يسأل أيضاً إنْ بإمكانه أن يتكلم، مثلما فعلت أنا مرتين: إنه يتكلم دائماً.

الجوّال: أرى الآن كم أنا قليل الأدب معك يا ظلي العزيز؛ إذ لم أنبس بكلمة واحدة للتعبير عن مدى سروري برؤيتك، وأن لا أظل أراك فقط. وستعرف أيضاً أنني أحب الظل مثلما أحب النور: فلكي يكون هناك جمال للوجه ووضوح في الكلام، وحسنٌ ومتانة في الطبع يكون الظل على نفس القدر من الأهمية من النور. فهما ليسا بضديْن، بل يمضيان اليد في اليد بكل مودة، وعندما يختفي النور يتسلل الظل منسحباً وراءه.

الظل: وأنا أكره أيضاً ذاك الذي تكرهه: الليل. أحبّ البشر لأنهم تلامذة النور، وأبتهج بذلك النور الذي تشعّ به أعينهم إذا عرفوا واكتشفوا. أولئك المكتشفون والساعون إلى المعرفة دون كلل. ذلك الظل الذي يظهر عن الأشياء عندما تسطع فوقها شمس المعرفة، ذلك الظل هو أيضاً أنا.

الجوّال: أظنّ أنني فهمت قصدك، وإن جاءت عبارتك على شيء من هيأة الظلال. لكنك كنت مصيباً؛ فالأصدقاء يتبادلون بين الحين والآخر كلمة غامضة كعلامة على التفاهم، أمر يكون ضرباً من اللغز بالنسبة لكل طرف غريب. لكننا صديقان جيّدان؛ لذلك كفى الآن مقدّمات! لي بضع مئات من الأسئلة تضغط على روحي، وربما يكون

وقتك للإجابة عنها محدودا جدا. فلننظر حول أية مسائل سنتحاور بعُجالة وفي جوّ من السلام.

الظل: لكنّ الظلال أكثر خجلاً من البشر، وإنك لن تفاتح أحداً بمثل ما تَحَدثْنا به الآن.

الجوّال: كما تحادثنا؟ لتخْفظني السماء من المحادثات المكتوبة بنسيجها الممطّط! ولو أن أفلاطون لم يكن يجد تلك المتعة في تمطيط خيوط نسيجه لوجد القارئ متعة أكثر في قراءة أفلاطون؛ محادثات تكون في الواقع ممتعة ترى نفسها تتحوّل في الكتابة وفي القراءة من بعد إلى لوحة تطغى عليها اللقطات المشوّهة: كل شيء فيها إما مُسرف في الطول، أو في القِصر. ومع ذلك لعلّك ستسمح لي بأن أعبّر عمّا يمكننا أن نتفق حوله؟

الظل: إن هذا يناسبني، إذ في الحقيقة لن يرى الجميع في ذلك سوى آرائك أنت؛ إذ ما من أحد سيخطر له أن يفكر في الظل.

الجوّال: لعلك تخطئ هنا يا صديقي! فإلى حد الآن إنما الظل هو ما ظَل الناس يرونه من أفكاري أكثر مني أنا.

الظل: الظل أكثر من النور! أيعقل هذا؟

الجوّال: قليلاً من الجِدّ يا عزيزي الأحمق! فسؤالي الأول في حد ذاته يدعو إلى الجِدّ.

1

عن شجرة المعرفة

محتمَلات لكن ما من حقيقة؛ مظهر حرية وما من حرية: بسبب هاتين الفاكهتين لا ينبغي الخلط بين شجرة المعرفة وشجرة الحياة[٦٤].

2

عقل العالم

ما يبرهن نهائياً على أن العالم ليس تجسّداً لعقل سرمديّ، هو أن هذا الجزء الذي نعرفه منه -أعني عقلنا البشري- ليس عاقلاً بالتمام. وإن لم يكن هو حكيماً دوماً وعقلانياً دوماً وعلى نحو كامل، فإن بقية العالم لا يمكنه أن يكون كذلك هو أيضاً؛ ههنا يصحّ الاستدلال التالي: *a minori ad majorus, a parte ad totum*- ما صحّ على الصغير يصحّ على الكبير، وما صحّ على الجزء يصحّ على الكل؛ بل يصحّ بقوة وبصفة قاطعة.

3

«في البدء كان»[٦٥]

إن تمجيد لحظة التكوين هي الفسيلة الميتافيزيقية التي تشرع في البزوغ عند معاينة التاريخ، وتدفع حقاً إلى الاعتقاد بأنه في البدء كان هناك الأرفع قيمة والأكثر جوهرية.

4

معيار قيمة الحقيقة

لا يمكن للجهد الذي يكلّفه الصعودُ أن يكون مقياساً لارتفاع الجبال. -لكنّ المسألة تختلف عندما يتعلق الأمر بالعلوم! هذا ما يقوله لنا البعض ممن يعتبرون أنفسهم عارفين، فالجهد الذي نقوم به من أجل الحقيقة لا بد أن يكون، حسب زعمهم، المقياس الذي يحدد قيمة الحقيقة! هذه الأخلاقية الحمقاء تنطلق من فكرة أن «الحقائق» ليست شيئاً آخر في الواقع غير أجهزة لممارسة الرياضة علينا أن نجهد أنفسنا في التدرب عليها: أخلاقية للرياضيين ولاعبي جمباز عقليّ.

5

الاستعمال اللغوي والواقع

هناك احتقار منافق لكل الأشياء الأكثر أهمية بالنسبة للإنسان؛ ***أقرب الأشياء*** إليه. يقال مثلاً «إننا نأكل كي نعيش»، وهذه **أكذوبة** لعينة، مثلها مثل تلك الأخرى التي تزعم أن الإنجاب هو الغاية الحقيقية من وراء كل رغبة شبقية. وبالمقابل فإن إكبار«الأشياء الأكثر أهمية» يكاد لا يكون صادقاً البتة: ولئن عوّدنا القساوسة والميتافيزيقيون في هذا المجال على ***استعمال لغوي*** منافق وموغل في المبالغة، فإنهم لم يفلحوا مع ذلك في تغيير الإحساس الذي يجعلنا لا نولي اعتباراً هذه «الأشياء الأكثر أهمية» بقدر ما نولي تلك الأخرى الأقرب إلينا والمحقَّرة. -غير أن هذا النفاق المزدوج قد أدّى على أية حال إلى نتيجة سيئة للغاية تتمثل في أننا لم نعوّد أنفسنا على أن نجعل من هذه الأشياء الملتصقة بحياتنا، مثل الأكل والمسكن واللباس والمعاملات، موضوعاً للتفكير والتعديل المستمريْن والشاملين دون عقد أو مسبقات، بل، ولكونها تعتبر متدنية، قد حوّلنا عنها اهتماماتنا العقلية

والفنية، مما انجرّ عنه من ناحية، أن التعود والطيش يحققان انتصارهما بسهولة على عديمي التبصّر، مثل الشباب الذي يفتقر إلى التجربة؛ ومن ناحية ثانية، أن مخالفاتنا الدائمة لأبسط قوانين الجسم والعقل قد زجّت بنا جميعنا، شباباً وكهولاً في حالة من التبعية والعبودية المخزية؛ أعني بذلك تلك التبعية التي لا موجب لها في الحقيقة للأطباء والمعلمين ورعاة سلام الروح الذين ظل المجتمع بكامله، وإلى يومنا هذا، خاضعاً لضغوط سلطتهم.

6

الهشاشة الأرضية وسببها الأساسي

عندما ننظر من حولنا نلتقي دوماً بعدد من الناس الذين ظلوا طوال حياتهم يأكلون بيضاً دون أن يلاحظوا أن المستطيلة منها هي الأطيب مذاقاً، والذين لا يعرفون أن للعاصفة مفعولاً حسناً على البطن، وأن روائح العطور تمنح أقصى شذاها في جوّ الصحو والهواء البارد، وأن حاستنا الذوقية تختلف باختلاف المواضع داخل فمنا، وأن كل طعام تتخلله كثرة من الكلام والاستماع يضرّ بالمعدة. ربما لن نكون سعيدين بهذه الأمثلة عن ضعف حسّ الملاحظة لدينا؛ إلا أن ذلك سيدفع بنا أكثر إلى الاعتراف بأن ***أقرب الأشياء*** إلينا تظل لا تُرى من قِبل أغلب الناس إلا بشكل سيّئ، ولا تحظى باهتمامهم إلا نادراً. هل هذا أمر غير مهم؟ -لنتذكر فقط أن كل ***الأعطاب الجسدية والنفسية*** لدى الأفراد مأتاها من هذا النقص: أن لا نعرف ماهو ضروري لنا وماهو مضرّ في تصميم نمط حياتنا وتقسيم أوقات نهارنا، في التصرف في الوقت والمعاملات، في العمل والعطالة، في الأمر والطاعة، في الحس الطبيعي والفني، في الأكل والنوم والتفكير؛ أن نكون **عديمي *المعرفة في الأشياء الصغيرة واليومية*** ولا تكون لنا أعين بصيرة: ذلك

هو ما يجعل الأرض «مرج تعاسة» بالنسبة لعدد كبير من الناس. فلا يقولنّ أحد بأن الأمر هنا، كما في كل موضع، مرتبط *بنقص في العقل البشري*؛ بل إن هناك من العقل ما يكفي وأكثر مما يكفي، لكنه يوجَّه ***الوجهةَ الخاطئة ويتمّ تحويل اهتمامه بصفة مصطنعة*** عن تلك الأشياء الصغيرة والأقرب إلينا. قساوسة ومدرسون، وذلك النزوع السلطوي المقدس للمثاليين من كل نوع، البدائيون منهم والحاذقون، يسعون جميعهم لإقناع الإنسان منذ طفولته بأن الأمر يتعلق بالأحرى بشيء آخر مغاير تماماً: بخلاص الروح، وبخدمة الدولة، وبالإعلاء من شأن العلم، أو بالسمعة والثروة كوسائل لخدمة مصلحة الإنسانية في مجملها، بينما حاجة الفرد وهمومه الكبيرة والصغيرة على مجرى الأربع وعشرين ساعة ليست سوى شيء محتقر وغير جدير بالاهتمام، حسب زعمهم. ولقد حذّر سقراط من قبل بكل قوة من هذا الإهمال المتعالي لكل ما هو إنساني، لفائدة الإنسانية، وكان يحب أن يذكّر من خلال كلمات هوميروس بالمجال الحقيقي والموضوع الجوهري لكل اهتمام وتفكير: «إنه ذلك ولا شيء غير ذلك، ذلك الذي يحدث لي في بيتي من خير وشر».

7

وسيلتان للعزاء

كانت لأبيقور، مهدئ روع الأنفس في نهايات العصور القديمة، تلك الرؤية الرائعة التي قلّما نعثر على مثلها في وقتنا الحاضر، والقائلة بأن حل المسائل النظرية الدقيقة وفائقة الخطورة ليس ضرورياً لتهدئة الأنفس. وهكذا كان يكتفي بأن يقول لأولئك الذين يعذّبهم «الخوف من الآلهة»: «إذا ما كانت هناك آلهة فإنها لا تهتم بنا»، وذلك عوضاً عن الدخول في جدال عقيم حول تلك المسألة شديدة التعقيد المتعلقة

بما إذا كانت هناك آلهة أم لا. هذا الموقف أكثر فائدة وقوة: فالمرء يمنح الآخر سبَقاً ببضع خطوات ويجعله بذلك مهيّأ للاستماع وللتقبّل. بينما ما أن يأخذ على نفسه مهمة إقامة الدليل على العكس؛ بأن الآلهة مهتمة بنا، فأية متاهة وأية أدغال شائكة سيلقي المسكين بنفسه داخلها من تلقاء نفسه ودون تدخل من مكر الطرف المحادِث الذي سينبغي عليه أن يتحلى بقدر كاف من الإنسانية والرهافة كي لا يظهر شفقته على ذلك المشهد البائس. وبالنهاية سيبلغ ذلك الطرف الثاني حالة من الاشمئزاز، الحجة الأقوى ضد كل مقولة، اشمئزاز من طرحه الخاص، فيغدو بارداً وينصرف بنفس الحالة التي يكون عليها الملحد الخالص: «ما الذي يعنيني في الآلهة بالنهاية؟ لتذهب إلى الجحيم!» - وفي حالات أخرى، خاصة عندما تكون هناك فرضية نصف فيزيائية، نصف أخلاقية قد عتّمت الحالة النفسية للمخاطب، فإنه لا ينفي الفرضية، بل يعترف بأن الأمر يمكن حقاً أن يكون كذلك؛ لكن يمكن أن تكون هناك *فرضية ثانية* لتوضيح الظاهرة نفسها؛ وأن الأمور يمكن أن تجري على غير هذا النحو. إن **تعدّد** الفرضيات، في ما يتعلق بالإحساس بالذنب مثلاً، يظل كافياً حتى في وقتنا الحاضر كي يجلي عن النفس تلك الظلال القاتمة التي نشأت بسهولة من خلال اجترار فرضية واحدة ظلت وحدها مرئية وعرفت بالتالي مبالغة في قيمتها مئات الأضعاف. -من يريد إذاً أن يمنح عزاء للتعساء والمجرمين والموسوسين والمحتضرين، سيكون عليه أن يتذكر إجراءيْ أبيقور اللذين يمكنهما أن ينطبقا على عدد كبير من الأسئلة، ويمكنهما أن يعبّرا عن نفسهما في هذه الصياغة الأكثر بساطة: -أولاً، إذا ما افترضنا أن الأمور تجري على هذا النحو، فإن هذا لا يعنينا؛ -ثانياً، يمكن أن يكون الأمر هكذا، لكن يمكنه أن يكون على غير هذا النحو أيضاً.

8

في الليل

حالما يهبط الليل يتغير إحساسنا بالأشياء من حولنا. هي ذي الريح التي تبدو كما لو أنها تمضي على دروب ممنوعة، هامسة كما لو أنها تبحث عن شيء ما، مغتاضة لأنها لا تجده؛ وهذا ضوء المصباح، كدِراً شيئاً ما وضارباً إلى الحمرة ينظر متعباً، وعن مضض يقاوم الليلَ عبْداً قلقاً في خدمة الساهرين؛ وهذه أنفاس النائم بإيقاعها المثير للقلق، والتي تبدو مخترقة بهاجس متكرر العودة يعزف لحنه داخلها: لا نسمعه، لكننا نشعر بشيء يضغط على قلبنا عندما يهتز صدر النائم، وعندما يهبط النفس وينطفئ في ما يقارب سكون الموت، نقول لأنفسنا: «التسترح قليلاً أيها العقل المعذّب!»، ونتمنّى الراحة الأبدية لكل الأحياء الذين يعيشون هذا الضنى المرهق: فالليل يدعو إلى الموت.

– ماذا لو أن الناس يقرّرون التخلّي عن نور الشمس ويكتفون بضوء القمر والمصابيح الزيتية لمقاومة الظلام؟ أية فلسفة ستلفّهم بلحافها إذاً! إننا نرى ذلك جيداً من مجرد النظر في الكيان الذهني والأخلاقي للإنسان وكيف يبدو معتماً كلياً من جرّاء تلك الحصّة النصفيّة من الظلام والحرمان من الشمس التي تلتفع بها الحياة.

9

منشا مقولة حرية الإرادة

واحد يجد نفسه واقعاً تحت سلطان الضرورة التي تأخذ صورة أهوائه، والثاني يرى فيها صورة تعوّده على السماع والطاعة، والثالث هيأة وعيه المنطقي، ولدى الرابع صورة نزواتِه وميله الطائش إلى شتى الانحرافات. وسيبحث كل من هذه الأنماط الأربعة عن إرادته الحرة في الموضع الذي يكون فيه مقيّداً بأمتن ارتباط؛ بحيث يكون الأمر

لديهم جميعاً كما لو أن دودة قز تضع إرادتها الحرة في نسج شرنقتها. فما هو سبب هذا الأمر؟ من الواضح أن ذلك مردّه أن كل شخص يظن نفسه في أرفع درجة من الحرية حيث يكون *إحساسه بالحياة* على أكبر قدر من القوة، يعني، كما ذكرنا، مرة في صبوة الهوى، ومرة في الواجب، ومرة في المعرفة، ومرة في نزوة الطيش. فحيثما يكون للفرد مصدر قوة يستمد منه حيويته يذهب به الاعتقاد لا إرادياً إلى أن ذلك لابد أن يكون عنصر حريته: إنه يجمع بين التبعية والتبلّد، والاستقلال والإحساس بالحياة كأزواج ضرورية متلازمة. -هنا يتمّ إسقاط تجربة عاشها الإنسان في مجالات العلاقات الاجتماعية والسياسية بصفة خاطئة على مجال من النوع الأكثر ميتافيزيقية: فهناك يكون الرجل الأكثر قوة هو الأكثر حرية، وهناك يكون الإحساس النشط بالفرح والألم، بسموّ الأمل، بالرغبة الجريئة، وبقوة الكراهية من العناصر المكمّلة لشخصية السيّد والمستقلّ، بينما يحيا الخاضع، أوالعبد محبطاً ومتبلّد الحس. -إن نظرية حرية الإرادة بدعة من ابتكار الطبقات المهيمنة.

10

عدم الإحساس بقيود جديدة

ما دمنا لا نشعر بأننا مقيّدون بالتبعيّة لشيء ما فإننا نظن أنفسنا مستقلين؛ استنتاج خاطئ يدلّ على مدى غرور الإنسان وتجبّره. ذلك أنه يفترض هنا أنه في كل الأحوال سيلاحظ التبعية ويتعرف عليها بمجرد أن تلقي بوطأتها عليه، لكن بشرط أن يكون معتاداً بصفة مستمرة على حياة الاستقلالية، حتى أنه إذا ما حصل استثناءً أنه فقدها، فإنه سيحس بالفرق مباشرة. -لكن ماذا لو يكون العكس هو الصحيح: أي أن يكون قد عاش على الدوام داخل تبعية متعددة

الألوان، ويظن ***نفسه*** مع ذلك ***حرّاً***، لأنه، وبحكم تعوّد طويل، ***لم يعد له إحساس*** بضغط القيد على معصمه؟ إن قيوداً جديدة فقط هي التي تجعله يحس بها: -«حرية الإرادة» لا تعني في الحقيقة سوى أنْ لا يحس الإنسان بقيود جديدة.

11

حرية الإرادة وفصل الوقائع

تتناول معاينتنا غير الدقيقة المعتادة مجموعة من الظواهر على أنها شيء واحد وتسميها واقعة: وبين هذه الواقعة وواقعة أخرى تختلق مجال فراغ من تصورها ***وتفصل*** كل واقعة عن غيرها. لكن مجمل عملنا ومعرفتنا في الحقيقة ليس تتابعاً متعاقباً من الوقائع والفراغات، بل سيلا متصلاً. إلا أن إيماننا بحرية الإرادة لا يتوافق مع تصور السيل المتّصل الموحّد، غير المجزّأ وغير القابل للتجزئة؛ فيفترض أن ***كل فعل منفرد منفصلٌ وغيرُ قابل للتجزئة***: إنه ***ذريٌ*** الرؤية في مجال الإرادة والمعرفة. -وعلى النحو غير الدقيق نفسه الذي نفهم به الطبائع، كذلك نفعل مع الوقائع: نتكلم عن طباع متماثلة، ووقائع متماثلة: ***وكلاهما لا يوجدان***. ومن ثمة نمتدح وننتقد لكن فقط من منظور هذه الفرضية الخاطئة القائلة بأن هناك وقائع ***متماثلة***، وأنه يوجد نظام تراتب لأنواع من الوقائع يقابلها نظام تراتب للقيمة: يعني أننا لا ***نفصل*** الوقائع المنفردة فقط، بل نفصل أيضاً مجموعات الوقائع المتماثلة المزعومة (وقائع خيّرة، شرّيرة، شفوقة، حسودة.. إلخ)- وعن خطأ في كلتا الحالتين. إن الكلمة والمفهوم هما السبب الأكثر وضوحاً الذي يجعلنا نعتقد في انفصال مجموعات الأفعال: نحن لا نستعملهما لتسمية الأشياء فقط، بل نعتقد بدئياً أننا ندرك **جوهر** الأشياء من خلالهما. وعن طريق الكلمات والمفاهيم سنظل نُستدرَج

بصفة مستمرة إلى اعتبار تصوّر الأشياء أكثر بساطة مما هي عليه، منفصلة عن بعضها البعض، غير قابلة للتجزئة، وكل واحد منها موجود بذاته ولذاته. هناك فلسفة ميثولوجية تختفي داخل *اللغة*، تظل تبرز مجدداً في كل لحظة مهما حاولنا أن نكون حذرين. إن الإيمان بحرية الإرادة، أي بالوقائع المتماثلة والوقائع *المنفصلة*، يجد له في اللغة داعية إنجيليّاً و لسان دفاع دائم.

12

الأخطاء الأساسية

كي يحس الإنسان بالمتعة أو بالاشمئزاز لا بد أن يكون واقعاً تحت سيطرة أحد وهميْن: *إما* أنه يؤمن *بتماثل* واقعات بعينها، وأحاسيس بعينها؛ وعندها تتكون لديه متعة أو اشمئزاز عن طريق المقارنة بين أوضاع حالية وأخرى ماضية، ومن خلال إقامة مساواة أو عدم مساواة بينهما (كما يحدث لدى كل تذكّر)؛ *أو* أنه يؤمن *بحرية الإرادة*، مثلاً عندما يفكّر «كان عليّ أن لا أفعل هذا»، «وكان من الممكن لهذا الأمر أن يجري على غير هذا النحو»، ويستمد من خلال ذلك في كل مرة متعة أو اشمئزازاً. ومن دون الأخطاء التي لها دوماً يد في كل متعة أو اشمئزاز نفسيّيْن ما كان للإنسانية أن توجد، - بإحساسها الأساسي الذي كان وسيظل بأن الإنسان هو الكائن الأكثر حرية في عالم الاضطرار، صانع العجائب الدائم، خيراً فعل أم شراً، الاستثناء العجيب، الحيوان الأرقى ونصف الإله، غاية الخلْق الذي لا غنى عن وجوده، حل اللغز الكوني، ذو السيطرة الكبرى على الطبيعة ومحتقرها، الكائن الذي يدعو تاريخه *تاريخاً كونياً*! -Vanitas *vanitatum homo*(*).

(*) - *غرور ومحض غرور إنساني.*

13

قول الشيء مرّتين

إنه شيء جيّد أن نعبّر عن شيء واحد مرتين متكررتين وبذلك نمنحه قدماً يُمنى وقدماً يُسرى. صحيح أن الحقيقة بإمكانها أن تقف على قدم واحدة؛ لكن القدم الثانية ستجعلها تمشي وتتقدم.

14

الإنسان كوميدي العالم

لا بد أن تكون هناك مخلوقات أخرى أرقى عقلاً من الإنسان، لا لشيء إلا لكي تتمتع بالمهزلة التي تكمن في ذلك الاعتقاد الذي لدى الإنسان بأنه غاية الوجود الكوني بكلّيته، وأن الإنسانية، بكل ما تملك من جدية، لا ترى لنفسها من شيء يرضيها غير أن تكون ذات مهمة كونية. وإن كان هناك إله هو الذي خلق العالم فإنه خلق الإنسان *قرداً للربّ* كوسيلة للتسلية الدائمة داخل أبديته المفرطة في الطول. ولا بد أن موسيقى الأفلاك المحيطة بالأرض ليست شيئاً آخر إذاً غير قهقهات سخرية الكائنات من حوله. **وبواسطة *الألم*** يدغدغ ذلك الخالدُ الضجِرُ حيوانه المبجَّل كي يجد له تسلية في تلك الحركات والتأويلات ذات الطابع التراجيدي الدعيّ، وفي أفانين الابتكار العقلي عامة لأكثر مخلوقاته غروراً، -ويحس بمتعة في ذاته كمبتكِر المبتكِر. لأن من استطاع أن يتخيل من أجل تسلية نفسه خليقةً مثل الإنسان لا بد أن يكون أوفر عقلاً منه، وأنه يجد أكثر متعة في عقله أيضاً. -بل وحتى هناك حيث تريد إنسانيتنا أن تضع من نفسها طوعاً، فإن غرورنا يغالطنا مرة أخرى بما أننا نريد، نحن البشر، أن نكون في *هذا* الغرور على الأقل، شيئاً متميزاً وبديعاً دون نظير. -كياننا المتفرّد في العالم! إنه للأسف شيء ضعيف الاحتمال! إن الفلكيّين الذين يحدث لهم

بين الحين والآخر أن يلقوا نظرة على أفق أوسع منفصل عن الأرض ينبئوننا بأن *قطرة الحياة* هذه التي توجد في العالم لا تعني شيئاً داخل الطابع العام لمجمل ذلك المحيط الهائل من الصيرورة والفناء؛ وأن عدداً لا يحصى من الكواكب تتمتع بشروط مشابهة لما تتمتع به الأرض لإفراز حياة فوقها؛ عدد كبير جداً، لكنه لا يعادل في الحقيقة حفنة بالنسبة للعدد اللامتناهي من الكواكب الأخرى التي لم تعرف قط هذا الطفح الجلدي المسمّى حياة، أو أنها شفيت منه منذ زمن طويل؛ وأن فترة الحياة فوق كلّ واحد من تلك الكواكب لا تُعادِل مقارنة بعمره الكلي لحظةً، طرفةَ عين تلتها عهود من الزمن طويلة وطويلة جداً؛ أي أنها لم تكن بأي حال من الأحوال الهدفَ والغايةَ النهائية من وجود تلك الكواكب. ربما تتوهم النملة داخل الغابة هي أيضاً، وبنفس القدر من قوة الاقتناع، أنها هدف الغابة وغايتها النهائية كما نفعل نحن عندما نجعل نهاية الإنسانية مرتبطة في خيالنا وبصفة لاإرادية بنهاية الأرض؛ بل سنكون متواضعين لو أننا نتوقف عند هذا الحد ولا نجعل من جنازة الإنسان الأخير مشهداً لغروب الكون والآلهة. بل إن عالم الفلك الأكثر تجرّداً من الأفكار المسبقة لا يستطيع هو أيضاً أن يتصوّر الأرض من دون حياة إلا كقبر الإنسانية المشعّ والمحلّق.

15

تواضع الإنسان

بأي قدر قليل من المتع يرضى أغلب الناس لكي يجدوا الحياة مستساغة! كم متواضع هو الإنسان!

16

ما الذي يجعل اللامبالاة ضرورية

ليس هناك ما هو أكثر خطأ من أن نريد الانتظار حتى يقرر العلم نهائياً في المسائل الأولى والأخيرة، وفي الأثناء نظل نفكر (ونؤمن خاصة!) بالطريقة *التقليدية* المتوارثة -كما ينصحنا الناس بذلك غالباً. إن النزوع في هذا المجال إلى أن لا نريد القبول مطلقاً إلا بـ *اليقينيات* هو *فسيلة من الرؤياالدينية*، لا شيء أكثر؛ -إنه نوع خفيّ -ريبيّ في ظاهره- من «الحاجة الميتافيزيقة» مرفوق بالفكرة المبطّنة التي مفادها أنه ما دمنا سنظل، لمدة طويلة من الزمن، لا نرى بارقة ليقين نهائي فإنه سيكون من حق «المؤمن» أن لا يشغل نفسه بهذا المجال في هذه الأثناء. ونحن لسنا في *حاجة* إلى هذه اليقينيات ولا إلى هذه الآفاق البعيدة جداً كي نعيش حياة إنسانية مكتملة وجيدة، أي بالقدر الذي تحتاج إليه النملة كي تكون نملة جيدة. بل علينا أن نوضح لأنفسنا المصدر الذي نشأت عنه في الحقيقة هذه الأهمية المصيرية التي نوليها مثل هذه المسائل منذ زمن طويل، وسنحتاج لهذا الغرض إلى مساعدة *تاريخ الأحاسيس الأخلاقية والدينية*. ذلك أن تأثير تلك الأحاسيس هو الذي جعل هذه المسائل الحادة للمعرفة تصبح على قدر عال من الأهمية والفظاعة: لقد أقحمنا مفاهيم من نوع الخطيئة والعذاب(بل العذاب الأبدي!) إقحاماً داخل مجالات قصية تقف عليها عين العقل لكن دون أن *تنفذ إليها* وذلك بحذر أقل فأقل كلما ازدادت تلك المجالات غموضاً. منذ غابر العصور ظلت طائفة من الناس تنسج الخيالات بجسارة هناك حيث لا تستطيع أن تحدد بدقة، وظلت تقنع الأجيال اللاحقة بأن تأخذ هذه المتخيَّلات مأخذ الجد وتعتبرها حقيقة، مستخدمة في آخر المطاف ورقة الرهان التي مفادها: الإيمان أرفع شأناً من المعرفة. إلا أن ما يلزمنا الآن في ما يتعلق بهذه المسائل الأخيرة،

ليس معرفة في مواجهة إيمان، بل ***لامبالاة تجاه الإيمان والمعرفة المزعومة في هذا المجال***! -وليكن كل شيء أقرب إلينا وأهم من تلك الأشياء التي ظل يُكرز لها حتى الآن كأهم الأشياء على الإطلاق: أعني تلك الأسئلة: ماهي الغاية من الإنسان؟ ماهو مصيره بعد الموت؟ كيف يتصالح مع الله؟ وغيرها من مثل هذه الغرابات. وكما أننا لسنا معنيين بهذه الأسئلة الدينية، فنحن غير معنيين وبنفس القدر أيضاً بأسئلة الفلاسفة الدوغمائيين، مثاليين كانوا أم ماديين أو واقعيين. فجميعهم يجتهدون في الدفع بنا إلى اتخاذ قرار في مجالات لا يكون فيها من حاجة إلى إيمان ولا إلى علم؛ و سيكون ضرورياً حتى بالنسبة لأكبر عشاق الحقيقة من بينهم أن يحاط مجال كل ما هو قابل للاختبار وفي متناول العقل بحزام من المستنقعات المغالِطة الملتحفة بالضباب، منطقة لما لا يمكن اختراقه، للمتحرك دوماً والمتدفق باستمرار وغير قابل للتعريف، وبالذات من خلال المقارنة مع مملكة الظلام الواقعة على تخوم أرض العلم تتضاعف باستمرار قيمة عالم المعرفة المضيء والقريب، والأكثر قرباً. علينا أن نصبح مجدداً جيراناً جيّدين للأشياء الأكثر قرباً منا، لا أن نقفز عليها باحتقار كما اعتدنا ذلك إلى حد الآن موجهين أنظارنا إلى السحب وأشباح الظلام. إنما في الغابات والكهوف، وفي مناطق المستنقعات وتحت سماء غائمة ظل الإنسان لآلاف السنين يعيش على درجات مختلفة من الحضارة حياةَ بؤس وعوز ولزمن طويل جداً؛ هناك ***تعلّم النظر باحتقار*** إلى الحاضر والمجاور، إلى الحياة وإلى نفسه أيضاً؛-ونحن أيضاً، نحن سكان مناطق الطبيعة والعقل الأكثر ضياء، ما زلنا نحمل في دمنا شيئاً من إرث سمّ ذلك الاحتقار لما هو أقرب.

17

تفسيرات عميقة

من يفسّر موقعاً من نص «تفسيراً أعمق» مما ذهب إليه الكاتب لن يكون قد فسّر الكاتب، بل **عتّمه**. وهكذا يتعامل الميتافيزيقيون مع كتاب الطبيعة؛ بل وبأسوأ من ذلك. ذلك أنهم، ولكي يقدّموا تفسيرهم العميق، يعمدون غالباً إلى تطويع النص؛ أي أنهم **يشوّهونه**. ولكي نقدّم مثالاً عجيباً عن تشويه النص وتعتيم المؤلّف يمكننا أن نجد نموذجاً مناسباً في أفكار شوبنهاور عن الحبَل لدى المرأة. إن علامة الوجود المستمر لإرادة الحياة في الزمن، يقول شوبنهاور، هي المضاجعة (الكويْتوس- العملية الجنسية)؛ وعلامة إمكانية الخلاص، مرفوقة بنور المعرفة، وذلك على أعلى مستوى من الوضوح، إنما هي التجسّد الحيّ المتجدد لهذه الإرادة. وعلامة هذا الأخير هي الحبَل الذي يُظهر نفسه علناً وبحرية تامة، بل وبافتخار أيضاً، بينما تتستّر المضاجعة على نفسها مثل عمل إجرامي. ويزعم أن *كل* امرأة تتمّ مفاجأتها أثناء عملية المضاجعة تودّ لو أنها تموت لحظتها من جرّاء الخجل، لكنها «***تعرض للأعين حبلها دون أي أثر للخجل، بل بنوع من المفاخرة أيضاً***[٦٦]».

- أولاً، حالة الحبَل ليست بحاجة إلى أن تعرضها صاحبتها بقدر ما هي تعرض نفسها بنفسها؛ إلا أن شوبنهاور، وهو يركّز على قصديّة عملية العرض للعلن، لا يفعل في الحقيقة سوى تهيئة النص لغرضه حتى يستطيع أن يتلاءم و«التفسير» الجاهز مسبقاً. -ثانياً، إن ما قاله عن عمومية الظاهرة التي يسعى إلى تفسيرها غير صحيح عندما يتكلم عن «كل امرأة»: فالكثير من النساء، وخاصة الشابات منهن غالباً ما يبدين في هذا الوضع، حتى أمام أقرب أقاربهن، خجلاً قلِقاً؛ وعندما تبدو نساء أكبر سناً وأكثر نضجاً، من الفئات الشعبية الدنيا خاصة،

مبتهجات فعلاً ويبدين افتخارهن بحالة الحبَل، فإنهن لا يفعلن في الحقيقة سوى التلميح إلى أنهن مازلن مشتهَيات من قِبل رجالهنّ، وأن يجعل مظهرُهن الجارَ أو الجارة أو أي شخص غريب يلاقيهنّ يقول أو يفكر: «أيمكن هذا!» - هذه الصدقة لن تكون فائضة عن اللزوم، بل مرحَّباً بها من قِبل الغرور الأنثوي لذوات المستوى الذهني المتدني. وبالمقابل، وكما يمكن أن نستنتج من نظرية شوبنهاور، فإن الذكيات من النساء بالذات، وصاحبات العقل الراقي هن اللاتي سيُبدين أكثر غبطة بوضع الحبَل؛ فهن اللاتي لديهن حظوظ أكثر لكي ينجبن أطفالاً من النوابغ الذين سيتحقق فيهم أن «تنفي الإرادة نفسها» لفائدة الصالح العام؛ بينما ستكون للغبيّات من النساء كل الأسباب الداعية إلى إخفاء حبلهن بخجل يفوق خجلهن من كل الأشياء الأخرى التي يخفينها. - لا يمكننا إذاً أن نقرّ بأن هذه الأشياء مستمدة من الواقع. لكن لو افترضنا أن شوبنهاور كان إجمالاً وبصفة عمومية مصيباً تماماً في كون النساء يبدون أكثر افتخاراً بأنفسهن في وضع الحبَل أكثر مما يبدون عادة، فعندها سيكون لدينا تفسير آخر أقرب وأوضح من تفسيره. يمكننا أن نستحضر قوقأة الدجاجة قبل أن تضع بيضتها، ومفاد تلك القوقأة: أنظروا، أنظروا! إنني سأضع بيضة!

18

ديوجينس معاصر

قبل أن نشرع في البحث عن الناس لا بد أن نكون قد وجدنا الفانوس. - هل ينبغي أن يكون فانوس الكلَبيّ؟-

19

اللاأخلاقيون

سيكون على الأخلاقيين الآن أن يقبلوا بأن يُنعتوا باللاأخلاقيين، لأنهم يشرّحون الأخلاق. إلا أنّ من يريد أن يشرّح سيكون عليه أن يقتل: لكن فقط من أجل فهم أفضل، وحكم أفضل، وحياة أفضل، لا لكي يمارس الجميعُ التشريح. لكن الناس ما زالوا للأسف يعتقدون بأن كل أخلاقي لا بد أن يكون من خلال كل أفعاله مثالاً ينبغي على الآخرين أن يقتدوا به؛ وبهذا يخلطون بينه وبين الداعية الأخلاقي. لقد دأب الأخلاقيون القدامى على قلّة التشريح فيما كانوا يكثرون من الدعوة؛ من هنا تأتى ذلك الخلط وهذه النتيجة غير المريحة بالنسبة لأخلاقيي عصرنا الحاضر.

20

رفع الالتباس بين الأخلاقيين ومن تشبّه بهم

الأخلاقيون الذين يتناولون الأحاسيس النبيلة والقوية والمتفانية عند أبطال بلوتارك مثلاً، أو الحالات النفسية النقية المشعة والمفعمة بدفء المودة لدى الرجال والنساء الطيبين بحق، ويعالجونها كمسائل معرفية كبرى ويمضون في تقصّي منابعها ساعين إلى الكشف عما هو أكثر تعقيداً في ما يبدو بسيطاً من ظاهرها، موجهين نظرهم إلى تداخل الدوافع التي تمتزج داخل نسيجها خيوط الأوهام والأحاسيس الفردية والجماعية المتوارثة منذ القدم والتي تدعم حضورها ببطء داخلها،- هؤلاء الأخلاقيون هم أكثر الناس *اختلافاً* عن أولئك الذين غالباً ما يوضعون في نفس الخانة معهم من ذوي العقول الحقيرة، الذين لا يؤمنون البتة بتلك الأحاسيس النبيلة والحالات المعنوية الرفيعة، ويخيّل إليهم دوما أنهم يرون حقارة نفسهم الخاصة متخفية وراء

الإشعاع والعظمة والنقاوة. وحيث يقول الأخلاقيون: «هنا مشاكل»، يقول الحقيرون: «هنا خداع ومخادعون»؛ وبهذا ينفون وجود ما يجتهد الأولون في تفسيره.

21

الإنسان، هذا الذي يقيس

ربما يعود أصل الأخلاق في مجملها إلى حالة الانفعال الهائلة التي تلبست بالإنسان البدائي لحظة اكتشافه القياس وفن القيْس، والميزان وفن الوزن (وعبارة «إنسان» تعني في الحقيقة الذي يقيس، هكذا اختار أن يسمّي نفسه من خلال اكتشافه الأعظم!). ومن منطلق هذا التصور ارتقى البشر بفنهم هذا إلى مجالات غير قابلة للقياس والوزن، غير أنها لم تكن لتبدو كذلك في البدء.

22

مبدأ التوازن

اللص والرجل القوي الذي يعِد مجموعة بشرية بحمايتها من ذلك اللص قد يكونان في الحقيقة شخصين متشابهين تماماً، سوى أن الثاني يبلغ مآربه بطريقة تختلف عن طريقة الأول، أي من خلال إتاوات منتظمة تقدّمها له المجموعة وليس من خلال الغنائم. (إنها نفس العلاقة التي بين التاجر والقُرصان اللذين يكونان لمدة طويلة من الزمن شخصاً واحداً، يمارس إحدى المهنتين حيث لا تكون الثانية مفيدة. وفي الحقيقة فإن أخلاق التاجر، وإلى يومنا هذا، هي صيغة مهذبة من أخلاق القرصان، لا غير: الاقتناء بأقل ما يمكن من ثمن- وإن أمكن بما لا يفوق تكلفة الانتاج-، والبيع بأبهظ ما يمكن من الأسعار.) إن العنصر الأساسي في الأمر هو أن ذلك الرجل القوي يعد بأن يشكّل

عنصر توازن ضد اللص، وهو أمر يرى فيه الضعفاء إمكانية لتأمين حياتهم. ذلك أنه ليس أمامهم سوى أن يكوّنوا من أنفسهم قوةً *موازِنةً*، أو أن يخضعوا لشخص موازِن لذلك اللص (سيقدّمون خدمات له مقابلاً عن خدمته). ويتم تبجيل الصيغة الثانية لأنها تحيّد في الحقيقة عدوان شخصيْن خطيرين في الآن نفسه: الأولَ من خلال الثاني، والثاني من خلال ما ينتظره من منافع. وسيكون على هذا الأخير أن يتعامل مع الخاضعين لسلطته بطريقة رحيمة أو مقبولة كي يستطيعوا أن يؤمّنوا أسباب الحياة، لا لأنفسهم فقط، بل له هو صاحب السيادة عليهم أيضاً. وفي الواقع يمكن أن تظل الأمور تجري دائماً على نحو قاس وشنيع، لكنها مقارنة بالحضور الدائم لخطر الإبادة التامة التي عهدوها فيما مضى من حياتهم، فإن الناس سيجدون أنفسهم يتنفسون الصعداء في ظل هذا الوضع الجديد.

الجماعة في بدايتها هي تنظيم الضعفاء لتشكيل *توازن* مع القوى العدوانية التي تهددها. وسيكون التنظيم الذي يرمي إلى تكوين قوة غالبة مفضّلاً إذا ما كانت هناك كفاية من القوة لذلك، لأن ذلك سيجعل الجماعة قادرة على *إبادة* الخصم دفعة واحدة. وإذا ما تعلق الأمر بشخص واحد قوي مضرّ فإنها ستحاول ذلك في كل الأحوال، أما إذا ما كان ذلك الفرد رئيس عشيرة، أو كان له عدد كبير من الأتباع فإن الإبادة السريعة والنهائية ستكون غير محتملة ويصبح من المنتظر أن يدوم النزاع طويلاً. لكن هذا الأمر سيضع المجموعة في وضع هو آخر ما يمكن أن تتمناه على الإطلاق، لأنها ستنفق في ذلك النزاع وقتاً طويلاً من ذلك الذي يفترض أن تسخره لتوفير أسباب حياتها بحسب الانتظام المطلوب، وتظل تتوقع في كل لحظة خطر خسران ثمرات عملها فيه. لذلك تفضّل الجماعة أن ترفع من قوتها الدفاعية والهجومية إلى مستوى قوة الجار الخطير، وتجعله يفهم من

خلال ذلك أن في كفّتها الآن أثقالاً بما يعادل قوته: فلم لا يختار المرء بالأحرى علاقات صداقة إذاً؟ -إن **توازن القوى** إذاً مفهوم مهمّ في نظرية القانون والأخلاق القديمة: التوازن هو قاعدة العدالة. وعندما كانت تلك النظرية تقضي في الأزمنة البدائية بمبدأ «السنّ بالسنّ والعين بالعين»، فإنها تنطلق من مبدأ التوازن المتحقق وتريد أن تضمن *الحفاظ عليه* من خلال الثأر؛ وعندها، إذا ما اعتدى هذا الطرف على ذاك، فإن هذا الأخير لن يمارس ضده عمل انتقام عشوائي دون ضوابط، بل سيُعاد إقامة التوازن في العلاقات التي طرأ عليها الخلل بسبب ذلك الاعتداء من خلال شرع طاليون *Jus talionis*(٦٧): إذ إن عيناً أو ذراعاً تمثل في ظل تلك الأوضاع البدائية جزءاً من القوة؛ وزناً إضافياً. -داخل جماعة ما يرى الجميع أنفسهم متساوين وزناً داخلها سيقابل كل تجاوز، أي إحداث انخرام على مبدأ توازن القوى برادِعيْ *العار والعقاب*: العار كثِقل يستعمل ضد الفرد المعتدي الذي حصل على منافع من خلال اعتدائه، والذي سيكون عليه الآن تحمّل خسائر من خلال العار تلغي تلك المنافع السابقة، بل وتتجاوز قيمتها (*تفوقها وزناً*). والأمر نفسه يحصل مع العقاب: إنه يضع ضد الوزن الإضافي الذي يبتزّه كل معتد لنفسه وزناً إضافياً معاكساً أكبر منه بكثير؛ الحبس الإجباري ضد الاعتداء بالعنف، التعويض والغرامة ضد السرقة. وبهذا يتم تذكير المعتدي بأنه قد أقصى نفسه عن الجماعة وامتيازاتها الأخلاقية: تعامله الجماعة إذاً كعنصر غير متساو مع بقية عناصرها، كضعيف وخارج عن صفها؛ لذلك لا يكون العقاب مجرد انتقام، بل شيئاً *أكثر*، شيئاً من قسوة *الوضع البدائي*؛ فغايتها هي *التذكير* بذلك الوضع.

23

هل يحق لأنصار مقولة حرية الإرادة أن يمارسوا العقاب؟

يحرص ممتهنو المقاضاة والعقاب في كل حالة بعينها على تحديد إن كان الجاني مسؤولاً أصلاً عن جنايته، وممتلكاً مداركه العقلية، وإن كان يتصرّف بموجب دوافع واعية وليس عن لاوعي أو تحت سيطرة إكراه ما. وإذا ما حُكم بعقابه، إنما يعاقب على كونه قد بجّل الدوافع السيئة على الدوافع الحسنة، التي ينبغي أن يكون *عارفاً* بها. وحيثما لا تتوفر هذه المعرفة فإن الإنسان يكون بموجب الرأي السائد غير حر وبالتالي غير مسؤول: عدا أن يكون جهله *ignorantia legis* (الجهل بالقانون مثلاً) ناجماً عن إهمال متعمّد للمعرفة؛ وبالتالي يكون، وهو يتعمد إهمال التعلّم في ما مضى، قد بجّل الدوافع السيئة على الحسنة، وعليه الآن أن يدفع ثمن اختياره السيّئ. أما إذا لم يكن بوسعه أن يرى الدوافع الحسنة عن تبلّد أو عن غباء، فقد جرت العادة بأن لا يعاقب؛ فهو لم يكن مخيّراً، كما يقال، وقد تصرّف بالتالي مثل دابّة. إنّ تعمّد إقصاء الصواب هو الشرط الضروري الذي يُعتمد الآن في الحكم على الجاني الذي يستحق العقاب. لكن كيف يمكن لشخص أن يتعمّد أن يكون أقل صواباً مما ينبغي عليه أن يكون؟ ومن أين يأتي الاختيار عندما تكون كفّتا الميزان كلتاهما محمّلتين بالحسن والسيّئ من الدوافع؟ ليس من الخطأ إذاً، ولا من العماء، وليس من ضغط خارجي ولا من ضغط داخلي (مع أنه ينبغي أن نعتبر أن ما يسمّى «ضغطاً خارجياً» ليس شيئاً آخر غير الضغط الداخلي الذي يمارسه الخوف والألم). من أين إذاً؟ نظل نتساءل دوماً ومجدداً. لا يمكن أن يكون *العقل* إذاً هو السبب في ذلك، لأنه لن يستطيع أن يحكم لصالح الدوافع السيئة؟ ههنا يتم استدعاء «حرية الإرادة» كمنقذ من المأزق: لا بد أن تكون النزوة التامة هي التي تقرر، وتتدخل في

لحظة ليس فيها من دافع إلى الفعل وحيث الجناية تحدث بما يشبه معجزةٍ، طالعةً من اللاشيء. إنّ ما يتم عقابه هنا هو *هذا الفعل النزويّ* المزعوم، في حالة لا ينبغي لأية نزوة أن تكون فيها ذات سيادة: فالعقل الذي يعرف القانون والمنع والوصايا الشرعية ما كان له أن يدع مجالاً للاختيار، هكذا يعتقد الناس، ولَمارسَ بالضرورة فعله كعنصر إكراه وسلطة عليا. وبالتالي فإن الجاني يعاقب لأنه مارس «حرية إرادته»، أي أنه تصرف دون دافع حيث كان ينبغي عليه أن يتصرف وفقاً لدوافع. لكن *لماذا* فعل ذلك؟ هذا بالضبط هو السؤال الذي لم يعد ينبغي علينا أن نطرحه: كانت تلك جناية بلا «مسبِّب»، بلا دافع، دون أصل، شيئاً دون غاية ولا يخضع لسلطة العقل. - *لكنّ جناية من هذا النوع*، وبموجب الشرط الأول لكل عقاب، الذي ذكرناه أعلاه، ***لا ينبغي أن تعاقب هي أيضاً!*** وبالتالي فإنه لا يمكننا أن نقبل بصلوحية هذا النوع من العقوبة، كما لو أن هناك شيئاً *لم* يحدث هنا، شيء قد أُهمل، وكما لو أنه لم يتم استخدامٌ للعقل؛ إذ، وفي كل الأحوال فإن الإهمال قد تم *دون تعمّد*! والحال أن الإهمال المتعمّد لما ينص القانون على عدم تركه هو وحده الذي يستوجب العقاب. صحيح أن الجاني قد فضّل الدوافع السيئة على الحسنة، لكن من دون سبب أو قصد: وصحيح أنه لم يستخدم عقله، لكن ليس بغرض أن لا يستخدمه. إن ذلك الشرط الذي يتم اعتباره في الحكم على الجاني الذي يستحق العقاب -هذا الشرط بالذات هو الذي يتم إلغاؤه من خلال افتراض «حرية الإرادة». وبالتالي لا يحق لكم أن تعاقبوا، أنتم يا أنصار نظرية «حرية الإرادة»؛ من منطلق مبادئكم الأساسية لا يحق لكم ذلك! إلا أن تلك المبادئ ليست في جوهرها شيئاً آخر غير معتقد خرافي غريب؛ والدجاجة التي فرّختها كانت تحضن بيضها بعيداً عن الواقع بكلّيته.

24

في الحكم على المجرم والقاضي

المجرم الذي يعرف مُجمل ملابسات جريمته لا يجدها خارجة عن نظام الأشياء وعن منطقها، مثل ما يرى قُضاته والعاتبون عليه؛ لكنّ عقوبته ستقاس بحسب مستوى الدهشة التي يثيرها في هؤلاء مشهدُ الجريمة وتعذّرها على الفهم. وعندما تكون معرفة محامي الجاني بالقضية وأطوارها السابقة كافية فإن ما يسمّى بظروف التخفيف التي سيقدّمها تباعاً ستفضي بالنهاية إلى إلغاء مجمل الإدانة. أو بعبارة أدق: سيقوم المحامي بصفة متدرجة ***بتخفيف الدهشة*** التي تدين الجناية وتحدد حجم العقوبة، إلى أن ينتهي إلى إلغائها تماماً، وذلك بأن يستدرج كل مستمع نزيه إلى اعتراف باطني مفاده: «كان لا بد عليه أن يتصرف كما تصرف فعلاً؛ وإن نحن عاقبناه فإننا سنكون قد عاقبنا مبدأ الضرورة الأبدي.» -أن نقيس درجة العقوبة وفقاً لدرجة *معرفتنا*، أي تلك التي تكون لدينا عن تاريخ جريمة ما، أو ***ما أمكننا فقط أن نتوصل إليه***؛ -ألا يناقض هذا كل أشكال العدل؟

25

المبادلة والعدل

لا تكون مبادلةٌ نزيهةً وعادلة إلا إذا ما طلب كل طرف قيمةً مقابل شيئه تعادل ما يمثله ذلك الشيء من قيمة بالنسبة له: الجهد الذي تطلّبه الحصول عليه، نُدرته، الوقت الذي وضعه في إنجازه. . .إلخ، إضافة إلى القيمة الوجدانية لذلك الشيء. وحالما يحدد طرف ثمن شيء ***من منظور حاجة الطرف الثاني*** إليه، فإنه يكون لصّاً ومبتزاً حاذقاً. -وإذا ما كان المال وسيلة مبادلات، فإنه علينا أن نعتبر أن درهماً في يد وارث غني، أو في يد أجير، أو في يد تاجر، أو طالب سيكون شيئاً

مختلفاً تماماً في كل مرة: وسيكون لكل منهم بحسب ما بذله من جهد ضئيل أو كبير من أجل الحصول عليه، الحق في أن يحصل له منه القليل أو الكثير، وهكذا ستكون المبادلة عادلة؛ إلا أن الأمور على عكس ذلك في الواقع، ففي عالم الأموال الكبير يكون لدرهم الغني الكسول مردود من الأرباح أكبر بكثير من مردود درهم الفقير والعامل.

26

الشروط القانونية كوسائل

إن القانون القائم على تعاقد بين أطراف متساوية في القوة يظل قائماً ما دامت قوى الأطراف المتعاقدة متساوية أو متقاربة؛ فالفطنة هي التي ابتكرت القانون من أجل أن تضع حداً للخصومات وتبديد الطاقات بين قوى متقاربة. غير أن هذا الأخير سيفقد بدوره صلاحيته نهائياً عندما يصبح طرفٌ *أضعفَ* بصفة واضحة من الطرف الثاني: عندها يبدأ الخضوع وينتهي دور القانون، غير أن النجاح سيظل هو ذلك النجاح نفسه الذي كان يحققه القانون حتى تلك اللحظة. إذ بدءاً من الآن ستكون فطنة ذي الغَلبة هي التي تُملي عليه أن *يحفظ* قوى الخاضع وأن لا يبددها دون فائدة؛ وغالباً ما تكون أحوال الخاضع أفضل مما كانت عليه أحواله كنذّ. -إن الشروط القانونية إذاً وسائل مؤقتة تُمليها الفطنة، وليست هدفاً في ذاتها.

27

تفسير الشماتة

تنشأ الشماتة من أن كل شخص يعاني بصفة واعية في مواضع عدة من أحواله، كأن تكون له هموم أو تعذّبه أحاسيس الندم أو الألم؛ وما يحدث لغيره من ضرر يجعل ذلك الآخر متساوياً معه في حالته،

ويشفي حسده. -وإذا ما وجد نفسه في حال طيبة، فإنه سيظل مع ذلك يجمّع داخل وعيه مصائب الآخرين مثل رأسمال يمكنه أن يستنجد به لمواجهة مصيبة قد تحلّ به فيما بعد؛ وهكذا يكون له دوماً داع إلى «الشماتة». إن الذهنية القائمة على المساواة تُسقط إذاً مقاييسها على مجال الحظ والصدفة؛ فالشماتة هي التعبير الأكثر بذاءة عن الانتصار وإعادة إقامة المساواة، بما في ذلك في مجال نظام المقدّس. بدءاً من تلك اللحظة التي تعلّم الإنسان فيها أن يرى في الآخرين أناساً مساوين له؛ أي بدءاً من اللحظة التي تأسس فيها المجتمع نشأ إحساس الشماتة.

28

طابع الظلم في تحديد العقوبات

أغلب المجرمين تأتيهم العقوبة مثلما يأتي المواليد إلى امرأة. يكون الواحد منهم قد فعل الشيء نفسه عشر مرات ومئة مرة دون أن يتحمل التبعات الكريهة لذلك الفعل؛ وفجأة يُكتشف أمره ويلي ذلك العقاب. من المفترض أنّ العادة الناجمة عن تكرار الفعل الذي يعاقب عليه الجاني الآن ستجعل تلك الجناية أكثر قابلية للغفران؛ ذلك أن العادة قد أفضت إلى نشأة ميل تصعب مقاومته. لكن، عوضاً عن هذا سيعاقب الجاني بأشد العقوبات عندما يتوفر عنصر الشك في أن جريمته من النوع المتكرر؛ يُستخدم التعودُ إذاً عاملاً فاعلاً ضد كل تخفيف. بينما من المفترض أن يكون ماض من السلوك المثالي عنصراً يجعل الجريمة التي تناقضه تبدو أمراً في غاية الشناعة وعقابَها بالتالي أشد قسوة؛ لكن ما يحصل عادة هو أن يُستخدم ذلك الماضي عنصرَ تخفيف للعقاب. وهكذا فإن الأمور لا تقاس بحسب نوع الجريمة، بل بحسب معيار المجتمع والأضرار التي تلحق به وما يهدده من مخاطر:

يُحتسب صلاح الحياة الماضية لشخص ما ضد مضارّ الجناية التي يقوم بها حالياً، وتضاف الأضرار السابقة للجاني إلى حساب أضرار جنايته الحالية، ووفقاً لها يُحدَّد المستوى الأعلى لعقوبته. لكن، وبما أنه يتم على هذا النحو معاقبة ماضي الجاني مع حاضره، أو مكافأته (يحدث هذا الأمر الأخير في حالة جناية أولى غير مسبوقة يتمتع فيها الجاني بمكافأة التخفيف)، فإنه سينبغي علينا أن نعود إذاً أكثر إلى الوراء وأن نتتبع سبب هذا الماضي أو ذاك ونعاقبه أو نكافئه؛ أعني بذلك الآباء والمربّين والمجتمع. . . إلخ؛ وفي حالات عديدة سنجد القاضي أيضاً من بين المشاركين بطريقة أو أخرى في الذنب. إنه لمن الظلم أن نتوقف عند الجاني إذا ما كنا نقاضي ونعاقب الماضي: وبالتالي فإنه ينبغي علينا، إذا ما أردنا أن لا نعترف بالقابلية المطلقة لكل جناية لتكون جديرة بالعفو، أن نتوقف عند كل حالة في ذاتها وأن لا ننظر إلى ما وراءها أبداً: أي أن نعزل الذنب وأن لا نربطه البتة بالماضي، وإلا فإننا سنغدو مخطئين في حق المنطق. لتستخلصوا النتيجة المنطقية من نظريتكم القائلة بـ«حرية الإرادة» أيها السادة من ذوي الإرادة الحرة ولتقرّروا بجرأة: *«ما من جناية لها ماض»*.

29

الحسد وأخته النبيلة

حيثما تمّ حقاً فرض المساواة، وأضحت قائمة على أُسس ثابتة ينشأ ذلك الميل الذي يُعتبر عموماً لا أخلاقياً، والذي سيكون من الصعب تصوّره في الوضع البدائي: *الحسد*. الحسود يشعر بكل ارتقاء للآخر فوق المستوى العام، ويودّ إنزاله إلى مستواه، -أو أن يرفع نفسه إلى مستوى ذلك الشخص: وبالتالي تنشأ طريقتان مختلفتان للسلوك هما اللتان أطلق عليهما هزيود إسمي إيريس الشريرة وإيريس الخيّرة[٦٨]. كما ينشأ أيضاً

في وضع المساواة استياء من أن يكون حظ شخص ما سيئاً ودون مستوى كرامته وقيمته المساوية للآخرين، وأن ينعم شخص ثان بما هو أكثر من مستواه: وهذان إحساسان من خصائص الطبائع *النبيلة*. هؤلاء يسوؤهم أن تكون الأشياء المستقلة عن إرادة الإنسان مفتقرة إلى العدالة والإنصاف، بما يعني أنهم يطلبون من الطبيعة والصدفة أيضاً أن تعترف بتلك المساواة التي غدا معترفاً بها لدى الإنسان؛ ويستعرون غضباً لكون المتساوين لا ينعمون بحظوظ متساوية.

30

حسد الآلهة

ينشأ «حسد الآلهة» عندما يعمد من يُعتبر من منزلة أدنى إلى وضع نفسِه بطريقة من الطرق في مرتبة الأرقى (مثل أجاكس) أو عندما يجد نفسه بموجب قدَر سعيد مرتقياً إلى تلك المنزلة (مثل نيوبي Niobe كأمّ مغمورة بسخاء فوق المعتاد)[٦٩]. يقتضي هذا الحسد داخل نظام التراتب *الاجتماعي* أن لا يكون لأي شخص استحقاق *يفوق* مرتبته، وأن تكون سعادته أيضاً معادلة لتلك المرتبة، وأن لا تتجاوز ثقته بنفسه بالنهاية تلك الحدود. وغالباً ما كان على الجنرال الحربي المظفّر أن يتحمّل «حسد الآلهة»، تماماً مثل التلميذ الذي أنجز عملاً من مرتبة أعمال المعلّمين.

31

الغرور كفسيلة من طور الحياة غير الاجتماعية

وبما أن الناس قد جعلوا من أنفسهم *متساوين* جميعاً بغرض تأسيس مجتمع يهدف إلى ضمان أمان حياتهم، مع أن هذا التصوّر معارض في الحقيقة لطبيعة كل فرد على حِدة، وذو طابع تعسّفي إلى حد ما، فإن

بذور الغرائز القديمة تظل غافية، وكلّما تقدّم إنجاز الأمان العام أكثر ازداد بروز فسائل جديدة لتلك الغرائز تنزع مجدداً إلى فرض التفاوت والهيمنة، متجسدة في تحديد الفوارق الطبقية، وفي السعي إلى حيازة التشريفات والامتيازات المهنية، وعموماً في بروز مظاهر الغرور (السلوك، الملبس واللغة. . .إلخ). لكن بمجرد أن يغدو الخطر الذي يهدد المجموعة محسوساً من جديد، تعود الأكثرية التي لم تفلح في فرض تفوّقها في ظروف الأمان العام، إلى فرض حالة المساواة من جديد: ولمدة من الزمن تختفي الامتيازات اللامعقولة ومظاهر الغرور العبثية. أما إذا ما انهار الكيان الاجتماعي كلّياً، وعمّت الفوضى كل شيء، فإن حالة الطور الطبيعي واللامساواة التي لا يردعها رادع ولا تحكمها ضوابط ستتفجر مجدداً، كما حدث في كركيرا حسب ما يرد في أخبار ثوقيديدس. وبالتالي فإنه ليس هناك في الحقيقة لا حق طبيعي ولا جور طبيعي.

32

الإنصاف

التطور الذي تعرفه العدالة يتمثل في الإنصاف الذي ينشأ بين أولئك الذين لا يتجاوزون على المساواة داخل الجماعة: وفي الحالات التي لا يقابلها قانون يحسم فيها سيكون هو الذي يحسم الأمور من خلال الحرص الدقيق على حفظ التوازن، ذلك الحرص الذي ينظر إلى الأمام وينظر إلى الخلف، ويعتمد مبدءاً له مقولة: «بما تعاملني أعاملك». Aequum -إنصاف- يعني بالضبط: «*إن هذا مطابق لمساواتنا*»؛ وهذه الأخيرة تخفف أيضا من مظاهر تفاوتنا الصغيرة وتحوّلها إلى شيء له مظهر المساواة، وتدعونا إلى غضّ النظر عن بعض الأمور دون أن نكون *ملزمين* بذلك.

33

مكوّنات الانتقام

هناك تسرّع في استعمالنا لعبارة «انتقام»؛ حتى أنه ليبدو كما لو أنها غدت لا تحتوي إلا على جذر واحد لفكرة وإحساس معاً. وهكذا نظل نجتهد دوماً في البحث عن هذا الجذر، تماماً مثل علماء الاقتصاد لدينا، الذين لم يصبهم الكلل من البحث عن الجذر المفهومي الأول لعبارة القيمة. كما لو أن كل الكلمات ليست عبارة عن حقائب قد وُضع فيها هذا الشيء حيناً، وذاك حيناً آخر، وأحياناً أشياء عديدة في نفس الوقت! كذلك هو «الانتقام»، فهو هذا الشيء حيناً، وذاك حيناً آخر، وأحياناً شيئاً مركّباً. لنلاحظ أولاً تلك الضربة المضادة الدفاعية التي يقوم بها المرء لا إرادياً تقريباً، وأحياناً ضد أشياء من الجمادات التي ألحقت بنا ضرراً (ضد آلات متحركة مثلاً)؛ إن الغاية من ردة فعلنا/ الضربة المضادة تلك هي وضع حد لفعل العنصر المضرّ، مثلاً من خلال تعطيل حركة الآلة. لكن لكي نبلغ هذه الغاية لابد أن تكون الضربة المضادة أحياناً على قدر من القوة تستطيع أن تحطم الآلة؛ أما إذا ما كانت هذه الأخيرة أقوى من أن تحطمها ضربة شخص دفعة واحدة، فإن ذلك الشخص سيحاول أن يضرب مجدداً وبأعنف ما يستطيع، -كما لو أن الأمر يتعلق بمحاولة أخيرة ونهائية. هكذا يكون تصرفنا أيضا تجاه شخص قد ألحق بنا ضرراً لدى إحساسنا المباشر بالمضرّة التي لحقتنا؛ وإذا ما أردنا أن نسمّي هذا الفعل فعل انتقام، فلنسمه هكذا إذاً، إلا أنه علينا أن لا نغفل أن غريزة حفظ النفس وحدها هي التي حركت آلية عقلها الخاص، وأننا عندها لا نفكر في الحقيقة في من ألحق بنا ضرراً، بل في نفسنا فقط: إننا نتصرف هكذا دون أن يكون لنا غرض في إلحاق ضرر جديد، بل فقط كي **ننجو بنفسنا** وننقذ رأسنا. -يلزمنا متسع من الوقت كي نخرج بتفكيرنا من

حيّز شخصنا لنمر إلى الخصم ونتساءل عن الطريقة التي يمكنها أن تجعلنا نصيبه أشدّ إصابة. يحدث هذا الأمر في النوع الثاني من الانتقام الذي يشترط التفكير في مواقع ضعف الطرف المقابل ومدى قابليته للأذى: هنا تكون غاية المنتقم أن يؤلِم. وبالمقابل فإن التفكير في حماية النفس من أضرار إضافية سيكون أبعد شيء عن دائرة مشاغل الساعي إلى الانتقام، مما يجعله عادة ما يساهم في تمهيد الطريق لمضارّ جديدة ستلحق به، وغالباً ما يواجه قدومها بكامل البرودة. وإذا ما كان هاجس المنتقم في النوع الأول من الانتقام مركزاً على الخوف من إمكانية عدوان ثان، مما يجعل رد فعله يأتي بأشد ما يمكن من القوة، فإن المنتقم في الحالة الثانية لا يهتم البتة بما ***سيفعله*** الخصم؛ وستكون قوة رد الفعل محددة فقط بما ***فعله*** معنا. - ما الذي فعله إذاً؟ وأية فائدة لنا في أن نراه يتألم الآن بعد أن أصابنا منه الأذى؟ يتعلق الأمر هنا ***بإعادة اعتبار***، بينما لم يكن الانتقام من النوع الأول سوى سعي لتأمين ***حفظ النفس***. ربما نكون قد فقدنا من خلال فعل خصمنا متاعاً، ومنزلة، وأصدقاء، وأطفالاً؛ خسائر لن نستعيدها من خلال الانتقام، فإعادة الاعتبار تتعلق فقط بخسارة ***ثانوية*** إلى جانب كل الخسائر المذكورة. الانتقام القائم على هاجس رد الاعتبار لا يحمي من الأضرار الإضافية ولا يُصلح ما حصل من أضرار،-عدا حالة واحدة. عندما يكون شرفنا هو الذي لحقه الأذى على يد الخصم، فإن الانتقام بوسعه أن ***يعيد له الاعتبار***. فشرفنا يكون قد لحقه ضرر في كل الأحوال عندما يتعمد أحد ما إيذاءنا: إذ إن الخصم يعبّر من خلال ذلك عن كونه لا ***يهابنا***. ومن خلال الانتقام نعبّر له عن أننا بدورنا لا نهابه؛ هنا يكمن التعويض: إعادة الاعتبار. (يمكن لنية إظهار الانعدام الكلي للخوف أن تمضي لدى بعض الأشخاص إلى حد يصبح معها الخطر الذي يحمله الانتقام -فقدان الصحة أو الحياة، وغيرها من

الخسائر الأخرى- شرطاً ضرورياً للانتقام في أعينهم. لذلك يختارون طريق المبارزة، في حين تضع المحاكم بين أيديهم إمكانية لإرضاء كبريائهم بعد ما لحقها من إهانة، إلا أنهم لا يرضون بالطريقة الآمنة لإعادة الاعتبار لشرفهم ويعتبرونها غير كافية، لأنها لن تبرهن عدم خوفهم.)

- في النوع الأول من الانتقام رأينا أن الخوف هو الذي يوجّه عملية ردّ الفعل؛ أما في هذه الحالة الثانية فإن غياب الخوف هو الذي ***يريد أن يثبت نفسه*** من خلال ردّ الفعل، كما ذكرنا. -وبالتالي فليس هناك ما يبدو أكثر اختلافاً من الدوافع الداخلية لكلا النوعين من التصرف اللذين نسميهما بكلمة واحدة «انتقاماً»؛ ومع ذلك فإنه غالباً ما يحدث أن يكون ممارس الانتقام غير عارف بطبيعة الدافع الحقيقي إلى فعله؛ ربما يكون فعله في البداية صادراً عن الخوف وعن هاجس حفظ النفس، لكنه فيما بعد، وعندما يغدو لديه متسع من الوقت للتفكير من وجهة نظر شرفه الذي أهين، سيلجأ إلى إقناع نفسه بأنه إنما فعل ذلك انتقاماً لشرفه: وهذا الدافع على أية حال ***أكثر سموّاً*** من الأول. لكن يظل هناك أمر أساسي وهو إذا ما كان يرى أن شرفه قد أهين في نظر الآخرين (العالم) أم في عين من أهانه فقط: في الحالة الأخيرة سيفضّل الانتقام الخفي، وفي الحالة الأولى الانتقام العلني. وبحسب ما تكون إهانته قوية أم ضعيفة في عين المعتدي وفي أعين المشاهدين حسب تصوره، يكون انتقامه شديداً أو معتدلاً: أما إذا ما كان مفتقراً كلياً لهذا الخيال فإنه لن يفكر البتة في الانتقام؛ إذ سيكون إحساس الشرف مفقوداً لديه، وبالتالي غير قابل لأن يُمسّ. كما أنه لن يفكر في الانتقام إذا ما كان لا يكنّ سوى ***الاحتقار*** لكل من المعتدي ومشاهدي الاعتداء؛ إذ ليس بإمكانهم كمحتقَرين أن يمنحوه شرفاً، وبالتالي لن يفقد شرفاً بسببهم. وأخيراً يمكن للمرء في حالة غير استثنائية بالمرة

أن يتخلّى عن الانتقام، عندما يكون محباً للمعتدي: ومع ذلك سيدفع الثمن بما سيفقده من شرف في نظر ذلك الشخص، وربما تتدنّى لديه جدارته بالمحبة. فالتخلي عن الطمع في محبة الآخر تضحية من تلك التي يمكن أن يفرضها الحب، عندما لا تريد سوى أن تحفظ المحبوب من الأذى: وذلك يعني أن يؤذي المرء نفسه أكثر مما تفعله التضحية بحق الانتقام.

-إذاً: كل شخص سيجد نفسه ينتقم، عدا أن يكون عديم الشرف أو ممتلئاً احتقاراً أو محبة تجاه من يؤذيه أو يهينه. وحتى عندما يلجأ إلى العدالة، فإنه يريد انتقاماً لنفسه كفرد أولاً، لكن، إضافة إلى ذلك *وإلى جانب ذلك*، يتصرف أيضاً كمواطن واع وحريص على سلامة المجتمع مطالباً بانتقام المجتمع من شخص أخلّ بواجب *احترامه*. وبالتالي يكون العقاب القضائي إعادة اعتبار للشرف الشخصي ولشرف المجتمع في الآن نفسه: بما يعني أن العقاب القضائي انتقام. -لكن العقاب ينطوي أيضاً على ذلك العنصر الآخر للانتقام الذي ذكرناه آنفاً، بما أن المجتمع يوجّه خلال العقاب ضربته المضادة بدافع من الحرص على حفظ كيانه *والدفاع عن النفس*. فالعقاب سعي إلى الوقاية من أضرار لاحقة وإلى *الردع*. وعلى هذا النحو فإن العقاب يؤالف بين العنصرين المختلفين للانتقام، وربما يكون العامل الأكثر تأثيراً في تدعيم ذلك الالتباس المفهومي الذي ذكرناه في البداية، والذي يجعل الفرد الذي ينتقم عادة ما لا يعرف ما الذي يريده في الحقيقة.

34

فضائل تجلب الخسارة

هناك نوع من الفضائل التي نعتقد أنه لا يحق لنا ممارستها كعناصر من المجتمع، مع أنها مجلبة لشرف كبير ولشيء من المتعة لنا كأفراد،

مثل الرحمة والتسامح مع شتى أنواع المنحرفين، وبصفة عامة كل أنواع السلوك التي يمكن أن تجعل مصلحة المجتمع تعاني ضرراً بسبب فضيلتنا. لا يحق لأية هيأة قضائية، وفقاً لما يمليه ضميرها، أن تسمح لنفسها بأن تكون رحيمة: إنه امتياز قد خُصّ به الملك وحده **كفرد**؛ ونحن نبتهج عندما نراه يمارسه كدليل على أننا نحبّذ أن نرى أنفسنا رحيمين، لكن ليس كمجتمع. فالمجتمع لا يعترف إذاً سوى بالفضائل المفيدة أو على الأغل تلك التي لا ضرر من ورائها (أي تلك التي لا تجرّ ممارستها خسائر، بل والتي تُجنى من ورائها الفوائد، مثل العدالة). فتلك الفضائل التي تنجرّ عنها الخسارة لا يمكن بالتالي أن تكون شيئاً ينشأ ***من المجتمع***، إذ ما زلنا نرى إلى اليوم داخل أصغر المجتمعات الناشئة أو تلك التي في طور النشوء ردود فعل الاستنكار ترفع صوتها ضدها. إنها إذاً فضائل تسود بين أناس غير متساوين، ابتداع من الفرد، من المسيطر: فضائل **هيمنة** قائمة على هذه الخلفيّة الذهنية التي مفادها: «إنني على قدر كاف من القوة كي أسمح لنفسي بخسارة واضحة؛ إن هذا دليل على شوْكتي»- إنها إذاً فضائل موصولة *بالتكبّر*.

35

فقه المنفعة

لن يكون هناك فقه أخلاق لو لم يكن هناك فقه لأحوال المنفعة. فأكثر العقول رهافة وتحرراً يجد نفسه غالباً غير قادر على الاختيار بين شيئين بحيث يكون ذلك الاختيار ضامناً بالضرورة للمنفعة الكبرى. في مثل هذه الحالات يختار المرء، لأنه لا بد من الاختيار، ليحدث لديه من بعدها نوع من الغثيان الذي يطغى على الإحساس.

36

كيف يصبح الإنسان منافقاً

كل متسوّل يتحوّل بالضرورة إلى منافق؛ مثل كل شخص يجعل من عاهة أو حاجة (شخصية كانت أم عمومية) مهنة له. -إن المتسول لن يكون بإمكانه البتة أن يحسّ بالحاجة بالقدر الذي ينبغي عليه أن يجعل الآخرين يحسّون بها، إذا ما أراد أن يعيش من التسوّل.

37

ضرب من عبادة الأهواء

أيها القاتمون، وأنتم أيها الفلاسفة الحربائيون، تتكلمون عن الطبيعة الفظيعة للأهواء البشرية كي تلقوا بالتهمة على مُجمل الطبيعة الكونية؛ كما لو أنه حيثما وجدت أهواء كانت هناك أيضاً فظاعة! كما لو أنه كان على العالم دوماً أن يكون مسكوناً بهذه الفظاعة. -لقد كنتم، من خلال إهمالكم للمسائل الصغيرة، ومن خلال قلة معاينتكم لأنفسكم ولأولئك الذين ينبغي أن تتم تربيتهم، أنتم أول من ساهم في جعل الأهواء تتحول إلى مثل هذه الكائنات الفظيعة، مما جعل مجرد ذكر كلمة «هوى» يثير الآن الذعر في قلوبكم! لقد كان بيدكم، كما هو بيدنا اليوم، أن ننقّي الأهواء من طابعها الفظيع وأن نعمل بهذه الطريقة على تفادي أن نراها تتحول إلى سيول جارفة متوحشة. - كلا، لا ينبغي أن نهوّل أخطاءنا ونحوّلها إلى قدَر أبدي؛ بل إننا على العكس من ذلك نريد أن نساهم بإخلاص في مهمة تحويل أهواء الإنسانية عامة إلى أفراح.

38

تانيب الضمير(*)

تأنيب الضمير، مثل الكلب الذي يعضّ حجراً، شيء من قبيل الغباء.

39

أصل الحق

يعود الحق إلى مصدر قريب هو التقاليد، والتقاليد إلى *تعاقد* أُبرم ذات يوم. وفي وقت ما كان الطرفان راضييْن عن صيغة التعاقد المتوصل إليه، ثم غدا الجميع على قدر من الخمول كيما يفكروا في تجديد صياغته؛ وهكذا يظل الناس يواصلون العيش كما لو أن ذلك التعاقد ظل يتجدد دوماً من تلقاء نفسه، ثم، ومع تضافر عامل النسيان الذي ظل يلقي بضبابه على ذلك الأصل، راحوا يمرون تدريجياً إلى الاعتقاد بأنهم يعيشون حالة مقدسة لا يطالها التبدل **ينبغي** *على* كل جيل أن يواصل التأسيس عليها. وإذا الأصل يتحول الآن إلى *إكراه*، حتى في حال أنه لم يعد يجلب المنفعة التي من أجلها تم ذلك التعاقد في البداية. - لقد وجد *الضعفاء* هنا قلعتهم المنيعة لكل الأزمنة: وبالتالي سينزعون إلى *تأبيد* ذلك العقد القديم، تلك النعمة التي مَنَّ بها عليهم الماضي.

(*) Gewissensbiss اللغة الألمانية التي تستعمل كلمة «عضّ» (عضّة الضمير) عوضاً عن «وخز» أو «تأنيب» الضمير، ستسمح لنيتشه بأن يلعب على الكلمات في مقارنتها بالكلب الذي يعض حجراً -لعبته اللغوية المفضلة- وهو ما ستفتقده الجملة للأسف عند ترجمتها إلى لغة أخرى.

40

دور النسيان في الإحساس الأخلاقي

الأعمال التي كانت تدفع إليها في الأصل مراعاة المنفعة العامة داخل المجتمعات البدائية، ستصبح هي نفسها في ما بعد تؤدى من طرف أجيال أخرى كأعمال محددة بدوافع أخرى: بدافع الخوف، أو الرهبة تجاه أولئك الذين يفرضونها أو يوصون بها؛ أو بدافع من العادة، لأن المرء ظل منذ طفولته يرى الناس من حوله يقومون بها؛ أو بدافع الإحسان، لأن ممارستها تجلب الفرحة دوماً وتجعل الوجوه تتهلل استحسانا لها؛ أو بدافع الغرور، لأنها تجلب المديح. تلك الأفعال التي نُسي دافعها الأساسي -جلب المنفعة-، ستسمّى إذاً أفعالاً *اخلاقية*: لا لكونها قد تمّت من منطلق تلك الدوافع *الأخرى*، بل لأنها لم تكن تمارس لغاية منفعية واعية. -من أين تأتى هذا *الحقد* على المنفعة الذي يبدو جلياً هنا، حيث يتم إقصاء كل عمل ذي غاية منفعية من دائرة الأعمال الجديرة بالثناء؟ من الواضح أن المجتمع، مهْد كل أخلاق وكل إطراء على الأفعال الاخلاقية، قد خاض صراعاً طويلاً ومريراً ضد كل منفعة شخصية وكل أنانية لدى الأفراد كي ينتهي إلى اعتبار كل دافع *آخر* أسمى أخلاقياً من المنفعة. وهكذا نشأ التوهّم، كما لو أن الأخلاق لم تنشأ من اعتبار المنفعة؛ بينما هي في الأصل منفعة المجتمع التي كانت تبذل جهداً جهيداً من أجل فرض نفسها وكسب اعتبار أرقى أمام المنافع الفردية الخاصة.

41

ورثة الأخلاق الموسرون

توجد في المجال الأخلاقي أيضاً تركة ثريّة: ورَثتُها هم الرقيقون، الطيبون، الشفوقون والمحسنون الذين ورثوا عن أسلافهم كل الأفعال

الحميدة، لكن دون العقل الذي هو مصدرها. والممتع في هذه الثروة هو أن صاحبها سيكون عليه أن يظل يهب ويوزع إذا ما أراد أن تكون تلك الثروة محسوسة، وأنه سيعمل لا إرادياً على تقليص الفجوة بين الغنى والفقر الأخلاقييْن، وذلك، وهو الغريب في المسألة، ليس من أجل بلوغ حالٍ مستقبلي وسطٍ بين الغنى والفقر، بل من أجل إثراء، وإثراء مفرط معمّم. -يمكننا أن نلخّص على النحو الذي قدّمناه الرأيَ السائد حول الثروة الأخلاقية الموروثة، لكن يبدو لي أنه رأي يتم تطويره ودعمه لصالح المجد الأعظم للأخلاق أكثر مما تراعى فيه مقتضيات العقل. والتجربة على أية حال تمنحنا قانوناً يمكننا اعتباره تضييقاً هاماً، إن لم نقل تفنيداً لتلك الرؤية العامة التي عرضناها أعلاه. من دون العقل الأكثر رهافة، تقول التجربة، ومن دون القدرة على الاختيار الدقيق *ونزوع قوي إلى الاعتدال*، سيتحول ورثة الثروة الأخلاقية إلى مبذّرين يبدّدون الأخلاق: فبإطلاق العنان لميولهم الشفوقة والرحيمة والمصالِحة والمُرضية سيجعلون الجميع من حولهم أكثر إهمالاً، وأكثر طمعاً، وأكثر عاطفيّة. ولهذا السبب فإن أبناء هؤلاء المسرفين في التبذير الأخلاقي (مع الأسف لاضطرارنا إلى قول هذا الكلام) يغدون بسهولة، في أفضل الأحوال، كائنات لطيفة ضعيفة وعديمة الفائدة.

42

القاضي وظروف التخفيف

«على المرء أن يكون نزيهاً حتى تجاه الشيطان، وأن يسدد له ديونه»، قال جندي عجوز عندما رُويتْ له قصة فاوست بمزيد من الدقة، «فاوست مكانه الجحيم!». -«يا لكم من فظيعين أيها الرجال!» صاحت زوجته، «كيف يمكن أن يكون هذا! إنه لم يفعل شيئاً عدا أنه

لم يكن له من حِبر في دواته! صحيح أن الكتابة بالدم خطيئة، لكن، أينبغي أن يُحرق رجل جميل مثله لهذا السبب؟»

43

مشكلة واجب الالتزام بالحقيقة

الواجب إحساس إكراهي ودافع نحو الفعل، نسمّيه إحساساً حسناً ونعتبره أمراً لا جدال فيه (لكننا لا نريد الحديث عن أصل وحدود ومبرّر هذا الإحساس، ولم نتكلم فيه أبدا). غير أن المفكر يعتبر كلَّ شيء نتاج صيرورة، وكلَّ صيرورة محل نقاش، أي أنه بالنهاية الرجل الذي لا يُلزمه واجب -ما دام مفكراً فقط. وبما هو كذلك فإنه لن يعترف بواجب يُلزمه بأن يرى ويقول الحقيقة، ولن يكون لديه هذا الإحساس؛ إنه يسأل: من أين أتى؟ وإلى أية غاية يمضي؟ غير أن هذه الأسئلة نفسها تبدو له موضع سؤال: ألا يمكن أن ينتج عن هذا الأمر أن آلة التفكير لديه تغدو غير محكمة الاشتغال إن أمكنه أن **يشعر بنفسه *حقاً غير ملزم*** بواجبٍ أثناء السعي إلى المعرفة؟ بما أنه يبدو أن العنصر الذي يحتاج إليه تشغيل الآلة هو نفسه الذي ينبغي فحصه بواسطتها. - ربما تكون الصيغة إذاً هي الآتية: ***لنفترض*** أنه يوجد واجب يُلزم بمعرفة الحقيقة، فماذا تكون الحقيقة إذاً بالنسبة لكل نوع آخر من الواجب؟ - لكن، ألا يكون الإحساس الافتراضي بالواجب محض لغو؟

44

درجات الأخلاق

الأخلاق هي وسيلة لحفظ المجتمع وحمايته من الانهيار أولاً؛ ثم هي وسيلة لضمان بقاء المجتمع في مستوى محدد من الرقي ومن الرفاه. ودوافعها هي: ***الخشية والأمل***، وذلك على قدر من الحيوية والقوة

والفظاظة، بقدر ما يكون النزوع إلى المناقضة والتصلب والفردانية قوياً هو أيضاً. وستكون الوسائل الأكثر فظاعة مرغوبة هنا ما لم توجَد وسائل ألين تستطيع أن تفعل فعلها، ويظل تحقيق غاية الحفظ المزدوج غير متيسّر من خلال غيرها من الوسائل (واحدة من أقوى هذه الوسائل هي ابتكار فكرة الآخرة وعذاب الجحيم الأبدي؛ يجب أن يكون هناك عذاب للروح وجلادون لتنفيذه). الدرجة الموالية للأخلاق، وبالتالي وسيلة أخرى لتحقيق الغاية نفسها هي أوامر إلهٍ ما (مثل ناموس موسى)؛ وبعدها، وفي درجة أرقى نجد أوامر مفهومٍ مطلقٍ للواجب بحكمه المتمثل في «ينبغي عليك»[٧٠]، -كلها درجات منحوتة في الصخر بفجاجة، لكنها عريضة وفسيحة، لأن الإنسان لم يتعلم بعد وضع قدمه فوق درجات أضيق وأكثر دقّة. ثم تأتي أخلاق *الميول*، *والذوق*، وأخيراً أخلاق *النظر العقلي*، وهي تلك التي تقع فوق كل الدوافع الوهمية للأخلاق، لكنها أيضاً هي التي اتضح لها جيداً لماذا ظل الإنسان لوقت طويل لا يستطيع التوصل إلى نوع آخر من الأخلاق.

45

أخلاق الشفقة على أفواه المشطّين

كل الذين لا يملكون قدراً كافياً من السيطرة على أنفسهم ولا يدركون الأخلاق كفعل تحكّم في الذات مستمر وممارَس في صغائر الأشياء كما في كبرياتها، يتحولون إلى مولعين بكل الانفعالات الخيّرة والشفوقة والمحسنة لتلك الأخلاق الغريزية التي لا يتحكم فيها عقل، بل تبدو لا شيء غير قلب ويد للمساعدة. إنّ من مصلحتهم حقا أن يثيروا الشبهات في أخلاقيّة العقل وأن يجعلوا من تلك الأخرى الأخلاقَ الوحيدة التي تدخل في الاعتبار.

46

مجاري الروح

للروح أيضاً مجارٍ تستعملها لتصريف نفاياتها: يُستخدم لذلك الغرض أناسٌ، وعلاقات، وطبقات اجتماعية، أو الوطن، أو العالم، وفي الأخير، وبالنسبة لذوي الغرور المفرط (أعني أعزّاءنا «المتشائمين» المعاصرين)، هناك الله.

47

نوع من الهدوء والسكينة

احترسْ من أن يكون هدوؤك وسكينتك شبيهَين بذينك اللذيْن يكون عليهما كلب أمام دكان الجزار، لا الخوف يدعه يتقدم ولا الطمع يتركه يتراجع؛ ويظل هناك بعينيْن متسعتيْن كما لو كانتا فميْن.

48

المنع دون سبب

إن منعاً لا نفهم له سبباً، أو لا نقبل بسببه، يكون بمثابة الأمر تقريباً، لا بالنسبة للشخص العنيد فقط، بل بالنسبة للمتعطش للمعرفة أيضاً: ينساق المرء هنا إلى إغراء التجربة كي يتسنّى له من خلالها أن يعرف ما الذي دفع إلى ذلك المنع. إن الممنوعات الأخلاقية من نوع ممنوعات الوصايا العشر لا تتلاءم إلا مع عصور الخضوع العقلي؛ أما في وقتنا الحاضر فإن ممنوعات من نوع «لا تقتل»، «لا تزْن» تُسنّ دون سبب محدد، ستكون لنتائجها مضارّ أكثر من منافع.

49

نوع من الطباع

أي نوع من الناس هذا الذي يقول عن نفسه: «يمكنني أن أحتقر

بسهولة، لكنني لا أحقد البتة. ففي كل إنسان أجد دوماً شيئاً ما جديراً بالاحترام، وبسببه أكنّ له الاحترام؛ أما ما يسمّى بالصفات الحميدة فليس لها عليّ من جاذبية تذكر.»

50

الشفقة والاحتقار

يُتقبّل التعبير عن الشفقة كعلامة على الاحتقار، لأن المرء يكون قد كفّ عن كونه موضع خشية بمجرد أن يصبح محلَّ شفقة. يكون الشخص عندها قد وقع تحت مستوى التوازن، بينما هذا الأخير لا يكفي بدوره لإرضاء الغرور الإنساني، بل إن التفوق والخوف الذي نوحي به وحدهما هما اللذان يمنحان النفس الإحساس الذي ترغب فيه أكثر من غيره. لذلك نحن أمام إشكال يتمثل في معرفة من أين أتى هذا *الاعتبار* الذي تحظى به الشفقة، وكذلك كيف يمكننا أن نفسر لماذا أصبحت الغيرية اليوم محلّ إطراء: ففي البدء كان هذا أمراً محتقراً أو مشتبهاً فيه كحيلة وخداع.

51

أن يتعلم المرء كيف يكون صغيراً

يجب أن نكون قريبين جداً من العشب والفراشات مثل طفل لا يتجاوزها بهامته كثيراً. أما نحن الكهول فقد ارتفعنا بقامتنا كثيراً فوقها وعلينا أن ننحني كي نقترب منها؛ وأعتقد أن العشب *يكرهنا* عندما نعبّر عن حبنا له. -من يريد أن يكون مشاركاً في الأشياء الجيّدة *كلها*، عليه أن يعرف كيف يكون صغيراً في أوقات بعينها.

52

محتوى الضمير

محتوى ضميرنا هو كل ما ظل ***يحضّنا عليه*** في سنوات طفولتنا بصفة مستمرة ودون سبب أشخاصٌ نحترمهم أو نخافهم. ومن خلال الضمير يثار فينا إذن ذلك الإحساس بـ«الواجب» («يجب أن أفعل هذا، وأن أترك هذا») الذي لا يسأل: لماذا يجب عليّ؟ -وفي كل الحالات التي يُنجَز فيها عمل ما بـ«لأنّ» و«لماذا» يكون الإنسان متصرفاً ***دون*** ضمير، لكنّ ذلك لا يعني ضد ضميره أيضاً. -إن الاعتقاد في السّلط هو منبع الضمير: فالأمر لا يتعلق إذاً بصوت الله في صدر الإنسان، بل بصوت بعض الناس في صدر الإنسان.

53

الانتصار على الأهواء

الإنسان الذي تغلّب على أهوائه يكون قد امتلك أخصب أرض، مثله مثل المستعمِر الذي أصبح سيّداً على الغابات والمستنقعات. عندها تغدو المهمة العاجلة اللاحقة هي أن ***يلقي بذار*** الأعمال العقلية الجيدة في تربة تلك الأراضي المنتزعة. فالانتصار في حد ذاته مجرد ***وسيلة***، وليس غاية؛ وإذا لم يُنظر إليه هكذا فإنه سرعان ما تنبت على أديم تلك الأرض الخصبة التي أصبحت مهملة كلُّ أنواع الأعشاب الطفيلية والنبت الشيطاني، وستنمو عندها أكثر كثافة وأكثر توحشاً مما كانت عليه من قبل.

54

براعة في الخدمة

كل الذين يُدعون رجالاً عمليّين لهم براعة في خدمة الآخرين؛ وذلك

بالذات هو ما يجعلهم عمليّين، سواء تعلّق الأمر بأنفسهم أم بمصلحة الآخرين. لقد كان لروبنسون خادم أفضل من جمعة، ألا وهو كروزوي.

55

خطر اللغة على حرية العقل

كل كلمةٍ حكمٌ مسبق.

56

العقل والضجر

المثل القائل: «إن المجَريّ على قدر عال من الكسل كيما يعرف الضجر»، هو مثل يدعو حقاً إلى التفكير. إن الحيوانات الأكثر ذكاء ونشاطاً هي وحدها القادرة على الضجر. - مسألة ***عطالة الرب في اليوم السابع*** ستكون بحقّ موضوعاً جيداً لشاعر كبير.

57

في العلاقة مع الحيوانات

بإمكاننا أن نعاين نشأة الأخلاق لدينا من خلال الطريقة التي نتعامل بها مع الحيوانات. فحيثما لا تكون هناك منفعة أو مضرّة تدخل في الاعتبار يكون لدينا إحساس بعدم المسؤولية؛ نقتل ونجرح الحشرات مثلاً أو ندعها تحيا دون أن نفكر في ذلك عادة. ونحن على درجة من الفجاجة تجعل لطافة سلوكنا تجاه الأزهار والحيوانات الصغيرة قاتلة في أغلب الأحيان؛ دون أن يضرّ ذلك بما نجده من متعة فيها. -إنه عيد الحيوانات الصغيرة اليوم؛ اليوم الأشد حرارة في السنة: الدنيا من حولنا تعجّ بكل ما يتحرك ويدب فوق الأرض ونحن ندوس ونسحق

دودة من هنا، جُعلاً من هناك، دون إرادة منا، لكن دون أن نكلّف أنفسنا أدنى *انتباه أيضاً*.

- وإذا ما كانت الحيوانات مضرّة لنا فإننا سنستعمل كل أنواع الطرق *لإبادتها*، وغالباً ما تكون وسائلنا في ذلك على قدر من الفظاعة، دون أن يكون لنا قصد في ذلك في الحقيقة: إنها فظاعة العمل الطائش غير المسؤول. أما إذا كانت نافعة فإننا *نستغلها* أشنع استغلال، إلى أن تُملي علينا فطنةٌ أكبر بأنه سيكون أكثر فائدة لنا أن نخص نوعاً بعينه من الحيوانات بمعاملة أفضل، أي بالتربية والعناية. عندها فقط تنشأ المسؤولية. سنتجنب إذاً تعذيب الحيوانات الأهلية، وسيشعر هذا أو ذاك بالسخط على شخص آخر يراه يعذّب بقرته، وذلك وفقاً لمتطلبات الأخلاق البدائية للجماعة التي ترى أن *المصلحة العامة* مهددة بمجرد أن ينتهكها أحد الأفراد؛ ومن يلاحظ حدوث انتهاك من طرف فرد ما سيشعر بمضارّ غير مباشرة تتهدده شخصياً: نخشى على كمية اللحوم، وعلى الزراعة ووسائل التنقل، عندما نرى الحيوانات الأهلية تعامل معاملة سيئة. وبذلك يوقظ ذلك الذي يتصرف مع الحيوانات بطريقة وحشية الخشيةَ من أن نراه يعامل بنفس الطريقة الوحشية أناساً من الضعفاء، والذين هم دون مرتبته والعاجزين عن الانتقام؛ وبالتالي يعتبر ذلك السلوك غير نبيل ومضراً بالكبرياء المرهفة للإنسان. هكذا تنشأ قاعدة أساسية للأحاسيس و الأحكام الأخلاقية: وسيتولى الاعتقاد الخرافي تدعيم ذلك بأفضل ما يمكن من الدعم. فبعض الحيوانات تثير بنظراتها وأصواتها وحركاتها *خيال* الإنسان الذي يجعله *يرى صورة لنفسه* فيها، وبعض الديانات تعلّم الإنسان أن يرى في الحيوانات مسكن الروح البشرية وروح الآلهة؛ ولذلك توصي بواجب توخّي الحذر النبيل، بل وبالانتباه المُفعَم بالخشية في التعامل مع الحيوانات. وحتى بعد أن يختفي ذلك المعتقد

الخرافي فإن الأحاسيس التي كان قد أيقظها ستواصل تأثيرها، بل تنضج وتنتعش أكثر. -وقد أعربت المسيحية، كما نعلم، عن كونها ديانة فقيرة ومتخلفة في هذا المجال.[٧١]

58

ممثلون جدد

ليس لدى الإنسان من شيء أكثر ابتذالاً من الموت، وفي المرتبة الثانية تأتي الولادة ، إذ ليس كل الذين يموتون يولدون، ثم الزواج في المرتبة الثالثة. غير أن هذه المسرحيات التراجيدية الهزلية الصغيرة تظل في كل من عروضها المتكررة اللامتناهية تُعرض مجدداً من طرف ممثلين جدد دوماً، ولذلك فهي لا تكفّ عن العثور عن جمهور مهتم من المتفرجين؛ بينما كان سيحقّ لنا الاعتقاد بأن كل المتفرجين من سكان هذه الوادي الأرضية قد يكونون شنقوا أنفسهم على أغصان الأشجار منذ زمن طويل لفرط ما أصابهم من الضجر. أهمّ من المسرحية إذاً هم الممثلون الجدد.

59

أي شيء هو «العناد»؟

أقصر السُّبل ليست الأكثر استقامة، بل تلك التي تهبّ فيها الرياح المواتية على أشرعتنا؛ هذا ما يعلّمنا أياه فن المِلاحة. عدم اتباع هذه القاعدة يسمّى عناداً: هكذا تشوّه متانة الطبع بالحماقة.

60

كلمة «غرور»

إنه لأمر كريه أن نجد كلمات من تلك التي لا نستطيع، نحن

الأخلاقيّين، أن نستغني عنها تحمل في داخلها نوعاً من الرقابة الأخلاقية من تلك الأزمنة التي تم فيها هرطقة أكثر الأحاسيس الإنسانية حميمية وطبيعية. من هنا نشأت تلك القناعة الأساسية بأننا نبلغ غايتنا بسلام في رحلتنا عبر أمواج التيار الاجتماعي أو تغرق سفينتنا من خلال *ما نمثله* في ذهن الآخرين أكثر مما يحدث لنا من خلال *ما نكون* في الحقيقة؛ -قناعة ستكون هي الدفّة التي توجّه كل سلوك لنا له علاقة بالمجتمع-، هكذا يُنعت واحد من الأشياء الأكثر امتلاء والأكثر ثراء ويتم وسمُه بالكلمة الأكثر عمومية: «غرور»، كلمة تجعل من شيء كبير فارغاً وعديم القيمة، وتسمّيه بعبارة تحقير، بل وترسم له ملامح كاريكاتورية. لكن لا مفر من هذه الكلمات، وسنظل مضطرين لاستعمالها، لكن مع سدّ آذاننا عما تهمس به العادات القديمة.

61

القدرية التركية(*)

تنطوي القدرية التركية على خطأ أساسي يتمثل في كونها تقابل بين الإنسان والقدر كشيئين مختلفين: يمكن للإنسان حسب زعمها أن يواجه القدر وأن يحاول إحباط مشيئته، لكن هذا الأخير هو الذي يخرج منتصراً بالنهاية؛ لذلك يكون من الحكمة أن يخضع الإنسان له، أو أن يصرف حياته على النحو الذي يطيب له. وفي الحقيقة كل إنسان في حد ذاته جزء من القدر، وعندما يحاول أن يقاوم القدر على النحو الذي ذكرناه فإن القدر في الحقيقة هو الذي ينجز نفسه من خلال

(*) ربما يعني نيتشه القدرية لدى المسلمين ، ذلك أن عبارة تركي كانت تطلق منذ القرن السادس عشر تقريباً وحتى القرن التاسع عشر على المسلم عموماً.

ذلك؛ إن الصراع مجرّد توهّم، لكن كذلك هو الخضوع للقدر؛ كل هذه التوهّمات هي جزء من القدر.

-إن الخوف الذي يبديه أغلب الناس من الإرادة المقيّدة هو في الحقيقة خوف من القدرية التركية: يعتقدون أن الإنسان يغدو من خلال ذلك ضعيفاً خاضعاً، ويقف مكتوف الأيدي حيال المستقبل، لأنه لا يستطيع أن يغيّر شيئاً فيه؛ أو أنه سيطلق العنان لكل انفلاتات مزاجه، لأن هذه أيضاً لن تجعل ما هو مسطّر مسبقا يصبح أكثر سوءاً. إن حماقات الإنسان جزء من القدر، مثلها مثل أعماله الحكيمة: وحتى ذلك الخوف من الإيمان بالقدر هو بدوره قدر. إنما أنت ذاتك أيها المتخوف المسكين، وبالنسبة لكل ما سيحدث، أنت هو مويرا(٧٢) التي لا تقهر، التي تتربع فوق الآلهة أيضاً؛ أنت النعمة أو اللعنة، وفي كل الأحوال أنت القيد الذي يشد ماهو أكثر قوة؛ فيك يوجد مجمل مستقبل الإنسانية محدداً مسبقاً، ولن ينفعك أن تظل تخاف من نفسك.

62

المدافع عن الشيطان

«من خلال مصابنا فقط نغدو أذكياء، ومن خلال مصاب الآخرين فقط نغدو طيبين»؛ هذا ما تقول به تلك الفلسفة العجيبة التي تعزو كل أخلاقية إلى الشفقة، وكل ذكاء إلى عزلة الإنسان؛ وبذلك تكون لا شعورياً المدافع عن كل المساوئ الأرضية. ذلك أن الشفقة تتطلب الألم، والعزلةُ تتطلب احتقارَ الآخرين.

63

أقنعة الطبائع الاخلاقية

في العصور التي تبدو فيها أقنعة الطبائع الخاصة بكل طبقة اجتماعية

وكأنها ثابتة نهائياً، مثلها مثل تلك الطبقات نفسها، سيجد الأخلاقيون أنفسهم منجرّين إلى إغراءات اعتبار أقنعة الطبائع الأخلاقية مطلقة الحقيقة هي أيضاً، ويسعون إلى تصويرها. هكذا يمكن أن يُفهم موليير كمعاصر لعصر لويس الرابع عشر؛ أما في مجتمعنا المتميز بالأوضاع الانتقالية والدرجات المتوسطة فإنه سيبدو عبقرياً متحذلقاً.

64

الفضيلة الأكثر سموّاً

في الطور الأول من عصر الإنسانية الراقية تُعتبر الشجاعة هي أسمى الفضائل، وفي الطور الثاني تكون العدالة، وفي الثالث الاعتدال، وفي الرابع الحكمة. في أي طور نعيش الآن يا ترى؟ في أي طور تعيش أنت؟

65

ماهو شرط ضروري مسبق

إن امرأً لا يريد أن يصبح سيّداً على غضبه ونزوعه إلى الحقد والانتقام، ويحاول أن يكون سيّداً على شيء ما وفي مجال ما، لهو على نفس القدر من الغباء الذي يكون عليه مزارع يهيّئ زرعاً بالقرب من نهر عات دون أن يعد عدّة للاحتماء منه.

66

ما هي الحقيقة؟

شفارتسرت[٧٣] (ميلانشتون): «إن المرء غالباً ما يكرز لمعتقده عندما يكون قد أضاعه للتو وهو بصدد البحث عنه في الأزقة،-ولن يكرز له بأفضل ما يكون في غير هذه الحالة!» -لوثر: إنك تتكلم اليوم صدْقاً

مثل ملاك، يا أخي! -شفارتسرت: « لكن هذه فكرة أعدائك، وهم يشيرون إليك من خلالها.»-لوثر: إنها إذاً كذبة أطلقها الشيطان من مؤخرته.

67

عادة رؤية الأضداد

المعاينة العمومية وغير الدقيقة ترى متضادات في كل موضع من الطبيعة (كـ«البرد والحرارة» على سبيل المثال)، حيث لا مضادات هناك، بل اختلاف في الدرجات فقط. وقد قادتنا هذه العادة السيئة إلى محاولة فهم الطبيعة الداخلية أيضاً، أي في العالم العقلي والأخلاقي، وتجزئتها من منطلق هذه المتناقضات. إن الكلام ليعجز حقاً عن وصف مدى ما انجرّ من الآلام والغرور والقسوة والاغتراب عن ذلك الاعتقاد في رؤية متضادات محل تحوّلات.

68

هل يمكننا أن نغفر؟

كيف يمكن للمرء أن يغفر لكم، إن كنتم لا تعلمون ما تفعلون! فليس هناك ما يمكن غفرانه؟ - وهل يعرف الإنسان أصلاً *تمام المعرفة* ماذا يفعل؟ وإذا ما ظل هذا الأمر على الأقل *موضع سؤال*، فإنه لن يكون للناس إذاً من شيء يغفرونه، وستكون ممارسة العفو عندها أمراً مستحيلا بالنسبة للعقلاء. وبالنهاية، *لو أن* مقترفي الجرائم كانوا يدركون حقاً ما الذي يفعلونه، فلن يكون لنا مع ذلك عندها سوى الحق في *المغفرة*، إذا ما كان لنا حق في التجريم والعقاب. غير أننا لا نملك هذا الحق.

69

الحياء المعتاد

لماذا ينتابنا إحساس بالخجل عندما يخصّنا الناس بمعاملة حسنة أو بتكريم نشعر أننا، كما يقال «لا نستحقه»؟ يتراءى لنا عندها أننا اقتحمنا مجالاً لا علاقة لنا به وكان من المفترض أن نُقصى منه، كما لو أننا ولجنا مكاناً مقدساً أو من أقدس المقدسات لا يحق لأقدامنا أن تطأه. لقد تمّ الزجّ بنا في ذلك الموقع إذاً عن طريق خطأ قام به الآخرون؛ والآن غدونا نهباً لمشاعر الخوف حيناً والرهبة حيناً، والمفاجأة حيناً آخر، ولا ندري إن كان علينا أن نفر أم أن نتمتع بتلك اللحظة المباركة وبنعمة فوائدها. في كل حياء هناك سر قد تم تدنيسه من خلالنا أو يبدو مهدداً بالتدنيس؛ كل نعمة تولّد الحياء. -وإذا ما اعتبرنا أننا لم نكن أبداً «جديرين» بشيء، وفي حالة ما إذا أقرّ المرء بهذا الأمر ضمن رؤية مسيحية عامة للأشياء، فإن هذا الإحساس *بالحياء سيغدو معتاداً*، إذ سيبدو عندها أن الله يظل يباركه من خلال ذلك ويغمره بنعمته باستمرار. وبصرف النظر عن هذا التأويل المسيحي، فإن هذه الحالة من *الحياء المعتاد* ستكون ممكنة أيضاً بالنسبة لحكيم غير مؤمن بالمرة ومتمسك بفكرة عدم المسؤولية وعدم الاستحقاق الجوهريتين بالنسبة لكل فعل وكل كائن؛ وإذا ما عاملناه *كما لو* أنه قد استحق هذا الأمر أو ذاك، فسيتراءى له أنه قد دُفع به إلى مستوى أرقى لأشخاص جديرين بشيء ما بما هم أحرار وبإمكانهم تحمّل مسؤولية إرادتهم وأفعالهم. وإذا ما قال له أحد «إنك تستحق هذا» فسيبدو له كما لو أنه يهتف له: «أنت لست إنساناً، بل إلهاً».

70

المربّي الأخرق

لدى هذا الشخص تكون كل الفضائل الحقيقية قد عرفت نموّها على تربة روح المناقضة لديه، ولدى شخص ثان على تربة عدم قدرته على الرفض، أي على قاعدة روح الموافقة، وواحد ثالث يستمد مجمل أخلاقيته من كبريائه المتوحّدة، ورابع تنمو فضائله على تربة ميوله الاجتماعية. لنفترض الآن أن مربّياً رديئاً ومصادفات بعينها قد ألقت ببذار الفضائل لدى كل هؤلاء الأربعة في تُربة غير تربتهم الطبيعية التي تكون أثرى تربة وأكثرها دسامة لدى كل منهم؛ فإنهم سيغدون مجرّدين من الأخلاقية وأناساً ضعفاء وكريهي الطبع. ومن سيكون إذاً هذا الأكثر رعونة من بين كل المربين؟ إنه الأخلاقاني المتعصب، الذي يعتقد أن الخير لا يتأتّى إلا من الخير، ولا ينمو إلا فوق تربة الخير.

71

أسلوب الحذر في الكتابة

أ: لكن، إذا ما عرف الجميع هذا الأمر، فإنه سيكون مضرّاً للجميع. فأنت نفسك تسمّي هذه الأفكار بالخطيرة على كل عقل مهدَّد، ومع ذلك تنشرها للعموم.

ب: إنني أكتب بطريقة تجعل الرعاع والشعب والأحزاب من كل نوع لا ترغب في قراءتي. وبالتالي فإن هذه الآراء لن تصبح عمومية.

أ: لكن كيف تكتب إذاً؟

ب: بطريقة لا هي بالنافعة ولا هي بالممتعة - بالنسبة للأصناف الثلاثة المذكورين.

72

دعاة ربّانيّون

سقراط أيضاً كان يشعر بنفسه محمّلاً برسالة ربّانية؛ لكن لا أدري أية لمسة من السخرية ومن روح الدعابة الأثينية تضع بصماتها هنا أيضاً وتُلطّف تلك الفكرة الدعيّة المشؤومة. فهو يتكلم عن ذلك دون مُسوح؛ واستعاراته حول الكابح والحصان بسيطة وليس فيها شيء من الكهنوتية، كما أن مهمته الدينية التي كان يشعر بأنه مكلّف بها، والتي تتمثل في اختبار الرب بمئة طريقة متنوعة لمعرفة ما إذا كان قد نطق بالحقيقة، تجعلنا نستشف موقفاً جريئاً ومفرطاً في الحرية يضع الداعية نفسه بموجبها على نفس المستوى مع إلهه. فهذا الاختبار الذي يمارسه على الرب صيغةٌ للتوفيق بين التديّن وحرية العقل هي الأكثر رهافة مما تم تصوّره على الإطلاق. -غير أننا لم نعد الآن بحاجة حتى إلى هذا النوع من التوفيق.

73

رسم صادق

رافائيل الذي كان تعلّقه كبيراً بالكنيسة (ما دامت قادرة على المكافأة المالية)، لكن دون اهتمام تقريباً بمواضيع العقيدة الكنسية، مثله مثل كل عظماء عصره، لم يكن ليتبع ولو في خطوة واحدة متطلبات التقوى الكهنوتية الصارمة لبعض الذين كانوا يطلبون أعماله: لقد ظل محافظاً على صدقه حتى في تلك اللوحة الاستثنائية للعذراء التي كان يراد منها في الأصل أن تشكّل راية لطقس طواف العذراء السيستينية.
أراد رافائيل أن يجسّد من خلال رسمه رؤية خاصة؛ رؤية من تلك التي كان من الممكن أن تكون لشبّان من «غير المؤمنين» *أيضاً*؛ رؤية تتعلق بالزوجة المستقبلية: امرأة ذكية، سامية الروح، صموتة وجميلة تحمل

بين ذراعيها وليدها الأول. يمكن للمسنّين المتعوّدين على الصلاة والعبادة أن يروا، على غرار العجوز الذي على يسار اللوحة، شيئاً من منزلة فوق-إنسانية جديراً بالإجلال؛ أما نحن الشبّان، كما يبدو ما يهتف به إلينا رفائيل، فإننا نريد أن ننحاز إلى الفتاة الجميلة التي على يمين اللوحة، التي تخاطب كل مشاهد من خلال نظرتها المثيرة والخالية من كل تديّن: «هذه الأم وطفلها؛ إنه مشهد ممتع وجذّاب. أليس كذلك؟» ذلك الوجه وتلك النظرة ترسل إشعاعاتها التي تنعكس مجدداً على وجه المشاهد؛ والفنان الذي أبدع كل ذلك يجد من خلال ذلك متعة في نفسه ويضيف فرحته الخاصة إلى فرحة المشاهد للوحة. أما فيما يتعلق بالتعبير عن فكرة «المخلّص» المجسّد في رأس طفل فإن رافائيل الصادق الذي لم يكن ينوي تصوير حالة روحية لم يكن يؤمن بوجودها قد تحايل على مشاهديه *المؤمنين* بطريقة بديعة؛ رسم تلك اللعبة الطبيعية التي لا تعدّ نادرة والتي تتمثل في عيني كهل في وجه طفل، عين الرجل العطوف الذي يرى بؤساً أمامه. إنها عين من المفترض أن تكون مصحوبة بلحية؛ ولأن هذه الأخيرة كانت مفقودة، ولأن هناك عُمُرَينِ مختلفَين ينطقان من خلال وجه واحد، فتلك هي المفارقة الممتعة التي سيتأوّلها المؤمنون وفقاً لإيمانهم بالمعجزة، وعلى النحو الذي كان يمكن أن ينتظره الفنان أيضاً من قدرتهم على التأويل والاستقراء الإسقاطي.

74

الصلاة

يمكن للصلاة -هذه العادة القادمة من غابر العصور، والتي لم تنقرض بعد- أن تكون ذات معنى إذا ما توفّر فيها شرطان: أن يكون ممكناً تعيين الإله أو تعديل طبيعته، وأن يكون المتعبّد عارفاً أكثر من غيره

بما هو ضروري له وبما هو مرغوب حقاً بالنسبة له. وهذان الشرطان المقبول بهما والمعمول بهما في كل الديانات هما بالضبط ما ترفضه المسيحية. وإذا ما أبقت المسيحية مع ذلك على الصلاة إلى جانب إيمانها بعقل إلهي مطلق الحكمة ومطلق العناية تصبح الصلاة من خلاله في جوهرها ضرباً من العبث، بل تجديفاً، فإنها قد أعربت بذلك مرة أخرى على حيلة الحيّة المدهشة؛ إذ إن أمراً واضحاً من نوع: «لا تصلِّ» كان من شأنه أن يقود المسيحيين من خلال الضجر إلى الارتداد عن المسيحية. ففي معادلة «الدعاء والعمل»- *ora et labora* المسيحية تحتل العبادة (ora) مكانة ***المتعة***: وما الذي سيفعله من دون صلاة بالنهاية أولئك التعساء الذين نبذوا العمل: القدّيسون! أما أن يتحدث الواحد منهم إلى الله ويتوسّله لكي يجود عليه بشتى الأشياء الممتعة، وأن يسخر قليلاً من نفسه ومن مدى الحماقة التي يمكن أن يكون عليها كي تكون له بعد طلبات بالرغم من وجود أب على ذلك القدر من الطيبة، فقد كان ذلك حقاً ابتكاراً مفيداً للغاية بالنسبة للقديسين!

75

كذبة مقدّسة

الكذبة التي جاءت على فم آرّيا لحظة الموت *paete, no dolet*(*)(٧٤) تعتّم كل الحقائق التي نطق بها المحتضرون من كل زمان. إنها ***الكذبة*** المقدسة الوحيدة التي غدت شهيرة؛ بينما لا يظل عطر القداسة عالقاً عادة إلا ***بالأخطاء***.

(*) بائتوس، ليس في هذا الأمر من ألم.

76

الحواريّ الذي كان وجوده ضروريا أكثر من غيره

من بين اثني عشر حوارياً كان لابد من واحد يكون أكثر صلابة من الصخر، كي يمكن للكنيسة الجديدة أن تتأسس عليه.[٧٥]

77

أيهما أسرع زوالاً، الروح أم الجسد؟

في المسائل القانونية والأخلاقية والدينية يكون الخارجي والظاهري، أي التقليد والحركات والطقوس، هي الأكثر ديمومة: إنها ***الجسد*** الذي تظل تحلّ به في كل مرة ***روح جديدة***. وهكذا فإن العبادة تكون مثل نص حرفي ثابت ما ينفك يجد تأويلات جديدة؛ تكون الأفكار والأحاسيس هي المادة السائلة لذلك الجسد والتقاليد مادته الصلبة.

78

الاعتقاد في المرض، كمرض مزمن

المسيحية هي أول من رسم صورة الشيطان على جدار العالم؛ والمسيحية هي أول من أدخل فكرة الخطيئة إلى العالم. أما الإيمان بما اقترحته من علاج لذلك فقد راح يهتز شيئاً فشيئاً حتى طال التفككُ أعمقَ جذوره؛ بينما ***الاعتقاد في المرض***، الذي علّمته ونشرته ما يزال قائماً.

79

خطاب رجل الدين وكتابته

عندما لا يكون أسلوب رجل الدين، خطيباً وكاتباً، منطوياً على ما يعلن عن ***المتديّن***، فإن الناس لن يروا من حاجة لأن يأخذوا آراءه

حول الدين وما يخدم مصلحة الدين مأخذ الجِد. إذ ستصبح تلك الآراء **ضعيفة** بالنسبة لصاحبها نفسه، إذا ما كان، كما يفشي ذلك أسلوبه، حائزاً على عناصر السخرية والادعاء والخبث والكراهية وكل تقلبات وتحولات الأحوال النفسية، تماماً كأي إنسان غير متديّن؛- ولكم ستكون أضعف إذاً وعديمة التأثير لدى جمهوره من المستمعين والقراء! في كلمة: لن يكون له من مفعول إذاً سوى أن يجعل من هؤلاء غير متديّنين.

80

الخطر الذي يكمن في التشخيص

كلما ازداد اعتبار الله لنفسه كشخص تناقص وفاء الناس له. فالناس أكثر تعلقاً بالصور التي تتكوّن في أذهانهم أكثر من أحبِّ أحبائهم؛ لذلك هم يضحّون بأنفسهم من أجل الدولة والكنيسة، ومن أجل الرب أيضاً، ما دام خليقتهم **وفكرتهم**، ولم يتحوّل إلى **شخص في** أذهانهم. وفي الحالة الأخيرة سيحتجون عليه ويجادلونه: بل إن أكبر الأتقياء قد وجد نفسه منساقاً إلى هذا العتاب المؤلم «إلهي، لمَ تركتني!»[٧٦].

81

العدالة الدنيوية

من الممكن أن نلغي العدالة الدنيوية، وذلك من خلال مقولة اللامسؤولية التامة والبراءة الكلية لكل إنسان: وقد تمّت محاولة من هذا القبيل من قبل، وبالضبط على قاعدة النظرية المناقضة القائلة بالمسؤولية التامة والذنب الكامل لكل إنسان. كان مؤسس المسيحية هو الذي أراد أن يُبطل العدالة الأرضية ويلغي كل مقاضاة وعقاب من

العالم. إذ كان كل ذنب في نظره «خطيئة»، أي جريمة في حق *الله*، لا جريمة في حق الإنسان، ومن ناحية أخرى كان يعتبر كل إنسان بالقياس الأكبر ومن كل جهة تقريباً خاطئاً. وبالتالي فإنه لا يحق للمخطئين أن يكونوا قضاة على أشباههم: هكذا كان حكم عدالته. لقد كان *كل* قضاة العدالة الدنيوية في نظره على نفس القدر من الذنب من أولئك الذي يحكمون عليهم، وكانت هيأة البراءة التي يتخذونها تتراءى له منافقة وفرّيسيّة. كما كان علاوة على ذلك يوجّه نظره إلى دوافع الفعل وليس إلى نتائجه، وكان يرى أن هناك شخصاً واحداً ذا نظر ثاقب يمكنه محاكمة الدوافع: أي هو (أو الربّ، حسب عبارته).

82

تكلّف في لحظة الانفصال

من يريد أن ينفصل عن حزب أو ديانة يعتقد أنه من الضروري أن يفنّدها. غير أن ذلك من باب الادعاء المشطّ. ما يكون ضرورياً هو أن يرى بوضوح أية وُثق ظلت حتى تلك اللحظة تشده إلى ذلك الحزب أو تلك الديانة وقد كفّت الآن عن تقييده، وأية نوايا دفعت به إلى ذلك وتدفع به الآن إلى وجهة أخرى. نحن لم نختر الانحياز إلى هذا الحزب أو تلك الديانة على *قاعدة من أسباب معرفية صارمة*؛ وعلينا أيضاً أن لا نتصنّع هذا ونحن ننفصل عنها.

83

المخلّص والطبيب

لم يكن مؤسس المسيحية، كعارف بالنفس البشرية خالياً من نواقص فادحة وأحكام مسبقة كبيرة، كما هو واضح. وكطبيب للروح قد وقع في الإيمان المشبوه والبدائي بطبٍّ كوني عام. وكان يشبه في طرقه

العلاجية طبيبَ الأسنان الذي يروم معالجة كل ألم باقتلاع الضرس؛ ذلك ما فعله مثلاً عندما أراد أن يقاوم الشهوة الحسّية بهذه النصيحة: «وإن أعثرتك عينك فاقلعها»(٧٧). لكن يظل هناك هذا الفارق، وهو أن طبيب الأسنان يبلغ هدفه على الأقل، وهو القضاء على الأوجاع لدى المريض، بطريقة بدائية بكل تأكيد مما سيجعله مضحكاً، لكن المسيحي الذي سيتبع نصيحة المسيح ويظن أنه توصّل إلى قتل حسّيته يغالط نفسه، إذ تظل هذه الأخيرة تواصل الحياة في داخله على طريقة مصّاص دماء فظيع، ولا تكفّ عن تعذيبه متنكرة خلف أقنعة كريهة.

84

المساجين

ذات صباح دخل المساجين إلى مكان العمل، ولم يكن السجّان هناك. فالبعض منهم انصرفوا مباشرة إلى العمل كما كانت عادتهم دوماً، بينما ظل آخرون واقفين مكانهم وهم يلقون بنظرات تحدّ من حولهم. عندها تقدم أحدهم وقال يخاطبهم بصوت مرتفع: «لتعملوا كثيراً أو لا تعملوا ، فذلك سيّان. لقد كُشفتْ مؤامراتكم السرّية، فقد تلصّص عليكم السجّان قبل قليل، ويريد الآن أن يعقد محاكمة قاسية ضدكم خلال الأيام القادمة. إنكم تعرفون جيداً كم هو قاس وحقود. لكن لتنتبهوا الآن: لقد كنتم مخطئين بشأن هويتي حتى هذه اللحظة؛ فأنا لست ذلك الذي أبدو لكم، بل أكثر من ذلك: أنا ابن السجّان ولي مكانة خاصة لديه. أستطيع أن أنقذكم، بل وأريد أن أنقذكم؛ لكن لتعلموا جيداً أنني سأفعل ذلك فقط مع الذين **سيؤمنون** بما قلته من أنني ابن السجّان، أما الآخرون فليكن لهم أن يجنوا ثمار عدم إيمانهم.» -«لكن، قال سجين مسنّ بعد لحظات من الصمت، أية أهمية بالنسبة لك إن نحن آمنّا بما قلته أم لم نؤمن؟ إن كنت حقاً ابن

السجّان، وأنك تستطيع إنقاذنا كما قلت فلتقل كلمة حسنة في صالحنا إذاً، وسيكون ذلك حقاً فعل خير منك، ودعْ عنك هذا الكلام عن الإيمان وعدم الإيمان!» -«أنا، صاح أحد المساجين الشبان، لا أصدّقه أيضاً؛ إنها مجرد فكرة خطرت له هكذا. أراهن بأننا بعد ثمانية أيام سنكون هنا مثل الآن ولن يعرف السجّان شيئاً.» -«وحتى لو أنه عرف شيئا، فإنه لم يعد يعرفه»، قال سجين آخر قدم للتوّ إلى مكان العمل؛ «فالسجّان قد مات الآن فجأة.» -«مرحى! مرحى! راح السجناء يصيحون في حالة من الهرج والفوضى، مرحى! أيها السيّد الإبن، أيها السيّد الإبن، وماذا عن التركة الآن؟ ربما أصبحنا الآن سجناءك؟» -«لقد قلت لكم، أجاب ذلك الذي كانوا يصيحون باتجاهه، سأحرر كل من سيؤمن بي، تماماً كما لو أن أبي مازال حياً». -لم يضحك السجناء لكلامه، بل هزوا بأكتافهم وانصرفوا عنه.

85

مضطهِد الربّ

بولس هو الذي ابتدع الفكرة، وكالْفن هو من طوّرها فيما بعد، بأنّ عذاب الجحيم قد أُعدّ منذ الأزل لعدد لا محدود من البشر، وأن هذا المخطط الكوني البديع قد وضِع على هذا النحو من أجل أن تتجلّى من خلاله عظمة الربّ؛ فالجنّة والجحيم والإنسانية لا غاية لها... سوى إرضاء غرور الرب! لا بد أن غروراً شنيعاً -وأي غرور شنيع لا يرتوي- قد اضطرم داخل روح ذاك الذي كان أول أو ثاني من ابتدع مثل هذا الأمر! -بولس لم يكفّ إذاً عن كونه شاول،- *مضطِهد الرب*.

86

سقراط

إذا ما جرت الأمور على ما يرام فسيأتي زمن يكون على الإنسان فيه أن يتناول مأثورات سقراط عوضاً عن الأناجيل كي يتقدم على طريق الاكتمال الأخلاقي والعقلي، ويغدو مونتانيي فيه وهوراس معلميْن ودليليْن لفهم ذلك الحكيم الوسيط الأكثر بساطة والأكثر خلوداً: سقراط. إنه القُطب الذي تمضي نحوه كل طُرق أنماط الحياة الفلسفية بمختلف مشاربها التي تمثل في أساسها الأنماط الحياتية لمختلف الطباع كما حددها العقل والعادة، والمتجهة كلها نحو غايةِ البهجة التي يجدها الكائن في الحياة وفي وجوده الخاص؛ ومن ثمة سيكون بوسعنا إذاً أن نستخلص بأن مزيّة سقراط الكبرى تتمثل في كونه قاسماً مشتركاً بين كل الطباع. -لقد كانت لسقراط ميزة تلك الجدية البهيجة وتلك الحكمة المشبعة بالدعابة الساخرة التي ترفعه فوق منزلة مؤسس المسيحية. فضلاً عن أنه كان أرقى عقلاً.

87

تعلّموا الكتابة الجيّدة

لقد ولّى عصر الخطابة، لأن عصر حضارة المدن قد انتهى. الحد الأقصى الذي كان سقراط يسمح به للمدينة -إذ كان من الضروري أن يكون بإمكان المنادي أن يُسمع صوته كل المواطنين المجتمعين-، هذا الحد لم يعد يعنينا اليوم، بالقدر الذي لم تعد تعنينا أيضاً الجماعات الحضرية عموماً، نحن الذين نريد أن يتم فهمنا في ما وراء حدود الشعوب. لذلك ينبغي اليوم على كل ذي توجّه أوروبي جِدّي أن يتعلم *الكتابة بطريقة جيدة، وأفضل فأفضل*: لا مفر من ذلك، حتى وإن وُلد المرء في ألمانيا، حيث الكتابة الرديئة تعتبر امتيازاً. لكن أن نكتب

بطريقة جيدة يعني أيضاً أن نفكر بطريقة جيدة؛ أن لا نكفّ عن ابتكار الأشياء الجديرة بالإبلاغ وأن نستطيع إبلاغها حقاً؛ أن يكون ما نكتبه قابلاً للترجمة إلى لغات البلدان المجاورة؛ أن يكون قابلاً للفهم من قِبل الأجانب الذين يتعلمون لغتنا؛ أن نعمل على أن يكون كل شيء حسن ملكاً للجميع، وأن يكون للأحرار حرية التناول من كل شيء؛ وأخيراً، أن نهيء لذلك الوضع الذي ما يزال بعيداً، حيث سيأخذ الأوروبيون الجيدون أمر مهمتهم العظمى بأيديهم: إدارة الشأن الحضاري الكوني برمّته وحمايته. ومن سيكرز لعكس هذا؛ أي أن لا يكون له اهتمام لا بالكتابة بطريقة جيدة ولا بالقراءة الجيدة - والخصلتان متلازمتان، تنموان وتنحطان معاً -، فإنه يشير للشعوب بالطريق التي تجعلها تصبح **قومية** أكثر فأكثر: إنه يعمل على مزيد انتشار مرض هذا القرن، ويكون بذلك عدواً للأوروبي الجيد، عدوا للمفكرين الأحرار.

88

مبدأ الأسلوب الراقي

يمكن لمبدأ الأسلوب أن يكون أولاً المبدأ الذي يسمح بالعثور على التعبير الذي يمكّن من إبلاغ كل حالة نفسية إلى المستمع والقارئ؛ ثانياً، أن يكون المبدأ الذي يسمح بالعثور على التعبير عن أفضل الحالات النفسية لشخص ما، والتي يكون نقلها وإبلاغها أمراً محبّذاً: الحالة النفسية للإنسان الواعي والصادق والأعمق إحساساً، الذي استطاع التغلب على كل أهوائه. ذلك هو ما ينبغي أن يكون مبدأ الأسلوب الأرقى: الأسلوب الموافق للإنسان الجيّد.

89

ضرورة الاعتناء بالنسق

نسق الجُمل يُفشي لنا إذا ما كان الكاتب متعباً؛ كل تعبير على حِدة يمكن أن يكون ويظل في حد ذاته قوياً وحسناً، لأنه تم العثور عليه منفصلاً وفي لحظة سابقة على الكتابة، في ذلك الوقت الذي التمعت فيه الفكرة في ذهن الكاتب. ذلك ما نلاحظه في مواضع عديدة لدى غوته الذي كان غالباً ما يُملي نصوصه عندما يكون متعباً.

90

كانت وما تزال

-أ: «الكتابة النثرية الألمانية ما تزال حديثة، في طور الطفولة؛ يقول غوته إن فيلاند هو أبوها.»

-ب: في هذه السنّ المبكّرة وهي على هذا القبح!

-ج: «حسب علمي كان الأسقف أولفيلاس في زمنه يكتب نثراً باللغة الألمانية؛ أي أن الكتابة النثرية الألمانية لها حوالي ألف وخمسمئة سنة من العمر.»

-ب: ماذا! كل هذا العمر وما تزال على هذا القبح!

91

ألماني أصيل

يمكن للنثر الألماني الذي لم تتم صياغته فعلاً حسب نموذج بعينه، ولديه ما يمكن أن يدفع إلى اعتباره نتاجاً أصيلاً للذوق الألماني، أن يمنح المدافع المتحمس عن مشروع حضاري ألماني مستقبلي دليلاً عن الكيفية التي يمكن أن يتشكل بها، دون محاكاة لأي نموذج، هيأة لباس ألماني حقيقي، وحياة اجتماعية ألمانية، وطريقة تأثيث منزل ألماني،

وغداء ألماني. - أحد الذين تفكروا لمدة طويلة في هذه الآفاق المحتملة قد انتهى به الأمر أن صاح ذات مرة في حالة من الهلع التام: «لكن، لتحفظنا السماء، فلربما كانت لنا دوماً هذه الحضارة الأصيلة، -غير أنه ما من أحد يحب الكلام عنها!»

92

كتب ممنوعة

علينا أن لا نقرأ أبداً شيئاً مما يكتبه أولئك العارفون بكل شيء وفي كل أمر، مشوّشو العقل المغرورون، والذين يتصفون بتلك اللوثة الخبيثة للمفارقة المنطقية: يستخدمون الأشكال *المنطقية* حيث يكون كل شيء في الحقيقة مرتجلاً ومشيّداً في الهواء. (عبارة «إذاً» تريد في الحقيقة أن تقول لديهم: «أيها القارئ الحمار، هذه الـ «إذاً» لا شأن لك بها، -لكنها موجودة بالنسبة لي»، ويكون الجواب على ذلك: «أيها الكاتب الحمار، لِم تكتب إذاً؟»)

93

التظاهر بالنبوغ

كل من يريد إظهار نبوغه الذهني يكشف عن كونه حائزاً على قدر هائل من نقائضِ ذلك أيضاً. فذلك السلوك الكريه الذي لدى المثقفين الفرنسيين من قليلي الأدب في أن يرفقوا أفضل أفكارهم دوماً بلمسة إهمال تعود إلى نية إظهار أنفسهم أكثر ثراء مما هم عليه في الحقيقة: يريدون أن يمنحوا بكثير من اللامبالاة كما لو أنهم غدوا متعبين من كثرة ودوام العطاء من معين كنوزهم الوفيرة.

94

الأدب الألماني والأدب الفرنسي

تكمن مصيبة الأدب الألماني والفرنسي في أن الألمان غادروا قبل الأوان مدرسة الفرنسيين، وأن الفرنسيين دخلوا، فيما بعد، مدرسة الألمان قبل الأوان.

95

كتابتنا النثرية

ليس بين الشعوب المتحضرة الحالية من له كتابة نثرية بنفس المستوى من الرداءة كالنثر الألماني. وعندما يقول الفرنسيون من ذوي الذهن اللامع والذوق المتطلّب أنه لا يوجد نثر ألماني، فإنه لا يحق لنا في الحقيقة أن نغضب، إذ النية من وراء ذلك أكثر مودة مما نستحق. وإذا ما بحثنا عن الأسباب، فسنخلص بالنهاية إلى النتيجة الغريبة وهي أن *الألماني لا يعرف سوى النثر المرتجل* وليست له أية دراية بغيره. وسيبدو له أمراً غريباً يتعذر عليه فهمه إذا ما سمع أحد الإيطاليين يقول إن النثر أصعب بكثير من الشعر، مثلما يكون تصوير الجمال العاري أصعب على النحات من تجسيد الجمال المكسو. فالمرء يكون عليه أن يجتهد كثيراً وبتفان فيما يتعلق بالبيت الشعري والصورة والإيقاع والقافية، وهذا الأمر يفهمه الألماني أيضاً، الذي لا يبدي أي ميل إلى تثمين الشعر الارتجالي. أما أن يجتهد في كتابة صفحة نثرية اجتهاد نحات في نحت تمثال؟ فذلك ما سيكون أشبه لديه بشيء يحكى له عن بلاد العجائب والخرافات.

96

الأسلوب الرفيع

ينشأ الأسلوب الرفيع عندما يحقق الجمال انتصاره على الفظاعة.

97

مراوغة

لا يمكننا أن نعرف أين تكمن دقة التعبير ولطافة الصياغة لدى العقول المتميزة ما دمنا لا نستطيع أن نحزر أية عبارة سيقع عليها كل كاتب رديء للتعبير عن الشيء نفسه. فكل الفنانين الكبار يعربون عن مقدرتهم من خلال الطريقة التي يتحكمون بها في مقود عربتهم مراوغةً وتفادياً للعقبات وحيَداناً عن الطريق، -لكن دون أن يقلبوا العربة.

98

شيء بمكانة الخبز في الطعام

يحيّد الخبز مذاق بقية الأطعمة، ويمحوه؛ لذلك يكون وجوده ضرورياً في كل الوجبات الطويلة. وفي كل الأعمال الفنية لا بد أن يكون هناك شيء شبيه بالخبز كي يمكن لتأثيرات متنوعة أن تفعل فعلها داخله؛ مفاعيل سيجعلها نسقُ تتابعها وتلاصقها في غياب فواصل للتوقف والاستراحة تغدو مملة ومنفّرة مما يجعل وجبة فنية طويلة شيئاً غير ممكن.

99

جون بول(٧٨)

كان جون بول ذا معرفة واسعة، لكنه كان يفتقر إلى العلم، وكان يجيد كل الحِيَل الفنية، لكن دون فنّ، وكان كل شيء تقريباً مستساغاً لديه، لكنه كان دون ذوق، وكان ذا إحساس وجدية، لكنه يسقيها بمرق

الدموع الكريه عندما يقدمها للناس، وكان لا يخلو من نباهة، لكن بقدر ضئيل للأسف مقارنة بتعطّشه المشطّ لذلك، لذلك كان سرعان ما يثير ضيق قارئه من خلال فقر نباهته الذهنية. وفي المجمل كان جون بول تلك العشبة الطفيلية الملوّنة وقوية الرائحة التي نبتت بين يوم وليلة فوق الحقول الثرية واليانعة لشيلر وغوته. لقد كان رجلاً طيباً ولذيذاً، ومع ذلك كان كارثة؛-كارثة في ثوب منزلي.

100

أن تعرف كيف تتذوّق النقيض أيضاً

كي نتمتّع بعمل من الماضي كما كان يتمتّع به معاصروه، لا بد أن يكون لساننا عارفاً بالذوق السائد لذلك العصر، والذي نشأ ذلك العمل *نقيضاً* له.

101

كتّاب مثل الكحول الروحية

بعض الكتّاب لا هم روح ولا هم خمرة، بل كحول روحية: يمكنهم أن يلتهبوا، وعندها تنشأ عنهم حرارة.

102

الحاسة الوسيطة

غالباً ما تمكنت حاسة الذوق، كحاسة وسيطة حقيقية، من فرض رأيها على بقية الحواس، ومن أن تُملي عليها قواعدها الخاصة وعاداتها. إنه بإمكاننا أن نخبر أدق أسرار الذوق على مائدة الطعام: علينا فقط أن ننتبه إلى ما هو طيّب المذاق، متى يكون كذلك، وأي مذاق له بالضبط، ولكم من الوقت يظل محافظاً على مذاقه المستساغ.

103

ليسينغ

لليسينغ خصلة فرنسية أصيلة، وهو ككاتب، أكثر من تعلّم عن المدرسة الفرنسية باجتهاد: إنه يتقن ترتيب أشيائه وعرضها في واجهة محلّه. ولولا هذه الصناعة الفنية الحقيقية لظلت أفكاره ومواضيعها في العتمة تقريباً، دون أن تكون تلك خسارة كبيرة في الحقيقة. وقد استقطبت مدرسته الفنية هذه عدداً كبيراً ممن تعلّموا عنه (الأجيال الأخيرة من المثقفين الألمان على وجه الخصوص) وقد وجد الكثيرون متعة في ذلك الفن. غير أنه لم يكن من الضروري حقاً أن يأخذ عنه أولئك المريدون، كما حصل في أغلب الأحيان، تلك النبرة المتكلفة الكريهة وذلك المزيج بين السجالية العنيفة والبساطة الرتيبة. لقد غدا الجميع الآن على رأي موحَّد حول ليسينغ «الشاعر الغنائي»، أما فيما يتعلق بالمؤلف المسرحي فذلك ما سيحصل مستقبلاً.

104

القارئ غير المرغوب

لكم يتعذب الكاتب بأولئك القراء الساذجين من ذوي الروح الثقيلة الخرقاء، الذين كلما اصطدموا بشيء تعثروا فيه ولم يتلافوا السقوط، ويلحقهم من ذلك الأذى في كل مرة.

105

أفكار الشعراء

إن الأفكار تمضي لدى الشعراء الحقيقيين محجّبة على غرار المصريّات: النظرة الثاقبة للفكرة وحدها هي التي تلوح من وراء الحجاب. فأفكار الشعراء في مجملها أقل قيمة مما نمنحها؛ إننا

نضيف إليها قيمة الحجاب وقيمة فضولِنا الخاص عند تثمينها.

106

أكتبوا ببساطة، أكتبو أشياء مفيدة

إننا نعفي الكاتب من كل عمليات التنضيد وتطوير التحاليل وشتى تلاوين الحالات الانفعالية، لأن تلك ستكون مساهمتنا الخاصة التي نقدمها لعمله، إذا ماكان قد قدم لنا بدوره شيئاً مقابل ذلك.

107

فيلاند

فيلاند هو أفضل من كتب باللغة الألمانية على الإطلاق، وفيها حقق نجاح براعته وقلقه (وقد كانت ترجماته لرسائل شيشرون ولأعمال لوقيانوس أفضل ما أُنجز في الترجمة الألمانية)؛ لكن أفكاره لم تعد تستفزنا للتفكير. لم نعد نستطيع تحمّل أخلاقياته المرحة بالقدر الذي لا نتحمل به لاأخلاقياته المرحة: وهما مرتبطتان ببعضهما أشد الارتباط. وأولئك الذين كانوا يجدون متعة فيها، كانوا بكل تأكيد أناساً أفضل منا في الأساس، لكنهم كانوا أيضاً أثقل طبعا منا بكثير، لذلك كانت لهم *حاجة* إلى مثل ذلك الكاتب. -لم يكن غوته يمثل حاجة بالنسبة للألمان، لذلك كانوا لا يدرون ما الذي يفعلون به. لننظر فقط إلى أفضل رجال السياسة والفنانين لدينا: فلا أحد منهم قد اتخذ له غوته معلّماً، ولا كان ذلك بمستطاعهم أصلاً.

108

حفلات نادرة

كثافة حرْشاء، هدوء ونضج: حيثما وجدت هذه الخصال لدى كاتب

توقفْ هناك وأقمْ حفلاً طويلاً وسط الصحراء: إذ سيكون عليك أن تنتظر طويلاً قبل أن تجد مثل هذه البهجة ثانية.

109

كنز الكتابة النثرية الألمانية

إذا ما صرفنا النظر عن كتابات غوته، وخاصة عن محاورات إكرْمانْ، أفضل كتاب ألماني على الإطلاق؛ فما الذي سيظل أمامنا من النثر الأدبي الألماني مما هو جدير بأن يظل يقرأ وتعاد قراءته مراراً؟ شذرات ليشتنبرغ، الكتاب الأول من قصة حياةٍ ليونغ ستيلّينغ، أواخر صيف لأدلبرت شتيفتر، وأناس من سيلدفيلرْ لغوتفريد كِيللر، - وبذلك نكون قد أغلقنا القائمة مؤقتاً.

110

أسلوب الكتابة وأسلوب الكلام

يتطلب فن الكتابة ***وسائل تعويضية*** في التعبير عن تلك التي لا يمتلكها غير الخطيب: أي معوّضات عن الحركات واللهجة والنبرة والنظرات. لذلك يكون الأسلوب الكتابي شيئا آخر غير أسلوب الخطابة، وأصعب بكثير أيضاً: لأنه يروم بلوغ ما يبلغه هذا الأخير من غاية الإفهام بإمكانيات أقل. فديموستينس[٧٩] مثلاً كان يلقي خطبه على نحو يختلف عما نقرأه منها؛ وقد عمل على إعادة صياغتها كي تصبح نصوصاً مقروءة. وقد كان على شيشرون أن يُجري على خطبه نفس التعديلات الديموستينية من أجل نفس الغرض؛ وإلى الآن ما زلنا نعثر فيها على عناصر من خصوصيات المنبر الخطابي الروماني أكثر مما يمكن للقارئ أن يتحمله.

111

حذر في استعمال الاستشهادات

لا يعرف الكتّاب الشبان أن العبارة الجيدة والفكرة الجيدة لا تكون مستساغة إلا بين مثيلاتها، وأن استشهاداً ممتازاً قد يدمّر صفحات بأكملها، بل مجمل الكتاب، وذلك بما يبدو من خلاله من تنبيه للقارئ وهو يقول له: «حذار، إنني الحجارة الكريمة وكل ما حولي رصاص، معدن باهت وخسيس.» كل عبارة وكل فكرة لا تودّ أن تحيا إلا *داخل وسطها*: تلك هي عِبرة الأسلوب الممتاز.

112

كيف ينبغي قول الأشياء الخاطئة

يمكننا أن نتجادل حول متى تكون الأخطاء أكثر خطراً، عندما يعبّر عنها بطريقة رديئة، أم بالطريقة الجيدة التي يعبّر بها عن الحقائق. من الأكيد أنها بالطريقة الأولى ستلحق ضرراً مزدوجاً بالعقول وتغدو إزاحتها عنها أمراً صعباً؛ غير أنها لا تكون في الحقيقة على قدر من التأثير الواثق مثلما تكون عليه في الحالة الثانية: أي أنها تكون أقل قدرة على العدوى.

113

تضييق وتكبير

لقد ضيّق هوميروس من مساحة المواضيع وصغّرها، لكنه طوّر منها العديد من المشاهد المنفصلة وفخّمها، وعلى هذا المنوال دأب الكتّاب المسرحيون من بعده: كان كل منهم يتناول مادته في حجم *أقل* من سابقه، لكن كان كل منهم ينتج كمّاً أكبر من الزهور داخل الحدود الضيقة لتلك الحديقة الصغيرة.

114

الأدب والأخلاقية يفسّر أحدهما الآخر

يمكننا أن نبيّن من خلال الأدب الإغريقي القوى التي ساهمت في تفتّق العقل اليوناني، وكيف اتخذ له سُبلاً مختلفة، والأشياء التي أدت إلى ضعفه. يمنحنا كل هذا صورة عن المسار الذي عرفته الأخلاقية اليونانية في الحقيقة والذي تعرفه كل أخلاقية عامةً: كيف أنها كانت إكراهاً في بدايتها وأبدت قسوة في تلك البداية؛ ثم كيف غدت شيئاً فشيئاً أكثر ليناً؛ وكيف نشأت بالنهاية تلك المتعة في أفعال بعينها ومواضعات وأشكال بعينها، ومنها عودة النزوع إلى الممارسات الفردية، والتملك الفردي لتلك الأشياء نفسها؛ كيف يمتلئ الميدان (ميدان السباق) ثم يزدحم بالمتنافسين، وكيف ينشأ شيء من التُّخمة عندها ويبدأ البحث عن مواضيع جديدة للمنافسة وللطموح، ويتم إحياء أشياء قديمة؛ وكيف يشرع المشهد في تكرير نفسه ويمل المتفرجون من الفرجة، لأن الدائرة تبدو وقد انغلقت على دورتها التي تمّت؛ -ثم يأتي التوقف: وقفة للاستراحة والتنفس، وتختفي الجداول وقد امتصّتها الرمال. إنها النهاية، *إحدى* النهايات على الأقل.

115

أية مناظر تمنح متعة دائمة

لهذا المكان ملامح مهمة تهيّئه لأن يكون لوحة فنية، لكنني لا أعثر على الصياغة المناسبة، وفي كلّيتها تظل تلك الملامح ممتنعة على إدراكي. إنني ألاحظ أن كل المناظر الطبيعية التي تظل تعجبني بصفة دائمة لها كلها فيما وراء تعدّدها وتنوّعاتها صورة مخطط هندسي بسيط. ومن دون هذا العنصر الرياضي (Substratum) لا يمكن لأي

منظر أن يكون موضوع متعة فنية دائمة. ولربما تمنحنا هذه القاعدة استعارة قابلة للتطبيق على الإنسان أيضاً[٨٠].

116

القراءة بصوت مسموع

تشترط القراءة للجمهور قدرة على *الإلقاء*: يكون علينا أن نضفي في مواقع عديدة لوناً باهتاً، لكن مع مراعاة الدرجة التي سيكون عليها اللون الباهت في كل موضع بتناسق مع مجمل اللوحة الأساسية بألوانها العميقة والمتينة التي ترتسم بصفة دائمة أمام عين القارئ وتقوده، أي التي ستحدد طريقة *إلقاء* ذلك الجزء. يعني أن على القارئ أن يكون متملكاً لفن الإلقاء.

117

الحسّ الدرامي

من لا يمتلك الحواس الأربع المرهفة للفن، سيحاول أن يفهم كل شيء من خلال خامستها وأكثرها فجاجة: وهي الحسّ الدرامي.

118

هرْدرْ

لم يكن هَرْدَرْ شيئاً مما كان يريد أن يعتقده عنه الآخرون (وما كان يريد أن يعتقده هو نفسه): لا هو بالمفكر والمكتشف الكبير، ولا هو بالأرض الخصبة الجديدة بطاقات غير مستعملة لغابة عذراء. لكنه كان يمتلك، بقدر لا يضاهى، حاسة شمّ، كان يرى ويقطف باكورات الفصل قبل كل الآخرين الذين كان يمكنهم بالتالي أن يعتقدوا أنه هو الذي غرسها؛ كان عقله بين الضياء والعتمة، وبين القديم والجديد،

ومثل صياد كان دوماً مترصّداً مواقع التحولات والانخفاضات والتداعيات التي تكون علامة على منابع وصيرورات عميقة: كان قلقُ الربيع يعصف به، غير أنه لم يكن هو نفسه ربيعاً! كان له أحياناً إدراك غامض لذلك الأمر، لكنه لم يكن يرغب في تصديق ذلك، هو، القس الطموح الذي كان بودّه لو أنه يكون بابا العقول في عصره! تلك كانت معاناته: فقد بدا لزمن طويل كطامح إلى ارتقاء عرش شتى الممالك، بل عرش مملكة كونية، وكانت له دائرة أتباعه الذين كانوا يؤمنون به: وكان غوته الشاب أحدهم. لكنه، وفي كل موقع كانت فيه تيجان تمنح فعلاً كان يمضي صفر اليدين: لقد سلب منه كنط وغوته ثم المؤرخون والفيلولوجيون الألمان الحقيقيون ما كان يعتقد أنه من نصيبه، -وكان في سرّه غير مقتنع بالطمع فيه مع ذلك. وبالذات في تلك اللحظات التي كان يشك فيها في نفسه كان يجعل نفسه يلتفع برداء الكرامة والحماس: وتلك كانت لديه أردية غالباً ما تخفي تحتها الكثير، تخدعه هو نفسه وتعزّيه. لقد كان فعلاً ذا حماس وشعلة متقدة، لكن طموحه كان أكبر بكثير! وكان ذلك الطموح ينفخ بنفاد صبر في ناره، فيكون منها تأججٌ وطقطقةٌ ودخان-أسلوبه يتأجج ويطقطق ويرسل دخاناً- لكنه كان يريد **الشعلة** *الهائلة*، وهذه الأخيرة لا يرتفع لهبها أبداً! لم يكن له مكان على مائدة المبدعين الحقيقيين؛ وكان طموحه يمنعه من الجلوس بتواضع إلى مائدة المستهلكين الحقيقيين. وهكذا كان ضيفاً قلقاً يتذوّق مسبقاً كل الأطباق التي جلبها الألمان خلال نصف قرن من كل ممالك الدنيا والعصور. لم يكن هردر ليعرف شبعاً أو فرحاً حقيقيين، وكان علاوة على ذلك مريضاً في أغلب الأوقات؛ وهكذا كان الحسد يحطّ أحياناً على سريره، ولم يكن النفاق ليتأخر عن زيارته أيضاً. هناك جرح ما وضيق غدا عالقاً به؛ وأكثر من أيٍّ ممّن يسمّون بكتابنا الكلاسيكيين كانت تنقصه الفحولة البسيطة والمتينة.

119

رائحة الكلمات

لكل كلمة رائحتها: هناك تناسق وتنافر للروائح، وبالتالي للكلمات أيضاً.

120

الأسلوب المنتقى

الأسلوب الذي يتم العثور عليه جاهزاً إهانة لصديق الأسلوب المنتقى.

121

عهد

لن أقرأ لأي كاتب يُلاحَظ عليه أنه كان **يريد** أن يضع كتاباً، بل فقط لذاك الذي تتحول أفكاره لا إرادياً إلى كتاب.

122

الأعراف الفنية

ثلاثة أرباع كتابة هوميروس تدخل ضمن الأعراف السائدة؛ والأمر نفسه تقريباً بالنسبة إلى كل الفنانين اليونانيين الذين لم يكن لهم من داع يدفعهم إلى حُمّى الفرادة والتميّز التي يعرفها عصرنا الحديث. كانوا خالين تماماً من الخوف من الأعراف والتقاليد؛ وكان ذلك هو ما يجلعهم في تناغم مع جمهورهم. فالأعراف هي الوسائل الفنية التي تم ***اكتسابها*** بغاية إفهام المستمع، لغة مشتركة قد اجتهد الفنان في تعلّمها كي يستطيع ***التواصل*** مع جمهوره. وإذا ما كان الفنان، مثل الشاعر والموسيقي اليوناني، يريد لعمله الفني أن يحقق انتصاره **بسرعة**– لكونه كان معتاداً على خوض مبارزات أمام الجمهور مع واحد أو اثنين

من المنافسين-، فإن الشرط الأول يكون أن يتم **فهمه بسرعة**: وهو أمر لا يكون ممكناً إلا من خلال ما هو متعارف عليه. أما ما يبتكره الفنان فيما وراء الأعراف فهو شيء إضافي يُلحقه بالبقية بمبادرة خاصة منه، وهي مخاطرة يُقبل عليها الفنان، وسيستطيع، إذا ما حالفه النجاح في أحسن الأحوال، أن **يخلق** منها عُرفاً جديداً. وعادة ما يكون ما هو متميّز محلّ إعجاب، بل مطلوباً أحياناً، إلا أنه نادراً ما يكون مفهوماً؛ وبالتالي فإن الإصرار على الخروج عن الأعراف بكل الطرق يعني: أن تريد أن لا تكون مفهوماً. فإلام ترمي إذاً هذه الحُمّى الحديثة للولع بالتميّز؟

123

التكلّف العلمي لدى الفنانين

كان شيلر يعتقد، مثل فنانين ألمان آخرين، أنه يحق للمرء إذا ما كان ذا فكر ثاقب أن يكتب في شتى المواضيع الصعبة وأن يفعل ذلك *ارتجالاً* أيضاً. والآن هي ذي مطارحاته النثرية نموذج يقوم شاهداً بكل المقاييس على أنه لا ينبغي التحرّش بالمسائل العلمية في الجمالية والأخلاقيات، وأن في ذلك خطراً على القراء الشبان الذين ضمن إعجابهم بشيلر الشاعر لا يملكون الجرأة على أن يظنوا سوءاً بشيلر المفكر والكاتب. إن الإغراء الذي يتملك الفنان بسهولة وبصفة مفهومة بأن يقتحم أيضاً تلك الأرض الممنوعة عليه بالذات، وأن تكون له كلمة يقولها في مجال العلوم-فأكثر الناس جدية يشعر بالضيق بين الحين والحين من حرفته ومشغله-، هذا الإغراء يدفع بالفنان بعيداً ويجعله يكشف لكل الناس أشياء مما لا ينبغي عليهم بالضرورة أن يعرفوه، وهو أن حُجرة أفكاره ضيّقة وغير مرتّبة (ولِمَ لا تكون كذلك بالنهاية؟ فهو لا يسكن داخلها!)، وأن مخزن مؤونته العلمية فارغ في

جزء منه، ومليء في جزئه الآخر بأشياء تافهة متنوعة (ولم لا أيضاً؟ بل إن ذلك شيء مناسب في الحقيقة لطبع الفنان الطفل)، لكن أيضاً، وهذا هو الأهم، أن مفاصله متيبّسة وغير مدرّبة على أبسط تمارين المناهج العلمية التي هي في متناول حتى المبتدئين -وهذا أيضاً أمر لا ينبغي عليه أن يشعر بالخجل حقاً بسببه!- وبالمقابل فهو يُعرب عن فن غير بسيط في *محاكاة* كل الأخطاء والمفاسد والادعاءات العالمة من تلك التي نلاقيها داخل زمرة العلماء، معتقداً أن ذلك مما له علاقة، إن لم يكن بأمر العلم، فبظاهر الأمر على الأقل؛ وهذا بالضبط هو الأمر المسلّي في مثل هذه الكتابات، أي أن الفنان هنا يقوم مع ذلك، ودون إرادة منه، بالعمل الذي هو من صميم حرفته: *المحاكاة الساخرة* للعلماء (البارودبا). وهو غير مطالب في الحقيقة، كفنان ولا شيء غير فنان، أن يكون له موقف آخر تجاه العلم غير البارودبا.

124

فكرة فاوست

خيّاطة صغيرة يتم إغواؤها وتُحطَّم حياتها؛ والجاني عالم خرّيج أربع كليّات جامعية. هل يمكن أن يكون هذا الأمر قد حصل بصفة طبيعية؟ كلا، وبكل تأكيد! فمن دون مساعدة الشيطان شخصياً ما كان لذلك العالم الكبير أن يتوصل إلى فعل ما فعله. -هل يمكن أن نعتبر هذه القصة حقاً «الفكرة التراجيدية» الألمانية الكبرى، مثلما يتردد قوله بين الألمان؟ - غير أن هذه الفكرة كانت تبدو على غاية من الفظاعة بالنسبة لغوته، ولم يسع قلبه الرقيق سوى أن يختار لهذه الفتاة الصغيرة، «تلك الروح الطيبة التي لم يحصل لها أن تنساق للغواية غير مرة واحدة»، مكاناً بالقرب من القديسين بعد موتها المكرَه. بل إنه، وبموجب حيلة ماكرة على الشيطان نفسه، قد تمكّن من أن يرفع في

الوقت المناسب ذلك العالم إلى السماء ويُسكنه الجنة؛ ذلك «الرجل الطيب» ذو «النزوعات القاتمة»:-وهناك في الجنة يلتقي العشيقان ثانية. وقد قال غوته ذات مرة أن طبعه كان أكثر وفاقيّة مما ينبغي بالنسبة لتراجيديا حقيقية.(٨١)

125

هل يوجد «كلاسيكيون ألمان»؟

يلاحظ سانت بوف أن عبارة «كلاسيكي» لا يمكن أن تكون مناسبة لنوعية بعض الآداب: من سيكون بوسعه أن يتكلم بسهولة عن «أدب ألماني كلاسيكي» مثلاً؟ -وما الذي يقوله مكتبيّونا في هذا الأمر وهم بصدد إضافة خمسين كاتباً كلاسيكياً جديداً للخمسين الذين يتوجب علينا أن نعترف بهم ككلاسيكيين؟ يبدو تقريباً كما لو أنه يكفي أن يكون الواحد ميتاً منذ ثلاثين سنة فقط، وأن يكون ملقى هناك مثل غنيمة مباحة للجميع كي يبلغ نذير القيامة مسامعه صدفة وقد تحوّل فجأة إلى كاتب كلاسيكي! وهذا في زمن ولدى شعب حيث خمسة من الأعلام الستة المؤسسين لأدبنا قد بدأ يصيبهم أو أصابهم البِلى - دون أن يكون على هذا الزمن وعلى هذا الشعب أن يخجلا من ***جراء ذلك***! لأن هؤلاء قد تراجعوا أمام ***قوى*** هذا الزمن -لنتفكر في هذا الأمر بكل إنصاف! وسأضع غوته جانباً كما ذكرت سابقاً، فهو ينتمي إلى نوعٍ فوق مستوى «الآداب القومية»؛ لذلك هو يقع من أمته موقعاً خارجاً عن كل العلاقات، سواء فيما يتعلق بأمور الحياة، أو بأمور التجديد والبِلى. إنه لم يعش ولا يواصل العيش اليوم إلا لقلة من الناس فقط؛ أما بالنسبة للأغلبية فهو لا يعني شيئاً غير بوّاق غرور يسمعه المرء بين الحين والآخر يبوّق في ماوراء الحدود الألمانية. غوته، لا كرجل فذ فحسب، بل كثقافة، هو حدث استثنائي منفصل لا

تبعات له داخل تاريخ الألمان: من باستطاعته أن يدلّنا على أي أثر لغوته في السياسة الألمانية للسبعين سنة الأخيرة مثلا؟ (بينما شيء من شيلر، وربما حتى من ليسينغ كان فاعلاً هناك). أما عن الخمسة الآخرين! فإنّ كلوبشتوك قد عرف القِدم وهو ما يزال على قيد الحياة، وبطريقة مشرّفة جداً، بل وعلى نحو جذري، مما جعل كتاب تأملات سنواته الأخيرة، ***جمهورية العلماء*** يظل إلى يومنا هذا لايؤخذ بجدية من قبل أي كان. أما هردر فقد كانت مأساته أن كتاباته كانت دوماً إما مبكّرة، أو بالية؛ وبالنسبة لعقول فذّة، من نوع ليشتبرغ مثلاً، فقد كان حتى أهم عمل لهردر، أي ***أفكاره حول تاريخ الإنسانية*** قد ظهر إلى الوجود بالياً. أما فيلاند الذي عاش الكثير ووهب الكثير فقد جعلته فطنته يستبق بموته ما غدا يستشعره من وهن بدأ يصيبه. ربما ما يزال ليسينغ يواصل الحياة في زمننا الحاضر، لكن بين العلماء الشبان والشباب! أما شيلر فقد انتقل من الشباب إلى الأطفال، كل الأطفال الألمان. وإنه لضرب معروف من البلى أن ينزل كتاب إلى جمهور من غير الناضجين. -ما الذي جعل هؤلاء الآباء الخمسة يندحرون حتى غدا الناس من العارفين والمجتهدين الجيدن عازفين عن قراءتهم؟ إنه الذوق الأرقى، والمعرفة الأرقى، ومزيد من الاعتبار لما هو حقيقي وواقعي؛ إنها تلك الفضائل بالذات التي ***غرسها*** في التربة الألمانية أولئك الخمسة الأوائل (وربما من خلال عشرة وعشرين آخرين ممن هم أقل شهرة)، والتي غدت تشكل اليوم غابة سامقة تطرح فوق قبورهم إلى جانب ظلال الاحترام والإكبار ظلال النسيان أيضاً. -لكن ***الكلاسيكيين*** في الحقيقة ليسوا ***غارسي*** فضائل فكرية وأدبية، بل متمّموها وذؤابات قممها المضيئة العالية التي تظل قائمة فوق شعوبها حتى عندما تنهار هذه الأخيرة وتنقرض؛ ذلك أنها أخف منها وأكثر حرية وصفاء. وإنه لمن الممكن أن تبلغ الإنسانية منزلة أرقى من

تطورها، حيث تغدو أوروبا الأمم بقعة قاتمة في الذاكرة يغمرها النسيان، لكن ستظل أوروبا فيها حاضرة تحيا من خلال ثلاثين كتاباً من الكتب القديمة والبالية: في المؤلفات الكلاسيكية.

126

مهم، لكن ليس جميلا

هذه المنطقة تُخفي معناها، لكنّ لها معنى نودّ أن نخمّنه: وحيثما نظرت أقرأ كلمات وإشارات إلى كلمات، لكنني لا أعرف أين تبدأ الجملة التي تحلّ لغز كل هذه الإشارات، وأتحوّل إلى طائر اللوّاء لكثرة ما أظل أدير رأسي محاولاً أن أعرف إن كان عليّ أن أبدأ من هذه الجهة أم من تلك في قراءتها.

127

ضد هواة التجديد في اللغة

إن اللجوء إلى كل جديد أو كل عتيق في اللغة وتبجيل الغريب والنادر وملاحقة الوفرة القاموسية عوضاً عن الاقتصاد تمثل دوماً علامة ذوق يفتقر إلى النضج أو قد طاله الفساد.[٨٢] إن تقشفاً نبيلاً، لكن ضمن ثراء لا يعلن عن نفسه، وحريّةً ضمن البراعة هي ما كان يميّز فناني الخطابة لدى اليونانيين: كانوا يريدون *أقل* مما يمتلك الشعب-إذ هذا الأخير هو الأكثر ثراء في ماهو جديد وما هو عتيق-، لكنهم كانوا يريدون أن يكون تملّكهم لهذا القليل على **نحو** *أفضل*. ونحن بإمكاننا أن نستنفد بسرعة تعداد عتيقهم وغريبهم في هذا المجال، لكن إعجابنا سيكون لا محدوداً إذا ما كانت لدينا العين المناسبة.للطريقة الخفيفة والرقيقة التي يتعاملون بها مع الاعتيادي واليومي وما يبدو في ظاهره مستهلَكاً منذ زمن طويل من الكلمات والتعابير.

128

الكتّاب الحزينون والجدّيون

من يضع *معاناته* على الورق يغدو كاتباً حزيناً؛ لكنه يكون كاتباً **جديّاً** إن هو روى لنا **ما** *عاناه* ولِمَ هو الآن يستريح داخل الفرح.(٨٣)

129

عافية الذوق

ما الذي يجعل مظاهر العافية غير معدية مثل الأمراض عامة، وخاصة في ما يتعلق بالذوق؟ أم ترى هناك أوبئة عافية؟

130

قرار حاسم

لن أقرا بعد اليوم كتاباً يكون قد وُلد وعُمّد -بالحبر- في اللحظة نفسها.

131

تصحيح الأفكار

إن تصحيح الأسلوب يعني تصحيح الأفكار، ولا شيء غير ذلك! - ومن لا يعترف بهذا فوراً لا يمكن إقناعه بذلك أبداً.

132

كتب كلاسيكية

أضعف جانب في كل كتاب كلاسيكي هو أن يكون مكتوباً بالتصاق مشطّ باللغة الأمّ لكاتبه.

133

كتب رديئة

من المفترض أن يكون الكتاب هو الذي يتوق إلى القلم والحبر وطاولة العمل؛ غير أن المتداول هو أن القلم والحبر وطاولة العمل هي التي ترغب في الكتاب. لذلك غدت الكتب الآن شيئاً غير ذي أهمية.

134

الحسّ المرهف

عندما يشرع الجمهور في التفكير في لوحات فنية يتحوّل إلى شاعر، ويتحوّل إلى باحث عندما يفكر في قصائد شعرية. وفي اللحظة التي يعنّ فيها للفنان أن يطالب بذلك يكون عادة غير ممتلك للحسّ *المناسب*، أي أنه لا ينقصه عندها الحضور الذهني بل الحضور الحسّي.

135

أفكار منتقاة

الأسلوب المنتقى لعصر مهم لا يكون انتقاء للكلمات فقط، بل للأفكار أيضاً، ويتم انتقاؤهما معاً بالتحديد مما هو *متداول وسائد*: فالأفكار الجريئة والتي تفوح برائحة الجديد الطازج لا تكون أقل إثارة للاشمئزاز بالنسبة للذوق الناضج من أكثر الصور والتعابير الجديدة المغامِرة والصادمة. بعدها سيغدو لكليهما -الفكرة المنتقاة والعبارة المنتقاة- رائحة الرداءة، لأن رائحة المنتقى ستكون قد تبدّدت بسرعة ولن يتبقّ لها من طعم غير ما للمعتاد واليومي من طعم.

136

السبب الرئيسي في فساد الأسلوب

تعمُّد إظهار مشاعر أكثر مما لدينا تجاه شيء ما يُدخل الفسادَ على الأسلوب، في اللغة كما في سائر الفنون. كل فن عظيم يكون بالأحرى محكوماً بالميل المعاكس: إنه، على غرار كل إنسان ذي أخلاقية سامية، يفضّل أن يسحب عِنان الإحساس ويجعله يتوقف عند نقطة ما من الطريق، ولا يدعه يمضي حتى النهاية. هذا الحياء الذي لا يكشف من نفسه إلا بقدر ما يحجب نلمسه في أبهى تجلّياته لدى سوفوكلس مثلاً؛ ويبدو أن الإحساس يغدو أكثر إشعاعاً عندما يظهر نفسه أكثر تقشفاً مما هو عليه في الحقيقة.

137

عذر لأصحاب الأسلوب الثقيل

ما يعبّر عنه بأسلوبٍ خفيفٍ نادراً ما يكون له الوقع المناسب لوزنه الحقيقي؛ لكن ذلك يعود في الحقيقة إلى الدربة السيئة التي تلقتها الأذن، التي تمر من التربية التي تتلقاها من خلال ما ظل يسمّى حتى الآن موسيقى إلى مدرسة الفن الموسيقي الأرقى، أي مدرسة فن الخطابة.

138

لقطة جوّية

هنا سيول متوحشة تتدفق من كل الجهات نحو وهدٍ عميق، حركتها عاتية وسريعة تجعل النظر ينساق إليها مأخوذاً بتدفقها حتى أن الهضاب الجرداء والأخرى المكسوّة من حولها تتراءى له كما لو أنها لم تكن مائلة نحو الأسفل، بل تنزلق *منحدرة إلى القاع*. يشعر المرء أمام هذا

المنظر بتوتّر مشوب بالخوف، كما لو أن شيئاً عدوانياً يربض وراء ذلك المشهد ويدفع بكل شيء إلى الفرار: خطرٌ تغدو تلك الهاوية من تحت ملاذاً لنا منه. هذه المنطقة تستعصي كلياً على الرسم، عدا أن يكون الرسّام محلّقاً فوقها مثل طائر. هنا فقط يصبح ما يسمّى باللقطة الجوّية شيئاً آخر غير مجرّد نزوة فنّية، بل الإمكانية الوحيدة للإحاطة بالمشهد.

139

تشبيهات جسورة

عندما لا تكون التشبيهات الجسورة علامة على طيش الكاتب، فإنها تكون علامة على عياء قد أصاب خياله. وفي كل الأحوال فهي علامة على رداءة ذوقه.

140

الرقص في القيود[٨٤]

مع كل فنان وشاعر وكاتب يوناني نجد أنفسنا أمام هذا السؤال: تُرى ما هو *القيد الجديد* الذي أخضع نفسه له، والذي غدا يسحر معاصريه (بما يجعله يجد مقلّدين له)؟ إن ما يسمّى «ابتكاراً» (في الوزن مثلاً) هو دوماً نوع من هذه القيود التي يفرضها الكاتب على نفسه. «الرقص في القيود»: أن يجعل الواحد مهمته صعبة ثم يلقي فوقها وهم السهولة المموّه؛ تلك هي البراعة الفنية التي يريدوننا أن نراها. لدى هوميروس يمكننا أن نكتشف قدراً كبيراً من الأشكال الموروثة وقوانين السرد الملحمي التي كان عليه أن يرقص *ضمن حدودها*؛ ثم إنه ابتكر من جهته تقاليد جديدة إضافية للأجيال اللاحقة: في البدء يُخضع الشاعر نفسه إذاً لإكراهات متعددة من وضع الشعراء السابقين، ثم يضيف إليها إكراهاً جديداً من ابتكاره الخاص يُخضع نفسه له وينجح في التغلب

عليه برشاقة وعلى نحو يجعل الإكراه والانتصار مدركَيْن ومثيرَيْن للإعجاب.

141

الامتلاء لدى الكتّاب

إن الامتلاء هو آخر ما يتكوّن لدى كاتب جدي؛ ومن يكون له ذلك الامتلاء منذ البداية لن يصبح أبداً كاتباً جيداً. فأنبل جياد السباق هي التي تكون نحيلة، إلى أن تحقّ لها الاستراحة بعد انتصاراتها العديدة.

142

أبطال لاهثون

الشعراء والفنانون الذين يعانون من ربو الأحاسيس هم الذين غالباً ما يدَعون أبطالهم يلهثون؛ إنهم لا يعرفون معنى التنفس بسهولة.

143

حسير البصر

حسير البصر هو العدوّ اللدود لكل الكتّاب الذين يدعون أنفسهم ينساقون للكتابة دون كوابح. ولابد أن هؤلاء لا يخفى عنهم بأي حنق يغلق ذلك الشخص كتاباً يلاحظ أن الكاتب قد احتاج فيه إلى خمسين صفحة ليعبّر عن خمسة أفكار: إنه الحنق من أنه وجد نفسه يخاطر بما تبقّى له من بصر دون مقابل تقريباً. واحد حسير البصر قال ذات مرة: *كل* الكتّاب يدعون أنفسهم ينساقون في الكتابة. -«بمن في ذلك الروح القدُس؟» -بمن في ذلك الروح القدُس. غير أن ذاك كان يحق له ذلك؛ فقد كان يكتب لمكتمَلي العماء.

144

أسلوب للخلود

كل من ثوقيديدس وطاسيتوس كانا يضعان مسألة خلود أعمالهما نُصب أعينهما وهما ينجزانها: وبإمكاننا أن نحزر ذلك من خلال أسلوبهما، إن نحن لم نلمسه في جانب آخر من تلك الأعمال. كلاهما كان منشغلاً بضمان الديمومة لأعماله، الأول من خلال تعقيمها بالملح، والثاني من خلال عملية طهْي طويلة. ويبدو أنهما لم يكونا مخطئيْن في حساباتهما.

145

ضد الاستعارات والأمثال

يمكننا أن نُقنع بواسطة الاستعارات والأمثال، لكننا لا نبرهن. لذلك تبدي أوساط العلماء نفوراً واضحاً من الاستعارات والأمثال؛ فما هو *مقنع و يضمن التصديق*، هو بالذات ما لا يريده المرء هنا، بل يرغب أكثر من ذلك في استثارة الشك وبرودة الريبة بكل الأساليب، بما في ذلك من خلال الأسلوب المتقشف والجدران العارية؛ ذلك أن الريبة هي محكّ الذهب بالنسبة لليقين.

146

حذر

من يفتقر إلى المعرفة العميقة يحسُن به حقاً أن يتجنب الكتابة في ألمانيا. فالألماني الفذّ لن يقول عنه هنا: «إنه جاهل»، بل: «إنه ذو طبع مشبوه.» - وهذا الاستنتاج المتسرع هو مع ذلك فضيلة تسجّل لصالح الألمان.

147

هيكل عظمي مزوّق

هياكل عظمية مزوّقة هم أولئك الكتّاب الذين يرومون تعويض ما ينقصهم من لحم بألوان مصطنعة.

148

الأسلوب الجزل والأسلوب الراقي

يتعلم المرء الكتابة بأسلوب جزل بأسرع مما يتعلم الكتابة بسهولة وبساطة. والأسباب في ذلك تضرب بعيداً في المجال الأخلاقي.

149

سيباستيان باخ

إن لم نستمع إلى باخ بأُذن العارف التام والعالم بنظام النغمة المعاكسة/ اللحن المضاف (contrapunkt) وبكل أنواع أسلوب الـ«فوغا»[٨٥]، ويكون علينا أن نتخلّى وفقاً لذلك عن المتعة الفنية الحقيقية، فسيكون لدينا انطباع (كي نستعمل العبارة البديعة لغوته) كما لوأننا كنا نشهد *اللحظة التي خلق الله فيها العالم*. يعني أننا نشعر بأن شيئاً عظيماً قيد التشكل، لكنه لم يوجد بعد: موسيقانا الحديثة *العظيمة*. فهذه الأخيرة قد تجاوزت العالم بتجاوزها للكنيسة وللقوميات ونظام النغمة المعاكسة. لدى باخ ما يزال هناك الكثير من المسيحية الخام، ومن الثقافة الألمانية الخام، ومن المدرسيّة (السكولائية) الخام؛ إنه يقف على عتبة الموسيقى الأوروبية (الحديثة)، لكنه يستدير بنظره من هذا الموقع باتجاه العصر الوسيط.

150

هاندل

هاندل الجريء في ابتكاراته الموسيقية، المولع بالتجديد، الحقيقي، العاتي، والمتجه نحو البطولية، وذو القرابة مع أقصى ما يمكن *لشعب* أن يبدي من البطولية، غالباً ما كان يجد نفسه مكرهاً وبارداً عند إنجاز عمله، بل و ضجِراً من نفسه؛ عندها يلجأ إلى استعمال بعض الأساليب المجرَّبة لينجز عمله، فيكتب كثيراً وبسرعة، ويكون سعيداً عند الانتهاء من ذلك، -لكن ليس سعيداً على غرار الربّ وكل المبدعين الآخرين مساء بعد الانتهاء من عمل يومهم.

151

هايدنْ

إذا ما كان ممكناً للعبقرية أن تتواجد جنباً إلى جنب مع طبع *إنسان مستقيم* لا غير، فإن هايدن كان ذا عبقرية. إنه يمضي رأساً حتى الحد الأقصى الذي تضعه الأخلاق للعقل؛ ويؤلف موسيقى «لا ماضي لها».

152

بيتهوفن وموتزارت

تتراءى موسيقى بيتهوفن غالباً مثل *تأمّل* عميق الانفعال لدى الاستماع مجدداً وبصفة غير منتظرة إلى مقطوعة من «براءة الأصوات» التي ظن المرء أنه قد طواها النسيان منذ زمن بعيد؛ إنها موسيقى عن الموسيقى. في أغاني المتسوّلين وأطفال الأزقة، وفي الأنغام الرتيبة للمسافرين الجوّالين الإيطاليين، في مراقص حانات القرى أو في أماسي الكرنفال؛ هناك كان بيتهوفن يجد «ألحانه»: يجمعها مثل النحلة وهو يقطف نغمة من هنا ومقطوعة مركبة مقتضبة من هناك. إنها بالنسبة

إليه ومضات *ذكريات* من «عالم المثل» شبيهة بما كان يعتقده أفلاطون حول الأفكار. -أما موتزارت فله علاقة مغايرة تماماً بألحانه: موتزارت لا يستمد إلهاماته من الاستماع إلى الموسيقى، بل من معاينة الحياة، من حياة الجنوب المشبعة حيوية: كان دائم الحلم بإيطاليا، عندما لا يكون هناك.

153

العزف المنفرد

كان العزف المنفرد في ما مضى جافاً؛ والآن نحيا زمن العزف المنفرد المبلّل: لقد وقع العزف المنفرد في الماء وغدت الأمواج تقذف به حيث تشاء.

154

الموسيقى «المرحة»

عندما يُحرم المرء لمدة طويلة من الموسيقى، فإنه يكون لها عليه بعد ذلك مفعول نبيذ جنوبي حادّ يتسرّب بسرعة إلى الدم ويخلّف لديه روحاً في حالة من الخدر، غافية ولا رغبة لها إلا في النوم؛ وهذا هو ماتفعله الموسيقى *المرحة* على وجه الخصوص، التي تمنح سامعها في الآن نفسه مرارة وألماً، قرفاً وحنيناً إلى الموطن، والكل في ما يشبه شراباً مسموماً محلّى يجد المرء نفسه في حاجة إلى ترشّفه وإعادة ترشّفه بصفة مستمرة. وفي تلك الأثناء تتراءى حُجرة متعة السُّكر البهيجة وهي تضيق بصاحبها أكثر فأكثر، والنور يبهت داخلها ويتعتّم؛ ويغدو المرء بالنهاية على انطباع كما لو أن الموسيقى تصدح داخل سجن حيث إنسان بائس يتقلب في الأرق بسبب الحنين إلى موطنه.

155

فرانز شوبرت

لئن كان فرانز شوبرت فناناً من درجة أدنى مقارنة ببقية كبار الموسيقيين، فقد كان بحوزته ***الإرث الموسيقي*** الأكبر. كان يبذر ذلك الإرث عن طيب خاطر وعلى نحو سيجعل الموسيقيين من بعد يجدون زاداً وفيراً من أفكاره وابتكاراته سيغتذون منه لبضعة قرون من الزمن. ففي أعماله يوجد كنز من الابتكارات غير المستعملة، وسيكون لآخرين أن يحققوا عظمتهم باستعمالها. -وإذا ما حق لنا أن نسمّي بيتهوفن بالمستمع المثالي لعازفٍ، فسيكون لشوبرت الحق في أن يسمّى بالعازف المثالي.

156

الأداء الموسيقي الأكثر حداثة

يكتسب الأداء الموسيقي (ذو الطابع) الدرامي التراجيدي طابعه من خلال محاكاة حركات أكبر الآثمين، كما تتمثله المسيحية وتتمنّاه: المتقدمَ بخطى بطيئة، الغارقَ في التفكّر، المتقلّب فوق عذابات الضمير، الفارّ فزعاً، الساعيَ انتشاء، المتجمد يأساً؛ وكل ما يمكن أن ينضاف إلى ذلك من علامات الخطيئة الكبرى. وضمن الشرط المسيحي وحده القائل بأن كل البشر خاطئين وأنهم لا يفعلون شيئاً آخر غير ارتكاب الخطايا، يمكن لذلك الأداء أن يجد مبرراً لتطبيقه على *كل* موسيقى، إذا ما سلّمنا بأن الموسيقى تشكل صورة عن كل أفعال وسلوكات الإنسان، وأنها، بما هي كذلك، مطالبة بأن تكون الناطق إيماءً باستمرار بلسان الخاطئ الأكبر. وسيكون لمستمع غير مسيحي بما فيه الكفاية، كي يفهم هذا المنطق، أن يصرخ مذعوراً أمام مثل هذا الأداء: «يا إلهي، من أين أتت الخطيئة إلى الموسيقى!»

157

فيليكس مندلسون

موسيقى فيليكس مندلسون هي موسيقى الذوق الرفيع في كل ما كان جيّداً في ما مضى: إنها تحيل دوماً على ما يقع خلفها. كيف يمكن أن يكون لها الكثير «أمامها»، أن يكون لها مستقبل كبير! -لكن هل كان مندلسون **يريد** أن يكون له ذلك؟ لقد كان حائزاً على فضيلة نادرة لدى الفنانين، فضيلة الاعتراف بالجميل دون نوايا خفيّة: وهذه الفضيلة أيضاً تحيل دوماً على ما يقع خلفها.

158

أب الفنون

في عصرنا الريبيّ هذا ستكون بطولية **الطموح** العاتية إحدى أركان العبادة الحقيقية، حيث لم تعد تلك الحركات المتزمّتة المتمثلة في إطباق الجفنين وثَنْي الركبتين كافية. ألا يمكن للطَموح إلى بلوغ أعلى قمة للتقوى أن يصبح أباً لآخر موسيقى كنسيّة، كما كان في ما مضى أباً لآخر نمط معماري كنسي (ذلك الذي نسمّيه بالنمط اليسوعي)؟

159

حرية في القيود؛ حريّة ملَكيّة

آخر الموسيقيين الجدد، الذي أبصر الجمال وعبده، على غرار ليوباردي، هو البولوني شوبان الفريد من نوعه (نعت لا يحق لأحد ممن جاء قبله أوبعده أن يطمع في أن يلحق به)، شوبان كان حائزاً على تلك النبالة الأميرية المتعلقة بالتقاليد نفسها التي كان يبديها رافائيل في استعمال الألوان التقليدية الأكثر بساطة،-لكن ليس في ما يتعلق بالألوان، بل في ما يتعلق بالتقاليد النغمية والإيقاعية. كان يتقبلها

كمعطى ثابت في لوح الأعراف، لكن وهو يلعب ويرقص في تلك القيود مثل أكثر العقول حرية ورشاقة، -وذلك دون تهزئتها.

160

جندوليّة شوبان

لكل الأوضاع ولكل أنماط العيش لحظة سعادتها. تلك اللحظة هي التي يلتقطها الفنانون الجيدون. تعرف ذلك أيضاً حتى الحياة على حافة البحر، تلك الحياة المملة القذرة، غير الصحية وبجوار الأوغاد الأكثر صخباً وجشعاً؛ تلك اللحظات السعيدة هي التي جعلها شوبان تصدح في الجندولية (barcarole)، مما سيجعل الآلهة نفسها تشتهي وهي تستمع إليها أن تقضي أماسي صيفية طويلة مستلقية فوق قارب.

161

روبرت شومان

صورة «الفتى» التي كان يحلم بها مؤلفو الأغاني من الرومانسيين الألمان والفرنسيين للثلث الأول من القرن التاسع عشر، تلك الصورة هي ما ترجم عنها روبرت شومان نغَماً وغناء: الفتى الأبدي، طالما ظل يشعر بنفسه في أوج قوته؛ غير أن هناك في الحقيقة لحظات كانت موسيقاه تذكّر فيها بـ«العانس» الأبدية أيضاً.

162

مغنو الأوبرا

«ما الذي يجعل هذا الشحّاذ يغنّي؟» - من المحتمل أنه لا يجيد التأوّه. «إذاً حسناً يفعل إذ يغني؛ لكنّ مغنّيي الأوبرا الذين يتأوّهون لأنهم لا يجيدون الغناء، هل حسناً يفعلون هم أيضاً؟»

163

الموسيقى الدارمية

من لا يرى ما يجري فوق الخشبة سيجد الموسيقى الدرامية لغواً لا طائل من ورائه[٨٦]، تماماً مثل شروح وتعليقات متواصلة على نصّ طواه النسيان. فهي تتطلب في الحقيقة أن تكون أذُنا المستمع في الموضع الذي توجد فيه عيناه؛ إلا أن ذلك تعسّفٌ على أويتربا[٨٧]؛ فربّة الإلهام الموسيقي المسكينة لا تريد منا سوى أن ندع عينيها وأذنيها في موقعها الذي توجد فيه لدى بقية ربّات الإلهام.

164

الانتصار والعقل

حتى في الحروب التي يخوضها الفنانون بأعمالهم وبالخطابات التي يدافعون بها عن تلك الأعمال تكون الغلبة، ويا للأسف، للقوة في المقام الأول وليس للعقل. لقد غدا الآن بمثابة الحقيقة التاريخية بالنسبة للجميع أن غلوك[٨٨] كان على حق في معركته ضد بيسّيني[٨٩]: وقد كان الانتصار حليف غلوك على أية حال؛ فقد كانت القوة إلى جانبه.

165

عن مبدأ الأداء الموسيقي

هل يعتقد فنانو الأداء الموسيقي الحاليّون حقاً أن أسمى رسالة لفنّهم تتمثل في منح كل مقطوعة أكبر قدر ممكن من *النتوء*، وجعلها بأي ثمن تنطق بلغة *درامية*؟ وإذا ما طبّق هذا على موتزارت، ألا يكون ذلك خطيئة حقيقية في حق الروح، في حق الروح المرحة المشمسة، الناعمة والخفيفة لموتزارت، روح ذات جدّية مريحة، لا جديّة

مفزعة، وصورها لا ترغب في أن تقفز خارجة من الحائط كي تفزع المتفرج وتجعله يلوذ بالفرار. أم لعلكم ترون أن موسيقى موتزارت هي المرادف لـ «موسيقى ضيف من حجر»؟ ، وربما ليست موسيقى موتزارت وحدها، بل الموسيقى عامة؟ -لكنكم تجيبون بأن ***التأثير*** القويّ يحكم لصالح مبدئكم، وأنتم محقون في ذلك، ما دمنا لا نرد عليكم بالسؤال المضاد، ***على من*** تمّ ذلك التأثير، وعلى من **يحق** للفنان الراقي ***أن يرغب*** أصلاً في التأثير؟ -ليس على عموم الشعب بأي حال من الأحوال! ولا على غير الناضجين! ولا مفرطي الحساسية! ولا على المرضى! وعلى الأخص: ليس على المنهَكين.

166

موسيقى عصرنا الحاضر

هذه الموسيقى الحديثة برئتيها القويتين وأعصابها الواهنة تشعر دوماً بالذعر من نفسها في البداية.

167

أين تنتعش الموسيقى

لا تكتسب الموسيقى قوّتها إلا بين أناس من أولئك الذين لا يستطيعون الجدال أو لا يحق لهم ذلك. ولذلك يكون أصحاب الدرجة الأولى من رعاتها هم الأمراء الذين يريدون أن لا يكون هناك كثير من الجدل، بل وحتى من التفكير من حولهم؛ تلي هؤلاء مجموعات بشرية من تلك التي يكون عليها، بحكم ضغوط بعينها (أميريّة أو دينية)، أن تعوّد نفسها على الصمت، ويكون عليها بالتالي أن تبحث لها عن وسائل سحرية قوية لمقاومة الضجر (تتمثل في المحبة الخالدة عادة، والموسيقى الخالدة)؛ وفي المرتبة الثالثة تأتي شعوب بأكملها لا وجود

لـ«مجتمع» داخلها، بل بالأحرى لأفراد ذوي نزوع إلى الوحدة والأفكار المجلّلة بالغموض، وإجلال كل ما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات: وهؤلاء هم الطبائع الموسيقية الحقيقية. لذلك لم يكن اليونانيون، وهم شعب خطابة وجدال، ليقبلوا بالموسيقى إلا كعنصر مكمّل لبقية الفنون التي تسمح بإمكانية الكلام والجدال حولها؛ بينما الموسيقى لا تكاد تمنح نفسها موضوعاً لتعمّق مستفيض في التفكير. لقد كان الفيثاغوريون، أولئك اليونانيون الاستثنائيون حسب ما يقال، موسيقيين كباراً أيضاً: هم الذين ابتكروا الإمساك لخمس سنوات عن الكلام، ولم يكونوا من مبتكري الجدل.

168

العاطفية في الموسيقى

أياً كان ولعنا بالموسيقى الجدية والدسمة، فإننا سنجد أنفسنا في ساعات بعينها مأخوذين ومسحورين وذائبين وجداً تقريباً بنقيضتها؛ أعني بتلك المقطوعات البسيطة جداً من الأوبراليات الإيطالية الموغلة في البساطة، تلك التي تبدو، بالرغم من رتابتها الإيقاعية وصبيانية تناغمها، كما لو أنها تغني في أسماعنا بروح الموسيقى نفسها. ولئن أقررتم بذلك أم لم تقرّوا، أنتم يا فرّيسيي الذوق الراقي؛ ***فالأمر كذلك***، وإن ما يشغلني الآن هو أن أطرح هذا اللغز، لغز كون الأمر كذلك، أطرحه للحل، وأن أحاول بدوري أن أتلمس بعض المسارب لحله.

عندما كنا أطفالاً تذوّقنا العسل البكر لأشياء كثيرة لأول مرة، ولم نجد بعدها للعسل تلك الحلاوة التي كانت له آنذاك؛ كان مذاقاً يستدرج إلى الحياة، إلى حياة أطول في شكل أول ربيع، وأول زهور، وأول فراشات، وأول صداقة. في ما مضى-ربما كان ذلك في السنة

التاسعة من عمرنا- استمعنا لأول موسيقى، وكانت تلك الأولى التي **فهمناها**، أي تلك البسيطة والصبيانية التي لم تكن شيئاً آخر غير استمرار لأغنية المرضعة ولحن العازف الجوّال. (على المرء أولاً أن يكون *مهيئاً ومدرَّباً* كي يستطيع أن يتقبّل حتى أبسط «تجلّيات» الفن: فليس هناك على الإطلاق من تأثير «مباشر» للفن، مهما تفنن الفلاسفة في ابتداع الخرافات في هذا الشأن.) ذلك الافتتان الأول بالموسيقى- الأقوى على الإطلاق في حياتنا- هو الذي يستند إليه إحساسنا لدى الاستماع إلى تلك الأغاني الإيطالية القصيرة والبسيطة melismas: سعادة الطفولة والطفولة الضائعة، إحساس خسارة ما لا يستعاد من أغلى ما نملك، -ذلك هو ما يحرّك أوتار روحنا بقدر من القوة لا يقدر عليه حضور الفن وحده مهما بلغ من الثراء والجدية. - ذاك المزيج من البهجة الجمالية والحزن المعنوي، الذي اعتدنا تسميته الآن «عاطفية»، بكثير من التحقير كما يبدو لي (الحالة النفسية لفاوست في نهاية المشهد الأول)، هذه «العاطفية» لدى المستمعين شيء لصالح الموسيقى الإيطالية، تلك التي يحلو لذوّاقي الفن المتمرّسين، «الإستيطيقيين» الخالصين، أن يتجاهلوها. -وعلى العموم فإن كل موسيقى تقريباً لا يكون لها مفعولها *الساحر* إلا من ذلك الموضع الذي نسمع فيه *ماضينا* الخاص الذي يخاطبنا من خلال لغتها: هكذا تبدو كل موسيقى قديمة لغير العارف أفضل فأفضل على الدوام، وكل موسيقى حديثةِ النشأة تتراءى له قليلةَ القيمة؛ ذلك أنها لا تثير فيه «العاطفية» التي تمثل كما سبق أن ذكرنا العنصر الأساسي للسعادة التي تمنحها الموسيقى لكل من يستطيع أن يجد متعته في هذا الفن دون أن يكون فناناً خالصاً.

169

بوصفنا أصدقاء للموسيقى

ونظل في النهاية نحبّ الموسيقى، مثلما نظل نحبّ القمر. فكلاهما لا يريدان أن يحلاّ محلّ الشمس؛ إنهما لا يريدان سوى أن يضيئا ليالينا قدر المستطاع. لكن، ومع ذلك... ألا يحق لنا أن نمزح ونسخر منهما؟ قليلاً على الأقل؟ وبين الحين والآخر؟ أن نسخر من الرجل في القمر! ومن المرأة في الموسيقى!

170

الفن في عصر العمل

ضميرنا هو ضمير عصر **مجتهد**؛ وهذا لا يسمح لنا بأن نهب أفضل ساعاتنا وصباحات أيامنا للفن، حتى وإن كان أعظم وأنبل ما يوجد من الفنون. يظل الفن بالنسبة إلينا شأناً من شؤون أوقات الفراغ والاستراحة؛ شأناً نمنحه ***بقايا*** وقتنا وطاقاتنا. تلك هي الخاصّية الأساسية العامة التي طرأ من خلالها تغيير على موقع الفن من الحياة: عندما يتجه الفن إلى متلقّيه بمتطلباته ***العالية*** فيما يتعلق بالطاقة والوقت، ***يؤلّب على نفسه*** ضمير العاملين والفاعلين، وينحصر جمهوره في فئة العاطلين وعديمي الوعي الذين ليسوا مهيّئين بطبعهم لتقبّل الفن العظيم، وتتراءى لهم متطلباته ضرباً من ادعاءات الغرور. هكذا يجد الفن نفسه مقبلاً على نهايته، لأنه غدا يفتقر إلى الهواء وإلى التنفس بحرية؛ أو أنه سيكون على الفن الراقي أن يحاول من خلال نوع من التنكر واتخاذ هيأة الفظاظة أن يتأقلم مع ذلك الهواء المغاير (أن يستطيع تحمّله على الأقل) الذي هو في الحقيقة العنصر الطبيعي الخاص بالفن ***الصغير***، فن الاستراحة والتسلية الممتعة. ذلك هو ما يجري الآن، ففي كل مكان يعرض الفنانون الكبار وعوداً بتوفير

الاستراحة والتسلية، وقد غدوا يتوجّهون هم أيضاً إلى المتعبين، ويتوسّلون هم أيضاً هؤلاء أن يمنحوهم ساعات المساء من يوم كدحهم، تماماً كما يفعل فنانو التسلية الذين يشعرون بالغبطة وهم يرون أنهم حققوا انتصاراً على ثقل جديّة الجباه المقطّبة والأعين الغائرة. لكن فيم تتمثل حيلة زملائهم من الفنانين الكبار؟ يحمل هؤلاء في جُعبتهم أقوى وسائل الإثارة التي بوسعها أن تجعل المحتضر يهبّ منتفضاً؛ لديهم وسائل للتخدير، للانتشاء، لإحداث الصدمات، ولإثارة نوبات البكاء؛ وسائل يستولون بها على مهجة المتعَب ويزجّون به في حالة من التهيّج المرهِق، من الخروج عن الطور انتشاء وذعراً؛ فهل يحق لنا، بسبب هذه الوسائل الخطيرة أن نؤاخذ الفن الراقي، كما نراه يتجسد اليوم في شكل أوبرا وتراجيديا وموسيقى، وأن نصبّ حنقنا عليه كآثم مخادع؟ طبعاً لا: فهو نفسه، سيفضل دون شك أن يعيش داخل العنصر النقي للسكون الصباحي، وأن يتوجه إلى مخاطبة الأرواح البكر الفتية لمستمعين ومتفرجين مفعمين قوة وآمالاً. بل لنشكرْه لأنه فضّل الحياة على هذا النحو بدلاً من توخّي الهروب: لكن لنعترف لأنفسنا أيضاً بأن فنّنا الراقي هذا سيجد نفسه وقد فقد صلاحيته ومبرّر وجوده لمجرّد أن يحلّ عصر سعيد إلى الحياة مباهجها ويغمرها أعياداً ومسرّات.

171

موظَّفو العِلم والآخرون

يمكننا أن نطلق اسم «الموظفين» على العلماء المقتدرين حقاً والمكلّلين بالنجاح. وإذا ما تم لهم منذ السنوات المبكرة من عمرهم أن يتمتعوا بدربة كافية لمقدراتهم العقلية، وقد حازت ذاكرتهم قدراً عالياً من المعارف، واكتسبت يدهم وعينهم خبرة ووثوقاً، فإنه سيتم توجيههم

من قبل واحد من العلماء الأكبر سناً إلى وظيفة في المجال العلمي تستطيع مزاياهم أن تحقق فائدة داخلها؛ ثم سيكون لهم لاحقاً، بعد أن تتكون لهم نظرة خاصة على مواقع الضعف والثغرات في تكوينهم العلمي، أن يوجهوا أنفسهم بأنفسهم إلى احتلال المواقع التي يكون وجودهم فيها ضرورياً. هذه الطبائع في مجملها تكون هناك فقط لخدمة العلم؛ لكن هناك قلة من طبائع أخرى من النادرين الذين كتب لهم النجاح وبلغوا نضجاً مكتملاً، «يكون العلم هو الذي في خدمتهم»، أو ذلك هو ما يتراءى لهم على الأقل؛ أشخاص كريهون غالباً، مغرورون غالباً، عنيدون غالباً، لكنهم في معظم الأحيان أيضاً أناس ساحرون إلى حد ما. هؤلاء ليسوا موظفين ولا هم يوظَّفون، بل يستغلّون ما أنجزه الآخرون وأثبتوه، ببرودةِ تعالٍ ملكيٍّ، وبما قلّ وندر من الثناء؛ كما لو أن أولئك الآخرين كائنات من صنف أدنى من البشر. ومع ذلك فهم لا يملكون من الميزات سوى تلك التي يتميز بها أولئك الآخرون، بل وأحياناً بمستوى منقوص من التطور؛ ويتميزون علاوة على ذلك *بضيق أفق* لا يوجد لدى الآخرين، يحول دون منحهم وظيفة ويجعل من غير الممكن أن يرى المرء فيهم أدوات عمل ذات فائدة؛ إنهم لا يستطيعون العيش إلا فوق أرضهم الخاصة والتنفس من *هوائهم الخاص*. يمنحهم ضيق الأفق ذاك فكرة عما يعتبرونه «ملكاً لهم» في علم ما، أي ما يستطيعون أن يحملوه معهم إلى هوائهم ومسكنهم الخاص؛ إنهم يتوهمون دوماً تجميع ما هو مشتت من «ممتلكهم». وإذا ما منعوا من بناء عشهم الخاص فإنهم يهلكون كما تهلك الطيور التي لا مأوى لها؛ فانعدام الحرية يعني التلف بالنسبة لهم. وإذا ما تطرقوا إلى مجالات بعينها من العلم بالطريقة التي يتطرق بها إليها الآخرون، فلن يكون ذلك إلا في تلك المجالات التي تَيْنع فيها البذور والثمار التي يحتاجون إليها لأنفسهم؛

فما الذي يعنيهم إذا ما كان للعلم، منظوراً إليه في مجمله، مناطق غير مفلوحة أو تفتقر إلى الرعاية والصيانة؟ إنهم يفتقرون إلى كل ما هو مشاركة **لا شخصانية** في مسألة من مسائل المعرفة؛ وكما أن الواحد منهم محض أنانية من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، فإن كل مواقفهم ومعارفهم تنمو بدورها وتلتئم في كيان فردي موحّد، كيان حيّ مركّب مترابطة أجزاؤه بعضها ببعض، متعالقة تغتذي كلها معاً من نفس الغذاء؛ وحدةً كلّية لها هواؤها الخاص ورائحتها الخاصة.

ينشأ عن هذه الطبائع من خلال صنيعاتها الإبستيمية ***المشخْصنة*** ذلك التوهّم بأن علماً ما(بل وربما مجمل الفلسفة) قد استكمل مساره وبلغ غايته الأخيرة؛ الحياة التي في صنيعاتها هي تمارس ذلك السحر؛ سحرٌ قد مثّل في أزمنة بعينها خطراً قاتلاً بالنسبة للعلم وعنصر تضليل لأولئك العاملين الأكفاء المسخّرين للعلم الذين تكلّمنا عنهم آنفاً؛ لكنه، في أزمنة أخرى كان يهيمن فيها الجدب والوهن، قد مارس فعلَ بَلْسمٍ وشيء شبيه بنفحة هواء طري منعش من مكان استراحة ممتع هادئ. -هؤلاء الناس نُسمّيهم عادةً فلاسفة.

172

الاعتراف بالموهبة

عندما كنت ماراً بقرية س، شرع صبيّ في صفع الهواء بسوطه بكل قواه؛ كان ذا دُربة عالية في ذلك الفن، وكان يعلم ذلك. ألقيت نظرة إعجاب باتجاهه؛ وفي الحقيقة كان ذلك قد آلمني **شديد الألم**. - هكذا نفعل لدى إبداء اعترافنا بالعديد من المواهب: نكون لطيفين معها في الوقت الذي تؤلمنا فيه.

173

الضحك والابتسام

كلما ازداد الإنسان مرحاً ووثوقاً تخلّى عن الضحك الصاخب؛ وبالمقابل تتنامى لديه ابتسامة سكينة روحية كعلامة على دهشته أمام العدد اللامتناهي لمفاتن الوجود الخفية.

174

سلوان المرضى

مثلما يعمد المرء إلى نتف شعره وخبط جبينه وتقطيع خدّيه في حالات الحزن العميق، أو ربما يفقأ عينيه أيضاً على غرار أوديبوس، فإنه يستدعي لمواجهة الآلام الجسدية الشديدة أحاسيس شديدة المرارة أيضاً من خلال تذكر المفترين والمشككين، ومن خلال تعتيم وجه المستقبل، أو تصوّر أعمال شريرة وطعنات خناجر يوجهها إلى أناس غائبين. صحيح أننا نستطيع من خلال ذلك أن نجعل شيطاناً يطرد عنا شيطاناً آخر؛- لكن سيظل لدينا عندها ذلك الشيطان الثاني. - لذلك سنَنصح بتسلية أخرى تبدو ناجعة في تخفيف الآلام: أن نفكر في أفعال إحسان وحركات مودّة يمكننا أن نعامل بها أصدقاءنا وأعداءنا.

175

الرداءة قِناعاً

الرداءة هي أفضل قِناع يمكن أن يضعه المتفوّق، لأنها لا تجعل الأغلبية الساحقة، أي الرديئين، يشكّون في وجود قناع؛ ومع ذلك فهو يضعه مراعاة لمصلحتهم، كي لا يثيرهم، بل وفي حالات غير قليلة رأفةً بهم وإحساناً إليهم.

176

الصبورون

شجرة الصنوبر تبدو مصغية، وشجرة الأرَز تنتظر؛ وكلتاهما دون نفاد صبر: إنهما لا تفكران في الإنسان الحقير الذي يقف تحتهما يتآكله الفضول ونفاد الصبر.

177

أفضل المزاح

أحب الأشياء لديّ هي المزحة التي تنوب عن فكرة غاية في الجدية وغير مطمئنة، إشارةَ إصبعٍ وغمزةَ عين في الآن نفسه.

178

مكمّلات كل إجلال

حيثما يكون هناك إجلال للماضي، لا ينبغي أن يُفسح المجال للمولعين بالنقاوة والمنظِّفين. فالعبادة لا يستقيم لها حال دون شيء من الغبار والقاذورات والأزبال.

179

الخطأ الكبير الذي يتهدد العلماء

إن العلماء الأكثر متانة وجدية بالذات هم الذين يتهددهم خطر أن يروا هدف حياتهم ما ينفك يتدهور إلى مستويات أكثر فأكثر تدنياً، وأن يروا أنفسهم، تبعاً لوعيهم بذلك، يغدون خلال النصف الثاني من حياتهم أكثر فأكثر كآبة، وأكثر فأكثر إزعاجاً. في البداية يلقون بأنفسهم باندفاع لامحدود في نشاطهم العلمي ويطرحون على أنفسهم مهمات عالية الجرأة تكون غاياتها قد تجسدت في خيالهم مسبقاً؛ ثم تأتي عليهم

لحظات شبيهة بتلك التي تعرفها حياة كبار الملاحين والمكتشفين، تتفاعل المعرفة فيها والحدس والقوة وترفع واحدتها من وتيرة الأخرى إلى أن تلوح للعين للمرة الأولى صورة ساحل جديد بعيد. إلا أن الإنسان الصارم سيدرك أكثر فأكثر مع مرور السنين كم سيكون من المهم أن يحصر الباحث لنفسه مهمةً محدودة قدر الإمكان كي يتم حلها *بصفة كاملة* مع تفادي ذلك التبديد الشنيع للطاقات الذي ظلت العلوم تعاني منه في حقبها المبكرة: كانت كل المهمات تنجز ويعاد إنجازها عشر مرات، كي تكون الكلمة الفصل بالنهاية للمرة الحادية عشرة دوماً. وكلما تقدم العالم في التمكّن بهذه الطريقة من حل المسائل *بصفة كاملة* تضاعفت متعته في ذلك أيضاً؛ لكن كذلك تنمو بالمقابل صرامة متطلباته فيما يتعلق بما يسمّى هنا «دون نقصان». سيطرح جانباً كل ما سيكون عليه بهذا المعنى أن يظل غير مكتمل، وستنشأ لديه حاسة شم ونفور من كل ما هو قابل للحل جزئياً فقط، - ضد كل ما لا يمنح نوعا من الوثوق إلا إجمالاً وبشكل غير محدد. تتهاوى مخططات سنوات شبابه وينحلّ نسيجها أمام عينيه، ولا يكاد يتبقى من ذلك كله سوى بعض عقد سيجد المعلّم الحاذق متعته في حلها ويختبر طاقاته الآن في معالجتها. لكن، هاهو الآن في خضم هذا العمل النافع والمستمر، وقد غدا متقدماً في السن، تتملكه بصفة فجائية ومتكررة حالة من الإحباط العميق، نوع من تأنيب الضمير: ينظر إلى نفسه نظره إلى شخص قد طرأ عليه تحوّل، كما لو أنه قد غدا مصغّراً، محقّراً ومنذوراً لأشغال من حِرف الأقزام الحاذقين؛ ويغدو يتساءل بقلق إن لم يكن هذا الإتقان الذي تظهره مهارته في المهمات الصغيرة نوعاً من الركون إلى الراحة، وهروباً من نداء العظمة في الحياة والإبداع. لكنه لم يعد بإمكانه الآن العبور إلى الضفة الأخرى؛ -لقد بلغت حصته نهايتها.

180

المعلمون في زمن الكتب

بما أن إمكانيات تعلّم المرء بمفرده أو ضمن مجموعات متآخية في التعليم قد راحت تتعمم، فإن وجود المعلم على الشكل الذي نعرفه عليه اليوم سيصبح غير ضروري تقريباً. فالأصدقاء المولعون بالتعلم والذين يرومون التعاون على تحصيل المعرفة سيجدون في عصرنا الذي هو عصر الكتب طريقاً أقصر إلى ذلك وأكثر طبيعية من طريق «المدرسة» و«المعلّم».

181

الغرور كاداة للمنفعة الكبرى

في البدء لم يكن الفرد القوي يعامل الطبيعة وحدها، بل المجتمع أيضاً والأفراد الضعفاء كمواضيع لاستغلال استنزافي: يستعملها أقصى ما يمكنه استعمالها ثم يمضي. وبما أنه كان يعيش في حالة من عدم الأمان في مراوحة بين الجوع وفائض الوفرة فإنه يقتل من الحيوانات أكثر مما يستطيع أن يأكل، وينهب ويسيء معاملة البشر أكثر مما يمكن أن يكون ضرورياً لحاجته. إن التعبير عن قوّته في الآن نفسه تعبير عن انتقامه من حالة خوفه وعوزه؛ بعدها يريد أن يبدو في عين الآخرين أكثر قوة مما هو عليه في الحقيقة، ويذهب بالتالي إلى الشطط في استغلال الفرص: فائض الخوف الذي يثيره في الآخرين هو فائض قوة. إنه يلاحظ في الوقت المناسب أن ما *يبدو عليه*، وليس ماهو في الحقيقة، هو ما يرفع من شأنه أو يحط منه: هنا يكمن أصل *الغرور*. فالقوي يسعى بكل الوسائل إلى مضاعفة الإيمان بقوته. وبالمقابل يدرك الخاضعون لسلطته، الذين يرتجفون خوفاً أمامه ويخدمونه أن قيمتهم تعادل ما *يمثلونه* في نظره؛ لذلك يتجه اهتمامهم وسعيهم كله

نحو ذلك الاعتبار وليس نحو إرضاء رغباتهم الخاصة. إننا لا نعرف الغرور إلا في أشكاله المخفَّفة إلى أبعد الحدود، في تجسداته المصعّدة وبمقاديره الصغيرة، لأننا نحيا داخل أوضاع متأخرة زمنياً وملطَّفة من الحياة المجتمعية: في البدء كان الغرور عنصر الفائدة الكبرى وأقوى وسائل البقاء. وفي الحقيقة فإن الغرور يكون أكبر كلما كان الفرد أكثر ذكاء، لأن مضاعفة الإيمان بالقوة أيسر من مضاعفة القوة نفسها، لكن فقط لذلك الذي يكون ذا عقل، -أو، كما كان ينبغي أن يقال في الأوضاع البدائية، ***للماكر والداهية المتستّر***.

182

علامات أحوال الطقس في الثقافة

إن العلامات الواثقة لأحوال الطقس في الثقافة قليلة جداً بحيث سنكون سعيدين جداً إذا ما حُزنا (على الأقل) على واحدة غير مضللة لمساعدتنا في أعمالنا اليومية في البيت والحديقة. ولكي تختبر إن كان أحد ما ممن ينتمي إلينا أم لا-أعني إلى المفكرين الأحرار-، علينا أن نختبر إحساسه تجاه المسيحية. فإن كان موقفه شيئاً آخر غير موقف *نقدي* تجاهها أوليناه ظهرنا؛ إنه يجلب معه هواء غير نقي وطقساً رديئاً. -لم تعد مهمتنا هي أن نعلّم هؤلاء الناس ما هي ريح السموم، فلديهم موسى وكل أنبياء الطقس والأنوار: وإذا ما كانوا لا يريدون الإصغاء إلى هؤلاء... فذلك شأنهم.

183

للغضب والعقاب زمنهما

الغضب والعقاب هما هِبة الطور الحيواني لنا. ولن يغدو الإنسان راشداً إلا عندما يكون قد أعاد إلى الحيوان هدية المهد هذه. -هنا

تكمن الفكرة الأعظم التي يمكن أن يتوصل إليها البشر، فكرة تقدّم فوق كل تقدم. لنمض بضعة آلاف من السنين إلى الأمام معاً، أيها الأصدقاء! هناك كمّ هائل من الفرح مازال ينتظر الإنسان مما لم يدغدغ بعد أنف إنسان زمننا الحاضر! وإنه ليحق لنا أن نعِد أنفسنا بهذا الفرح، بل وأن نعلن عنه ونستدرج حلوله، شريطة أن **لا يتوقف** العقل البشري عن التطور. وسيأتي يوم سنكفّ فيه عن ***تحمّل أعباء*** الخطيئة المنطقية التي تتم ممارستها فردياً أو اجتماعياً في الغضب والعقاب، وتختفي داخلهما؛ ذات يوم عندما يكون القلب والعقل قد تعلما العيش جنباً إلى جنب، عوضاً عن العيش متباعدين ومنفصلين كما هو الحال الآن. وإن نظرة على مجمل مسار الإنسانية بوسعها أن تظهر لنا على نحو بيّن تقريباً كيف أنهما ***لم يعودا يقيمان منفصلين كثيراً*** أحدهما عن الآخر كما كانا في البدء، وكل من احتضن ببصره حياة بكاملها من العمل الباطني سيدرك بفرحة وفخر مدى المسافة الفاصلة التي تم تذليلها والتقارب الذي تحقق، كي يحق له تبعاً لذلك أن يجرؤ على تغذية آمال أكبر.

184

من أين ينحدر «المتشائمون»

إن لقمة من غذاء جيّد تحدد غالباً إن كنا سننظر إلى المستقبل بأعين غائرة أو بكثير من الأمل؛ ويصحّ هذا أيضاً على الأشياء الأرقى والأعمق فكراً. فعدم الرضا والأفكار السوداوية قد انتقلت إلى الأجيال الحاضرة **كإرث** عن جوعى العصور الماضية. وغالباً ما نلاحظ لدى فنانينا وشعرائنا، وبالرغم من رغد العيش الذي ينعمون به، أنهم لا ينحدرون عن أصل جيّد، وأن أشياء كثيرة قد انتقلت إلى دمائهم وأدمغتهم من سلفٍ من ضحايا الاضطهاد وسوء التغذية، وتعاود

الظهور كمواضيع وألوان بعينها داخل أعمالهم. لقد كانت حضارة اليونانيين حضارة موسرين، موسرين عريقين في الثراء على وجه التحديد: لقد عاشوا على مدى قرون من الزمن حياة *أفضل* مما نعيش الآن (أفضل بكل المعاني، أكثر بساطة في المأكل والشراب خاصة)؛ وهكذا غدت عقولهم في النهاية أكثر امتلاء وأكثر رهافة، وغدت الدماء تتدفق عبرها مثل خمرة صافية وبهيجة مما جعل الأشياء الحسنة والأكثر جودة لديهم لا تتجلّى في هيأة قاتمة، انتشائية وعاتية، بل جميلة ومشعّة.

185

عن الموت الحكيم

أيهما أكثر حكمة، أن نوقف الآلة عندما يكون العمل المطلوب منها قد أُنجز، أم أن ندعها تمضي في الاشتغال حتى تتوقف من تلقاء نفسها، أي حتى تكون قد خربت؟ أليست الحالة الثانية تبذيراً في تكاليف الصيانة وتبديداً لطاقة ولرعاية القائمين على تشغيلها؟ أوَلا نشيع نوعاً من الاحتقار للآلة عموماً من خلال الإصرار على مواصلة صيانتها واستعمالها دون منفعة؟ -إنني أتكلم هنا عن الموت اللاطوعي (الطبيعي) وعن الموت الطوعي (الحكيم). فالموت الطبيعي هو ذاك الذي لا تحكمه أية إرادة حكيمة، الموت *غير الحكيم* حقاً، ذلك الذي تكون المادة الحقيرة للقشرة فيه صاحبة القرار بشأن ما إذا كان يحق للبّ أن يظل قائماً أم لا: أي أن يكون ذلك السجّان المترهّل الذي غالباً ما يكون مريضاً وبليد الذهن هو السيّد الذي بيده أن يحدد الموضع والوقت اللذين ينبغي أن يموت فيهما سجينه ذي المنزلة النبيلة. الموت الطبيعي هو انتحار الطبيعة، أو بما معناه إبادة العنصر الحكيم من خلال العنصر الأهوج المرتبط به. ولا يبدو الأمر على

نحو مغاير إلا من وجهة النظر الدينية؛ إذ هناك، كما هو معتاد، يكون العقل الأعلى (عقل الإله) هو الذي يملي أمره الذي ينبغي على العقل الأدنى أن يمتثل له. وخارجاً عن مجال نمط التفكير الديني لا يكون الموت الطبيعي جديراً بأي تقدير. -سيكون الاعتبار العاقل والموقف الحكيم تجاه الموت من مشمولات أخلاق مستقبلية تبدو حالياً غير قابلة للتصور -ولاأخلاقية، أخلاق مستقبلية ستكون مشاهدة طلوع فجرها لحظة سعادة لا توصف.

186

مفعول نكوصيّ

يرغم المجرمون المجتمع على الارتداد إلى مستويات سابقة من الحضارة متخلفة عن المستوى الذي توجد عليه في حاضرها؛ إن لهم مفعولاً نكوصياً. لنفكر فقط في الأدوات التي يجد المجتمع نفسه مضطراً إلى ابتداعها ورعايتها من أجل حماية نفسه: الشرطي ذو العين الماكرة والسجّان والجلاد، ولا ننس المدعي العام والمحامي؛ ولنتساءل بالنهاية عما إذا لم يكن للقاضي نفسه، وللعقاب والمحاكمات على غير المجرمين من المواطنين، مفعولُ ظاهرات محبِطة أكثر منها عوامل طمأنة. كلا، لن نُفلح البتة في أن نخلع على الدفاع عن النفس والانتقام معطف البراءة؛ وما دمنا نواصل استعمال الإنسان وسيلة لخدمة غايات المجتمع ونضحي به من أجلها سيكون للإنسانية الراقية داع مبرّر للحزن على ذلك.(٩٠)

187

الحرب كعلاج

للشعوب التي في طور الترهّل والرثاثة يمكن أن يُنصح بالحرب كوسيلة

للعلاج؛ هذا إذا ما كانت لديها حقاً رغبة في الاستمرار في الحياة، ذلك أن هناك أيضاً علاج الصدمة لمداواة وهن الشعوب. فالرغبة المستديمة في الحياة وعدم القدرة على الموت علامة على شيخوخة الأحاسيس؛ وبقدر ما نقضي الحياة على نحو ممتلئ وقوي، بقدر ما يكون استعدادنا أكبر لكي نضحي بحياتنا من أجل إحساس واحد رائق. إن شعباً يحيا ويحس على هذا النحو لا يكون بحاجة إلى الحرب.

188

التطعيم الجسدي والذهني

الحضارات المختلفة هي مناخاتٌ ذهنية مختلفة، وكل واحدة منها تكون مضرّة أو نافعة بالنسبة لهذا الجسد أو ذاك. والتاريخ في مجمله باعتباره علماً بمختلف الحضارات هو *علم صيدلة*، لكنه ليس علم المعالجة نفسه، ويظل الطبيب ضرورياً لممارسة تلك المعالجة لكي يرسل بكل شخص إلى المنطقة المناخية التي تناسب عافيته، لفترة من الزمن أو إلى الأبد. إن العيش في الحاضر داخل فضاء حضاري واحد لا يكون كافياً كوصفة عامة، وسيهلك داخله عدد كبير من أصناف الرجال المفيدين جداً، لأنهم لا يستطيعون التنفس من هواء صحي داخل ذلك الفضاء. ينبغي إذاً أن نمنحهم *هواء* بواسطة التاريخ وأن نسعى إلى الحفاظ عليهم؛ فحتى أهل الحضارات المتخلفة لهم قيمتهم هم أيضاً. وكإجراء تكميلي مرافق لهذا العلاج الذهني، على الإنسانية أن تسعى في المجال الجسماني إلى تأسيس علم جغرافيا طبية تحدد نوعية مظاهر التفكك والأمراض التي تتسبب فيها كل منطقة، وكذلك عوامل الشفاء التي تمنحها؛ وعندها تُجرى وفقاً لذلك عمليات إعادة غراسة للأفراد والعائلات بحسب المدة الزمنية والاستمرارية التي

يتطلبها التغلب على المطبّات الجسدية المتوارثة والسيطرة عليها. بذلك تتحوّل الأرض بكلّيتها إلى مجموعة من المحطات الاستشفائية.

189

شجرة الإنسانية والحكمة العقلية

هذا الذي تعدّونه تضخماً سكانياً يغمر الأرض، ويجعلكم قصرُ نظر خرَفِكم تفزعون منه، هو ما يمنح المتفائلين مهمتهم العظمى: ينبغي أن تتحول الإنسانية في يوم ما إلى شجرة تظلل الأرض بكلّيتها، بمليارات عديدة من الزهور تصبح كلها ثمارا متحاذية، وسيكون علينا أن نعدّ الأرض ونهيّئها لتغذية تلك الشجرة. أن يتضاعف الكمّ المحدود حالياً من النسغ والطاقة، وأن يكون هناك عدد لا يحصى من القنوات التي ينبغي أن يتدفق منها ذلك النسغ ليغذي المجموع والأفراد؛ مهمة من هذا النوع هي المعيار الذي ينبغي أن نتخذه لمعرفة ما إذا كان هذا الإنسان أو ذاك من وقتنا الحاضر نافعاً أو غير ذي نفع. إن المهمة على درجة لا توصف من الأهمية والجرأة؛ وجميعنا نريد أن نساهم في جعل الشجرة محصّنة من خطر أن يطالها الفساد قبل الأوان! بوسع عقل تاريخي أن يرى إلى الكيان الإنساني ونشاطه في مجمل سياق مساره الزمني تماماً كما نرى أمام أعيننا مَنْملة بنظام قريتها المرتّب بدقة فائقة، وإذا ما حكمنا على الأشياء بسطحية فسيمنحنا الكيان الإنساني في مجمله، مثل المنْملة، مسوّغاً للكلام عن «غريزة» ونشاط غريزي. لكننا مع فحصٍ أكثر صرامة نجدنا ندرك كيف أن شعوباً بأكملها ظلت لقرون عديدة تجتهد في ابتكار وتجريب وسائل جديدة عديدة تسعى بواسطتها إلى التمكن من تحسين أحوال الكيان الإنساني في مجمله ومن ثمة أحوال شجرة الإنسانية المثمرة. وبالرغم مما يطرأ من خلال تلك التجارب الفردية من مضارّ قد تلحق بالشعوب

وبعصور بعينها، فإن هناك دوماً أفراداً سيغدون أكثر حكمة من خلال تلك الأضرار، ومن خلالهم ينساب سيل الحكمة ببطء إلى المواقف التي تتخذها شعوب وعصور بأكملها. فالنمل يخطئ هو أيضاً ويضلّ طريقه؛ والإنسانية يمكن أن يطالها التفكك والجفاف قبل الأوان هي أيضاً عن طريق وسائل وتدابير حمقاء، غير أنه لا وجود هنا، كما لدى النمل أيضاً، لغريزة واثقة موجِّهة. بل ينبغي علينا بالأحرى أن ***نضع نصب أعيننا*** المهمة العظمى المتمثلة في ***تهيئة*** الأرض لنماء هذه النبتة الأعظم والأبهج خصباً: مهمة حكيمة للعقل الحكيم!

190

مديح الغيرانية وماتاه

لسنوات عديدة ظلت هناك خصومة قائمة بين زعيمي قبيلتين متجاورتين: كل منهما يدمّر مزارع الآخر وينهب قطعانه ويحرق بيوته دون أن تتم لأحدهما الغلبة النهائية لأنهما كانا على قدر متساو من القوة. وكان هناك زعيم ثالث ظل بحكم بُعد ممتلكاته عنهما في منأى عن ذلك النزاع، غير أنه كان يتوجّس شراً من اليوم الذي يمكن أن يتفوق فيه أحد الجارين العدوانييْن بوضوح على الآخر، فقرر أن يتدخل بينهما بالحسنى وبوقار؛ وقد استعان سراً في محاولاته الصلحية بحيلة دعمت تدخّله، وذلك بأن جعل كلاً من الطرفين على حِدة يفهم أنه ينوي الانحياز ضد الطرف الذي يرفض السلم ويتحالف عليه مع خصمه. وهكذا اجتمع الطرفان للصلح أمامه ووضعا بشيء من التردد يديهما في يده، هاتان اليدان اللتان كانتا حتى تلك اللحظة أداتيْ، بل وسببيْ، ذلك الحقد الذي كان يسود بينهما في أغلب الأحيان، - وانطلقا حقاً في تجربة العيش في سلام جدي. ثم لاحظ كل منهما بدهشة كيف تنامى رخاء حياته ورفاهته فجأة، وكيف غدا كل منهما

يجد في جاره تاجراً مستعداً للبيع والشراء بدلاً من شرير ماكر وشرس، ثم كيف أصبحا أيضاً على استعداد للتآزر والتعاون على الكوارث وحالات الضيق المباغتة خلافاً لما كانا يفعلانه من قبل عندما كان كل منهما يستغل ضائقة الجار ويعمل على مضاعفتها إلى أقصى الحدود؛ بل وبدا كما لو أن النوع الإنساني قد غدا منذ ذلك الحين أكثر جمالاً في تلك المنطقة: العيون غدت مشعة والجباه تهللت وفقدت تقطيبها، وفي نفوس الجميع قد استقرت ثقة جديدة في المستقبل، -ولا شيء أكثر نفعاً لروح الإنسان وجسمه من تلك الثقة. ثم أصبح للزعيمين وأتباعهما في كل سنة لقاء في ذلك التاريخ الذي عُقد فيه الصلح، يجتمعان فيه بحضور ذلك الوسيط الذي كلما ازداد حجم النعيم الذي يدينون به لسلوكه ازدادت عبارات إعجابهم بذلك السلوك وتقديرهم له. سمّوا ذلك العمل *غيرانياً*، -فقد كان انتباههم منشدّاً كل الانشداد إلى المصلحة الشخصية التي تحققت لهم منذ ذلك الحين كيما يروا شيئاً آخر في سلوك جارهم، عدا أن أي تغيير لم يطرأ على وضعه منذئذ على غرار ما حصل في أوضاعهم؛ بل إنه بقي كما كان عليه من قبل، وبذلك بدا أنه لم يكن يضع مصلحته الخاصة نُصب عينيه من وراء مسعاه الصلحي. ولأول مرة أصبح الناس يقولون إن الغيرانية فضيلة؛ ولقد سبق لهم بالتأكيد أن شهدوا في العديد من المرات حصول أفعال مماثلة على صعيد شخصي وبحجم أصغر، غير أنهم لم يولوا هذه الفضيلة اهتماماً إلا عندما ارتسمت بالخط الكبير الواضح على الجدار العمومي لتغدو بيّنة الحضور لمجمل المجموعة. فالمزايا الأخلاقية لا تصبح معترفاً بها كفضائل، مسمّاة بإسم، حائزة على التقدير، يُحَثّ على تبنّيها إلا بدءاً من اللحظة التي يتضح فيها أنها لعبت دوراً حاسماً في سعادة وهلاك مجتمعات بأكملها؛ عندها تغدو قوة الأحاسيس وتهيّج الطاقات الإبداعية الباطنية على قدر مرتفع جداً

لدى *الكثيرين*، كي ينبروا جميعهم ليتقدموا إلى تلك المزية بهدايا منتقاة من أفضل ما يملك كل شخص. الجدّي يضع جديّته عند قدميها، وذو الكرامة كرامته، والنساء رقّتهن، والشباب كل ما في كيانهم من آمال وثروة مستقبلية؛ الشاعر يهبها عبارات وإسماً، يمنحها مكاناً داخل حلقة الكيانات الشبيهة بها، وموقعاً على شجرة الأنساب وينتهي، كما يفعل الفنانون دوماً بأن يجعل من صورة خياله تلك معبودة جديدة يتوجه إليها بالصلوات: **يعلّم** الناس عبادتها. هكذا، وبفضل المحبة والاعتراف بالجميل اللذين يعمل على صياغتهما الجميع عملَهم على تشكيل منحوتة، تجد الفضيلة نفسها تتحول في النهاية إلى مجمّع لكل ما هو خيّر وجدير بالإجلال: نوع من معبد وكيان إلهي في الآن نفسه. وستنتصب منذئذ هناك مُثل فضيلة مستقلة بنفسها، كائن لذاته، وهو ما لم تكنه من قبل، وتصبح صاحبة حقوق وسلطة: كائناً فوقبشري مكرَّساً. -لقد كانت مدن يونان العصر المتأخر مليئة بمثل هذه المجرَّدات المؤلَّهة-المؤنسَنة (لتغفروا لي هذه العبارة الشاذة الغريبة التي فرضها مفهوم شاذ غريب)؛ وقد أسس الشعب لنفسه وبطريقته الخاصة «سماء مُثل» أفلاطونية فوق أرضه، ولا أعتقد أن الناس كانوا يحسون أن ساكنات تلك السماء أقل حياة من أي من الآلهة الهوميرية.

191

أوقات ظلام

«أوقات ظلام» كانت تسمّى تلك الأيام التي تبقى الشمس فيها تحت خط الأفق في النرويج: تنحدر الحرارة خلالها تدريجياً وبشكل مستمر. -إنها صورة جميلة عن كل المفكرين الذين اختفت عنهم شمس مستقبل الإنسانية لفترة من الزمن.

192

فيلسوف الرخاء

بستان صغير، ثمار تين، قليل من الجبن ومعها ثلاثة أو أربعة أصدقاء جيدين؛- ذلك هو ما كان رخاء لدى أبيقور.

193

فترات الحياة

فترات الحياة الحقيقية هي تلك الأوقات القصيرة من السكون التي تقع بين صعود وهبوط فكرة سائدة أو إحساس مهيمن. عندها يكون هناك مجدداً شبع: وفي كل ما عداها يكون عطش وجوع -أو تخمة.

194

الحلم

أحلامنا، عندما يتم لها استثناء أن تكون ناجحة ومكتملة (فالحلم عادة ما يكون عملاً يؤدى بإهمال)، تكون مشاهد وسلاسل صور رمزية تحل محل لغة سرد شعرية، تعيد صياغة تجاربنا وانتظاراتنا أو علاقاتنا بجرأة ودقة شعريتين، مما يجعلنا نشعر دوماً في صباح اليوم الموالي بالعجب من أنفسنا عندما نتذكر أحلامنا. إننا نستخدم في الحلم قدراً هائلاً من المادة الفنّية، لذلك نكون غالباً مجدَبين خلال نهارنا.

195

الطبيعة والعلم

في العلوم، تماماً كما في الطبيعة، تعطى الأولوية في العمل للمناطق الرديئة والأقل خصباً،-لأن الوسائل المتواضعة للعلم ***في بداياته*** تكون شبه كافية هناك. أما فلاحة المناطق الخصبة فتتطلب تجنيد كمّ هائل

ومتطور من الطاقات، من طرق عمل وخبرات مكتسبة وجيش منظم من العملة ومن العملة المدربين وذوي التكوين الجيّد؛ وكل هذه العناصر لا تجتمع إلا في فترة متأخرة من الزمن. - قلة الصبر والطموح غالباً ما يدفعان إلى استغلال سابق للأوان لهذه المناطق الخصبة، غير أن النتائج تكون تبعاً لذلك أقرب إلى الصفر. في مجال الطبيعة تكون عقوبة تلك التجارب أن يجد المستوطنون أنفسهم فريسة للمجاعات.

196

الحياة ببساطة

إن نمط عيش بسيط غدا أمراً صعباً في وقتنا الحاضر: يتطلب ذلك تفكيراً وقدراً من الموهبة الابتكارية تفوق بكثير ما يملكه حتى الأذكياء من الناس، وأكثرهم صدقاً قد يقول: ليس لديّ ما يكفي من الوقت كي أفكر في هذا الأمر طويلاً. إن نمط الحياة البسيطة هدف بعيد للغاية بالنسبة لي؛ وسأنتظر حتى يأتي أناس أكثر حكمة مني ليعثروا لنا عليه.

197

قِمم وتِلال

الخصوبة الضعيفة والعزوبية المنتشرة والبرودة الجنسية عامة لدى ذوي الثقافة العالية وعناصر الطبقات التي ينتمون إليها شيء ذو أهمية بالنسبة لمصلحة الإنسانية؛ فالحكمة تقرّ، وتعمل وفقاً لذلك أيضاً، بأنه مع بلوغ قمة قصوى من التطور الذهني يكون الخطر كبيراً أن ينجم عن ذلك إنجاب نسل **مضطرب**. وهؤلاء الناس هم قمم الإنسانية التي لا ينبغي أن يكون امتدادها في تِلال.

198

ما من طبيعة تعرف قفزات

عندما يتطور الإنسان على نحو مفاجئ ويبدو كما لو أنه حقق قفزة من النقيض إلى النقيض، فإن معاينة دقيقة ستجعلنا نعثر مع ذلك على مواقع الوصل التي تنمو منها العمارة الجديدة فوق العمارة القديمة. إنها مهمة البيوغرافي: ينبغي أن يفكر في الحياة من منطلق القانون القائل بأنه ما من طبيعة تعرف قفزات.

199

نظيف دون شك، ولكن...

من يرتدي أسمالاً نظيفة يكون نظيف اللباس دون شك، لكنه رث الهندام مع ذلك.

200

المتوحّد يتكلم

ما يجنيه المرء كمكافأة على الكمّ الكبير من الاشمئزاز والكآبة والضجر -كل تلك الأشياء التي تجلبها الوحدة، دون أصدقاء، دون كتب، دون واجبات ولا ولع- هي تلك الربع ساعة من العودة العميقة إلى الذات وإلى الطبيعة. ومن يحرص على التحصّن كلياً من الضجر، يتحصّن من نفسه أيضاً: ذاك لن يكتب له البتة أن يكرع من كأس الشراب المنعش القوي الذي يرِده المرء من نبعه الداخلي.

201

شهرة مزيفة

أكره تلك الروائع الطبيعية المزعومة التي لا أهمية لها إلا من وجهة نظر

المعرفة، الجغرافيّة منها على الأخص، لكنها تظل بائسة من وجهة نظر المتعطش إلى الجمال: فمنظر الجبل الأبيض مثلاً يبدو من جنيف غير ذي أهمية تذكر إن لم تهبّ لإسعافه متعة العقل العارف؛ بينما المرتفعات القريبة أكثر جمالاً وأكثر سحراً، -لكنها «أبعد عن أن تضاهيه ارتفاعاً»، يضيف ذلك العلم الأحمق بغية التقليل من شأنها. العين تناقض المعرفة؛ فكيف لها أن تجد متعة حقيقية في ظل هذا التناقض!

202

لمتعة في التسلق فقط

يتسلقون الجبل مثل الحيوانات، أغبياء وغارقين في العرق؛ لقد نسي المرشدون أن يقولوا لهم إن هناك مناظر طبيعية خلّابة من حول الطريق.

203

أكثر مما ينبغي وأقل مما يجب

يعيش الناس فائضاً من التجارب في عصرنا الحاضر، لكنهم يفكرون أقل مما يجب: بهم جوع شديد ومغص في الآن نفسه، ولذلك يغدون أكثر فأكثر هزالاً بالرغم من كثرة ما يلتهمونه. -ومن سيقول الآن: «لم أعرف تجارب في حياتي»، فهو غبي.

204

النهاية والغاية

ليست كل نهاية هي الغاية. فنهاية اللحن ليست غايته؛ ومع ذلك: إن لم يبلغ اللحن نهايته فإنه لن يكون قد بلغ غايته. إن هذا مثل.

205

حيادية الطبيعة

حيادية الطبيعة (في الجبل، والبحر، والغابة، والصحراء) تعجبنا، لكن لمدة محدودة من الزمن فقط؛ بعدها تنتابنا حالة من نفاد الصبر. «هذه الأشياء، أليس لها ما تريد أن تقوله لنا؟ أم أنه لا وجود لنا بالنسبة لها؟» وينشأ لدينا إحساس بـ *crimen losoe majestatis humanoe* -(جريمة قدح في الجلالة الإنسانية).

206

نسيان الغايات الأصلية

خلال السفر عادةً ما ننسى الغاية المنشودة من السفر. وكل مهنة تقريباً يتم اختيارها بدءاً من أجل غاية بعينها، لكننا نغدو نمارسها كغاية نهائية في ذاتها. إن نسيان المقاصد أكثر حماقة نظل نرتكبها باستمرار.

207

المسار الشمسي للفكرة

عندما تبزغ فكرة على خط الأفق عادة ما تكون درجة حرارة النفس منخفضة جداً. وشيئاً فشيئاً تضاعف الفكرة من حرارتها، ثم تبلغ قمة حرارتها (أي تبلغ أعلى درجات تأثيرها) عندما يكون الإيمان بالفكرة قد شرع في الهبوط.

208

كيف نجعل الجميع ضدنا

إذا ما تجرأ أحدهم الآن على القول: «من ليس معي فهو ضدي»[٩١]، فسيكون الجميع مباشرة ضده. -هذا الإحساس مشرّف حقاً لعصرنا.

209

الخجل من الثراء

لا يستطيع عصرنا أن يقبل إلا بنوع واحد من الأثرياء، أولئك الذين يخجلون من ثرائهم. لا نكاد نسمع عن شخص «إنه رجل غني» حتى يتنابنا إحساس شبيه بذلك الذي نشعر به لدى رؤية مرض يتجسد في تورّمات مقرفة، مثل سمنة أو استسقاء؛ وسيكون علينا أن نذكر أنفسنا بإلحاح بإنسانية ذلك الغني كي نستطيع التعامل معه بطريقة تجعله لا يشعر بشيء من قرفنا. لكن ما إن يشرع في التباهي بثرائه حتى تخالط شعورنا الأول دهشة قريبة من الإشفاق على ذلك المستوى العالي من الحماقة الإنسانية، حتى أننا لنودّ أن نرفع أيدينا باتجاه السماء ونصرخ: «أيها المسكين المشوّه، الرازح تحت الأعباء، المكبّل بألف قيد، الذي تظلّ عليه كلُّ ساعة، أو *يمكن أن تظل عليه*، بأمر كريه، والذي تصطكّ أعضاؤه بصدى كل حدث يطرأ على عشرين شعباً مختلفاً، كيف تريد أن تجعلنا نعتقد بأنك تشعر بنفسك على ما يرام في حالك هذه! وإذا ما كان لك ظهور للعموم في مكان ما، فإننا ندرك أنك تمضي تحت السياط فرجةً لعيون كثيرة ملؤها الكراهية الباردة والفضول أو السخرية الصامتة. قد يكون كسبك أسهل من كسب الآخرين؛ غير أنه كسب لا فائدة من ورائه، كسب لا يدخل عليك سوى القليل من الغبطة، *والحفاظ* على كل مكتسَب لك أمر أشق على أية حال من أي سعي شاق إلى الكسب. إنك تعاني *باستمرار*، وبالتالي فأنت تخسر باستمرار. ما فائدة أن تظل تُحقن باستمرار بدم اصطناعي جديد؛ إذ لن يخفف ذلك في شيء من الألم الذي تحدثه لك المحاجِم المُحكَمة على عنقك؛ المُحكَمة بصفة دائمة على عنقك! لكن، ولكي لا نكون ظالمين، لعله من العسير عليك أن **لا** تكون غنياً: أنت **مجبر** على الحفاظ على ثروتك، **مجبر** على مزيد من الكسب، فهذا الميل

الوراثي الذي في طبعك هو النير الذي فوق عنقك، لكن لا تخدعنّنا إذاً، ولتخجل بصدق وعلناً من هذا النير الذي ترزح تحته، بما أن نفسك كارهة لهذا النير في الحقيقة وساخطة عليه. فما من عار في هذا الخجل.»

210

شطط في الغرور

هناك أناس على قدر من الغرور يجعلهم لا يستطيعون الإطراء على شيء عظيم يظهرون إعجابهم به علناً إلا وهم يقدّمون ذلك الأمر كعتبة وجسر **يقود *إليهم***.

211

فوق تُربة الإهانة

من يريد أن ينزع عن الناس فكرة ما عادة ما لا يكتفي بتفنيدها وباجتثاث الدودة اللامنطقية التي توجد داخلها، بل يعمد أكثر من ذلك إلى أن يلقي بالثمرة كاملة في المزبلة بعد أن يكون قد قتل الدودة، وذلك بغية تحقيرها في أعين الناس وجعلهم يتقززون منها. وبهذه الطريقة يعتقد أنه قد عثر على الوسيلة التي تجعله يحول دون «قيامتها في اليوم الثالث»[٩٢]. إلا أنه يخطئ هنا، إذ في ***تربة الإهانة*** بالذات ووسط القاذورات تتفتق النواة الخصبة للفكرة عن فسائل جديدة. وبالتالي: ما نريد أن نلغيه نهائياً، لا ينبغي أن نهزّئه ونشوّهه، بل أن نعمد بكل احترام إلى تجميده ونظل نحرص باستمرار على تغطيته بالثلج باعتبار أن للأفكار قدرة فائقة على المقاومة ومواصلة الحياة. ينبغي علينا أن نتصرف هنا بموجب الحكمة القائلة: «التفنيد لا يفنّد شيئاً».

212

مصير الأخلاق

وبما أن تقيّد العقول في تراجع فإن الأخلاق (السلوكات الغريزية الموروثة والمشوّهة وفقاً للأحاسيس الأخلاقية) تكون في تراجع هي أيضاً؛ لكن، ليست تلك الفضائل الفردية والاعتدال والعدل وسكينة الروح، إذ إن حرية العقل الواعية الكبرى تقود بطبعها وبصفة تلقائية إليها، ثم تحثّ عليها كشيء *نافع*.

213

الريبي المتعصّب وضمانته

العجوز: أتريد أن تغامر بالأمر الهائل وتعلّم الناس العظمة؟ فما هي ضمانتك؟

بيرّون[٩٣] هي ذي: أريد أن أحذر الناس من نفسي، وأريد أن أعترف علناً بكل نواقص طبيعتي، وأن أطرح أمام أعين الجميع مواقفي المتسرعة وتناقضاتي وحماقاتي. أريد أن أقول لهم لا تستمعوا إليّ ما لم أصبح شبيهاً بأدناكم منزلة، بل وأدنى منزلة منه؛ ولتتمردوا على الحقيقة قدر ما تستطيعون لقرفٍ من الذي يتحدث باسمها. وإنّي سأكون المضلل الغاوي والذي يخدعكم طالما بقيتم تجدون فيّ أدنى بريق للشرف والمهابة.

العجوز: أراك تعد بأكثر مما ينبغي؛ إنه عبء يصعب عليك تحمّله.

بيرّون: ذلك هو ما أريد أن أقوله للناس؛ إنني ضعيف جداً ولا أفي بما أعد به. وبقدر ما تعظم حقارتي بقدر ما يتضاعف شكهم في الحقيقة التي ينطق بها فمي.

العجوز: أتريد أن تكون إذاً معلم الريبة في الحقيقة؟

بيرون: معلّم ريبةٍ مما لم يعرف العالم بعد مثيلاً لها، الريبة في كل شيء وفي كل إنسان. إنها الطريق الوحيدة إلى الحقيقة. ينبغي أن لا تثق العين اليمنى في اليسرى، وأن يظل النور لمدة من الزمن يسمّى ظلاماً: تلك هي الطريق التي ينبغي أن تسلكوها. ولا تعتقدوا أنها ستقودكم إلى مروج بديعة وأشجار مثمرة سخية، بل بذورا صغيرة صلبة ستجدون فوقها؛ تلك هي الحقائق: لعشرات السنين سيكون عليكم أن تقذفوا بملء قبضات أيديكم من الأكاذيب في جوفكم كي لا تموتوا جوعاً، وأنتم تدركون مع ذلك أنها أكاذيب. إلا أن تلك البذور ستلقى في التربة وتُدسّ فيها، ولربما، لربما يأتي يوم للحصاد بعدها: لكن لا أحد يحق له أن **يعد** بذلك، عدا أن يكون واحداً متعصباً.

العجوز: يا صاحبي! يا صاحبي! كلماتك أيضاً كلمات واحد متعصب!

بيرون: معك حق! سأكون مرتاباً حذراً من كل الكلمات.

العجوز: سيكون عليك إذاً أن تلزم الصمت.

بيرون: سأقول للناس إنه يجب عليّ أن أصمت، وأنه ينبغي عليهم أن يرتابوا في صمتي.

العجوز: ستتراجع إذاً عن مشروعك؟

بيرون: بل أكثر من ذلك؛ -ها أنك قد أشرت لي الآن إلى الباب الذي ينبغي علي أن أخرج منه.

العجوز: لا أدري؛ أترانا مازلنا نفهم بعضنا جيداً؟

بيرون: ربما لا.

العجوز: لو أنك على الأقل تفهم نفسك جيداً!

بيرون يستدير عنه ويضحك.

العجوز: أي صديقي! الصمت والضحك؛ -أهذه الآن مجمل فلسفتك؟

بيرون: لعلها لن تكون هي الأسوأ.

214

كتب اوروبية

ونحن نقرأ مونتاني ولاروشفوكو ولابروير وفونتنيل وفوفنارغ وشامفور[٩٤]، نكون أقرب إلى العصور القديمة مما نكون عليه ونحن نقرأ مجموعة من ستة كتّاب من أي شعب آخر. من خلال هؤلاء الستة استطاعت روح ***القرون الأخيرة من العصور القديمة*** أن تعود إلى الحياة، -إنهم يكوّنون مجتمعين حلقة هامة في سلسلة عصر النهضة التي مازالت ممتدة. تسمو كتبهم على اختلافات الأذواق القومية والتلوينات الفلسفية التي أصبح من المألوف في وقتنا الحاضر أن يتزوّق بها كل كتاب، بل وينبغي عليه أن يتزوّق بها كي يصبح مشهوراً: في هذه الكتب من ***الأفكار الحقيقية*** أكثر مما يوجد داخل ما كتب كل الفلاسفة الألمان مجتمعين: أفكار من ذلك النوع الذي يولّد أفكاراً، والذي. . . -إنني أجد نفسي محرجاً في مواصلة تعريفي حتى النهاية-، يكفيني أن أرى كتّاباً لا يكتبون لا للأطفال ولا للمتحمسين، لا للعذارى ولا للمسيحيين، لا للألمان ولا لـ. . . -أشعر بالحرج مجدداً في إتمام القائمة. -لكن، ولكي أعبّر عن إطراء واضح: هؤلاء الكتاب، وبتلك الطريقة اليونانية التي كتبوا بها، كان بإمكانهم أن يُفهموا جيداً من طرف اليونانيين. وبالمقابل، كم كان حتى لواحد مثل أفلاطون أن يفهم من كتابات أفضل مفكرينا الألمان من أمثال غوته أو شوبنهاور، كي لا نتكلم عن الاشمئزاز الذي كانت ستثيره فيه طريقة كتابتهم، أي تلك القتامة وذلك التفخيم، وبين الحين والآخر تلك

الهزالة المفرطة،- مساوئ يعاني منها الكاتبان المذكوران أقل بكثير من بقية الألمان، ومع ذلك يعانيان منها كبير المعاناة (لقد كان لغوته كمفكّر ميلٌ لمعانقة السحب أكثر مما ينبغي، أما شوبنهاور فقد كان يتحرك باستمرار، ليس دون تبعات سيئة عليه، بين أمثلة وصور عن الأشياء، عوضاً عن الأشياء نفسها). -وبالمقابل، أي صفاء، وأية دقة رهيفة لدى أولئك الفرنسيين! ما كان للإغريق بأسماعهم المرهفة إلا أن يعجبوا بهذا الفن. وهناك مزية أخرى كانوا سينبهرون بها، بل وسيجلونها وهي تلك الطريقة الفرنسية اللامعة في التعبير: أمر *كانوا يحبونه* كثيراً وإن لم يكن لهم فيه باع كبير.

215

الموضة والحداثة

حيث ما يزال هناك انتشار للجهل والقذارة المعنوية، وحيث تكون المعاملات معطلة والزراعة بائسة والقساوسة ذوي سلطان، يكون هناك أيضاً حضور *للأزياء القومية*. وبالمقابل تسود الموضة حيث توجد علامات الأوضاع المعاكسة. فالموضة توجد اليوم جنباً إلى جنب مع الفضائل الأوروبية؛ فهل تكون حقاً جانب الظل منها؟ إن اللباس الذكوري الذي أصبح موضوياً وليس قومياً ينبئنا من خلال مرتديه، أولاً بأن الأوروبي لم يعد يهمه أن يجلب الانتباه كفرد، ولا كعنصر ينتمي إلى *طبقة* ما أو شعب بعينه، وأنه قد اتخذ له من إضعاف هذه الضروب من الغرور قانوناً سلوكياً واعياً، ثم إن الأوروبي لم يعد له وقت ينفقه في الاهتمام باللباس والزينة، وغدا يجد في كل فاخر ومكلف من الأقمشة وأنواع التأنق شيئاً متناقضاً مع عمله، وهو أخيراً يُلمح من خلال لباسه إلى المهن الأكثر التصاقا بالمراتب الرفيعة من العلم والتطور الذهني التي يجد نفسه كإنسان أوروبي قريباً جداً منها،

أو يطمح إلى الاقتراب منها؛ بينما تتراءى من خلال ما ظل متبقياً من الأزياء القومية صورة اللص والراعي أو العسكري كنماذج للمراتب الاجتماعية المرغوبة والمحدِّدة لنمط الحياة العام. وداخل الإطار العام لطبيعة الموضة الرجالية ستبرز أيضاً تلك التقلبات الصغيرة التي ترافق الشباب دوماً والمتأنقين والعاطلين داخل المدن الكبرى، أي أولئك *الذين لم يبلغوا مرحلة النضج بعد كرجال أوروبين*. والنساء الأوروبيات هن *أقل الجميع نضجاً*، لذلك تكون التقلبات لديهن أكبر بكثير؛ هن أيضاً لم يعدن يرغبن في النمط القومي، ويكرهن أن يتم التعرف عليهن كألمانيات أو فرنسيات أو روسيات من خلال لباسهن، إلا أنهن يرغبن كثيراً في أن يجلبن الانتباه كأفراد؛ وبودهن أيضاً أن لا يدع لباسهن لأحد مجالاً للشك في أنهن ينتمين إلى طبقة اجتماعية مرموقة (إلى المجتمع «الجيّد» و «الراقي» و«الممتاز»)، بل إنهنّ يكنّ أكثر رغبة في الظهور بمظهر الانتماء إلى تلك الطبقة كلما كنّ أبعد عن ذلك في الحقيقة. لكن المرأة الشابة تحرص في المقام الأول على أن لا ترتدي ما ترتديه نساء أكبر سناً، لأنها تخشى أن يحصل هبوط في قيمتها من خلال الشك في أنها قد تكون أكبر سناً؛ بينما تسعى الأكبر سناً من جهتها إلى المغالطة لأطول فترة ممكنة من الزمن من خلال ارتداء ملابس خاصة بالفتيات؛ منافسة ستتطور من خلالها بصفة مستمرة صرعات موضوية تجعل سن الشباب الحقيقي يكون مرئياً دوماً دون لُبْس وبصفة غير قابلة للمحاكاة. عندما تكون روح الابتكار لدى الفنانات الشابات قد شربت لمدة من الزمن حتى الثمالة من مثل هذا الاستعراض للمفاتن الشبابية، أو لكي نقول الحقيقة كاملة، إذا ما عدنا إلى استدعاء إلهام ما من روح الابتكار لدى حضارات الظرافة والغزل القديمة والأخرى التي ماتزال قائمة في عصرنا الحاضر، وكل ما عني بالملبس على وجه الأرض عامة، وجمعنا بين أفانين مسرحة ظهور

الجمال الجسدي الأنثوي لدى الأسبان والأتراك والإغريق القدامى، فسنكتشف عندها مرة أخرى أن مصمِّمات الموضة لم يكنّ واعيات بمصلحتهن، وأن لعبة الظهور والتخفي في إبراز المفاتن الجسدية أفضل طريقة وأكثر نجاعة من العراء الصريح أو شبه الصريح في بلوغ استثارة الرجال؛ والآن هي ذي عجلة الذوق والغرور تدور مجدداً في الاتجاه المعاكس، فالنساء الأكبر سناً بقليل من الفتيات قد غدا يتراءى لهن أن ساعة مجدهن قد حلّت، وإذا رحى المنافسة الطاحنة بين الكائنات الفاتنة والسخيفة تنطلق من جديد. لكن كلما تنامى الوثوق الداخلي لدى النساء وأصبحن لا يعترفن فيما بينهن بالتفوق للفئة العمرية الأقل نضجاً كما كن يفعلن حتى الآن، كلما تناقصت تقلبات نزواتهن اللباسية وغدت زينتهن أكثر بساطة؛ ولن يصبح الحكم في هذه المسألة مستنداً إلى أنماط العصور القديمة، أي وفقاً للمعايير اللباسية لساكنات مناطق السواحل الجنوبية، بل وفقاً للظروف المناخية للمناطق الوسطى والشمالية من القارة الأوروبية، تلك التي انتخبت العبقريةُ الأوروبية في تجلّياتها العقلية وابتكاراتها الشكلية موطناً لنفسها فيها.

وفي المجمل لم يعد *المتغيّر* هو العلامة المميزة *للموضة وللحداثة*، إذ التغيير بالذات شيء متخلّف، وهو علامة الرجال والنساء الأوروبيين الذين *لم يبلغوا مرحلة النضج بعد*، بل إن رفض الغرور القومي والطبقي والفردي هو علامتهما المميزة. وبالتالي فسيكون من المحمود، كأمر يمكّننا من توفير قدر هائل من الطاقة والوقت، أن تتخصص بعض المدن والمناطق من القارة الأوروبية في التفكير والابتكار فيما يتعلق بمسائل اللباس، إذا ما اعتبرنا أن الحس الفني في ما يخص تصميم الأشكال ليس بالأمر المتاح للجميع ولأي كان؛ وعليه فإنه ليس من باب الطموح الجانح، ما دامت هذه التقلبات

اللباسية قائمة، أن تدّعي باريس لنفسها مكانة المبتكر والمجدد الوحيد في هذا المجال. وإذا ما عنّ لألماني، من منطلق المعاداة لهذه المطامح التي تعلنها مدينة فرنسية، أن يختار لنفسه نمطاً لباسياً مغايراً، من نوع ما كان يرتديه ألبرشت دورر[٩٥] مثلاً، فعليه أن يعلم إذاً أنه سيرتدي لباساً كان يرتديه الألمان في ما مضى، لكنه ليس من ابتكار الألمان مع ذلك، إذ لم يكن هناك البتة من لباس كان خاصاً بالألمان ومميزاً لهم كألمان؛ وعلاوة على ذلك سيكون عليه أن يفكر في الهيأة التي سيكون عليها وهو يرتدي مثل ذلك الزي، وفي عدم التناسب الذي يمكن أن يبدو عليه ذلك الوجه العصري بكل ما رسم القرن التاسع عشر عليه من ملامح وما نقش فوقه من غضون وتضاريس مميزة تتعارض مع نمط اللباس الذي كان لدورر وتُناقضه. ههنا حيث تغدو عبارتا «حديث» و«أوروبي» شبه مترادفتين، وسيكون علينا أن نرى في أوروبا شيئاً أوسع من امتداد فضائي محدد، أوسع من أوروبا الجغرافية التي لا تعدو كونها شبه جزيرة آسيوية صغيرة؛ فهي تشمل أميركا أيضاً، طالما أن هذه الأخيرة هي ابنة حضارتنا[٩٦]. ومن ناحية أخرى فإن المفهوم الحضاري «أوروبا» لا يشمل حتى أوروبا في مجملها وبمختلف مناطقها، بل ينحصر فقط في تلك الشعوب والأجزاء من الشعوب التي لها جذور مشتركة في الفضاء الثقافي الإغريقي الروماني، اليهودي المسيحي.

216

«الفضيلة الألمانية»

لا يمكننا أن ننكر أن تيار صحوة أخلاقية راح يخترق أوروبا منذ بداية القرن الماضي. بدءاً من تلك اللحظة فقط استعادت الأخلاق قدرتها على التعبير عن نفسها؛ تعلمت كيف تجد لنفسها الحركات التلقائية

المعبّرة عن السموّ والانفعال، وتخلصت من الخجل من نفسها وابتدعت فلسفات وأشعاراً لتمجيد نفسها. وإذا ما بحثنا عن منبع هذا التيار، فإننا سنجد أولاً روسو، لكن روسو الأسطوري، ذلك الذي تم اختلاقه انطلاقاً من الانطباعات التي كوّنتها عنه كتاباته،-بل إننا لنكاد نقول: الكتابات التي تمّ تأوّلها على نحو أسطوري-، ومن خلال الإشارات التي أعطاها هو نفسه (فقد عمل هو وجمهوره بصفة مستمرة على تشكيل هذه الصورة المثالية). أما الأصل الثاني فنجده في تلك اليقظة الجديدة للثقافة الرواقية الرومانية الراقية، التي استطاع الفرنسيون من خلالها متابعة إنجاز مهمة النهضة على نحو مشرّف للغاية. وقد تمكنوا بنجاح باهر من المرور من إعادة صياغة الأشكال القديمة إلى إعادة صياغة الطبائع القديمة؛ الأمر الذي جعلهم يستحقون عن جدارة وللأبد لقب الشرف الأرقى كشعب هو الذي منح الإنسانية الحديثة أفضل الكتب وأفضل الرجال حتى الآن. أما كيف كان تأثير هذا النموذج المثالي المزدوج لروسو الأسطوري ولتلك الصحوة الجديدة للروح الرومانية على الجيران الأقل قوة، فذلك هو ما نلمسه بالتحديد من خلال ألمانيا، التي، نتيجة للاندفاعة غير المعتادة قط للجدية، ولعظمة الإرادة والتحكم في النفس، قد وجدت نفسها في النهاية مندهشة من فضيلتها المكتسبة الجديدة، وبعثت بمفهوم «الفضيلة الألمانية» إلى الوجود، كما لو أنه لم يكن هناك من شيء أكثر أصالة وأكثر وراثية من ذلك. الرجال العظام الأوائل الذين تبنّوا هذا التحريض الفرنسي على العظمة وعلى الوعي بالإرادة الأخلاقية كانوا أكثر صدقاً ولم ينسوا الاعتراف بالجميل. أخلاقية كنط مثلاً؛ عن أي أصل صدرت؟ ما يعترف به هو نفسه ولا يكلّ عن ترديده: من روسو وإحياء الرواقية الرومانية. وأخلاقية شيلر: نفس المصدر، ونفس التعبير عن الإكبار للمصدر. وأخلاقية بيتهوفن المعبّر عنها في الألحان: إنه

المديح الأبدي لروسو وللفرنسيين من تلامذة العصور العتيقة ولشيلر. «الفتى الألماني» هو أول من نسي الاعتراف بالجميل، وفي الأثناء كان الناس قد منحوا آذاناً صاغية لدعاة الحقد على الفرنسيين؛[٩٧] هذا الفتى الألماني الذي ظل لمدة من الزمن يتبوأ المراتب الأولى بدرجة من الوعي أكبر مما كان يسمح به لشباب آخر غيره. وفي سعيه إلى البحث عن أبوّة كان من حقه أن يفكر في علاقة القربى التي تربطه بشيلر وفيختة وشلايرماخر؛ أما أجداده فكان عليه أن يبحث عنهم في باريس وجنيف، وقد كان من قصر نظره أن يعتقد في ما اعتقده من أن الفضيلة لم يكن لها من العمر ما يتجاوز الثلاثين سنة. وقد اعتاد الناس آنذاك أن يطالبوا بأن تظل عبارة «ألماني» تحيل دوماً على معنى الفضيلة، -وإلى يومنا هذا ما زلنا لم تتخلص من هذا الأمر تماماً. - ولنلاحظ عرضاً أن هذا الذي سُمّي صحوة أخلاقية لم تكن له، كما نكاد نحزر ذلك بسهولة، سوى تبعات سيئة على *المعرفة* المتعلقة بالظواهر الأخلاقية، وحركاتٍ نكوصية. فماذا تمثل مجمل الفلسفة الأخلاقية الألمانية، بما في ذلك كنط، بكل فروعها وفسائلها الفرنسية والإنكليزية والإيطالية؟ حملة شبه لاهوتية على هلفيتيوس[٩٨]، ورفض لرؤى حرة تم تحصيلها ببطء وعناء وللإشارات التي تدل على الطريق السوي التي تم التوصل في النهاية إلى صياغتها وتجميعها بطريقة جيدة. وإلى يومنا هذا مازال هلفيتيوس في ألمانيا الأخلاقي الأكثر عُرضة للسباب من بين كل الأخلاقيين الجيدين والرجال الأفاضل.

217

الكلاسيكي والرومنطيقي

كلٌّ من صنفيْ العقول الكلاسيكية والعقول الرومنطيقية (صنفان دائما الوجود) يحمل في صُلبه بذرة رؤية مستقبلية: لكنّ أهل الصنف الأول

يستمدونها من *مواقع قوة* عصرهم، والأخيرين من *مواقع ضعفه*.

218

الآلة كمعلّم

من خلال تركيبتها الخاصة تعلّمنا الآلة كيف ترتّب مجموعات من الناس في أعمال يكون على كل فرد القيام بخطة واحدة فيها: وتمنح بذلك مثالاً للتنظيم الحزبي وللسلوك الحربي. إلا أنها بالمقابل لا تعلّم سيادة الأفراد على أنفسهم؛ إنها تركّب من الكثيرين آلة **موحلة**، ومن كل فرد أداة لخدمة *غاية بعينها*. وبالتالي فإن تأثيرها الأساسي هو تعليم الناس فائدة المَركَزة.

219

رُحّل

نُحبّ الحياة داخل المدن الصغيرة؛ غير أن هذه تدفع بنا بين الحين والآخر إلى الهروب إلى عزلة الطبيعة الأكثر انزواء، وذلك عندما تغدو تلك المدن خالية من الأسرار في أعيننا. ثم نتجه أخيراً إلى المدينة الكبيرة كي **نستريح** من الطبيعة. بضع جرعات من هذه الأخيرة ونكون قد شربنا من كأسها حتى الثمالة- ونعود إلى بداية جديدة للدورة التي انطلقنا فيها من المدينة الصغيرة. هكذا يحيا إنسان العصر الحديث: لقد أصبح الناس على *قدر من العمق* في كل أمر لكي يتمكنوا من أن يكونوا **مستقرّين** مثل بني جنسهم من العصور السابقة.

220

كلمة ضد ثقافة الآلة

الآلة، التي هي نفسها نتاج لأرقى القدرات العقلية، لا تستدعي في

الناس الذين يستعملونها غير القدر الأدنى من طاقات خالية من أي عمل ذهني تقريباً. صحيح أنها تحرر في عملها قدرا هائلاً من الطاقة التي تكون غافية في غير هذه الحالة، لكنها لا تمنح دفعاً للارتقاء إلى تحسين نوعية العمل، إلى جعل المرء يصبح فناناً. إنها تجعل الإنسان *ناشطاً ومتماثلاً*؛ إلا أن هذا ينتج مع مرور الزمن تأثيراً معاكساً، وضجراً مفعماً يأساً ينشأ في النفس من خلاله نزوع إلى ضروب من العطالة المضطربة.

221

الجانب الخطير في فلسفة الأنوار

كل ماهو شبه جنوني، مسرحي، ذو قسوة وحشية، ما هو شبقي، أي عاطفية منتشية بذاتها، هذه العناصر التي تكوّن مجتمعة مادةَ المحتوى الثوري، والتي تجسّدت لحماً وروحاً في روسو قبل الثورة ؛ هذا الكائن المركّب في مجمله قد عمد بحماس مخاتل إلى جعل الأنوار تنتصب فوق رأسه المتعصّبة التي أصبحت تشعّ بواسطتها كما لو كانت محاطة بهالة المجد؛ تلك الأنوار التي هي في الحقيقة غريبة كل الغرابة عن ذلك الكائن، والتي كان بإمكانها أن تمضي ساكنة، ملتمعة مثل برق يعبر السحب، مكتفية بنفسها، سعيدة لمدة طويلة من الزمن بتغيير الأفراد فقط، بحيث كان من المفترض أن لا تُجري حركتها إعادة تشكيل وتغيير على المؤسسات والمنظومات الأخلاقية للشعوب إلا ببطء شديد. أما الآن، وقد غدت مرتبطة بكيان عنيف وفُجائي، فإن الأنوار نفسها قد أصبحت عنيفة وفُجائية. وقد أصبح خطرها من خلال ذلك أكبر تقريباً من الفائدة التحررية والتنويرية التي انتقلت بواسطتها إلى الحركة الثورية الكبرى. من يفهم هذا الأمر يعرف أيضاً من أي خليط متشابك سيكون عليه أن يخلّصها، ومن أية نجاسة

سيكون عليه أن يطهّرها، كي ***يواصل*** عمل التنوير ***في ذاته*** ويخنق الثورة في المهد بَعدياً ويجعل منها شيئاً لم يحدث.

222

الأهواء في العصر الوسيط

كان العصر الوسيط عصر الأهواء الكبرى. ولم تعرف لا العصور العتيقة ولا عصرنا الحاضر رحابة للروح مثل تلك التي عرفها ذلك العصر: *اتساع* لم يبلغ مثل ذلك الحجم الهائل من قبلها البتة، ولا كان له أن يقاس بمقاييس أكبر من مقاييس ذلك العصر. الحيوية الجسدية لشعوب الغابات العذراء المتوحشة، وتلك العيون المشعة، اليقظة، المتقدة بلهب باطني عارم، عيون مريدي أسرار روحانية مسيحية، الطبع الأكثر صبيانية والأكثر فتوّة، وكذلك الأكثر نضجاً وترهّلاً والأكثر شيخوخة ووهناً، وحشية الحيوان المفترس، والترقّق واللطافة الباهتة لروح العصور العتيقة المتأخرة: كلّها معاً، كانت غالباً ما تتواجد مجتمعة لدى شخص واحد في ذلك الزمن: لذلك عندما كان الهوى يستبدّ بالواحد منهم يكون تيار اندفاعاته العاطفية أكثر عنفاً، والدوّامة أكثر جنوناً والسقوط أشد وأعمق مما يمكن أن يكون عليه في أي زمن آخر. -لا يسعنا، نحن ابناء الإنسانية الحديثة إلا أن نبتهج حقاً لما خسرناه من هذه الأشياء كلها.

223

النهب والادّخار

كل الحركات الفكرية التي تمنح الأغنياء أملاً في إمكانية للنهب والفقراءَ في إمكانية للادّخار يكون نصيبها أن تعرف انتشاراً؛ لذلك كُتب لحركة الإصلاح الألماني أن تنتشر.

224

أرواح مرحة

عندما كان هناك شيء يُلمِح ولو من بعيد لشراب وسُكر ولنتانة نوع من قذارة ما، كانت الفرحة تستولي على روح الألمان القدامى؛ وفي ما عدا ذلك كانوا نهباً للكآبة؛ إلا أنه كان لهم في ذلك نوع خاص بهم من صدق الذكاء.

225

أثينا الخليعة

حتى عندما أصبح لسوق السمك في أثينا مفكروه وشعراؤه ظلت الخلاعة اليونيانية محتفظة بهيأة رونق بسيط ومهذّب أكثر مما كان للخلاعة الرومانية أو الألمانية. وما كان لصوت جوفينال أن يكون له على مسامعهم سوى وقع بوق أجوف؛ ولكانوا قد ردّوا عليه بضحكة لطيفة، صبيانية تقريبا.

226

حكمة الإغريق

وبما أن إرادة الانتصار والتميّز واحدة من الغرائز الطبيعية التي لا يمكن قهرها، وهي أكثر قدماً وتأصّلاً من كل احترام ومتعة في المساواة، فقد قنّنت الدولة الإغريقية المبارزات الرياضية والموسيقية بين الأنداد، أي أنها حددت موقعاً لحلبة للمصارعة يمكن للغرائز أن تفرغ شحناتها داخلها دون أن تشكل خطراً على النظام السياسي. ومع الانهيار النهائي للمبارزات الرياضية والموسيقية وقعت الدولة الإغريقية في الاضطراب الداخلي والتفكك.

227

«أبيقور الخالد»

لقد عاش أبيقور عبر كل الأزمنة وما زال يحيا غير معروف بين أولئك الذين يسمّون أنفسهم أبيقوريين، ودون شهرة بين الفلاسفة. وهكذا انتهى هو نفسه بأن نسي اسمه: لقد كان ذلك أثقل حمل تخلّص منه.

228

أسلوب التفوّق الألماني

اللغة الطلابية، أو طريقة الكلام الخاصة بالطلبة الألمان، يعود أصلها إلى أوساط الطلبة الذين لا يدرسون، الذين كانوا يعرفون كيف يحققون تفوّقاً على زملائهم الجديين من خلال اكتشافهم لكل ما يوجد من الألاعيب في الثقافة، وفي التخلّق، وفي التعلّم وفي النظام وفي الاعتدال، وكيف يجيدون استعمال العبارات النابعة من تلك المجالات مثل أفضل زملائهم وأكثر الناس علماً، لا بجعلها على ألسنتهم باستمرار فحسب، بل مع إرفاقها بتعبيرات ماكرة في النظرات و تكشيرات مرافِقة. لغة التفوّق هذه -اللغة الوحيدة الأصيلة في ألمانيا- أصبح يتكلمها اليوم بصفة تلقائية رجال السياسة أيضاً والنقّاد الصحفيّون: سلسلة دائمة من الاستشهادات الساخرة، نظرات متوتّرة مضطربة يميناً وشمالاً: ألمانية بمعقّفات وتكشيرات.

229

المنسحبون إلى الدهاليز

ننسحب إلى الخفاء، لكن ليس بسبب اكتئاب شخصي ما، كما لو كنا غير راضين عن الأوضاع السياسية والاجتماعية الحالية، بل لأننا نبتغي من خلال انسحابنا توفير طاقات وتجميعها ستكون الحضارة لاحقاً في

أمسّ الحاجة إليها ما دام هذا الحاضر هو *هذا* الحاضر وينجز مهمته *الخاصة* بما هو كذلك. إننا نكوّن رأسمال ونسعى إلى جعله آمناً؛ لكن بدفنه، كما يفعل الناس في أوقات الأخطار.

230

طُغاة العقل

سيُعتبر مريضاً في وقتنا الحاضر كلّ من يجسّد سِمةً أخلاقية وحيدة على غرار شخصيات تيوفراست وموليير، وسيتكلم الناس عن «فكرةٍ طاغية» لديه. وستتراءى لنا أثينا القرن الثالث، لو أننا نستطيع القيام بزيارة إلى هناك، مدينة مأهولة بالحمقى والمجانين. لقد غدت ديمقراطية *المفاهيم* سيّدة على كل عقل في وقتنا الحاضر: الكثرة *مجتمعةً* هي السيّد، وفكرة واحدة تريد أن تكون سيّداً، تدعى اليوم كما ذكرنا آنفاً، «فكرة طاغية». هذه هي *طريقتنا* في قتل الطغاة: أن نشير لهم باتجاه مأوى المجانين.

231

أخطر أنواع الهجرة

في روسيا هجرة عقول: يغادر الناس البلاد من أجل قراءة وتأليف كتب جيدة. لكنّ ذلك سيكون له مفعول أن تتحوّل البلاد التي هجرتها العقول أكثر فأكثر إلى شدق آسيوي مفتوح يريد ابتلاع أوروبا الصغيرة.

232

مجانين الوله بالدولة

ذلك الوله شبه الديني بالملوك الذي كان لدى الإغريق القدامى قد انتقل ليشمل المدينة (بوليس) عندما انتهى عصر المَلَكية. وبما أن

فكرة ما تتحمّل قدراً من المحبة أكبر مما يتحمّل شخص، ولا تعنّف محبّيها مثلما يفعل البشر (إذ إن هؤلاء كلما ازداد إحساسهم بمحبة الناس لهم غدوا أكثر صلافة في أغلب الأحيان، حتى يصبحوا غير جديرين بالمحبة وينشأ عندها شرخ حقيقي)، فإن الوله بالمدينة والدولة قد أصبح أكبر بكثير مما كان عليه إجلال الأمراء على مدى العصور السابقة كلها. لقد كان اليونانيون مجانين الوله بالدولة في العصور القديمة، - وفي التاريخ الحديث قد ناب عنهم غيرهم من الشعوب.

233

ضد التهاون بالعينين

ألا يمكن أن نلاحظ لدى الطبقات المثقفة الإنكليزية المواظبة على قراءة التايمز نقصاً مطّرداً في الطاقة البصرية يتضح كل عشر سنوات؟

234

أعمال كبرى وإيمان كبير

هذا كانت له أعمال كبرى، أما رفيقه فكان له إيمان كبير بتلك الأعمال. لقد كانا متلازمين؛ لكن من الواضح أن الأول كان مرتبطاً كلياً بالثاني.

235

الرجل الاجتماعي

«لا أستطيع تحمّل نفسي»، قال أحدهم محاولاً أن يفسّر تعلّقه بالمجتمع. «معدة المجتمع أقوى من معدتي، وبالتالي فهي تتحمّلني.»

236

إغماض عين العقل

عندما يكون المرء مدرّباً ومتعوّداً على التفكير في الأفعال، فإنه سيكون عليه أن يغمض عينه الباطنية عند ممارسة الأفعال (حتى عندما يتعلق الأمر فقط بتحرير رسالة أو بتناول أكل وشراب). بل ينبغي عليه في محادثة مع متوسطي الناس أن يعرف كيف يغمض عين عقل المفكر **وهو يفكّر**، كي يستطيع أن يدرك متوسط التفكير وأن يفهمه. إغماض العينين على هذا النحو أمر يمكن أن يكون مدركاً وقابلاً للممارسة عن إرادة واعية.

237

أشنع انتقام

إذا ما كان أحد ما مصرّاً على الانتقام من عدوّ له فإنه ينبغي عليه أن ينتظر حتى يصبح بحوزته كمٌّ من الحقائق والأمور العادلة يستطيع أن يسخّرها ضده وبكل هدوء؛ وهكذا يجد فعل الانتقام نفسه مطابقاً لتطبيق العدالة. إنه أشنع أنواع الانتقام، ذلك أنه ما من سلطة فوقه يمكن أن يتم الاعتراض عليه لديها. هكذا انتقم فولتير من بيلون بخمسة أسطر تضمّنت حكماً على مُجمل حياته وأعماله ونواياه: كل كلمة تقابلها حقيقة؛ وكذلك انتقم لنفسه أيضاً من فريدريش الأكبر (في رسالة له من فرْناي[٩٩]).

238

الضريبة على البذخ

نقتني من المحلات التجارية ما هو ضروري وعاجل ويكون علينا أن ندفع ثمنه غالياً، لأننا ندفع في الآن نفسه ثمن أشياء أخرى معروضة

هناك للبيع ولكنها لا تجد إلا نادراً من يقتنيها: مواد بذخ وكماليات. هكذا يفرض البذخ بصفة مستمرة ضريبة على البسطاء الذين هم في غنى عنه.

239

لماذا ما يزال هناك متسوّلون

لو كانت الصدقات لا تمنح إلا بدافع من الشفقة لمات كل المتسوّلين جوعاً.

240

لماذا ما يزال هناك متسوّلون

أكبر متصدّق هو الجبن.

241

كيف يستفيد المفكر من محادثة

يمكننا أن نسمع الكثير حتى من دون أن نكون متنصّتين، إذا ما كنا نجيد النظر وننسى أنفسنا مع ذلك لحين من الوقت. لكن الناس لا يعرفون كيف يستثمرون محادثة على الوجه الأفضل؛ يولون اهتماماً أكبر في أغلب الأحيان إلى ما يريدون قوله وبما سيردّون به على الطرف الآخر، بينما يكتفي *المستمع* الجيّد عادةً بإجابة عابرة بين الحين والآخر، وبأن *يقول* شيئاً من باب المجاملة فقط، وبالمقابل يكون قد ملأ كل الأركان الخفية من ذاكرته بما قاله المحادث إلى جانب الطريقة التي عبّر بها وما يميّزها من نبرة وحركات. في المحادثات الاعتيادية يعتبر كل واحد أنه هو الذي يقود المحادثة، كما يحدث لسفينيتين تسيران جنباً إلى جنب وبين الحين والحين تلكز

إحداهما الأخرى، وكل منهما تعتقد أن مرافقتها هي التي تتبعها أو هي مشدودة إليها.

242

فن الاعتذار

عندما يعتذر لنا أحد ما عليه أن يفعل ذلك بطريقة جيدة، وإلا فإننا سنشعر كما لو أننا نحن المخطئون، وينجرّ عن ذلك لدينا إحساس غير مريح.

243

علاقة غير مريحة

باخرة أفكارك تضرب عميقاً جداً كيما تستطيع الإبحار في مياه أولئك الأشخاص الودودين المستقيمين وذوي اللطف. فالمياه ضحلة هناك والرمال القريبة كثيرة، وسيكون عليك أن تلفّ وتنعطف وتغيّر الاتجاه وتجد نفسك في حرج دائم، وسيشعر أولئك بالحرج أيضاً أمام حرجك الذي لا يستطيعون أن يخمّنوا له سبباً.

244

ثعلب الثعالب

الثعلب الحقيقي ليس ذاك الذي يقول عن العنب الذي لم يطله فقط إنه حصرم، بل كذلك عن ذلك الذي طاله وسبق الآخرين إليه.

245

علاقات حميمة

مهما كانت حميمية العلاقة التي تربط بين شخصين فإن الاتجاهات

الأربعة تظل موجودة دوماً في أفقهما المشترك؛ وفي بعض الأحيان ينتبهون إلى ذلك.

246

الصمت عن اشمئزاز

ههنا شخص يمرّ كمفكر وكإنسان بتحول عميق ومؤلم، ويقدّم شهادة عن ذلك، والمستمعون لا يلاحظون شيئاً من ذلك! وما زالوا يعتقدون أنه هو نفسه كما كان من قبل! هذه التجربة المتكررة قد تسببت في الاشمئزاز لدى عدد من الكتّاب: لقد أقاموا للذكاء الإنساني اعتباراً أرفع مما يستحق، وعندما أدركوا خطأهم قرروا التزام الصمت.

247

جدّية الأعمال

أعمال عدد من الأثرياء والأعيان هي نوع خاص بهم من ***الاستراحة***، من ***عطالة*** معتادة طويلة؛ لذلك يأخذها أصحابها بكثير من الجدية والولع مثلما يفعل آخرون مع القليل من أوقات فراغهم وهواياتهم.

248

التباسات العين

مثل ارتعاشات فُجائية تسري من الموجة على قدميك وتتراءى لك مثل الحراشف، تحصل في عين الإنسان أيضاً تلك الحالات غير اليقينية والالتباسات التي يتساءل المرء معها: أهي ارتعاشة؟ أم ابتسامة؟ أم كلاهما معاً؟

249

إيجابي وسلبي

هذا المفكر ليس في حاجة إلى من يناقضه: يكفيه ما يقوم به بنفسه لذلك الغرض.

250

انتقام الشباك الفارغة

لنحترس من أولئك الأشخاص الذين يحملون في أنفسهم مرارة الصيّاد الذي يعود إلى بيته مساء بسلال فارغة بعد يوم من الجهد.

251

عدم الأخذ بالحق

ممارسة السلطة تتطلب جهداً وتقتضي شجاعة. لذلك يتنازل الكثيرون عن الأخذ بحقهم المستحق والأكثر مشروعية، لأن ذلك الحق يمثل نوعاً من السلطة، غير أنهم على قدر من الكسل أو الجبن يحول دون ممارستها. *فالتسامح والصبر* هما رداء الفضيلة الذي تلبسه هذه النقيصة.

252

حمَلَة النور

لن يكون هناك شعاع من نور داخل المجتمع إن لم يكن هناك أولئك المتملقون الذين يحملونه معهم؛ أعني أولئك الذين يسمّوْن أناساً ودودين.

253

أكبر المحسنين

عندما يكون امرؤ قد تلقى عبارات تقدير كثيرة ولم يأكل إلا قليلاً، يمكننا أن نقول إنه أكبر المحسنين.

254

الاندفاع إلى النور

يندفع الناس إلى النور لا لكي يروا بوضوح، بل لكي يكونوا أكثر بريقاً. -والذي نلمع أمامه، يطيب لنا أن نجعل منه نوراً.

255

المُوَسْوِس

المُوَسْوِسُ إنسان يمتلك من العقل ومن متعة في العقل ما يجعله يتعامل بجدية مع آلامه وخسائره وأخطائه؛ إلا أن المجال الذي يحصل منه على قُوته ضيّق جداً؛ بسهولة يأتي على كل ما يوجد فوقه حتى يجد نفسه مضطراً في النهاية إلى التقاط غذائه عُشبة عشبة. هكذا ينتهي به الأمر إلى أن يصبح حسوداً وبخيلاً؛ بعدها يصبح إنساناً لا يطاق.

256

استرداد

ينصح هزيود بأن نردّ للجار الذي ساعدنا ذات يوم ما يناسب وإن أمكن ما يفوق ما استلمنا منه حالما يصبح بإمكاننا ذلك. هكذا يكون للجار مسرّته في ذلك، إذ سيعود عليه إحسانه السابق مع نسبة من الفائدة؛ لكنّ الذي يردّ ستكون له أيضاً مسرّته في ذلك، إذ، وهو يغدو واهباً هذه المرة من خلال ما سيردّه مع شيء من الفائض، سيشتري لنفسه

حق التخلص من تلك الإهانة الصغيرة التي لحقت به من خلال اضطراره لتقبّل المساعدة ماضياً.

257

أكثر رهافة مما ينبغي

دِقّة الملاحظة التي تكون لدينا فيما يتعلق بما إذا كان الآخرون يدركون حالات ضعفنا هي أكثر رهافة من دقة الملاحظة التي لدينا تجاه ضعف الآخرين؛ نستنتج من ذلك إذاً أنها أكثر رهافة مما ينبغي.

258

نوع من الظلال المضيئة

لصْقَ كل روح قاتمة توجد عادة روح مضيئة شبه مرتبطة بها. إنها شيء شبيه بظل سالب تلقيه تلك الأولى.

259

عدم الانتقام

هناك أنواع دقيقة عديدة من الانتقام مما يجعل أحداً له موجب للانتقام مخيّراً بين أن يفعل أو يدع ما يريد؛ وسيُجمع الجميع بعد فترة من الزمن على أنه قد انتقم فعلاً. فعدم الانتقام ليس اختياراً يقوم به المرء عن إرادة ورغبة إذاً، لأن احتقار الانتقام سيتمّ تأوّله ***والإحساس به*** كنوع خفي ومرهف جداً من الانتقام. - ينتج عن هذا أن لا شيء مما يفعله المرء سيكون زائداً عن اللزوم.

260

كيف نخطئ في الثناء

يعتقد كل إنسان أنه يعبّر للمفكّر عن ثناء مشرّف ومحبَّب عندما يقول له

كيف أنه قد توصّل هو أيضاً إلى نفس الفكرة، بل وإلى نفس الطريقة في التعبير عنها؛ غير أن المفكر لا يشعر إلا نادراً بشيء من الغبطة لمثل هذه المفاتحة، بل غالبا ما تنتابه الريبة تجاه فكرته والطريقة التي عبّر بها عنها؛ ويقرر في سرّه أن يعود يوما ما إلى إعادة النظر فيهما معاً. علينا أن نتفادى التعبير عن التوافق التام ونحن نريد الثناء على أحد ما؛ ففي ذلك تعبير عن إقامة علاقة نديّة. وفي حالات عديدة يكون من باب اللباقة المتحضرة أن نستمع إلى رأي كما لو أنه ليس رأينا أيضاً، بل وكما لو أنه يتجاوز أفق رؤيتنا؛ مثلاً عندما يفتح الرجل المسنّ المجرّب صندوق معارفه استثناءً أمامنا.

261

الرسالة

الرسالة زيارة مفاجئة وساعي البريد وسيط المفاجآت غير المهذبة. على المرء أن يجعل لنفسه ساعة كل ثمانية أيام لتقبّل الرسائل، ثم يستحمّ بعدها.

262

صاحب الموقف المسبق

قال أحدهم: لي منذ الصبا فكرة مسبقة سلبية عن نفسي؛ لذلك أجد في كل عتاب يوجه إليّ شيئاً من الحقيقة وفي كل مديح شيئاً من السخف. إن المديح ذو شأن قليل في عيني عادة، والعتب أكبر شأناً.

263

الطريق إلى المساواة

بضع ساعات من تسلّق الجبال تجعل الوغد والقديس كائنيْن شبه

متساويَيْن. فالتعب هو أقصر السبل إلى *المساواة و الأخوة*،- أما *الحرية*(*) فتنضاف في ما بعد من خلال النوم.

264

الافتراء

إذا ما أراد أحدنا أن يلاحق أثراً ما لافتراءٍ لَحِقه فليكن عليه أن يدع البحث عن مصدر ذلك الافتراء في أعدائه الصريحين؛ إذ لن يجد هؤلاء بصفتهم أعداء لنا أذناً صاغية إذا ما عنّ لهم أن يختلقوا شيئاً ضدنا. بينما أولئك الذين كانوا يجدون لهم لزمن طويل منفعة فينا، والذين يمكن أن يكون قد بدا لهم لسبب من الأسباب أنهم لم يعودوا بحاجة إلينا، هؤلاء بإمكانهم أن يجعلوا افتراء ما يسري ضدنا وينتشر: يجد هؤلاء مصدقين، أولاً، لأن الناس يعتقدون أنه لا يمكنهم أن يختلقوا شيئا من شأنه أن يضر بمصلحتهم؛ ثم لأنهم قد عرفونا جيدا وعن قرب. - ولشي من المواساة يمكن لمن يجد نفسه ضحية افتراء شنيع أن يقول لنفسه: الافتراءات هي أمراض الآخرين التي تَظهر فوق جسدك؛ إنها تثبت بأن المجتمع جسد (معنوي) *واحد*، وأنّ عليك تبعاً لذلك أن تمارس على نفسك المعالجة التي ستعود بالنفع على الآخرين.

265

مملكة الأطفال الفردوسية

سعادة الأطفال هي في الحقيقة أسطورة، مثلها مثل سعادة سكان الأصقاع الشمالية القصوى التي يتحدث عنها اليونانيون القدامى. إذا ما كانت هناك سعادة أصلاً على وجه الأرض، يقول هؤلاء، فلا بد أن

(*) «حرية، مساواة، أخوّة» هو شعار الثورة الفرنسية.

تكون بكل تأكيد في مكان أبعد ما يكون عنا، هناك على حافة الدنيا. وبالطريقة نفسها يفكر الكهول: *إن* كان من الممكن للإنسان أن يكون سعيداً، فلن يكون ذلك بكل تأكيد إلا في عمر أبعد ما يكون عن عمرنا، على تخوم الحياة وفي بداياتها. وبالنسبة لأحدهم كانت رؤية الأطفال من خلال بُرقع هذه الأسطورة أكبر سعادة يمكنه أن يعيشها؛ وهو يرى أنه قد بلغ الساحة الأمامية للفردوس، عندما يقول «دعوا الأطفال يأتون إليّ، فإن لهم ملكوت السماء»[١٠٠]. -أسطورة فردوس الأطفال تظل تفعل فعلها بطريقة أو بأخرى حيثما يكون هناك شيء من العاطفة في عالمنا الحديث.

266

الذين يعوزهم الصبر

الصائر بالذات هو من لا يريد ما هو صائر (الصيرورة): إنه قليل الصبر بالنسبة لذلك الأمر. والتلميذ لا يريد أن ينتظر أن تظل لوحته التي يرسمها عن الناس والأشياء تمتلئ رويداً رويداً على مدى فترة طويلة من الدراسة والمعاناة وتذوّق أنواع من الحرمان؛ هكذا يتخذ له بثقة وإيمان أعميين لوحة أخرى تمنح نفسها له جاهزة ومكتملة، كما لو أنها تعرض عليه مسبقاً مجمل خطوط وألوان لوحته الخاصة؛ يرتمي في أحضان فيلسوف أو شاعر ويروح يعمل بتفان لمدة طويلة من الزمن على نفي نفسه. يتعلّم المريد الكثير من خلال ذلك؛ إلا أنه غالباً ما ينسى الأمر الأكثر أهمية الذي ينبغي عليه تعلّمه ومعرفته: ذاتَه؛ ويظل طوال حياته مجرد تابع. أواه، كم يكون على المرء أن يتحمل من الضجر، وكم يلزمه من العرق حتى يتوصل إلى العثور على ألوانه وريشته وقماشة رسمه الخاصة! ويظل مع ذلك أبعد عن أن يكون سيّد فن حياته؛ -إلا أنه يكون على الأقل سيّداً على مرْسَمه.

267

ليس هناك مربّون

لا ينبغي على المفكر أن يتكلم إلا عن تربية ذاتية فقط. فتربية الشباب على أيدي أشخاص آخرين لا تعدو كونها أحد أمرين: إما تجربة تقام على شخص مجهول وغير قابل للمعرفة، أو تهيئة جذريّة غايتها تأهيل الكائن الجديد، أيا كان، لملاءمته مع العادات والتقاليد السائدة. وفي كلتا الحالتين يكون هذا أمراً لا يليق بالمفكر، وهو عمل الآباء والمعلمين الذين قال عنهم واحد من الرجال الجريئين والصادقين إنهم *nos ennemis naturels*(*) في يوم من الأيام سيكون لنا، إذا ما تمّت تربيتنا لمدة طويلة وفقاً لآراء المجتمع، أن نكتشف ***ذاتنا***: عندها تبدأ مهمة المفكر، وعندها يكون قد آن الأوان لطلب مساعدته؛ لا كمربٍّ، بل كشخص ربّى نفسه بنفسه، وإنسان ذي تجربة.

268

الشفقة على الشباب

ينتابنا الأسى عندما نسمع أن شاباً فقد أسنانه، أو أن شاباً آخر فقد بصره. ولكم سيكون أسانا شديداً بالتالي لو أننا عرفنا كل ما يختفي داخل مجمل كيانه من عاهات لا بُرء منها ولا رجاء في التخلص منها!

(*) بالفرنسية في النص، ومعناها: «أعداؤنا الطبيعيون» والعبارة لستندال، Stendhal, Correspondance inédite... Paris 1855 يوردها بروسبير ميريمي أيضا في Notes et souvenirs, IV:

"Nos maîtres et nos parents disait-il, sont nos ennemis naturels quand nous entrons dans le monde. C'était un de ses aphorismes."

(معلمونا وآباؤنا، يقول ستندال، هم أعداؤنا الطبيعيون الذين نجدهم أمامنا عندما نأتي إلى الحياة. كانت هذه إحدى شذراته.)

- ما الذي يؤلمنا هنا في الحقيقة؟ نتألم لأنه من المفترض أن يواصل الشباب ما شرعنا فيه نحن، وأن كل خلل أو عطب يطرأ على طاقاتهم سيكون مضراً بـ *مشروعنا* الذي وُضع بين أيديهم. إنه أسى ينتابنا لأننا نرى ضمان خلودنا وقد غدا ضعيفاً مهلهلاً؛ أو، إذا ما كنا نشعر بأنفسنا مجرد منفذين لمهمة الإنسانية العامة، فإننا نتألم لأننا نرى هذه المهمة وقد كُتب عليها أن توكل لأيد أضعف من أيدينا.

269

مراحل العمر

إن مقارنة الفصول الأربعة للسنة بأربع مراحل من عمر الإنسان سخافة مبجّلة. فلا العشرون سنة الأولى ولا العشرون الأخيرة من العمر تتوافق مع فصل من فصول السنة، إن لم نكتف في المقارنة بالمقاربة بين بياض الشعر والثلج وما شابه ذلك من مثل هذه الألعاب. فالعشرون سنة الأولى تمثل تهيئة للحياة إجمالاً، لسَنَة الحياة بكلّيتها، شيء شبيه بيوم رأس سنة طويل؛ أما العشرون الأخيرة فتحتضن بنظرة شاملة كل ما عشناه قبلها، تستبطنه وتصل أجزاء ذلك المعاش ببعضها وتنضّدها داخل كل متناغم، تماماً كما نفعل بشكل مصغّر مع مجمل أحداث ووقائع السنة المنصرمة في اليوم الأخير منها. غير أن بين هاتين المرحلتين هناك فترة من العمر توحي فعلاً بالمقارنة مع فصول السنة: إنها الفترة الواقعة بين العشرين والخمسين (كي نعتمد هنا حسابات إجمالية بحسب العشريات، بينما سيكون على كل فرد أن يدخل التعديلات المناسبة لتجربته الخاصة على هذا التقسيم العمومي التقريبي). هذه العشريات الثلاث توافق ثلاثة فصول: الصيف والربيع والخريف؛ وليس هناك من شتاء في عمر الإنسان، عدا أن نريد أن نطلق إسم شتاء على *فترات المرض* غير القليلة للأسف، تلك الفترات

العقيمة، القاسية، الباردة، المترعة وحدة ويأساً. العشرينات: حارّة، مرهقة، بانفجارات رعدية، زاخرة عطاء، متعبة، نبارك فيها نهارنا مساء ونحن نمسح جبيننا، سنوات يتراءى لنا العمل فيها مرهقاً شاقاً لكنه ضروري؛ سنوات العشرينات هذه هي صيف العمر. بينما الثلاثينات هي ربيعه: الهواء فيها ساخن جداً حيناً، بارد جداً حيناً آخر، مضطرب دوماً ومحفّز، نُسغ متدفق، زخم أوراق وعطور في كل مكان، صباحات وأماس ساحرة كثيرة، والعمل الذي توقظنا له أصوات العصافير يكون عملاً يغمر بالبهجة حقاً، ضرب من المتعة التي نجدها في قوّتنا مضاعفة بلذة مسبقة لمذاق الآمال. وأخيراً، الأربعينات: ممتلئة أسراراً ككل ما هو ساكن؛ شيء شبيه بامتداد شاسع لتلال مرتفعة تعبرها ريح منعشة، بسماء صافية ومشعّة من فوقها تغمر النهار بأكمله وجزءاً غير قليل من الليل بنظرة تفيض رقة: فصل جني الغلّة والبهجة الخالصة.... -إنه خريف العمر.

270

عقل المرأة في المجتمع المعاصر

يمكننا أن نستشفّ الفكرة التي لدى النساء اليوم عن عقل الرجال من خلال طريقة زينتهنّ، حيث يفكرن في كل شيء عدا إبراز شيء من تعابير العقل على ملامحهن أو من قسمات الوجه المعبّرة عن الذكاء، بل يعمدن إلى إخفاء مثل تلك الأشياء، ويعرفن بالمقابل كيف يُظهرن، من خلال تسريحة الشعر على الجبين مثلاً، تعبيراً عن حسيّة متوفزة وشبقية وتغييب كل أثر لما هو فكري، وبالذات عندما لا يكنّ حائزات إلا على النزر القليل من ذلك. وتمضي بهن قناعتهن بأن العقل لدى المرأة ينفّر الرجال حد إنكارهن طوعاً للعمق الذهني لديهن، وإشاعة سُمعة *الغباء* حول أنفسهن. ويعتقدن أنهن يجعلن

الرجال أكثر ثقة بهن من خلال ذلك؛ كما لو أن نوعاً من الغسق الناعم المغري يحيط بهن.

271

عظيم وعابر

ما يحرّك أحاسيس المشاهد ويرطّب مآقيه هي تلك النظرة السعيدة المولّهة التي تغمر بها امرأة شابة زوجها. ينتاب المرء إحساس بكآبة خريفية عندها بسبب رحابة سعادة الإنسان وطابعها العابر في الآن نفسه.

272

روح التضحية

هناك مِن النساء مَن تحمل *l'intelletto del sacrifizio* -روح التضحية- في داخلها، ولن تكون سعيدة بحياتها إن لم يرد زوجها التضحية بها: يتشوّش عقلها عندها ولا تدري ما الذي تفعله؛ وبصفة غير ملحوظة تتحوّل من أضحية إلى كاهن الذبائح نفسه.

273

اللاانثوي

«غبي مثل رجل» تقول النساء؛ «جبان مثل امرأة»، يقول الرجال. فالغباء هو اللاأنثوي في المرأة.

274

طباع الذكور والإناث ونسبة الوفايات

كون طبع الذكور أسوأ من طبع الإناث أمر يمكن أن نستنتجه أيضاً من واقع أن نسبة الوفيات لدى الذكور من الأطفال تفوق نسبتها لدى

الإناث، والسبب في ذلك دون شك أنهم «يخرجون عن طورهم بسهولة»: فتوحّشهم وحدّة مزاجهم تجعل كل الشرور تستفحل حتى تغدو قاتلة.

275

زمن المنشآت العملاقة

المسار الديمقراطي في أوروبا حركة لم يعد يوقفها شيء؛ ومن يريد التصدي له يحتاج إلى تلك الوسائل نفسها التي وضعتها الفكرة الديمقراطية لأول مرة بين أيدي كل الناس، وأن يجعل تلك الوسائل طيّعة وأكثر نجاعة؛ وخصوم الديمقراطية الأكثر راديكالية (أعني الثوريين) يبدون كما لو أنهم ليسوا هناك إلا لكي يجعلوا، من خلال ما يثيرونه من خوف، بقية الأحزاب تمضي بخطى أكثر فأكثر سرعة على طريق الديمقراطية. يمكن لمن يرى الآن وجوه أولئك الذين يعملون بوعي وصدق من أجل ذلك المستقبل أن يشعر حقاً بالقلق: هناك مسحة من خواء ورتابة ترتسم على سحناتهم، والغبار الرمادي الذي يلف بهم يبدو وكأنه قد تسرّب إلى أعماق دماغهم. ومع ذلك، من المحتمل أن الأجيال القادمة ستضحك من قلقنا هذا وستفكر في هذا العمل المتواصل لأجيال متعاقبة من أجل الديمقراطية نظرتَنا الآن إلى أعمال بناء السدود والأسوار؛ كعمل لابد أن يغمر الوجوه والملابس بكثير من الأتربة والغبار، وأن يسرّب بالضرورة شيئاً من البلادة إلى عقول عمّاله؛ لكن من سيخطر له لهذا السبب أن يتمنى أن لا ينجَز ذلك العمل؟ يبدو أن تعميم الديمقراطية في أوروبا حلقة في سلسلة ***الإجراءات الوقائية*** الهائلة التي هي فكرة العصر الحديث، والتي نتميّز بها عن العصر الوسيط. الآن فقط حلّ عصر المنشآت العملاقة! الثبات النهائي للأسس التي يمكن أن يُبنى عليها المستقبل في مأمن من

الخطر! لن يغدو ممكناً منذ الآن أن تجد بساتين الحضارة وأشجارها نفسها بين ليلة وفجرها نهباً لدمار السيول الجبلية المتوحشة الحمقاء! حصون وأسوار قائمة ضد البرابرة، ضد الأوبئة، وضد **عبودية *الأجساد والعقول*!** وكل هذا سيتم فهمه حرفياً في البداية وبصفة إجمالية تقريبية، ثم شيئاً فشيئاً بصفة أرقى وأكثر عقلانية، بحيث تبدو كل الإجراءات المذكورة هنا بمثابة الإعدادات الذهنية العامة لمجيء المعلّم الأكبر في فن البستنة، ذاك الذي لن يستطيع الشروع في الانكباب على مهمته الحقيقية إلا عندما يكون ذلك العمل التحضيري قد تم إنجازه على أكمل وجه! إلا أنه: نظراً للمدى الزمني الشاسع الذي يفصل هنا بين الوسيلة والغاية، ونظراً للكمّ الهائل من الطاقات الجسدية والعقلية المسخّرة طوال قرون من الجهد التي كانت ضرورية لإنجاز أو استحضار كل وسيلة منفصلة، كل على حِدة، فإنه لن يحق لنا إذاً أن نؤاخذ عمال الحاضر عندما يعلنون أن هذا الحائط وتلك التعريشة هي الهدف والغاية النهائية؛ فلا أحد رأى بعدُ البستانيَّ ولا الأشجار المثمرة التي أُعدّت ***من أجلها*** التعريشة.

276

وجه الحق في حق الانتخاب

لم ينتزع الشعب حق الانتخاب، بل إنه، وفي كل مكان يمارَس فيه هذا الحق الآن، قد مُنح له، وقبل به مؤقتاً: وعلى أية حال يظل لديه الحق في أن يتنازل عنه عندما يرى أنه لا يخدمه على وجه مُرضي. وهذا ما يبدو أنه يحدث حالياً في كل موضع؛ ذلك أنه إذا كان الإقبال على صناديق الاقتراع عندما تقتضي الحاجة لا يكاد يبلغ ثلثي الناخبين، بل ربما أقل حتى من أغلبية المواطنين الذين يحق لهم التصويت، فإن ذلك يمثل اعتراضاً على مجمل النظام في كلّيته. بل إنه

ينبغي الحكم هنا بأكثر شدة أيضاً: إن قانوناً يقضي بأن يكون للأغلبية الحق في تقرير ما فيه مصلحة الجميع لا يمكنه أن يكون قائماً على نفس القاعدة التي يقوم عليها مقتضى ذلك القانون نفسه؛ إنه يتطلب قاعدة أوسع تتمثل في *الإجماع*. فحق الانتخاب العام لا يمكنه أن يكون تعبيراً عن إرادة الأغلبية فقط: يجب أن يكون شيئاً مرغوباً فيه من طرف الجميع. لذلك يكفي اعتراض أقلية ضئيلة كي يقع التخلي عنه كأمر غير قابل للتطبيق؛ *وعدم المشاركة* في عملية اقتراع شكل من هذا الاعتراض في حد ذاته ينجم عنه انهيار مجمل النظام الانتخابي. إن «الفيتو المطلق» للفرد، أو، ولكي لا نقع في الصغارة، فيتو بعض الآلاف من الأشخاص يظل سيفاً معلّقاً فوق هذا النظام، وهذه نتيجة منطقية للعدالة: في كل مرة نلجأ إلى ممارسة هذا الحق يكون عليه حسب نوعية المشاركة أن يثبت أولاً أنه قائم *على قاعدة من الحق*.

277

سوء التقدير

لكم نسيء التقدير في مجالات لا نكون من أهلها، حتى عندما يكون الواحد منا رجل علم معتاداً على حسن الاستنتاج! إنه أمر مخجل! ولقد غدا واضحاً لدينا أن هذا *التقدير الخاطئ* بالذات هو الذي تكون له الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بالشؤون الكبرى للحياة العامة، في مسائل السياسة، وفي المسائل الفُجائية والعاجلة التي تعترضنا يومياً تقريباً: إذ لا أحد يمتلك دراية كاملة بما يحدث ويتطور بين عشية وضحاها؛ وكل عمل سياسي حتى لدى كبار رجال الدولة إنما هو ارتجال تحكمه المصادفات، لا غير.

278

مقدّمات عصر الآلة

الصحافة، الآلات، والسكة الحديدية والتلغراف كلها مقدّمات لا أحد تجرّأ حتى الآن على تمثّل النتائج التي ستنجرّ عنها للألف سنة القادمة.

279

كابح الحضارة

عندما نسمع: ليس للرجال من وقت للأعمال المنتجة، فمعالجة الأسلحة والحملات الحربية تشغل كامل وقتهم، وعلى بقية المواطنين أن يعملوا على توفير الغذاء والملبس لهم؛ غير أن زيّهم غريب، وغالباً ما يكون مزوّقاً وذا مظهر تهريجي؛ ولديهم هناك لا مكان سوى للقليل النادر من الميزات الخصوصية، والأفراد متشابهون كلهم على نحو لا يوجد في أي مكان آخر، أو أنهم يعامَلون كمتشابهين؛ وهناك يطالَب بالطاعة، ويظهر المرء الطاعة دون فهم؛ يأمر، لكنه يحترس كل الاحتراس من الإقناع؛ والعقوبات هناك نادرة لكنها قاسية وتمضي بسرعة إلى حدها الأقصى وإلى الأشنع؛ الخيانة هناك أكبر جريمة، بل إن مجرد نقد الأوضاع القاسية أمر لا يجازف به غير ذوي الشجاعة القصوى، حياة الإنسان هناك رخيصة، والطموح غالباً ما يأخذ شكل المخاطرة بالحياة؛ -كل من يسمع هذا سيقول مباشرة: «إنها صورة لمجتمع همجي يحيق به ***الخطر***». وربما يضيف أحدهم: «إنها صورة عن اسبارطة»؛ غير أن أحدا آخر سيقول بعد تفكّر في الأمر إنما هي **مؤسسة جيشنا *الحديث*** التي توصف هنا في الصورة التي تظهر عليها في حضارتنا ومجتمعنا المختلفين، كمفارقة تاريخية وكصورة، كما قلنا آنفاً، لمجتمع همجي محاط بالخطر، كقطعة من نتاج متأخر لماض منقرض ما من دور ممكن لها غير دور كابح محكم على

دواليب الحاضر. -لكن يحدث للحضارة أيضاً أن تكون بين الحين والآخر في أشد الحاجة إلى كابح، وذلك عندما تأخذ حركة انحدارها، أو حركة *صعودها* كما هو الحال بالنسبة لحضارتنا اليوم، نسقاً في غاية السرعة.

280

مزيداً من الاحترام للعارفين!

في إطار التنافس في العمل وبين الباعة غدا الجمهور هو الحكم فيما يتعلق بالمنتوج؛ إلا أن هذا الأخير يفتقر إلى المعرفة الجدية ويحكم بحسب *مظهر* البضاعة. وكنتيجة لذلك سيحدث إذاً في ظل سيادة المنافسة تطور في فن الشكل (وربما الذوق) وتدنٍّ في نوعيّة المنتوج. وبالتالي، وإذا ما ظل العقل محافظاً على قيمته، سيأتي يوم يوضع فيه حد لهذه المنافسة، ويفلح مبدأ جديد في فرض نفسه عليها. الحرفيّ المتمرس وحده هو الذي ينبغي أن يكون الحكَم فيما يتعلق بالمنتوج، ويكون اختيار الجمهور مرتبطاً بثقته في ذلك الشخص وفي نزاهته. ما من عمل مجهول الهوية إذاً! لابد أن يكون هناك على الأقل خبير يمنح كفالته لذلك العمل ويضع اسمه ضماناً له عندما يكون اسم المنتج غير معروف أو قليل الشهرة. فرخص بضاعة ما يمثل بالنسبة لغير العارف نوعاً آخر من المظهر الخارجي والخدعة، إذ ديمومته وحدها هي التي تحكم على ما إذا كان شيء ما زهيد الثمن وإلى أي حد هو كذلك في الحقيقة؛ غير أن هذا الأمر صعب وغير متيسر بالنسبة لغير العارف. إذاً: ما يخلب النظر ويكون زهيد الثمن هو الذي ستكون له الغلبة في المنافسة، وسيكون ذلك بطبيعة الحال من نتاج عمل الآلة. وبالمقابل فإن الآلة التي هي مصدر سرعة وسهولة الإنتاج ستبجّل من جهتها النوع *الأكثر مبيعاً*؛ وإلا فإنه لن يكون هناك من ربح ذي أهمية كبرى

من عملها، وسيتم بالتالي استعمالها بصفة محدودة وإيقافها غالباً عن العمل. أما ماهو الأكثر مبيعاً فسيكون الحكَم فيه هو الجمهور كما ذكرنا آنفاً: ينبغي أن يكون الشيء الأكثر قدرة على الخداع: أي ذلك الذي يستطيع أن يبدو أولاً ب**مظهر** حسن، ثم ب**مظهر** الرخيص. وبالتالي ينبغي أن يكون شعارنا في مجال العمل أيضاً: «مزيداً من الاحترام للعارفين!»

281

خطر الملوك

باستطاعة الديمقراطية، دون لجوء إلى أية وسيلة عنيفة، ومن خلال استعمال ضغط قانوني مستمر أن تفرغ الحكم الملَكي والإمبراطوري من محتواه؛ إلى أن لا يتبقى منه غير صفر. وبما للصفر من أهمية، أي كشيء لا قيمة له في حد ذاته، لكن يكون له ***مفعول*** المضاعِف عشر مرات إذا ما وُضع على اليمين، ربما يظل الحكم الملكي والإمبراطوري زينة بهيّة على ثوب الديمقراطية البسيط والإجرائي، ذلك الجمال الباذخ الفائض عن اللزوم الذي تسمح به لنفسها، كبقايا تاريخية ومهيبة من حِلية الأسلاف الغابرين، بل رمز التاريخ نفسه،- وبهذه الصفة الفريدة يكون ذا مفعول على درجة عالية من الأهمية إن لم يظل، كما قلنا آنفاً، قائماً لذاته فقط، بل يتم ***وضعه في*** المكان المناسب. -ولكي يتفادوا خطر أن يروا أنفسهم مجرّدين من كل أهمية، يعمل الملوك الآن على التمسك بكل ما أوتوا من قوة بشرف مكانتهم *كأمراء حرب*: ولتحقيق تلك الغاية يحتاجون إذاً إلى حروب، أي إلى حالات استثنائية يتوقف داخلها ذلك الضغط المستمر الذي تمارسه عليهم القوى الديمقراطية.

282

المدرّسون شرّ لابد منه

أقلّ ما يمكن من الأشخاص بين العقول المنتجة والعقول المتعطشة والمتقبّلة! ذلك أن ***الوسطاء*** يزوّرون بطريقة تلقائية تقريباً كل الأغذية التي ينقلونها؛ ويطالبون ***لأنفسهم***، كمكافأة علاوة على ذلك، بالكثير مما تُحرم منه العقول المنتجة الأصلية من اهتمام وإعجاب ووقت ومال وأشياء أخرى. -يعني أنه ينبغي أن ننظر إلى المدرّس كشرّ لابد منه، مثله مثل التاجر: أي شرّ يجب أن نجعله ***أصغر حجماً*** قدر المستطاع! -إن الأوضاع البائسة التي تعيشها ألمانيا اليوم يمكن أن نردّها إلى سبب أساسي وهو أن هناك عدداً أكبر مما ينبغي من الذين يريدون أن يعيشوا من التجارة، وأن يعيشوا منها على نحو جيد (يعني أن يحاولوا أن يخفضوا قدر ما يستطيعون من الأسعار التي يتناولها المنتجون وأن يرفعوا أكثر ما يمكن من الأسعار التي يدفعها المستهلكون، ليتسببوا في مضارّ كبيرة لكلي الطرفين معاً): على النحو نفسه يمكننا بكل تأكيد أن نرى سبباً رئيسياً للأوضاع الفكرية البائسة في تضخّم عدد المدرّسين: فبسببهم لايتعلم الناس سوى القليل وبشكل رديء.

283

ضريبة الاحترام

ندفع طوعاً ثمناً مرتفعاً، بل غالباً بما يفوق إمكانياتنا لكل من نعرفه ونحترمه، طبيباً كان أم فناناً أم حرفياً؛ وبالمقابل لا ندفع لمن هو غير معروف إلا أقل ما يمكن. ههنا صراع يقاتل فيه كل فرد ويرغم الآخر على القتال من أجل كل شبر. في العمل الذي ***يقدّمه لنا*** من نعرفه هناك شيء ***لا يقدّر بثمن***، إنه إحساسه وابتكاره الذي يضعه في عمله ***من أجلنا***؛ فنحن نعتقد أننا لا نستطيع أن نعبّر عن إحساسنا تجاه هذا

الأمر إلا عن طريق ***تضحية*** نقدّمها من جهتنا. -إن أقوى ضريبة هي ***ضريبة الاحترام***. وكلما ازدادت المنافسة، ورحنا نقتني من غير الذين نعرفهم ونقدم أعمالاً لأناس لا نعرفهم، انخفض مبلغ هذه الضريبة، في حين هي في الحقيقة المقياس لمستوى ***المعاملات المعنوية*** بين الناس.

284

أداة السلم الحقيقية

ليس هناك حكومة واحدة تعترف بأنها ترعى الجيوش من أجل إشباع رغبة في الغزو تستيقظ فيها بين الحين والآخر؛ بل الغاية من وراء ذلك حسب زعمها هي الدفاع عن النفس. ولتبرير هذا الأمر يتم استدعاء ذلك المبدأ الأخلاقي الذي يبيح الدفاع الشرعي. إلا أن هذا يعني: أن يحتكر المرء الأخلاقية لنفسه ويجعل اللاأخلاقية للجار، لأنه لابد أن يُظن بذلك الجار أنه ذو رغبات عدوانية ومطامح توسعية إذا ما كان على دولتنا أن تفكر في ضرورة التسلح بوسائل الدفاع عن النفس؛ وعلاوة على ذلك سيُنظَر إليه، هو الذي ينكر وجود نوايا عدوانية لديه مثلما تفعل دولتنا بالضبط، ويعلن من جهته أيضاً أن لا غرض لديه من وراء قوته العسكرية غير تأمين الدفاع عن نفسه، سيُنظر إليه إذاً من خلال تبريرنا الخاص لامتلاكنا قوة عسكرية، كمنافق ومجرم ماكر لا يحلم إلا ***بمباغتة*** ضحية ضعيفة عديمة القدرة على الدفاع، والتغلب عليها دون قتال. هكذا تتصرّف اليوم كل الدول الواحدة تجاه الأخرى: تفترض سوء النية في الجار وحسن النوايا في نفسها. غير أن هذا الافتراض اعتبار ***لا إنساني*** سيّئ، بل أسوأ من الحرب نفسها؛ إذ هو في الحقيقة الداعيَ المثير والسبب الذي تنجم عنه الحروب، لأنه، كما قلنا، ينسب اللاأخلاقية للجار ويبدو بذلك مثيراً للمشاعر والأفعال

العدوانية ضده. علينا أن نتخلّى من الأساس عن الفكرة القائلة بأن الجيش وسيلة للدفاع عن النفس تخلّينا عن الرغبات التوسعية. وربما يأتي يوم عظيم يقوم فيه شعب قد غدا متميزاً من خلال الحروب والانتصارات وأعلى درجات الانضباط والذكاء العسكريين، ومتعوّداً على تقديم أغلى التضحيات من أجل هذه الأمور، ليعلن طوعاً: «قرّرنا أن نحطّم السيف»، ويدمّر جهازه العسكري عن آخره. ***أن يجرّد المرء نفسه من وسائل الدفاع في الوقت الذي يكون فيه في أقصى قوته الحربية***، وذلك عن ترفّع؛ تلك هي وسيلة تحقيق ***السلم الحقيقية*** التي لا تقوم إلا على عقلية سلمية؛ بينما عقلية السلم المسلحة المزعومة، كما يسود في كل البلدان اليوم إنما هي عقلية غير سلمية لا تثق بنفسها ولا بالجار، وترفض بمزيج من البغض والخوف أن تلقي بسلاحها. إنه لمن الأفضل أن نهلك من أن نظل نبغض ونخاف، وإنه ***لمن الأفضل أن نهلك مرتين من أن نجعل أنفسنا محل بغض وخوف الآخرين***: هكذا ينبغي أن تكون أرقى مقولة حكميّة لكل مجتمع ذي نظام سياسي! -إن الممثلين الليبراليين لشعوبنا يفتقرون، كما هو معلوم، إلى وقت للتفكّر في طبيعة الإنسان؛ وإلا لكانوا قد أدركوا أنهم إنما يبددون جهودهم دون جدوى عندما يهتمّون بالعمل على «تخفيض تدريجي للنفقات العسكرية»، بل أكثر من ذلك: عندما يكون هذا النوع من الضيق في أرقى مستوى، يغدو نوع الإله الذي بمستطاعه هو وحده أن يكون المساعد على الخلاص أكثر قرباً من أي وقت مضى. إن شجرة الأمجاد الحربية لا تتحطم إلا بضربة واحدة حاسمة، بضربة صاعقة؛ غير أن الصاعقة، كما لا يخفى عنكم، تأتي من السحاب -ومن فوق دوماً.

هل يمكن للعدل أن يدخل توازناً على نظام المِلكية؟

- عندما يشتد الإحساس بظلم المِلكية، -ويكون عقرب الساعة قد عاد إلى ذلك الموضع نفسه مرة أخرى، فإننا نجد أنفسنا نطرح طريقتين لمعالجة هذا الأمر: -أولا، التوزيع المتساوي للممتلكات، -ثم، إلغاء الملكية والعودة إلى نمط الملكية الجماعية. والطريقة الأخيرة هي تلك التي يحبّذها اشتراكيّونا الذين مازالوا مستائين من ذلك اليهودي القديم الذي قال: لا تسرق(١٠١). ففي نظرهم كان على تلك الوصيّة السابعة أن تقول بالأحرى: لا تملك!- الطريقة الأولى قد جُرّبت مرات عديدة في القدم، في مجال محدود دوماً، لكن بفشل متكرر دوماً كان بإمكانه أن يكون لنا منه درس وعبرة. سهلٌ أن نعلن: «حِصص متساوية من الحقول للجميع»؛ لكن كم من الأسى والوجع سينجم عن التقسيم والانفصال الضروريين في تلك العملية، ومن خلال فقدان ممتلك ظل محل إجلال منذ القدم، وكم من التقوى التي ستتم التضحية بها هنا! فالفأس التي يتم بها اقتلاع حجر الحدود تقتلع في الآن نفسه أخلاقية الإنسان أيضاً. ثم كم من المرارة مرة أخرى لدى المالكين الجدد، كم من غيرة ونظرات حسودة، ذلك أنه لا وجود البتة لقطعتي أرض متساويتين حقاً، وفي صورة ما إذا وجدت فإن حسد الجار المتأصل في الإنسان لن يقبل بالاعتقاد في تساويهما. وكم من الوقت سيُكتب لهذه المساواة المسمومة من أساسها أن تثبت وتدوم؟ ففي غضون أجيال قليلة نجد هنا حصة واحدة تقسّم بين خمسة أشخاص من خلال الميراث، بينما خمس حصص هناك تغدو من نصيب شخص واحد؛ وفي حالة ما تم الاحتياط لتفادي مثل هذه المساوئ بواسطة قوانين ميراث صارمة وقاسية، فإن الحصص المتساوية ستظل متساوية بكل تأكيد، لكن

سيظل أيضاً هناك معوزون وأناس غير راضين لا يملكون شيئاً، عدا الحسد الذي يكنّونه لأقربائهم وجيرانهم ورغبة في قلب الأوضاع رأساً على عقِب. -أما إذا ما أردنا توخّي **الطريقة** *الثانية* وأعدنا ملكية الأشياء إلى المجموعة وجعلنا من الأفراد مجرد مؤاكرين مؤقتين فإننا ندمّر بذلك الأراضي الزراعية. إذ الإنسان كاره بطبعه لكل ما لا يحوزه إلا لمدة محدودة من الزمن، ومن دون أية عناية أو تضحيات سيتعامل مع تلك الأرض بطريقة استغلالية ناهبة مثل لص أو مبذّر ماجن. وعندما يؤكد أفلاطون أن الأنانية ستضمحلّ باضمحلال الملكية فلابد أن نجيبه بأنه بعد القضاء على الأنانية لن يتبقّى للإنسان شيء من الفضائل الأربع الرئيسية(١٠٢)، ولا بد أن نقول أيضاً: إن أعظم وباء لن يُلحق بالإنسان من أضرار مثل ما سيلحَقه إذا ما فقد الغرور في يوم من الأيام. -أي شيء إذاً هي الفضائل الإنسانية من دون غرور وأنانية؟ وأنا أبعد ما يكون عن أن أعني بذلك أنها ليست سوى أسماء وأقنعة لهما. هذه المعزوفة الطوباوية الأساسية لأفلاطون، والتي ما زال الاشتراكيون يواصلون عزفها اليوم تقوم على عدم معرفة بالإنسان: كان أفلاطون يفتقر إلى المعرفة بتاريخ الأحاسيس الأخلاقية، والمعرفة بأصل الخصال الحسنة والنافعة للنفس الإنسانية. كان، مثل مجمل الحضارة العتيقة، يؤمن بالخير والشر على غرار الأبيض والأسود: أي بفرق جوهري حاسم بين الناس الخيّرين والشرّيرين وبين الخصال الحميدة والسيئة.

- لكي نجعل الملكية أكثر جدارة بالثقة في المستقبل وأكثر أخلاقية علينا أن نهيّئ كل سُبل العمل التي تؤدي إلى تكوين الثروات *الصغيرة*، وأن نعمل على إعاقة كل إثراء سهل وسريع؛ وسيكون علينا أن نسحب كل فروع التجارة والمواصلات التي تسمح بمراكمة الثروات *الهائلة*، وبصفة خاصة تجارة المعاملات المصرفية من أيدي الخواص

والشركات الخاصة، وأن نعتبر أصحاب الثروات الكبيرة خطراً على سلامة الحياة الاجتماعية، مثلهم مثل المعدمين.

286

قيمة العمل

إن نحن أردنا أن نحدد قيمة العمل بمقدار ما يوضع فيه من الوقت والتفاني وحُسن النوايا أو سوئها، والإكراه، ومدى الاجتهاد أو الكسل، والنزاهة أو التظاهر، فإننا لن نتوصل إلى تحديد تلك القيمة؛ إذ ذلك يعني أنه لابد أن يكون بوسعنا أن نضع مجمل الشخص في كفة الميزان، وهو أمر مستحيل. وذلك ما كانت تعنيه مقولة «لا تحكم»[١٠٣]. إلا أن نداء المطالبة بالعدالة هو ما نسمعه الآن من أولئك المستائين من عدم تقدير العمل بما يتناسب وقيمته. وإذا ما دفعنا بالتفكير إلى الأمام فإننا سنجد أن كل شخصية لا يمكنها أن تكون مسؤولة عن إنتاجها: أي عن عملها؛ بما معناه أنه لا يمكن البتة استخلاص مزية ما من خلالها، إذ كل عمل يكون جيداً أو رديئاً بحسب ما ينبغي أن يكون عليه وفقاً للتضافر الضروري لعناصر الطاقة والضعف والمعارف والرغبات. فالأمر لا يتوقف على إرادة العامل *إن* سيعمل أم لا، أو كيف سيعمل. إن المنظورات المتعلقة *بالمنفعة*، ضيقة كانت أم واسعة، هي وحدها التي حددت قيمة العمل. وما نسمّيه الآن عدلاً هو في هذا المجال أمر في محله كشكل مهذب من المنفعة التي لا تأخذ اللحظة الآنية وحدها بعين الاعتبار وتستغل الفرصة منها، بل توجّه اهتمامها إلى ديمومة كل الحالات، وتضع في حسبانها بسبب ذلك منفعة العامل أيضاً وراحته الجسدية والنفسية؛ كي يستطيع هو ونسله أن يواصلوا العمل من أجل منفعة نسلنا، وأن يظل من الممكن أن يعوّل عليهم على مدى زمني طويل يتجاوز فترة الحياة

الفردية. لقد كان *استغلال* العمال، كما تم إدراك ذلك اليوم، حماقة ونهباً مستنزفاً مضراً بالمستقبل، وخطراً يهدد المجتمع. والآن نحن إزاء حالة حرب تقريباً؛ وستكون التكاليف على أية حال باهظة جداً من أجل الحفاظ على السلم، ومن أجل إبرام تعاقدات وكسب ثقة، لأن حماقة المستغلين كانت كبيرة وقد امتدت على مدى زمني طويل.

287

عن دراسة الجسد الاجتماعي

إن أسوأ ما يتعرّض له الطالب في أوروبا، وعلى وجه الخصوص في ألمانيا، عندما يريد دراسة العلوم الاقتصادية والسياسية هو أن الأوضاع الواقعية عوضاً عن أن تكون تجسيداً ***للقواعد الثابتة***، هي بالأحرى تجسيد ***للحالات الاستثنائية*** أو ***المراحل الانتقالية وفترات النهايات***. لذلك سيكون على المرء أن يتعلم أولاً كيف ينظر في ما وراء ما هو واقع قائم وأن يوجّه نظره بعيداً إلى أميركا، حيث يمكننا أن نرى بالعين المجردة الحركات البدئية والعادية للجسد الاجتماعي وأن نخضعها للمعاينة، إن *كنا نريد* ذلك طبعاً؛ بينما يتطلب الأمر في ألمانيا دراسات تاريخية معقدة، أو كما يقال، أن ننظر بواسطة منظار مقرّب.

288

إلى أي مدى تكون الآلة عنصر إهانة

الآلة لاشخصية؛ تجرّد العمل من كبريائه، من الجيّد والمنقوص في فردية كل ما يتصل بما هو عمل غير آلي؛ أي من النصيب القليل من إنسانيته. في ما مضى كان شراء كل منتوج حِرفي ***تكريماً لأشخاص محدّدين*** نحيط أنفسنا بعلاماتهم المميزة: فالأدوات المنزلية والملابس

كانت تتحول بهذه الطريقة إلى رموز لتبادل التقدير ولإحساس شخصي بالقرابة، بينما نبدو اليوم وكأننا نعيش محاطين بعلامات عبودية لاشخصية ودون هوية. -لا ينبغي أن ندفع ثمناً باهظاً مقابل تسهيل العمل.

289

كارنتينة المئة سنة

المؤسسات الديمقراطية هي مآوي كارنتينة للحماية من الرغبات الاستبدادية القديمة: وهي، بما هي كذلك، مفيدة جداً ومملّة جداً.

290

أخطر المتحزبين

أخطر المتحزبين هو ذلك الذي ينهار الحزبُ بكلّيته بسقوطه: أي أفضل المتحزبين.

291

المصير والمعدة

شطيرة أكثر أو شطيرة أقلّ في معدة فارس السباق تقرر أحيانا مصير السباق والمراهنين، أي سعادة أو شقاء الآلاف من الناس. -وما دام مصير الشعوب معلقاً بعمل الدبلوماسيين فإن معدات الدبلوماسيين ستظل موضوع مخاوف وطنية. *Quousque tandem*[١٠٤] - (لكن إلى متى؟)

292

انتصار الديمقراطية

تحاول كل القوى السياسية اليوم أن تستغل الخوف من الاشتراكية كي

تستمد من ذلك قوة لنفسها. لكن مع مرور الزمن ستكون الديمقراطية هي المستفيد الوحيد من ذلك؛ ذلك أن كل الأحزاب تجد نفسها الآن مرغمة على تملّق «الشعب» ومنحه كل أنواع التسهيلات والحريات التي ستمكنه من أن يصبح صاحب القوة المطلقة في النهاية. إن الشعب أبعد ما يكون عن الاشتراكية كمذهب يدعو إلى تغيير نظام الملكية؛ وعندما سيتمكن من أن يضع يده على آلة التحكم في الضرائب من خلال أغلبية ممثليه البرلمانيين سيوجه حربته عن طريق الضريبة التصاعديّة إلى أمراء الرأسمالية والتجارة والبورصة ويمضي شيئاً فشيئاً نحو تكوين طبقة وسطى ستنتهي بأن *تنسى* الاشتراكية مثل مرض قد تم الشفاء منه. - ثم ستكون النتيجة العملية لهذه الديمقراطية الماضية في الانتشار ظهور فدرالية للشعوب الأوروبية يجد كل شعب داخلها منزلة المقاطعة وما يتبعها من حقوق خصوصية، ضمن حدود تسطرها معايير جغرافية ذات طابع منفعي؛ ولن يكون بعدها من مكان هناك تقريباً للذكريات التاريخية للشعوب التي كانت قائمة حتى تلك اللحظة، لأن إحساس الإجلال تجاه تلك الذكريات سيجد نفسه مجتثاً من الجذور من خلال سيادة المبدأ الديمقراطي المتجه بكل وجدانه نحو التجديد والولع بالتجارب الجديدة. أما التعديلات التي ستجرى على الحدود التي ستبدو ضرورية في هذا المسار فستتم بطريقة تراعى فيها *منفعة* المقاطعة الكبرى ومجمل الفدرالية، لا متطلبات ذاكرة متعلقة بضرب من الماضي الغابر المندحر. وستوكل مهمة تلمّس أوجه هذه التعديلات إلى الدبلوماسيين المستقبليين، الذين سيكونون في الآن نفسه خبراء في الأحوال الثقافية وعلماء اقتصاد زراعي وعارفين في مجال الاتصال لا تقف وراءهم قوات مسلحة بل حجج مبررة وأفكار نافعة. عندها، وعندها فقط تغدو السياسة *الخارجية* مرتبطة على نحو لا يقبل الانفصام بالسياسة *الداخلية*؛ بينما ماتزال هذه الأخيرة في وقتنا

الحاضر تدبّ وراء سيّدتها المتكبرة، وتلقط في سلّتها البائسة ما تتركه آلة حصادها من بقايا سنابل وراءها.

293

غاية الديمقراطية ووسيلتها

تسعى الديمقراطية إلى تحقيق وضمان الاستقلال لأكبر عدد ممكن من الناس؛ استقلال الرأي، واستقلال نمط العيش والكسب. من هنا يكون من الضروري بالنسبة لها أن تقر بحق الانتخاب للمعدمين كما لكبار الأثرياء: وهاتان طبقتان اجتماعيتان ينبغي عليها العمل باستمرار على إلغائهما، لأنهما كلتيهما تضعان مهمتها الحقيقية موضع سؤال. كما يجب عليها أن تعيق كل ما يبدو أنه يهدف إلى تكوين الأحزاب. ذلك أن الأعداء الثلاثة الأكبر للاستقلال في معناه الثلاثي المذكور آنفاً هم المعدمون والأثرياء والأحزاب. - إنني أتكلم هنا عن الديمقراطية كشيء قادم لم يتحقق وجوده بعد. أما هذا الذي يسمّى اليوم بذلك الإسم فهو لا يختلف عن أنظمة الحكم السابقة إلا ***بالجياد الجديدة*** التي تجرّ العربة التي يقودها: الطرقات هي تلك القديمة نفسها، والعجلات هي أيضاً تلك القديمة. -فهل غدا الخطر أقل حجماً مع ***هذه*** العربات الحالية لرفاهية الشعوب؟

294

الاتزان والنجاح

تلك الخصلة الكبرى التي تتمثل في الاتزان، والتي هي فضيلة الفضائل في الحقيقة وجدّتها ومِلِكتها، قليلاً ما يكون النجاح حليفها في الحياة العملية؛ وطالب الودّ الذي يدفعه هاجس النجاح وحده إلى توخّي سبيلها، سيخيب ظنه بكل تأكيد. فللاتزان لدى الناس ***العمليين*** سمعة

المشبوه، ويتم الخلط بينه وبين المكر والحيلة المرائية؛ بينما الرجل الذي يفتقر إلى الاتزان، ذلك الذي ينقضّ بسرعة، والذي يخطئ ضربته أيضاً من حين لآخر، سيحظى بسمعة إيجابية مفادها أنه رجل مخلص ومحل ثقة يمكن الاعتماد عليه. الناس العمليون لا يكنّون المحبة للاتزان إذاً، فهو حسب ما يعتقدون شيء خطير بالنسبة لهم. ومن جهة أخرى يميل الناس إلى اعتبار المتزن جباناً، غير واثق ومتحذلقاً، بينما غير العمليين والميالين إلى المتعة يرون فيه إنساناً غير مريح، لأنه لا يحيا بكل بساطة مثلهم، دون أن يفكر في الأعمال والواجبات: إنه يتراءى بينهم مثل تجسيد حيّ لضميرهم، وبحضوره يغدو ضوء النهار شاحباً في عيونهم. وإذا ما كان ينقصه النجاح إذاً ومحبة الناس له فإنه يظل بوسعه دوماً أن يعزي نفسه قائلاً: «إنما هكذا ينبغي أن تكون *الضريبة* التي عليك أن تؤدّيها مقابل حيازتك للممتلك الأغلى قيمة من بين ما يمتلك الناس من حولك؛ إنه ممتلك جدير بهذا الثمن!»

295

Et in Arcadia ego[(١٠٥)]

كنت أجول بنظري في المشهد من تحتي فوق تموّجات كُثبان تلال محاذية لبحيرة بلون أخضر حليبي عبر غابات من التنّوب وأشجار صنوبر عتيقة قاتمة وقورة: أجراف صخرية من كل صنف من حولي، والأرض مزدانة أزهاراً وأعشاباً. قطيع يتحرك، يتقدم منتشراً، متمططاً أمامي؛ بعض أبقار منفردة أو مجتمعة داخل ضوء الغسق المتوهج في مكان أبعد، بالقرب من غابة الصنوبر، وأخرى في مواقع أقرب، أكثر قتامة؛ كل شيء يسبح في السكون والامتلاء الغسقي، وساعتي تشير إلى الخامسة والنصف تقريباً. ثور القطيع قد توغّل داخل الجدول

المزبد الأبيض، وراح يمضي ببطء مقاوماً التيار حيناً ومستسلماً حيناً، متقدماً داخل الدفق العنيد؛ مغتبطاً بكل تأكيد لتلك المتعة الهائجة التي يجدها في ذلك. شخصان داكنا السمرة من أصل برغامي كانا هما الراعيين: الفتاة منهما كانت بثياب أشبه بلباس ولد. على يساري منحدرات صخرية وتلال ثلج تعلو أحزمة من الغابات الشاسعة، وعلى يميني سِنّان هائلتان يكسوهما الجليد، متلفّعان عالياً من فوقي بلحاف من الضوء البخاري: كل شيء على حال من العظمة والسكون والإشعاع. كل هذا الجمال يحدث قشعريرة تخترق الجسد، ويدفع إلى تعبّد صامت لتلك اللحظة التي يتجلى فيها: تلقائياً، وكما لو أن ليس هناك من شيء أكثر طبيعية من ذلك، يجد المرء نفسه يدمج أبطالاً يونانيين داخل ذلك العالم النوراني النقي الساطع (عالم لا شيء فيه من حنين، ومن انتظار، ومن تطلع إلى الأمام أو إلى الخلف)؛ يجد المرء نفسه لا يستطيع سوى أن يحسّ هنا على غرار بوسان(١٠٦) وتلامذته: على نحو بطولي وبريء. -وعلى ذلك النحو *عاش* بعض الناس أيضاً، وهم **يحسّون** على الدوام بأنفسهم داخل العالم وبالعالم داخلهم، ومن بينهم واحد من أعظم الرجال، مبتكرُ نوعٍ بطولي بريء من تعاطي الفلسفة: أبيقور.

296

الحساب والقياس

أن ترى أشياء كثيرة وتُوازنَ الواحدة منها بالأخرى، وتقيم حسابات من خلال مقابلتها ببعضها وتستنتج منها خلاصة سريعة وتتوصل إلى مجموع شبه ثابت؛ ذلك هو ما يميّز رجل السياسة العظيم والقائد الحربي الفذ والتاجر الكبير: أي ضرب من الحساب الذهنيِ السريع. أن ترى شيئا *واحداً*، وتجد فيه الدافع الوحيد للفعل والحَكَم في كل

ماعداه من الأفعال، ذلك هو ما يصنع البطل، والمتعصب أيضاً،- أي: القدرة على القياس بمقياس واحد.

297

لا ترغبْ في النظر في الوقت غير المناسب

ما دمنا نعيش شيئاً ما علينا أن نسلّم نفسنا إلى ذلك المُعاش، وأن نغمض عينينا؛ أي أن لا نلعب دور المعايِن ونحن نعيشه. فذلك سيشوّش عملية هضم ذلك الذي نعيشه، وعوضاً عن حكمةٍ، نجني من ذلك حالة سوء هضم.

298

من صُلب ممارسة الحكيم

كي يصبح المرء حكيماً عليه أن يريد أن يعيش تجارب بعينها، أي أن يقذف بنفسه بين شدقيها. أمر خطير هو على أية حال؛ فكم من «حكيم» ذهب فريسة لذلك.

299

فتور العقل

لامبالاتنا وبرودتنا الظرفيتان تجاه الناس، واللتان غالباً ما يتم تأوّلهما كقسوة أو سوء طبع، ليستا شيئاً آخر في أغلب الأحيان غير فتور يصيب العقل: حالة فتور يغدو الآخرون فيها -بل ونفسنا أيضاً- لا يعنون لنا شيئاً، ومرهِقين أيضاً.

300

«ولكنّ الحاجةَ إلى واحد»(١٠٧)

عندما يكون المرء ذا فطنة فإنه سيعمل على شيء واحد، وهو كيف

يجعل قلبه ممتلئاً غبطة. -كلا، يردّ عليه شخص آخر: عندما يكون المرء ذا فطنة فإن أفضل ما سيفعله هو أن يكون حكيماً.

301

دليل المحبة

قال أحدهم: «هناك شخصان لم أشغل نفسي أبداً بالتفكير فيهما بعمق؛ وذلك دليل على حبي لهما.»

302

كيف نحاول تصحيح الحجج السيئة

من الناس من يُلحق حُججه السيئة بروافد إضافية من شخصيته، كما لو أن تلك الحجج ستوضع بذلك على مسارها الصحيح وتتحول إلى حجج مستقيمة وصائبة؛ تماماً مثلما يفعل لاعب الكرة الحديدية الذي يُلحق رميته بحركات وتمايل للجسد محاولاً بذلك أن يوجّه كرته إلى الاتجاه الصحيح.

303

الاستقامة

لا يكفي أن يكون المرء نموذجاً للاستقامة فيما يتعلق بمسائل الحق والملكية، مثل شخص لا يعمد وهو طفل إلى قطف ثمار من بستان غيره مثلاً، ولا يدوس ككهل على مروج لم يُحصد زرعها بعد؛ كي لا نذكر غير هذه الأمور البسيطة التي تمثل أكثر من الأخرى الكبيرة، كما هو معروف، علامة على هذا النوع من نموذجية الاستقامة. إلا أن هذا غير كاف: إذ يظل المرء بذلك مجرد «شخصية قانونية» على مستوًى من الأخلاقية يقدر عليه حتى «كيانٌ مجتمعي»، أي مجرد كتلة من الناس.

304

إنسان!

ماذا يساوي غرور المغرور أمام الغرور الذي يسكن الإنسان الأكثر تواضعاً في إحساسه بنفسه كـ«إنسان» داخل الطبيعة والكون!

305

الرياضة التي لا غنى عنها

إن الافتقار إلى التحكم في النفس في صغريات الأمور يجعل القدرة على التحكم في النفس في الأمور الكبيرة تتفتت. فكل يوم من حياتنا سيكون مستعملاً على نحو غير سليم ويصبح خطراً على غيرنا من الناس إن لم تصبنا فيه خيبة واحدة على الأقل في مسألة صغيرة من شؤوننا؛ فهذه الرياضة لا غنى عنها إذا ما أراد المرء أن يظل محتفظاً بمتعة أن يكون سيّداً على نفسه.

306

أن يضيع المرء نفسه

عندما نكون قد عدنا إلى نفسنا، سيكون علينا أن **نضيع** بين الحين والآخر عن نفسنا -ثم نعود إليها من جديد؛ بشرط أن يكون المرء مفكراً. لأنه مضرٌّ بهذا الأخير أن يظل مرتبطاً بشخص واحد على الدوام.

307

عندما يغدو الفراق ضرورياً

الأمر الذي تروم معرفته وضبط قياسه، عليك أن تفارقه لفترة من الزمن على الأقل. فقط عندما تكون قد ابتعدت عن المدينة يغدو بوسعك أن ترى على أي مستوى من العلو ترتفع أبراجها فوق بقية البنايات.

في ساعة الظهيرة

من قضى صباح حياته عملاً وحركة بمثل دفق السيول، ستغمر روحه عند الظهيرة رغبة نادرة في استراحة قد تدوم أشهراً وسنين. وسيكون سكونٌ من حوله، والأصوات كلها تتناهى إليه قادمة من أصقاع بعيدة، أكثر فأكثر بعداً، والشمس تنتصب متوهجة فوق رأسه. وفي مرج مندسّ داخل الغابة سيرى «بانْ»(*) العظيم نائماً، وكل أشياء الطبيعة نائمة معه وعلى صفحتها ترتسم صورة الخلود- هكذا يتراءى لمن يحنّ الآن إلى الراحة بعد نشاط صبيحته. لا يريد شيئاً، ولا همّ له في شيء، قلبُه ساكنٌ و عينُه وحدها هي التي تظل حيّة، -إنه موت بعينين يقظتين. أشياء كثيرة يرى الإنسان عندها مما لم ير من قبل قط، وكل ما يمتد إليه بصره يبدو له منسوجاً داخل شبكة من نور ومغموراً داخلها في الآن نفسه. يشعر المرء بنفسه سعيداً داخل هذا الإحساس، لكنها سعادة ثقيلة. -ثم ترتفع الريح مجدداً بين الأشجار: لقد مرت ساعة الظهيرة، والحياة تسحبه إليها مجدداً، الحياة بعينيها العمياويْن يتبعها موكبها المندفع من ورائها: رغبات، أوهام، نسيان، متعة، تدمير، فناء. وهكذا يحل من بعدها المساء أكثر اندفاعاً وأكثر نشاطاً مما كان الصباح. -للإنسان النشيط الحقيقي تتراءى حالات الصيرورة الطويلة للمعرفة مخيفة وسقيمة تقريباً، لكنها ليست كريهة.

(*) بانْ إله المراعي الإغريقي، ابن هرمز وكان يحب اللعب في الأماكن المقفرة والكهوف التي فيها أشباح، لكنه سرعان ما تثور ثائرته إذا ما أزعجه أحد في قيلولته. (م)

309

على المرء أن يكون حذراً من رسّامه

الرسام الكبير الذي يكون قد كشف في بورتريه أعمق التعبيرات وأثرى اللحظات التي يمكن لإنسان أن يكشف عنها في الشخص الذي يرسمه، لن يرى بعدها في ذلك الشخص كلما سنحت الفرصة للالتقاء به في الحياة الواقعية سوى ما يبدو له نسخة كاريكاتورية لا أكثر.

310

المبدآن الأساسيان لحياة جديدة

المبدأ الأول: يجب على المرء أن يشيّد حياته على النحو الأكثر وثوقاً والأكثر قابلية للبرهنة؛ وليس على قاعدة التقريبي غير محدد الملامح، والأفق الغائم كما ظل يفعل من قبل. *المبدأ الثاني*: على المرء أن يضبط أولويات التراتب بين القريب وما هو أقرب، والموثوق والأقل وثوقاً قبل أن يشرع في وضع دعائم حياته وإعطائها وجهة نهائية.

311

انفعالية خطيرة

الموهوبون الذين يغلب عليهم الكسل سرعان ما تلمّ بهم حالة من الانفعال عندما يرون أحد أصدقائهم من المجتهدين وقد أنهى عمله. تغدو غيرتهم حادة، فهم يخجلون من أنفسهم، بل أكثر من ذلك، يخشون أن يكون ذاك النشيط قد غدا يحتقرهم الآن *أكثر* من ذي قبل. وهم على هذه الحالة النفسية يعبّرون عن نقدهم للعمل الجديد ويتحوّل نقدهم عندها إلى انتقام يثير اندهاشاً عارماً لدى صاحب ذلك العمل.

312

تحطيم الأوهام

الأوهام مُتع مكلِّفة دون شك، لكن التخلص من الأوهام أكثر كلفة، إذا ما نظرنا إليه كمتعة؛ وهو بالفعل كذلك بالنسبة لبعض الناس.

313

رتابة الحكيم

للأبقار في بعض الأحيان تعبير عن الدهشة التي تتوقف في منتصف الطريق إلى *السؤال*. وبالمقابل تغشى عين أصحاب الذكاء الأرقى مسحة *nil admiriari* -**غياب كلّي للدهشة**-[١٠٨] شبيهة برتابة سماء خالية من السحب.

314

مساوئ المرض الطويل

عليك أن تحترس من البقاء مريضاً لمدة طويلة؛ إذ سرعان ما سيجد المشاهدون أنفسهم مدفوعين بدافع االواجب الاعتيادي إلى إظهار الشفقة، ثم الانزعاج لأنه سيتطلب منهم جهداً كبيراً أن يظلوا مثابرين لمدة طويلة من الزمن على تلك الحالة، ثم سيؤول بهم الأمر مباشرة إلى إبداء الشكوك في طبعك لينتهوا إلى خلاصة: «إنك تستأهل أن تكون مريضاً، ولا حاجة لنا بعد الآن في أن نرهق أنفسنا بإظهار الشفقة عليك».

315

إشارة إلى المتحمسين

من يعجبه أن يرى نفسه يهتز ويسلم نفسه للحماس كي يطير به عالياً،

عليه أن يحرص على أن لا يغدو *ثقيلاً*، أي أن لا يتعلم كثيراً مثلاً، وعلى الأخص أن لا يدع نفسه *يمتلئ* علماً. فهذا الأخير يجعل المرء ثقيلاً! -حذار إذاً أيها المتحمسون!

316

أن تعرف كيف تفاجئ نفسك

من يريد أن يرى نفسه كما هو، عليه أن يعرف كيف *يفاجئ* نفسه والمشعلُ بيده. ذلك أنه يصح على المسائل العقلية ما يصح على المسائل الجسدية: فمن كان متعوداً على أن يرى نفسه في المرآة ينتهي دوماً بأن ينسى قبحه؛ ولن يستعيد إحساسه بذلك إلا عن طريق الصورة التي سيرسمها له الرسام. غير أنه سيتعود على تلك الصورة أيضاً وينسى قبحه ثانية، وذلك وفقاً للقانون العام الذي يقضي بأن المرء **لا يستطيع** *تحمّل* ماهو ثابت في القبح، إلا أن يكون ذلك للحظة عابرة؛ وفي كل الأحوال فإنه ينساه، أو ينفيه. -على الأخلاقانيين أن يعتمدوا على تلك اللحظة لكي يستطيعوا أن يسوّقوا حقائقهم.

317

آراء وأسماك

يكون المرء مالكاً لآرائه مثلما يكون مالكاً لأسماكه؛ إذا ما كانت له بركة سمك على ملكه. على المرء أن يمضي إلى الصيد وأن يكون محظوظاً؛ عندها يكون له **سمكه** *الخاص*، آراؤ **ه** *الخاصة*؛ -أتكلم هنا عن آراء حية، وعن أسماك حية. آخرون سيكونون سعداء بأن تكون لهم مجموعةُ متحجرات، -وفي رأسهم «قناعات».

318

علامات الحرية والتبعية

أن تلبي حاجياتك الضرورية بنفسك قدر المستطاع، وإن بصفة منقوصة، فذلك هو الاتجاه نحو *حرية العقل والشخص*. أما أن تدع غيرك يلبي لك حاجياتك بما فيها تلك الفائضة عن الضرورة، وبأقصى ما يمكن من الكمال، فذلك هو ما يجرّك إلى *التبعية*. لقد كان السفسطائي هيبياس، الذي كان كل ما يحمله ظاهراً وباطناً من مكتسباته الخاصة ومن صنع يديه، النموذجَ المطابق للاتجاه الذي يقود إلى أرقى أنواع حرية العقل والشخص. فليس المهم هو أن يكون كل شيء على غاية الجودة وإتقان الصنعة؛ فلدينا الكبرياء من أجل رتق مواقع النقص والخلل.

319

الوثوق بالنفس

في عصرنا الحاضر أصبحنا نرتاب من كل ذي ثقة بنفسه؛ فيما مضى كان ذلك يكفي كي يجعل الناس يصدّقونه. أما *اليوم*، فالوصفة التي تمكّن من كسب مصدّقين هي: «لا ترأفنّ بنفسك! وإذا ما أردت أن تكسب مصداقية لآرائك، فعليك أن تضرم النار في كوخك أولاً!»

320

اكثر ثراء واكثر فقراً في الآن نفسه

أعرف شخصاً قد تعوّد في طفولته أن يحسن الظن بذكاء الآخرين، أي بتفانيهم الحقيقي في ما يتعلق بالمسائل العقلية وبتبجيلهم اللانفعي لكل ما يجدونه حقيقة وما شابه ذلك، كما تعوّد على أن لا يكون له بالمقابل غير اعتبار متواضع، بل وضئيل لعقله الخاص(ملكة الحكم،

والذاكرة، والحضور الذهني، والقدرة الخيالية). وكان لا يقيم اعتباراً لنفسه البتة عند مقارنة نفسه بالآخرين. إلا أنه مع مرور الزمن قد وجد نفسه مرة أولى ثم مئة مرة من بعدها مضطراً إلى تغيير موقفه من هذه المسألة، بما يبعث على الاعتقاد بأنه غدا يجد رضاه وسعادته في ذلك. وقد كان في الأمر شيء من ذلك في الواقع، إلا أنها كانت، وكما أكد ذلك بنفسه ذات مرة «ضرباً من حلاوة تمازجها مرارة من أشد أنواع المرارات التي لم أعرف لها مثيلاً في فترات حياتي السابقة؛ إذ منذ أصبحت أقيّم نفسي والناسَ من حولي بأكثر عدالة من منظور الحاجات العقلية أصبح يتراءى لي أن عقلي قد غدا أقل نفعاً؛ ولا أعتقد أنه بوسعي أن أقدّم من خلاله أي نوع من الفضل، لأن عقول الآخرين لا تعرف كيف تتقبله: صرت أرى الآن على الدوام تلك الهوّة السحيقة التي تفصل بين مانح العون والذي في حاجة إلى العون. هكذا يعذبني الحرمان لرؤيتي مرغماً على أن أظل أحتفظ بعقلي لنفسي وأتمتع به وحدي؛ إذا ما كان هناك من مجال للمتعة في ذلك. إن *العطاء* أكثر مجلبة للسعادة من *التملك*؛ وأي شيء هو أثرى الأثرياء داخل الوحدة في صحراء خلاء!»[١٠٩]

321

كيف ينبغي أن نهاجم

لا تكون الأسباب التي تجعلنا نؤمن بشيء أو لا نؤمن به قوية ***بالقدر الذي يمكنها أن تكون عليه*** إلا لدى قلة نادرة من الناس. ونحن عادة لا نحتاج البتة إلى تحريك عدّتنا الثقيلة من أجل زعزعة إيمانٍ بشيء ما؛ ويكفي بالنسبة لبعض الناس أن يرافق المرء هجومه بشيء من الصخب، حتى أن بعض المفرقعات غالباً ما تكفي للإيفاء بالغرض. وضد شديدي الغرور من الناس يكفي أن ***نبدي مظهر*** الهجوم العنيف؛

سيتراءى لهم عندها أنهم يؤخَذون مأخذ جد كبير، -ويتراجعون طوعاً.

322

الموت

يمكن للاحتمال المحقَّق للموت أن يضفي على حياة كل إنسان قطرة لذيذة وعطِرة من الخفّة؛ لكن، ها أنكم يا صيادلة الروح قد جعلتم منها قطرة سمٍّ كريهة تجعل الحياة بكلّيتها شيئاً يبعث على الغثيان.

323

نبذ الندم

لا تدَعوا مجالاً للندم؛ إذ ذلك يعني إضافة حماقة ثانية نلحقها بالأولى التي ارتكبناها. -وإذا ما ارتكب أحدنا عملاً مضرّاً، ليفكر في أن يُلحقه بعمل نافع. -وإذا ما عوقب على صنيعه، فليتحمل العقوبة بإحساس بأنه إنما يفعل من خلال ذلك عملاً مفيداً: ففي تلك العقوبة ردع للآخرين عن ارتكاب مثل تلك الحماقة. وبذلك سيحق لكل مجرم يقضي عقوبة أن يشعر بنفسه محسناً للإنسانية.

324

أن تصبح مفكراً

كيف يمكن لإنسان أن يصبح مفكراً إن لم يصرف ثلث يومه على الأقل بمنأى عن الانفعالات، وعن الناس والكتب؟

325

أفضل علاج

شيء من العافية بين الحين والآخر هو أفضل علاج للمريض.

326

دع عنك!

هناك أناس فظيعون، عوض أن يحلّوا مشكلاً ما يجعلونه أكثر تعقيداً وتعذراً على الحل بالنسبة للذين يرومون معالجته. من لا يعرف كيف يصيب مرماه، يرجى منه أن يدع عنه الرماية.

327

الطبيعة المنسيّة

نتكلم عن الطبيعة وننسى أنفسنا: فنحن أيضاً طبيعة -أردنا ذلك أم لم نرده! وعليه فإن الطبيعة شيء آخر تماماً غير ما نحس به عند النطق باسمها.

328

العميق والممل

يحدث مع العميقين من الناس، كما مع الآبار العميقة، أن ما يُقذَف به داخلهم يتطلب مدة من الزمن حتى يبلغ القاع. والمشاهدون الذين لا يستطيعون الانتظار عادة سيجزمون بسهولة بأن هؤلاء عديمو الإحساس وقساة ،-بل مملّون أيضاً.

329

متى يحلّ وقت عهود الوفاء للنفس

يحدث بين الحين والآخر أن يأخذنا التيه في اتجاه فكري مناقض لمواهبنا؛ نخوض لمدة من الزمن معركة بطولية ضد التيار والرياح، ضد نفسنا في الحقيقة؛ يصيبنا التعب، نلهث ولا نجد غبطة حقيقية في ما ننجزه، ويكون لدينا إحساس بأننا خسرنا الكثير من أجل ذلك

الإنجاز. بل يصيبنا اليأس من خصوبتنا ومن مستقبلنا، ربما ونحن في خضمّ الانتصار. وأخيراً! أخيراً، نعكس الاتجاه، وهاهي الريح تنفخ الآن في شراعنا وتدفع بنا في اتجاه الطريق الحقيقية لمِلاحتنا. أية سعادة عندها! وأي *وعي بانتصارنا* أصبح لدينا الآن! الآن فقط أصبحنا نعرف من نحن وماذا نريد؛ الآن نقسم لأنفسنا أيمان الوفاء ويكون ذلك *حقّنا المكتَسب*-كعارفين.

330

أنبياء الطقس

وكما أن السحب تدلّنا على الاتجاه الذي تهبّ فيه الرياح من فوقنا، كذلك يفعل أصحاب العقول الأكثر حرية والأكثر خفة، الذين تنبؤنا اتجاهاتهم بما سيكون عليه الطقس قادماً. الريح التي تهبّ في الوادي والآراء المتداولة في الساحة العمومية حاضراً لا تدلّ على شيء بشأن ما سيأتي، بل بشأن ما كان فقط.

331

تسارع على وتيرة ثابتة

أولئك الذين يبدأون ببطء ولا يتلاءمون إلا بصعوبة مع شيء ما، تكون لهم أحياناً فيما بعد خصلة الثبات على وتيرة تسارع قار، حتى أنّ لا أحد يغدو بإمكانه في النهاية أن يعرف إلى أين يمكن أن يجرفهم التيار.

332

الحسنات الثلاث

الهدوء والعظمة وضوء الشمس؛ تشمل هذه العناصر الثلاثة كل ما يتمناه مفكر وما يطالب نفسه به: آماله وواجباته، متطلباته فيما يتعلق

بالمسائل الذهنية والأخلاقية، بل وبنمط حياته اليومية، وحتى بنوعية مكان إقامته. تقابل هذه المسائل أفكار ***تسمو بصاحبها*** أولاً، ثم أفكار ***مهدئة***، ثالثاً أفكار ***منيرة***،-ورابعاً أفكار تتضمّن كل الخصال الثلاث ويشهد كل ما هو أرضي تجلّيه من خلالها: إنها مملكة ***ثلاثي الغبطة العظمى***.

333

الموت من أجل «الحقيقة»

لن ندع أنفسنا نُحرق من أجل آرائنا، فنحن لسنا واثقين كل الوثوق منها؛ لكن ربما من أجل أن يكون لنا الحق في أن تكون لنا آراء، وأن يكون لنا الحق في أن نغيّرها.

334

أن يكون للمرء قيمة

عندما يرغب امرؤ في أن يقدَّر بما يناسب قيمته، فإنه سيكون عليه أن يكون شيئاً ***له ثمنه***. لكنّ ما هو عاديّ وحده هو ما يكون له ثمن. وبالتالي فإن هذه المطالبة لا تخلو من كونها نتيجةً لأحد أمرين: إما لتواضعِ عاقل، أو لغرورِ بليد.

335

عِبرة للبنّائين

على المرء أن يزيل السّقالة عندما يتمّ بناء البيت.

336

نموذج سوفوكليّ

من تُراه قد مزج خمرته بماء أكثر من الإغريق؟ صحو ولياقة مجتمعان؛

ذلك هو الامتياز الأرستقراطي للأثيني على عهد سوفوكلس وما بعده. ليُحاكهم إذاً من كانت له قدرة على ذلك -في الحياة كما في الإبداع!

337

البطولة

تتمثل البطولة في أن يقوم المرء بشيء عظيم (أو أن يمسك عن فعل شيء بترفع ينطق بالعظمة) دون أن يشعر بنفسه في منافسة مع آخرين وأمام نظر الآخرين. إن البطل، أينما حل، يحمل معه الصحراء ومناطق التخوم المقدسة الممنوعة.

338

صِنْونا في الطبيعة

في بعض المناطق الطبيعية نكتشف نفسنا من جديد مع رعدة لذيذة تسري في كياننا؛ إنها أجمل صِنْوٍ لنا. -كم سيكون سعيداً ذاك الذي سيعرف هذا الإحساس هنا بالذات، داخل هذا النور الخريفي الدائم، في هذه النفحات الماكرة والمرحة لهبوب الرياح من الصباح حتى المساء، داخل هذا الضياء الصافي والبرودة المعتدلة، وهذا المزيج من الدلال والصرامة للتلال والبحيرات والغابة في هذه الهضبة العليا التي تمتد هادئة آمنة هناك في الجوار المخيف للحضور الدائم للثلج، هنا حيث تلتقي إيطاليا وفنلندا في حلفِ جوارٍ سلميٍّ، في موقع يبدو موطناً لكل دقائق التلاوين البراقة للطبيعة: -كم سيكون سعيداً ذاك الذي يستطيع أن يقول: «هناك بكل تأكيد ما هو أعظم وأجمل في الطبيعة، إلا أن *هذا* قريبٌ مني وأليف، وذو قرابة دموية بي، بل وأكثر.»

339

دماثة الحكيم

سيتعامل الحكيم بلطافة تلقائية مع الآخرين، مثل أمير، وسيعاملهم معاملته لأنداد، بالرغم من كل الفوارق في الموهبة والمرتبة وأنماط السلوك، وهو ما سيعاب عليه بشدة حالما يلاحَظ ذلك عليه.

340

ذهب

كل ما هو ذهب لا يلمع. فالإشعاع الناعم هو خاصّية المعدن النبيل.

341

العجلة والكابح

للعجلة والكابح وظيفتان مختلفتان، لكنّ لهما أيضاً واحدة مشتركة: أن يؤلم كل منهما الآخر.

342

إزعاج المفكر

على المفكر أن ينظر إلى كل ما يقطع على المفكر حبل التفكير (ما يزعجه، كما يقال) بعين هادئة، نظرة الفنان إلى موديل جديد يلج عتبة بابه ليعرض نفسه عليه. تلك المقاطعات هي الغِربان التي تحمل إلى الراهب المتوحد غذاءه.

343

قسط وافر من العقل

الحيازة على قسط وافر من العقل تحفظ شباب صاحبه؛ لكن على المرء أن يتحمل أن يُعتبر بسبب ذلك بالذات *أكبر سناً* مما هو في

الحقيقة. ذلك أن الناس يقرأون الملامح التي يخطها العقل على الوجه كآثار *للتجربة*، أي كآثار لما عاشه المرء من تجارب كثيرة وسيئة، وللمعاناة والتيه والندم. وهكذا، فنحن نبدو في أعينهم أكبر سناً، وأسوأ أيضاً مما نحن عليه، عندما نكون حائزين على قسط وافر من العقل ونُظهر ذلك.

344

كيف يجب أن ننتصر

لا ينبغي أن نريد الانتصار عندما لا يكون لنا من دافع سوى تجاوز المنافس *بمقدار شبر*. لابد للانتصار الجيد أن يهيّئ للمنتصَر عليه إحساساً مريحاً؛ يجب أن يكون منطوياً على شيء سامٍ يحفظ ماء الوجه.

345

وهم العقول المتفوّقة

يجد أصحاب العقول المتفوّقة صعوبة فائقة في التغلب على وهم يطغى عليهم؛ فهم يتخيلون أنهم يثيرون الحسد لدى الرديئين من الناس، وأن هؤلاء ينظرون إليهم كحالات استثناء. وبالفعل فهؤلاء يشعرون بهم كذلك، لكن كشيء غير ضروري إن غاب عنهم لم يشعروا بأنهم محرومون منه.

346

من متطلبات النظافة

عندما يغيّر الناس آراءهم فإن ذلك يكون لدى البعض أمراً تقتضيه النظافة، مثلما يغيّر المرء ملابسه؛ بينما يكون لدى البعض الآخر أمراً من مقتضيات الغرور.

347

عمل جدير بالأبطال أيضاً

ههنا بطل لم يفعل شيئاً سوى أنه رجّ الشجرة حالما رأى أن ثمارها قد نضجت. يبدو لكم هذا الأمر شيئاً قليلاً؟ لتنظروا أولاً إلى الشجرة التي رجّها.

348

بِمَ تقاس الحكمة

يمكن لتنامي الحكمة أن يقاس بدقة من خلال تراجع الضغينة.

349

الخطأ معبّراً عنه بطريقة كريهة

ليس مما يعجب جميع الناس أن نقول الحقيقة بطريقة محبّبة. لكن لا يذهبنّ بنا الاعتقاد بأن الخطأ بإمكانه أن يتحوّل إلى حقيقة إذا ما عبّرنا عنه بطريقة كريهة.

350

الحكمة الذهبية

قيود كثيرة قد فُرضت على الإنسان كي يتخلص من السلوكات الحيوانية: وبالفعل فقد أصبح ألين وأذكى، أكثر مرحاً وأكثر رصانة من كل الحيوانات. إلا أنه يعاني الآن من كونه ظل لمدة طويلة من الزمن مكبّلاً بالقيود، محروماً من الهواء النقي ومن التحرك بحرية: تلك القيود، وكما سأظل أعيد وأكرر بصفة مستمرة، هي تلك الأخطاء الفادحة للتصورات الأخلاقية والدينية والميتافيزيقية العبثية. وعندما يتخلّص من *مرض القيود* أيضاً، عندها فقط سيكون قد بلغ حقاً غايته

العظمى الأولى: انفصال الإنسان عن الحيوانات. والآن، نحن في خضم عملنا الساعي إلى إزالة القيود، ويلزمنا أن نكون حذرين شديد الحذر في هذه الأثناء. وحده ***الإنسان الذي اكتسب نبالة سيكون*** جديراً ***بحرية العقل***، وهو وحده الذي اقترب من ***انفراج كروب الحياة*** ويضمّد الآن جراحه؛ وهو أول من يحق له أن يقول إنه من أجل ***الغبطة*** وحدها يحيا دون أي هدف آخر غيرها؛ وشعاره ***سلامٌ من حولي وغبطة في كل الأشياء القريبة*** سيكون خطيراً على لسان أي أحد غيره. -هذا الشعار الخاص ببعض الأفراد فقط يذكره بكلمة قديمة عظيمة ومثيرة تهم ***الجميع*** ظلّت معلقة فوق الإنسانية بكلّيتها شعاراً وعلامة سيكون على كل من عنّ له أن يوشّح بها رايته قبل الأوان أن يمضي إلى حتفه بسببها؛ -وبسببها مضت المسيحية إلى حتفها. ***لم يحن الأوان بعد*** على ما يبدو لأن يكون ***للجميع*** أن يعرفوا نفس المصير الذي عرفه أولئك الرعاة الذين كانوا يرون السماء تشرق فوق رؤوسهم ويسمعون تلك الكلمة: «سلام على الأرض وغبطة بين الناس»(١١٠) -مازال الوقت ***للأفراد*** فقط.(١١١)

* * *

الظل: من كل ما قلتَه، لم يعجبني شيء مثل وعدك القائل: وستصبحون من جديد جيراناً جيّدين للأشياء القريبة منكم. فستكون لنا نحن الظلالُ المسكينةُ استفادة من ذلك أيضاً؛ إذ، لابد أن تعترفوا بأنكم كنتم حتى الآن تجدون متعة كبيرة في الافتراء علينا.

الجوّال: افتراء؟ لكن لِمَ لمْ تدافعوا عن أنفسكم إذاً؟ فقد كانت آذاننا قريبة جداً منكم.

الظل: كان يبدو لنا أننا أقرب إليكم مما يجعلنا لا نجد داعياً للكلام عن أنفسنا.

الجوّال: لطيف! لطيف جداً! إنكم، كما ألاحظ الآن، «بشر أفضل» منا، أيتها الظلال.

الظل: وتسمّوننا «متطفلين» مع ذلك، نحن الذين نجيد شيئاً واحداً على الأقل: أن نصمت وننتظر؛ وليس هناك إنكليزي واحد يجيد ذلك أحسن منا. صحيح أن المرء يرانا ملتصقين على الدوام بخطى الإنسان، لكن دون أن نكون في حالة عبودية له. فعندما ينفر الإنسان من النور ترانا ننفر من الإنسان: إلى هذا الحد تذهب حريتنا.

الجوّال: للأسف، فالنور هو الذي غالباً ما يفرّ عن الإنسان، وعندها تفرّون عنه أنتم أيضاً.

الظل: ليس دون حسرة كنت غالباً ما أغادرك، فأنا التوّاق إلى

المعرفة، أظل أرى عتمة كثيرة في الإنسان، لأنني لا أستطيع أن أكون بجواره دوماً. ومن أجل المعرفة الكاملة بالإنسان فأنا على استعداد لأن أكون عبداً لك أيضاً.

الجوّال: وما أدراك، وما أدراني إن أنت لن تتحوّل فجأة من عبد إلى سيّد؟ أو أنك تظل عبداً، لكنّ احتقارك لسيّدك سيجعلك تعيش حياتك بإحساس من المهانة والاشمئزاز؟ لنكن كلانا راضييْن بهذه الحرية التي ظلت لك؛ - لك ولي على حد سواء! ذلك أن مشهد كائن في حالة عبودية يُسمّم سعادتي الكبرى؛ وإن أفضل الأشياء تغدو كريهة لدي إذا ما كان هناك أحد مرغم على أن يقاسمني إياها: لا أريد أن يكون هناك عبيد من حولي؛ لذلك لا أحب الكلب أيضاً، ذلك الكائن الكسول الطفيلي المبصبص بذيله، الذي لم يتحوّل إلى «كلب» إلا كعبد للإنسان في البداية، ثم أصبحوا يشيدون بخصاله من بعدها ويمتدحونه بأنه وفيّ لسيّده، ويتبعه مثل. . .

الظل: مثل ظله؛ هكذا يقولون. ولعلني قد تبعتك اليوم أكثر مما ينبغي؟ لقد كان هذا أطول يوم، إلا أننا الآن نشرف على نهايته، فقليلاً من الصبر لبضع لحظات فقط. فالعشب مبلل، وبي رعدة.

الجوال: آ، هل حانت ساعة الفراق؟ وها أنا قد جعلتك تتألم في آخر هذا اللقاء؛ إني أرى ذلك، فها أنت قد أصبحت أكثر قتامة.

الظل: لقد احمرّ وجهي باللون الذي يمكنني أن أحمرّ به. لقد اكتشفت بأنني غالباً ما كنت أربض عند قدميك مثل كلب، وأنك عندها. . .

الجوّال: . . .ألا يمكنني أن أفعل الآن وبسرعة شيئاً من أجلك؟ أليس لديك من أمنية؟

الظل: ما من أمنية، عدا تلك التي كانت لـ«الكلب» الفيلسوف أمام الإسكندر الكبير: تنحّ قليلاً عن شمسي، إنني أشعر بالبرد.

الجوّال: ماذا عليّ أن أفعل؟

الظل: اذهبْ إلى هناك، تحت شجرة الصنوبر وانظر إلى الجبال من حولك، فالشمس تنحدر الآن إلى المغيب.

الجوّال: -أين أنت؟ أين أنت؟

* * *

الهوامش

* ملاحظة: اعتمدت كثيراً في وضع هذه الهوامش على التعليقات والهوامش التي وضعها الإيطاليان كوللي ومونتيناري صاحبا «طبعة الدراسات النقدية» (Kritische Studien Ausgabe) للأعمال الكاملة لنيتشه. أما الهوامش الواردة في أسفل الصفحات فهي من وضع المترجم، وكذلك الهوامش الختامية المشار إليها (م).

(١) أنظر الهامش رقم ٩٨ الكتاب الأول من «إنساني مفرط في إنسانيته». منشورات الجمل ٢٠١٣ (المترجم)

(٢) دافيد فريدريش شتراوس (١٨٠٨-١٨٧٩) مؤرخ وفيلسوف ألماني، تأثر بكل من شلايرماخر وهيجل. من مؤلفاته التي أثارت ضجة «حياة يسوع» حيث يفسر الوقائع المتعلقة بحياة وأعمال يسوع بإدراجها ضمن الأسطورة. سبب له هذا المؤلف الإقالة من وظيفته كمدرس في توبينغن. على إثرها أعلن انضمامه إلى المذهب المادي. وقد خصه نيتشه بالمعاينة الأولى من مؤلف «المعاينات غير المعاصرة». (م)

(٣) الفرّيزّي عبارة عبرية من الإنجيل، وهي الإسم الذي يطلق على شعب كان يعيش على جزء كبير من بلاد فلسطين عند قدوم اليهود إليها وكانت بينه وبينهم عداوة، حاربهم شمعون كما يرد في العهد القديم، سفر «القضاة»؛ الإصحاح الأول/ ٤،٣: «فقال يهوذا لشمعون أخيه اصعدْ معي في قُرعتي لكي نحارب الكنعانيين فأصعدُ أنا أيضاً معك في قُرعتك. فذهب شمعون معه/ فصعد يهوذا ودفع الربُّ الكنعانيينَ والفِرِيزّيين بيدهم فضربوا منهم في بازِق عشرة آلاف رجل.» وهناك رواية أسطورية تقول إن شمعون قاتلهم وبيده فك حمار كان يضربهم به. أصبحت العبارة (Philister في الألمانية

و Philistin في الفرنسية) عبارة تحقير وشتيمة تطلق على عديم الثقافة، وفي لغة الطلاب الألمان من القرن التاسع عشر كانت تطلق على غير الأكاديمي، ثم أصبحت تدل على قليل المعرفة ذي الرؤية المحافظة، والمتحجرة، والقداميّة، والذي لا يعرف الفنون ولا يتذوقها.

هناك أمر يظل يقلقني في هذه التسمية، بل ويجعل شكّا يراودني حول استعمال نيتشه للعبارة ، أي إن ليس فيه شيء من سوء فهم أو خلط بين الفرّيزّيين (من العهد القديم) والفريسيين (من العهد الجديد)، وهم طائفة من اليهود قامت في عهد المُكابيين للدفاع عن الشريعة ونقاء الإيمان، متعلّقون بالحرف دون روح النص، لامهم المسيح فيما بعد بشدة على تزمتهم وكانوا من أكبر المقاومين له. مصدر هذا الشك الذي يراودني هو أن الاستعمال الجديد(الأوروبي) للعبارة يبدولي مطابقاً أكثر للصفات التي يقدمها لنا العهد الجديد عن خصوم المسيح، أكثر مما تنطبق على خصوم اليهود الذين حاربهم شمعون. وعلى أية حال فقد فضلت أن أدع العبارة كما ترد العديد من المرات في كتابات نيتشه، بل وعدلت(في هذا الموضع على الأقل) حتى عن الفكرة التي راودتني بعدم ترجمتها حرفياً واستعمال مرادف لها من العربية يؤدي المعنى الذي يريده نيتشه، مثل «المثقف السوقي»، أو «جهَلَة المتعلمين». فضلت إذاً أن أدع لنيتشه عبارته التي يبدو أنه فخور بكونه هو أول من نحتها، كما يذكر في هذه الفقرة، وخاصة أن لا أحرم نصه من الولع الذي له باستعمال عبارات ومصطلحات من الأناجيل ضمن أسلوب الباروديا التي يتخذها أداة لإنجاز خطة «قلب القيم» التي وضعها أساساً لفلسفته.(م)

(٤) نقرأ عن باسكال في «خواطر» Pensées (II, 81) : «العقل يعتقد بصفة طبيعية، و*الإرادة* تحب بصفة طبيعية؛ بحيث أنه سيكون عليهما، عند غياب مواضيع حقيقية لذلك، أن يتعلقا بمواضيع وهمية.»

(٥) أنظر «العهد الجديد» إنجيل يوحنا (الإصحاح الثامن عشر/ ٣٨)

(٦) متّى: ٥/٣

(٧) Plaudita amici comedia finita est صفقوا أيها الأصدقاء، قد انتهت المهزلة. وهي العبارة المعروفة عن الكلمات الأخيرة لأغسطينوس (أول قيصر لروما) لحظة موته. ويروى أن أغسطينوس قد دعا أصدقاءه إليه ساعة موته وسألهم: هل لعبت دوري على قدر كاف من المصداقية في مسخرة / مهزلة الحياة؟ (م)

(٨) أنظر كنط، مقدمة الطبعة الثانية من «نقد العقل المحض» (١٧٨٧) أكاديميا III- ١٩

(٩) هو الموضع الذي ذهب إليه يسوع وتلامذته بعد جبل الزيتون ليقضي ليلته الأخيرة هناك كما يرد في إنجيل متى / الإصحاح ٢٦/ ٣٦ :«حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جَثْسِيْماني. . .»، وفي إنجيل لوقا أيضاً.

(١٠) يسوع مخاطباً تلامذته عندما وجدهم نائمين في ليلته الأخيرة . متّى: الإصحاح ٢٦/ ٤٠

(١١) عن الساحر، أنظر «هكذا تكلم زرادشت»؛ الكتاب الرابع: فصل «الساحر».

(١٢) شوبنهاور «حول أساس الأخلاق» Über der Grundlage der Moral

(١٣) شوبنهاور، نفس المصدر.

(١٤) أنظر إنجيل يوحنا؛ الإصحاح الأول/ ٢٩ «وفي الغد نظر يوحنّا يسوعَ مقبلاً إليه فقال هذا هو حمَل الله الذي يرفع خطيّة العالم»

(١٥) متّى: ٧/ ١ : «لا تدينوا لكي لا تُدانوا»

(١٦) من العهد الجديد ؛ رسالة بولس إلى أهل رومية: الإصحاح الثاني عشر/ ٢٠ : «فإن جاع عدوّك فأطعمْه، وإن عطش فاسْقه؛ لأنك إن فعلتَ هذا تجمَعْ جمرَ نار على رأسه.»

(١٧) متّى: ٥/ ١٦: «فليضئْ نورُكم هكذا قُدّام الناموس لكيْ يروْا أعمالَكم الحسَنةَ ويُمجّدوا أباكُم الذي في السماواتِ.»

(١٨) إيروسطراط الأثيني الذي أضرم النيران في معبد أرتميس، لا لشيء إلا لكي يغدو شهيراً. ويقال إن ذلك تم في ليلة مولد الاسكندر المقدوني.(م)

(١٩) صياغتان مختلفتان: - في مخطوطة M I 1,43 : «تتمثل الحيلة الأكثر براعة للمسيحية في أنها تتكلم عن الحب، مثلما كانت تلك حيلة أفلاطون أيضاً.»
- في مخطوطة Mp XIV I, 354: «مثلما كانت تلك حيلة أفلاطون في «المأدبة».»

(٢٠) متّى: ٥/ ٤٨

(٢١) في مخطوطة Mp XIV 1,40 تأتي صياغة هذه الفقرة على النحو التالي: «إن الانتشار الواسع الذي عرفه المذهب البروتستانتي يجد له تفسيراً في: ١- قد وعد بتحقيق ما تعد به الكاثوليكية بأقل ثمن (دون قداسات ودون طقوس حج) مما كانت تفعله الكنيسة القديمة. ٢- وعلى أساس أن شعوب الشمال ليس لها ترسخ عميق في الرمزية والولع بالشكلية مثلما هو الحال لدى شعوب الجنوب: فهنا ظلت الوثنية تواصل الحياة داخل المسيحية، لكن ليس في الشمال حيث جاءت تمثل نقيضاً وقطيعة مع الثقافة المحلية القديمة. وإلى يومنا هذا مازالت الحياة في المناطق الجنوبية أكثر بساطة وأكثر التصاقاً بالعصور العتيقة، ومع الكاثوليكية يشهد آخر ما تبقى من العصور العتيقة

بدايات زواله. نستنتج من هذا أن المسيحية ماضية إلى الزوال إذاً.

(٢٢) بانتيزيليا هي ملكة المحاربات الأمازونيات

(٢٣) هذا البيت الشعري والبيت الذي سيرد لاحقاً مأخوذان عن شيلر من استهلال مسرحية معسكر فالنشتاين *Wallensteins Lager(Prolog)*

البيتان: *Denn wer den Besten seiner Zeit genug/ Getan, der hat gelebt für alle Zeiten.*

(من أرضى أفضل الناس من بني عصره/ يكون قد عاش لكل العصور)

والمسرحية ثلاثية تستعرض إرادة القوة في صراعها مع القدر.

(٢٤) لورنس ستيرن (١٧١٣-١٧٦٨) كاتب إنكليزي من أشهر مؤلفاته *The life and Opinions of Tristram Shandy*. انتقل ١٧٦٢ للإقامة في فرنسا حيث لقي استقبالاً جيداً من شوازيل وديدرو ودهولباخ، ثم انتقل إلى نابولي حيث ألف كتاب *A sentimental Journey through France and Italy* (م)

(٢٥) ترد هذه الجملة الأخيرة في المخطوطة المطبعية Dm كالآتي: «إن عزفاً «تاريخياً» حقيقياً للموسيقى القديمة مثلاً أمر غير ممكن بكل بساطة.»

(٢٦) مستوحاة من غوته (قصيدة *Beherzigung* - : "Sehe jeder, wie er's treibe/ Sehe jeder,wo er bleibe" (أو ما يعني تقريباً: «لينظر كلٌّ ما الذي يفعله/ لينظر كلٌّ أين موقعه»).

(٢٧) أنظر شيلر؛ *An die Freunde* - إلى الأصدقاء.

(٢٨) نجد في مسودات N II 7, 19 هذه الصياغة الأولية: «فن الباروك. يبدو الأمر كما لو أن التوتر الأقصى للتحفظ الواعي (الحرية ضمن إطار القوانين) قد بلغ لدى الكلاسيكيين حده الأقصى؛ ضرب من الدوار يصيب المشاهد. وينكسر القوس.»

(٢٩) جون ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤) شاعر إنكليزي عاش لمدة طويلة يستوحي الإلهام من العزلة داخل حياته العائلية، ألّف أثناءها عدداً من المجموعات الشعرية مثل Odes on the Morning of Christ's Nativity و Allegro و Il Penseroso و Lycidas . بعد عودته من رحلة في إيطاليا انطلق في نشاطات سياسية وجدالات دينية، انتهت به إلى الانفصال عن الكنيسة وإلى خلاف مع كرومويل وأنهى حياته في حال من الضنى والمعاناة من العماء. في مثل هذه الحالة القاسية انكبّ منذ سنة ١٦٥٨ حتى سنة ١٦٦٧ على كتابة قصيدته الملحمية الشاسعة التي تحمل عنوان Paradise lost (م)

(٣٠) فريدريش غوتلوب كلوبستوك (١٧٢٤-١٨٠٣)، شاعر ألماني استوحى كتابته الشعرية من ميلتون وحاول أن يؤلف هو أيضاً ملحمة شعرية دينية. ، لكن

شهرته بقصائده الغرامية لعشيقة ظل إسمها طي الكتمان. كما عرف بتعاطفه مع الثورة الفرنسية وحركة اليعاقبة الذي عبر عنه في قصيدة بعنوان«أعرفوا أنفسكم» (١٧٨٩) معتبراً إياها «أنبل حدث عرفه هذا القرن». لكنه انقلب علي اليعاقبة فيما بعد وانتقد بشدة نظامهم في قصيدة «اليعاقبة» واصفاً حركتهم بـ«الثعبان الذي يتسلل عبر كل فرنسا». وعلى أية حال لا أفهم ما الذي يعنيه نيتشه باتخاذ كلوبستوك مثالاً لأولئك الذين تعاقبهم ربة الشعر ، فالرجل عرف الشهرة وجلب له تعاطف رجال ذوي مكانة مثل فريدريش الخامس ملك الدانمارك والنرويج الذي دعاه إلى بلاده حيث قضى ثلاث سنوات كان له خلالها تأثير كبير على الساحة الشعرية هناك، وقضى له فريدريش بمرتب قار لمدى الحياة. كما كانت له مكانة المحظوظ في ألمانيا أيضاً كما تدل على ذلك مثلاً الاحتفالات التكريمية التي أحاطت به على إثر وفاته(!!!) (م)

(٣١) إشارة إلى يوليسوس (الأوديسة) ووقوعه في أسر غواية الحوريات حتى كاد ينسى رغبته في العودة إلى إيتاكا. (م)

(٣٢) بينيلوبه زوجة يوليسوس التي ظلت تنتظر عودته سنوات عديدة. وهي بطبيعة الحال امرأة آدمية وليست من فصيلة الحوريات، أو الجنيّات.(م)

(٣٣) Sibi scribere هذه العبارة اللاتينية مأخوذة من فالنتين روزس Valentin Roses in *Aristoteles pseudepigraphus, Leipzig 1863: sibi quisque scribit* التي نجد نيتشه قد علق عليها العديد من المرات في مسودات خريف ١٨٦٧- ربيع ١٨٦٨. وفي الفترة نفسها نجد نيتشه ينسخ عن الكاتب الأميركي إيمرسن هذه الجملة: «من يكتب *لنفسه*، يكتب *لجمهور لن يطاله الفناء*.»

(٣٤) أوغوست فون كوتسيبويه Kotzebue (١٧٦١-١٨١٩) كاتب مسرحي ألماني، ألف أكثر من ٢٠٠ عمل مسرحي وعرف الشهرة، لكنه كان يكسب مورد رزقه من العمل كموظف في خدمة روسيا بعد أن غادر ألمانيا على إثر انتصار نابليون في معركة يينا، حرر في تلك الفترة عدداً من المقالات الساخرة ضد نابليونفي مجلدين من يومياته: «النحلة» و«الصرصار». كسكرتير للحاكم العام بسانت بيترسبوغ عرف مصاعب في علاقته بالألمان كما بالروسيين. تم إيقافه بشبهة اليعقوبية ونفيه إلى سيبيريا قبل أن يؤلف عملاً مسرحياً امتدح فيه القيصر بطرس الأول. بعدها نال العفو ومكافأة ثم أصبح ناظراً للمسرح الألماني ببيترسبورغ. بعد عودته إلى ألمانيا توترت علاقاته مع غوته والرومانسيين الألمان ومع الليبراليين والديمقراطيين الذين كان ينتقدهم بشدة وسخرية بصفة مستمرة. سنة ١٨١٧ كان مصير كتابه «تاريخ الرايش

الألماني» المحرقة، على إثرها انتقل من فايمار إلى مانهايم حيث تبعه أحد المتعصبين من الطلبة الذي اغتاله بطعنة خنجر صارخاً فيه: «إليك أيها الخائن وعدو الوطن!» (م)

(٣٥) ربما كان أصل عبارة «حكمة» من التحكّم: البراعة فـ«صوفيا ترد عند أرسطو لتدل على معاني متعددة لكن يربط بينها جميعاً مبدأ الإتقان: ١- البراعة اليدوية، ٢- المعرفة/ العلم، ٣- الحكمة العملية التي يمكن أن تشمل الفن أيضاً كبراعة يدوية. *soph* وهو الجذر الأصلي للعبارة معناه: أن يكون المرء ذا ذوق، من هنا يمكننا أن نفهم ما يعنيه نيتشه عندما يتكلم عن ذوق فني وذوق فلسفي. ثم إن اللغات المنحدرة من اللاتينية تمنحنا مجالاً لمزيد من فهم الأصل السلالي للعبارة (المصطلح) فعبارة *Sapentia* التي تعني: حكمة، وهي الترجمة الحرفية لعبارة *صوفيا* اليونانية، تعود هي أيضاً إلى الجذر نفسه *soph* أو *sapio* وهو فعل غير متعد معناه «حيازة ذوق» . كما نجد في الفرنسية عبارات مثل *sapide* (ما له مذاق) و *insipide* (دون طعم، أو مذاق) و *saveur* (طعم، أو مذاق) ، نجدها كلها ذات قرابة بعبارات *savoir* (يعلم/ و علم) و *savant* (عالم) و *sagesse* (حكمة). (م)

(٣٦) مؤلف موسيقي إنكليزي من أصل ألماني أصبح منذ سنة ١٧٠٢ عازف أرغن كاتدرائية هالّه (Halle)، ثم رئيس جوق ترتيل في هنوفر. استقر منذ ١٧١٧ في لندن وأصبح يشغل خطة مدير الأكاديمية الملكية الجديدة للموسيقى حيث ألف حوالي ٤٠ أوبرا. ربما يفكر نيتشه هنا في مقطوعاته الدينية مثل *Säul* و *the Messiah* و *Joseph and his brethren* (م)

(٣٧) إشارة إلى الكالفينية؛ التيار الإصلاحي الديني الذي قاده السويسري يوهانس كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) (م)

(٣٨) العشرية المشار إليها هي فترة ما بين ١٨٦٩ و١٨٧٩ فترة الامبراطورية الفيلهيلمية التي عرفت الحرب الألمانية الفرنسية الكبرى، وتتويج غيوم الأول إمبراطوراً على مملكة بروسيا في فرساي سنة ١٨٧١، ثم السياسة الليبرالية لبيسمارك حتى سنة ١٨٧٩.

(٣٩) الحركة السياسية لما وراء جبال الآلب، من الجهة الإيطالية، وهي الحركة المساندة للموقف السياسي المحافظ للكنيسة الكاثوليكية : الحكم المطلق للبابا. (م)

(٤٠) نقرأ في نسخة المخطوطة المطبعية Dm: «أن لا يعبدوا إلها آخر غير الله وحده.» -أنظر كتاب العهد القديم؛ سفر الخروج، ٢٠/٣: «لا يكنْ لك آلهة أخرى أمامي».

(٤١) أنظر هزيود؛ Theogonia 27-28 «إننا نجيد حكي أكاذيب لا فرق بينها وبين الحقائق.»

(٤٢) أجرى نيتشه تغييراً على هذه الشذرة التي وردت في دفتر N III, 27، كما يلي: «العديد من الأفكار الدينية كانت مجرد أخطاء لكنها تحولت شيئاً فشيئاً إلى حقائق بسبب أن الناس راحو يغيرون *أنفسهم وفقاً لها*. «إن الأمر هكذا» عوضاً عن «ينبغي أن يكون الأمر هكذا».

(٤٣) لعلّ نيتشه يشير هنا إلى صرخة يسوع فوق الصليب: «ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع صرخة عظيمة قائلاً: إيلي إيلي لما شبقْتني؟ أي: إلهي إلهي لماذا تركتني؟» (متّى الإصحاح ٢٧/ ٤٦).

(٤٤) الأوديسة: VIII, 63-64

(٤٥) سيمونيد: شاعر يوناني(حوالي ٥٥٦- ٤٦٨ ق م) ألف العديد من الأناشيد الوطنية وقصائد الكورس الغنائية، واشتهر خاصة بمأثوراته التي أسس من خلالها فن القصيدة المقتضبة Epigramme وقد اتجه فيها أساساً إلى الأقوال الحكمية المقترنة بالرثاء . اشتغل نيتشه في فترة عمله كفيلولوجي على إحدى مؤلفاته (بكائية دانائي) الذي تاه في البحر. نشرت دراسته هذه في مجلة Philologica. أنظر Rheinisches Museuem المجلد XXIII سنة ١٨٦٨). Band I, NW, XVII, Kröner, S 55-67 (م)

(٤٦) Numen تعني في المعتقد الديني الإغريقي الكائن الإلهي المجرد(لا جسد ولا صورة)، أو ما يعبّر عنه بلغة الفلسفة بـ«**الكائن في ذاته**». أما في المعتقد الديني الروماني السابق على المسيحية فكان هذا المصطلح يستعمل للدلالة على الفعل والإرادة الإلهية أكثر من الكائن الإلهي نفسه. وكان أغسطينوس يعتبر المجسد لتلك الإرادة الإلهية الكامنة فيه.

هنا عنّ لمترجم عربي في سكرة من سكرات تصرفه الحر المفرط في حريته بأن يضع على لسان نيتشه، عندما أعجزته الحيلة في ترجمة Numen، هذه العبارة: «المعبود الحقيقي جل جلاله» وهكذا ألبس نيتشه عمامة الشيخ الفاضل التقي وعرّبه تعريباً مفرطاً في تغريبته.

(٤٧) Io كاهنة من معبد هيرا، إبنة إله النهر إيناخوس ملك أرغوس . أحبها زويس لكن زوجته علمت بذلك وعندما لاحظ زويس غيرة زوجته هيرا حول إيو إلى بقرة فضيّة كي يمنع إبعادها . لكن زوجته تفطنت إلى ذلك وطلبت منه أن يقدمها هدية أو قرباناً لها، فجعلت لها أرغوس ذي المئة عين حارساً يراقبها. أشفق عليها زويس عندها وأرسل هرمس ليقتل أرغوس. وبعد أن أسكر هرمس أرغوس بألحان نايه قطع رأسه، وبذلك تمكنت إيو من الفرار وهي

على صورة البقرة، وبسبب ملاحقة هيرا لها فرت إيو عن طريق البحر (البحر الإيوني الذي سمي باسمها)، ثم بحر إيجه وبعدها عبرت البوسفور نحو آسيا، وظلت متنقلة في حالة فرار حتى وصلت مصر، حيث استعادت هناك صورتها الآدمية الأصلية بعد أن عفت عنها هيرا. يستعير نيتشه هنا صورة إيو كرمز لكيان في طور الصيرورة عبر الرحيل الدائم والتحولات التي يعرفها. (م)

(٤٨) أنظر الهامش السابق.

(٤٩) متّى ٢٤/ ٣١: «فيرسل ملائكتَه ببوقٍ عظيم الصوتِ فيجمعون مختاريه من الأربعِ الرياح من أقصاءِ السموات إلى أقصائها» - أنظر أيضاً رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثس، ١٥/ ٥٢: «...في لحظةٍ في طرفة عينٍ عند البوقِ الأخيرِ. فإنه سيُبوَّقُ فيُقام الأمواتُ عديمي فسادٍ ونحن نتغيّرُ.»

(٥٠) جوفينال الشاعر الروماني الساخر (دسيموس يونيوس جوفيناليس ٦٠- ١٣٠ ق م). بعد أن تخلى عن الخطابة، جعل من قصائده الساخرة نقداً لاذعاً للفساد الأخلاقي الذي كان سائداً في عصره.

(٥١) Contarini هو غاسبارو كونتاريني (١٤٨٣-١٥٤٢) دبلوماسي من فينيسا سيصبح فيما بعد كاردينال الكنيسة الكاثوليكية بروما. كانت أهم مآثره، إلى جانب المساهمة في إنجاز معاهدات السلام بين القيصر كارل الخامس وجمهورية فينيسيا وممالك أوروبية أخرى (إسبانيا وإنكلترا)، ترأسه لمجمع منكب على دراسة مسائل تيولوجية عالقة وإعداد برنامج إصلاح ديني للكنيسة. (م)

(٥٢) أنظر مسرحية Torquato Tasso لفولفغانغ يوهان غوته.

(٥٣) أنظر كتاب العهد القديم؛ سفر التكوين ١٣/ ٨-٩: «فقال أبرام للوط لا تكنْ مخاصمة بيني وبينك، وبين رعاتي ورعاتك، لأننا نحن أخوانِ. أليست كل الأرضِ أمامك؟ اعتزل عني. إن ذهبتَ شِمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً.»

(٥٤) سولون : شذرات ٢٢،٧

(٥٥) الذوق في معني التفكير. أنظر الهامش رقم ٢٩ (م)

(٥٦) إنجيل يوحنّا؛ الإصحاح الثاني عشر / ١٢-١٥: «وفي الغد سمع الجمع الكثير الذي جاء إلى العيد أن يسوع آتٍ إلى أورشليم. فأخذوا سعوف النخلِ وخرجوا للقائه وكانوا يصرخون أوصَنّا مباركٌ الآتي باسم الربِّ ملكُ إسرائيلَ. ووجد يسوع جحشاً فجلس عليه كما هو مكتوبٌ لا تخافي يا ابنةَ صهيونَ هوذا ملكك يأتي جالساً على جحشِ أتانٍ.»

(٥٧) عبارة يونانية قديمة تنسب إلى أريستوفان (٤٤٤-٣٨٠ ق م) وتعني كلاماً لا جديد فيه، أو حديثاً مطروقاً. يعبّر عنها في بعض اللغات بـ«خلع الأبواب المفتوحة» أو «أن تجلب ماء إلى البحر». . . (م)

(٥٨) الصوابيون/ أو الصوُاب، وبالألمانية شواب (Schwaben): مجموعة إثنية جرمانية من سكان المنطقة التي.تحمل نفس الإسم والتي تمتد على الجزء الغربي من مقاطعة بافاريا وتحدها غرباً مقاطعة بادن فيتنبارغ.(م)

(٥٩) إنجيل متى؛ ٨/ ٢٨-٣٤: «ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيّين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جداً حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق. وإذا هما قد صرخا قائليْن مالنا ولك يا يسوع يا ابن الله؛ أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟ وكان بعيداً منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى، فالشياطين طلبوا إليه قائلين إن كنتَ تُخرجنا فأْذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير. فقال لهم امضوا، فخرجوا ومضوا إلى قطيع الخنازير. وإذا قطيع الخنازير كلُّه قد اندفع من على الجُرف إلى البحر ومات في المياه. أما الرعاة فهربوا ومضوا إلى المدينة وأخبروا عن كل شيء وعن أمر المجنونيْن. فإذا كل المدينة قد خرجتْ لملاقاة يسوع، ولما أبصروه طلبوا أن ينصرف عن تخومهم.»

(٦٠) شيلر: Schiller; *Das eigene Ideal* - مثلك الأعلى الخاص- بشيء من التحوير. في الأصل:

Allen gehört,was du denkst; dein eigen/ Ist nur, was du fühlst/ Soll er dein Eigenthum sein, fühle den Gott/den du denkst.

مُلك للجميع ما تفكر به ؛ ما تحس به وحده هو ملكك ./ أتريد أن يكون تفكيرك ملكاً لك، لتحسّ بالربّ وأنت تفكّر. (ترجمة تقريبية - المترجم)

(٦١) "Gedeamus igitur" عبارة لاتينية تعني: «دعونا نفرح». غدت هذه العبارة معروفة في أغنية للطلاّب تحمل أيضاً عنوان: «عن قِصر العمر» (إن العمر قصير، فدعونا نفرح إذاً) عرفت انتشاراً كبيراً في الأوساط الطلابية الألمانية، بل تجاوزتها منذ القرن الثامن عشر لتنتشر عبر بلدان أوروبا كلها والبلدان الآنجلوسكسونية وحتى أميركا اللاتينية وتترجم إلى لغات عديدة. تعود بدايات هذه الأغنية إلى العصر الوسيط ضمن التراث الشفهي، وقد ظلت تطل بين الحين والآخر داخل النصوص الأدبية المكتوبة أيضاً. ثم ظهرت كمقطوعة موسيقية مطبوعة سنة ١٧٨٨ . وعندما حصل يوهان براهمس على الدكتوراه الشرفية سنة ١٨٧٩ اختار أن يقدم كلمة الشكر في الحفل الأكاديمي الافتتاحي بعزف أوركستري كبير لمقطوعة *Gedameaus igitur* (م)

(٦٢) الإشارة هنا إلى غوته مع شيء من التحوير في قولته. أنظر غوته، «مقولات وخواطر»، ٤٥ حيث ترد المقولة كالآتي: «أمام خصال تفوّق كبرى لشخص ما ليس هناك من منقذ غير الحب.» (Gegen große Vorzüge eines andern gibt es kein Rettungsmittel als die Liebe)

(٦٣) ليثي (Lethe) هو أحد أنهار العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية. معنى الكلمة: النسيان، وجذرها من كلمة «الخفاء» وتعني أيضاً «المخفي». كان يجري الاعتقاد بأن من يشرب من مياه ليثي يدركه النسيان قبل ولوج مملكة الأموات، ولن يتذكر بعدها شيئاً من حياته السابقة، كي يتسنى له أن يولد بعدها من جديد. ونقرأ لفرجيل في «الإنيادة»: «الأرواح التي كتب لها أن تكتسي جسداً جديداً تكرع من مياه ليثي ماء زلالاً.» (م)

(٦٤) أنظر كتاب «العهد القديم»؛ سفر التكوين: ٢/ ٩: «وأنبتَ الربُّ الإله من الأرض كلَّ شجرةٍ شهيةٍ للنظر وجيّدةٍ للأكلِ. وشجرةُ الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.»

(٦٥) إنجيل يوحنا؛ الإصحاح الأول/ ١-٥: «في البدء كانَ الكلمةُ والكلمةُ كانَ عند الله وكانَ الكلمةُ اللهَ. هذا كان في البدء عند الله. كلُّ شيءٍ بهِ كانَ وبغيرِه لم يكن شيءٌ مما كانَ. فيه كانت الحياةُ والحياةُ كانتْ نورَ الناسِ والنورُ يضيءُ في الظلمةِ والظلمةُ لم تدركه.»

(٦٦) Arthur Schopenhauer, *Parerga und Paralipomena*, II, 338

(٦٧) Jus talionis شرع طاليون، أو مبدأ العدالة الطاليوني، يعني مبدأ عدالة قائم على التوازن بين الضرر الحاصل من جناية ما والضرر المعاكس الذي يجب أن يحصل للجاني. وهو، وإن بدا مشابهاً للقانون اليهودي القديم القائم على مبدأ «العين بالعين والسن بالسن» (أنظر العهد القديم ؛ سفر الخروج: ٢١/ ٣٢-٢٥)، يختلف عنه من حيث تركيز الاهتمام على الكم والنوع في الحرص على التوازن بين الضررين(الجناية والعقاب) وليس على ضرورة أن يمس الضرر نفس الأعضاء مثلاً، وربما يكون أقرب إلى مبدأ التعويض منه إلى مبدأ الثأر بالنهاية. (م)

(٦٨) هزيود (الأعمال والأيام (شعر)- Werke und Tage/ Les travaux et les jours 11 und...

(٦٩) نيوبه ملكة طيبة في الميثولوجيا اليونانية، وابنة طانطالوس. ولد لها سبعة فتيان وسبع فتيات، فدفعها الغرور إلى التباهي والاستهزاء من ليتو وتفضيلهم على توأميها أبولو وأرتميس اللذين انتقما منها بقتل أبنائها السبعة بنبالهما ثم البنات السبع اللاتي هرعن لإنقاذ إخوتهن. (م)

(٧٠) إشارة إلى مقولة «مبدأ الوجوب القطعي» التي تقوم عليها الأخلاق لدى كنط، كما سيتضح في الجملة اللاحقة من عبارة «أخلاق النظر العقلي». (م)

(٧١) عرفت نهاية هذه الشذرة أخذاً ورداً وتحويرات متكررة قبل أن تصل إلى الصيغة الأخيرة التي جاءت عليها هنا. بداية المراجعات كانت على إثر رسالة من بيتر غاست إلى نيتشه بتاريخ ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧٩، هي الآتية: *«إن الشذرة رقم ٥٧ من الورقة التي وصلتني اليوم تنتهي بخاتمة أجد نفسي بعد قراءة أولى لا أقبل بها... وبالرغم من النهاية القوية، فإنني لا أتفق مع ما جاء فيها، أولاً لأنه ليس صحيحاً، ثم لأن استعمال عبارة «حيوان أهلي» يحتوي على رأي يبدو غير عادل تجاه المرأة، ولا هو بالفلسفي أيضاً...»* (وهذه هي الجملة التي كانت محل نقد من غاست، والتي حذفها نيتشه على إثر هذه الرسالة: «الحيوانات التي يقربها الإنسان منه ويهتم بتربيتها تغدو أكثر رقة وأكثر ذكاء أيضاً: وأول الحيوانات الأهلية التي تجسد لديه هذا التحول بمستوى أكبر من النجاح هو المرأة...»

وهنا رد نيتشه على هذه الرسالة: «شكراً جزيلاً صديقي العزيز على الإشارة. وبما أنني لا أرغب في أن يبدو ما كتبته منطوياً على احتقار ما للمرأة فقد حذفت المقطع المعني كلياً. ومع ذلك فالحقيقة هي أن الرجال كانوا في البدء يعتبرون جنسهم وحده هو الإنساني، وما زالت اللغة تدل على ذلك إلى الآن؛ كانت المرأة تعتبر حيواناً، والاعتراف بإنسانيتها يمثل إحدى أهم الخطوات الأخلاقية. أما نظرتي ونظرة عصرنا الحالي إلى المرأة فلا ينبغي أن تستعمل في شأنها عبارة «حيوان أهلي». وحكمي هنا يستند إلى الوصف الذي يقدمه هاكسلاي (*الكاتب الدارويني توماس هنري هاكسلاي*- التوضيح من كوللي ومونتيناري-) عن وضع المرأة في المجتمعات المتوحشة. بعدها سيحرر نيتشه صيغة أخرى تختلف هي الأخرى عن الصيغة النهائية التي بين أيدينا اليوم، (الفقرة الأخيرة بدءاً من «وبعض الحيوانات [السطر الخامس قبل الأخير]... حتى الآخر: «وبقدر ما يخيل للإنسان أنه يتعرف على نفسه في [الحيوان] الحيوانوات، بقدر ما يزداد مشاركة [له] لها في الألم والفرح؛ إنه يتعامل بطريقة إنسانية مع تلك التي تكون لها أصوات ونظرات بشرية [ويكون بارداً تجاه كل ما لا يشبهه]. وكل الديانات التي كانت ترى في الحيوان مسكناً لروح الإنسان والآلهة كانت توصي بحذر نبيل، بل رهبة إجلال في التعامل معه، ومن خلال ذلك جعلت الإنسان نفسه أكثر إنسانية بطريقة تبعث على الدهشة.»

(٧٢) مويرا (التي يرد ذكرها هنا في نص نيتشه في صيغة المفرد) هي في الحقيقة ثلاث ربات غازلات من الميثولوجيا الإغريقية، أو ربّات القدر: الأولى

تمسك بخيوط الحياة لكل إنسان وتتحكم بمصيره، والثانية تلف خيط الحياة حول المغزل، والثالثة تقطع الخيط لحظة الموت. (م)

(٧٣) فيليب شفارتسرتْ، أحد الذين اشتركوا في مناظرات ريغنسبورغ الكنسية (أنظر الهامش ٤٢، والفقرة ٢٢٦ أعلاه). (م)

(٧٤) *Paete no dolet* هو ما صاحت به أرّيا السيدة الرومانية باتجاه زوجها وهي تطعن بالخنجر في صدرها كي تشجعه على الإقدام على طعن نفسه وهي تراه متردداً خائفاً. وكان على زوجها سايسينا بائيتوس الذي حكم عليه الإمبراطور بالإعدام أن ينفذ الحكم في نفسه بيده. (م)

(٧٥) يبدو لي أن هناك شيئاً من الخلط بين شخصيتين وواقعتين في هذه الشذرة. فالحواري الثاني عشر الذي يشير إليه نيتشه هنا دون أن يسميه هو بولس، الذي لم يكن في الحقيقة من بين الحواريين الذين كانوا يلتفون حول يسوع(وهم أحدى عشر حوارياً)، بل كان من ألد أعداء تلامذته الذين ذاقوا الويلات على يديه، وذلك قبل أن يشهد تحوله المفاجئ، من شاولس إلى بولس ويشرع في الدعوة إلى المسيحية ويؤسس أول كنيسة في أفسس، وهو ما لم يدع له لا يسوع ولا تلامذته من بعده.

غير أن عبارة الصخر(«أكثر صلابة من الصخر») قد تشير إلى ما جاء على لسان يسوع (أو روحه) مخاطباً بطرس، لما جاء إلى نواحي قيصرية فيلبس، في إنجيل متى الإصحاح السادس عشر/ ١٨ :«وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبوابُ الحجيم لن تقوى عليها.» (م)

(٧٦) صيحة استغاثة (أو عتاب؟) يسوع على الصليب، أنظر متّى: ٤٦/٢٧: «ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم إيلي إيلي لِمَ شبقْتني، أي إلهي إلهي لماذا تركتني.»

(٧٧) متّى: الإصحاح الثامن عشر/ ٩ : «وإن أعْثرتْك عينكَ فاقلعها والْقِها عنك. خيرٌ لكَ أن تدخلَ الحياة أعورَ من أن تُلقى في جهنمّ النارِ ولك عينان»

(٧٨) هو يوهان باول فريدريش ريشتر (١٧٦٣-١٨٢٥) ويعرف باسم جون بول كاتب ألماني قد تأثر بروسو وسويفت وشتيرن. عاش حياة عوز ولم يستطع كتابة أهم مؤلفاته إلا عندما كان يحصل على خطة معلم يكسب منها قوته. (م)

(٧٩) (٣٨٤-٣٢٢) سياسي وخطيب يوناني. حرض أثينا على مقاومة فيليبس المقدوني بخطب مشهورة تعرف بـ: «الفيليبيّات» (م)

(٨٠) صياغة أولية لهذه الجملة الأخيرة: « غياب مثل هذا العنصر الرياضي

(substratum) ينبئ بما هو غير فنيّ فيها. (لدى الإنسان أيضاً). إن عناصر التناسب البسيطة والواضحة هي التي تكوّن الشخصيات متينة الطبع.»

(٨١) أنظر رسالة غوته إلى كارل فريدريش تسالتر (Carl friedrich Zelter) بتاريخ ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣١: «*أما فيما يتعلق بالتراجيديا فتلك نقطة حساسة لدي. فأنا لم أجعل لأكون شاعراً تراجيدياً، بحكم طبيعتي الوفاقية، ومن ثمة فإن الحالة التراجيدية الخالصة لا يمكنها أن تهمني، لكونها في أساسها لا تستطيع أن تكون وفاقية بالمرة، وبالتالي فإن ماهو غير قابل للوفاق في هذا العالم السطحي للغاية بالمناسبة، يتراءى لي أمراً لا معنى له.*»

(٨٢) يذكرنا هذا الكلام (حرفيّاً) بما قاله الجاحظ في البيان والتبيين من نصح بالابتعاد عن الشاذ والغريب الوحشي وكل تقعر وتكلف. أو ما عبر عنه بتلك الجملة الرائعة: «البيان هو ما ظن الجاهل أنه قادر على الإتيان بمثله.»

(٨٣) أنظر غوته: توركواتو طاسو/ المشهد الخامس(الأخير)

(٨٤) نجد في الفكرة المتعلقة بالحرية في القيود، في هذه الشذرة كما في الشذرة ١٥٩ من «الجوال وظله»، آثاراً واضحة لفولتير. أنظر «الرسائل المختارة» Voltaire, *Lettres choisies*, par Louis Morand, Paris 1876 المجلد ١، ٤٢٦ - من رسالة إلى الإيطالي ديوداتي دي طوفازي، بتاريخ ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٧٦١: «...ترقصون في حريتكم ونحن نرقص في قيودنا...» هذا الموقع، كما يؤكد ذلك كوللي ومونتيناري، قد علم عليه نيتشه بصفة بارزة واضعا سطرين تحت عبارة "*chaînes*" (القيود).

(٨٥) فوغا: Fugua أو fugue بالفرنسية، وتعني لغة: الهروب/ الفرار، وهي في الموسيقى مصطلح لتسمية أسلوب موسيقي قائم على تواتر/ تلاحق تنويعات متعددة لجملة موسيقية، أو لحن مع لحن مضاف(نغمة معاكسة، كجواب على النغمة الرئيسية: Contrapunkt/ contrepoint، مع تغيير مطرد في ترتيب العناصر المكونة للجملة الموسيقية المعاكسة/ المضافة). هذه محاولة مبسطة جداً، أبعد ما يكون عن الدقة لتعريف مصطلح Fugua وهذا الأسلوب الموسيقي المعقد الذي برع فيه بصفة خاصة يوهان سيباستيان باخ وطوره ومضى فيه إلى أقصى ما تمنحه إمكانيات التركيبات المتنوعة والمتبدلة بصفة مطردة. لم أجد في القواميس العربية التي تصفحتها تعريفاً لهذا المصطلح أو مرادفاً له بالعربية. وقد اكتفى قاموس المصطلحات الموسيقية بعبارة «فوغا» دون تعريب لها. فاضطررت إلى الاعتماد على تعريفات القواميس الألمانية والفرنسية لمحاولة تقديم هذا التعريف العمومي. (م)

(٨٦) تم تغيير طفيف على هذه الجملة التي وردت في البداية كما يلي: «من لا

يرى ما يجري فوق الخشبة سيجد موسيقى فاغنر لغواً لا طائل من ورائه.»
«ومن له عينان فليسمع»- أنظر متّى ١١/ ١٥ : «من له أذنان للسمع فليسمع»

(٨٧) Euterpe ربة إلهام الشعراء الغنائيين.

(٨٨) كريستوف فيليبالد غلوك(١٧١٤-١٧٨٧٩)مؤلف مقطوعات أوبرا : Orfeo ed Euridice, Alceste, Ipheginie en Aulide..... (م)

(٨٩) نيكولو بيسيني، ويسمى كذلك نيكولا مارسيلو أنطونيو جياكومو بيسيني (١٧٢٨-١٨٠٠-باريس)مؤلف موسيقي إيطالي، أهم أعماله كانت في الأوبـــــرا: La buona figliuola, Didon, Atys; Iphegenie en Tauride; Roland, Penelope

(٩٠) نقرأ في مسودات نيتشه N IV 2, 27 هذه الصياغة الأولية: «إن المجرم، وهو يضطرنا إلى إجراءات الدفاع الشرعي عن النفس، يعود بنا مرغمين إلى المستويات الأكثر بدائية من تاريخ الحضارة؛ فاللص يجعل منا سجّانين، والقاتل يجعل منا قتَلة... إلخ. إن القانون الجنائي يمضي بنا انحداراً عبر كل مستويات تاريخ الحضارة.»

(٩١) متّى؛ ١٢/ ٣٠: «من ليس معي فهو عليّ، ومن لايجمع معي فهو يفرّق»

(٩٢) إشارة إلى «قيامة يسوع» بعد ثلاثة أيام من صلبه (م)

(٩٣) Pyrrhon (٣٦٠- ٢٧٠ ق م) أول فلاسفة اليونان الريبيين. عُرف بإنكاره مقدرة الإنسان على المعرفة. (م)

(٩٤) يذكر نيتشه هنا ستة كتّاب فرنسيين يقول إنهم أوروبيون حقيقيون ويعتبرهم أقرب الكتاب من مفكري وأدباء العصور العتيقة بما أنهم هم الذين أحيوا روح القرون الأخيرة من تلك العصور . (م)

(٩٥) Albrecht Dürer رسام وعالم رياضي ومنظّر فني ألماني من القرن الثامن عشر. أحد أهم الفنانين البارزين في الفن في عصر الإنسية وحركة الإصلاح. (م)

(٩٦) صياغة أولية لهذه الجملة الأخيرة نجدها في مخطوطات (N IV 3,31) كما يلي: «على أميركا أن تقبل بأن يتم تصنيفها من ضمن البلدان الأوروبية ؛ فهي في كل المجالات الذهنية مستعمرتنا، أوروبتنا الفتيّة. وليس هناك اليوم من شيء في العالم اليوم اسمه فكر أميركي، فالفكر أوروبي فقط-(ولم يعد هناك من فكر آسيوي أيضاً-) ، لكن ما من فكر أميركي بعد. . . .

(٩٧) لنقارن بما يكتبه بالمقابل ريتشارد فاغنر في *الفن الألماني والسياسة الألمانية* : «سلام عليك يا شيلر، أنت الذي منحت ميلاد الروح الجديدة جسداً في

«الفتى الألماني»، الذي باعتداد واحتقار ينتصب مواجهاً للكبرياء البريطاني وللغواية الحسية الباريسية.»

(٩٨) الفيلسوف الفرنسي كلود أدريان هلفيتيوس(١٧١٥-١٧٧١) أشهر مؤلفاته «عن الفكر» *De l'esprit* - الذي تمت مصادرته وحرقه في ساحة عمومية. ومنذ تلك الواقعة لم ينشر شيئاً وترك عند وفاته مؤلفاً بعنوان: *De l'Homme, de ses facultés intellectuelles et de son éducation* (*عن الإنسان وملكته العقلية وتربيته*). (م)

(٩٩) الرسالة المذكورة قد كتبها فولتير لفريدريش الأكبر من تورناي Tourney (وليس فرناي كما كتب نيتشه) بتاريخ ٢١ نيسان/ أبريل ١٧٦٠ . أنظر الرسائل المختارة لفولتير *Lettres choisies de Voltaire*, par Louis Morand, Paris 1876, Tome 1, p393 et suivantes

(١٠٠) إشارة إلى يسوع المسيح مرة أخرى؛ أنظر إنجيل مرقس : ١٠/ ١٤: «دعوا الأولاد يأتون إلي ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماء».

(١٠١) الإشارة هنا إلى موسى والوصية السابعة من الوصايا العشر. أنظر كتاب العهد القديم؛ سفر خروج: الإصحاح ٢٠/ ١-١٧ (م)

(١٠٢) الفضائل الأربعة الأساسية (الأقطاب)التي تدور حولها بقية الفضائل، وهي: الحكمة، والعدالة ، والشجاعة، والاعتدال.

(١٠٣) متّى ؛ ٧/ ١: «لا تَدينُوا لكي لا تُدانوا» (م)

(١٠٤) عبارة لشيشرون: Ciceron, Catilinaria, I, 1: "*Quo usque tandem abutere, Catilina, patientia nostra?*" ومعناها: «*إلى متى ستظل تستغل صبرنا، يا كاتيلينا؟*» وهذه الجملة التي ذهبت مثلاً، مأخوذة من بداية الخطبة الأولى من مجمل ٤ خطب ألقاها شيشرون في مجلس الشيوخ الروماني ضد كاتالينا. وكاتالينا هذا رجل سياسي روماني عرف بمؤامراته المتكررة. (م)

(١٠٥) عبارة من اللاتينية تعود إلى فرجيل. هناك اختلاف في تفسيرمعناها. وأكثر التفسيرات تداولاً، وربما أقربها إلى الصحة هي: «أنا أيضاً كنت في أركاديا» التي حلت محل التفسير الأول: «وفي أركاديا كنت أيضاً». ظهرت هذه العبارة لأول مرة فوق لوحة تحمل نفس الإسم للرسام الباروكي الإيطالي جيوفاني فرنسيسكو باربييري من القرن السابع عشر. وتجسد اللوحة مشهداً طبيعياً بمجموعة من الرعاة يتأملون جمجمة فوق تابوت، وقد كتبت من ورائها عبارة Et in arcadia ego . من هنا جاء التأويل الأول

للعبارة «وفي أركاديا كنت حاضراً أيضاً» وكأن العبارة هنا تنطق بلسان الموت الذي يحذر الرعاة المغمورين بسعادة الحياة داخل المشهد الطبيعي الساحر بأن هذا المكان الفردوسي أيضاً لا يفلت من الموت.

من بعدها سيجسد الرسام الفرنسي نيكولو بوسان (Noccolo Poussin) هذه الفكرة في لوحتين مختلفتين عن الأولى وعن بعضهما أيضاً في تجسيد المشهد وديناميكية الحركة، وبعض جزئيات ذات دلالات بعينها مثل العتمة أو اللون المشع للسماء الصافية، سيطرة اللون البني في اللوحة الأولى، وإشعاع الألوان الحارّة البهيجة في الثانية، أغصان الغار في خلفية اللوحة، وإكليل الغار على رأس الراعية... إلخ لكنهما تشتركان في وجود الرعاة الذين يتأملون جمجمة أو شاهدة قبر خطت عليها نفس الجملة . يظل الاختلاف قائماً في ما يتعلق بمن تحيل إليه العبارة: أهو الموت الذي ينطق من خلالها، أم الميّت، أم الرسام؟ (م)

تظهر العبارة عند شيلر في قصيدة: *Resignation*

"Auch ich war in Arkadien geboren,

Auch mir hat die Natur

An meine Wiege Freude zugeschwore;"

(أنا أيضا وُلدت في أركاديا/ أنا أيضاً قد أقسمت الطبيعة على مهدي/ عهداً لي بالسعادة)

أما غوته فقد جعل من جملة «*أنا أيضاً في أركاديا!*» شعاراً لرحلته الإيطالية في البداية، ثم تخلى عنه فيما بعد، كي تظهر العبارة مرة أخرى فيما بعد في نص عن رحلته الفرنسية: «أنا أيضاً في شمبانيا!»

يبدو على أية حال أن نيتشه قد وجد ضالّته في هذه العبارة الغامضة والتي كان حول تأويلها خلاف كبير وجدل اشترك فيه النقاد الفنيون والفيلولجيون والفلاسفة. ربما ذلك الضوء الغسقي للفكرة التي يفتنها الالتباس أكثر من الوضوح واليقين والمعنى الواحد الثابت هو ما يفتن نيتشه في هذه العبارة، مع أنه لم يفوّت فرصة للقيام بإيماءة -خجولة؟ ماكرة؟ - وهو يشير إلى بوسيني في آخر الفقرة ثم يختتم بذكر أبيقور.

ربما يكون تأويل نيتشه أقرب إلى ذلك الذي ذهب إليه هردر الذي يستشهد بهذه المقولة في مؤلفه *Ideen zur Philosophie der Geschichte* حيث نقرأ: «أنا أيضاً كنت في أركاديا هي المقولة التي تخط على شاهدة قبر كل الأحياء الذين لا يكفّون عن التحول، والإبداع الذي لا تنقطع خصوبته.»(م)

(١٠٦) أنظر الهامش السابق.

(١٠٧) أنظر لوقا ١٠/ ٤١، ٤٢: «فأجاب يسوع وقال لها مرْثا مرْثا أنتِ تهتمّينَ وتضطربينَ لأجل أمورٍ كثيرةٍ. ولكنّ الحاجةَ إلى واحدٍ. فاختارتْ مريم النصيبَ الصالح الذي لن يُنزع منها.»

(١٠٨) Nil admirari أو ما معناه «عدم الدهشة من أي شيء»، أو أمام أي شيء، ويقال إنه جواب فيثاغورس عندما سأله أحدهم أي شيء قد اكتسب من خلال تأملاته. ويعتبر ديموقريطس أيضاً عدم الدهشة أمام أي شيء (Athaumasie) أرقى ميزة عقلية وعلامة اكتمال الحكمة. (م)

(١٠٩) أنظر «هكذا تكلم زرادشت»: أغنية لليل. (م)

(١١٠) أنظر إنجيل لوقا، ٢/ ١٤: «وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوي مسبّحين لله وقائلين المجدُ لله في الأعالي وعلى الأرض السلامُ وبالناس المسرّة». لابد أن أشير هنا إلى أن كل الهوامش التي تتضمن استشهادات من الأناجيل قد اعتمدت فيها على النسخة العربية المترجمة عن اللغة الأصلية، حسب ما يشار إليه في صفحة الغلاف الداخلية. ويعتمد نيتشه كما هو واضح ترجمة لوثر التي ترد فيها بعض الانزياحات عن النسخ الأخرى، ومن بينها النسخة العربية التي اعتمدها.

(١١١) في نهاية هذه الشذرة يكتب نيتشه لصديقه بيتر غاست، المعروف أيضاً تحت إسم كوزيليتس (Mp XIV 2,52): «مرحى! أي صديقي كوزيليتس ههنا شيء يسمى «تلخيصاً نهائياً!» . وفي نسخ مختلفة من المسودات والمخطوطات الأولية نجد صياغات أخرى أجرى عليها نيتشه تعديلاته فيما بعد كي تنتهي إلى الصياغة النهائية التي بين أيدينا الآن؛ نجد مثلاً في المخطوطة المعلّم عليها في الأرشيف بشفرة: N IV 3,36: «سيكون بإمكاننا إذاً أن نعد نحن أيضاً، ومن دون ربّ في الأعالي: سلام على الأرض وغبطة تسود بين الناس.»

المحتويات

هذا الكتاب

المثاليُّ شخصٌ متعذرٌ على الإصلاح: إن طُرد من جنّته جعل لنفسه من الجحيم عالماً مثالياً. لنخيّبْ أملَه، ولْنرَ! -سيحتضن الإحباطَ بشبق لا يقلّ حرارة عن ذلك الذي كان يحتضن به أمله قبل قليل. وبما أن ميله هذا ينتمي إلى أكثر أنواع الميول البشرية تعذّراً على العلاج، فإنه يمكن أن يُفضي إلى مصائر مأساوية ويغدو بعدها موضوع أعمال تراجيدية؛ إنه ينتمي من هذه الناحية إلى ما لا علاج له، ولا مردّ له ولا مفرّ منه في مصير الإنسان وطبعه.

ISBN 978-9933350987

9 789933 350987